الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

دبابة تحت شجرة عيد الميلاد

الملهاة الفلسطينية

رواية



دَبَّابةٌ تَحتَ شَجَرةِ
عِيد الميْلاد

دبابة تحت شجرة عيد الميلاد: رواية

الطبعة العربية الأولى: كانون الثاني/ يناير 2019م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3659-2

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

الغلاف: من تصوير كريمة عبود، رائدة التصوير النسوي في فلسطين (1893-1940). حكايتها في رواية (سيرة عين)

تصميم الغلاف: **الفنان محمد نصر الله**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس،** بيروت - هاتف (+9611) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم،** بيروت - هاتف (+9611) 786233

IBRAHIM NASRALLAH
A TANK UNDER THE CHRISTMAS TREE

إبْراهِيْم نَصْر الله

دَبَّابةٌ تَحتَ شَجَرةِ عِيد الميْلاد

ثلاثية الأجراس

رواية

الملهاة الفلسطينية



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

* استندت هذه الرواية إلى الواقع، لكنها بنيت بالخيال، سواء ما تعلّق بالأحداث أو الشخصيات.

* أسماء الشخصيات والعائلات غير حقيقية، وإذا ورد تشابه بينها وبين شخصيات حقيقية، فذلك بمحض الصدفة.

* اسم الشخصية وكنيتها، حيثما وردا في الرواية، وضِعا في حالة رفع.

تقع بيت ساحور جنوب مدينة القدس بحوالي اثني عشر كيلو متراً، وإلى الشرق من مدينة بيت لحم بحوالي كيلومترين. وقد تلاقت أبنيتهما اليوم فاختفت الحدود بينهما.

وتمتد أراضي بيت ساحور شرقاً إلى سهل الرعوات (نسبة إلى الرّعاة الذين بشّرهم الملائكةُ بمولد السيد المسيح قبل أكثر من ألفي عام) ومنطقة اسطيْح حتى المنطقة المسمّاة عش غراب.

أمّا تسمية بيت ساحور فقد جاءت من كلمة ساهور وهي كلمة آرامية تعني الساهر أو الرّاعي، بينما يقول آخرون إنّ كلمة ساهور جاءت من كلمة ساحر أو مُنجِّم، أي أنّ المكان كان موقعاً وملاذاً للسحرة والمنجّمين.. كما يقول الدكتور توما بنّورة، بينما يقول البعض الآخر إنّ الرعاة سُحروا في هذا المكان بظهور النجم والملائكة المبشرين بمولد السيد المسيح في مدينة بيت لحم.. حيث قادهم النجم إلى المغارة التي ولِد فيها المسيح.. ومن هنا جاءت التسمية...

فصول الرواية

ليَالي الأُنس

ليالي الأُنس في القدس!

عام 1943 التقتْ مَرْتا (البلبلَ الصدّاح) فريد الأطرش الذي كان يقوم بزيارة لفلسطين، صحبة الفنانة تحية كاريوكا.

كان فريد الأطرش في مقتبل شبابه، ولم ترَ فلسطين استعدادات لحفلة غنائية كحفلته تلك، إلا استعدادات جولة أم كلثوم في عدد من المدن الفلسطينية التي سبقته بأعوام.

تنحدر مرْتا من عائلة مقدسية غنية، وهذا ما أتاح لها حضور ذلك العشاء الفخم الذي أقيم في فندق الملك داود.

لم يغنّ فريد في تلك الليلة، كان اللقاء جزءًا من الترويج لحفلة سينما (عين دوْر) في حيفا.

أسرّ وليم أفندي، والد مرتا للفنان الضيف أن ابنته تمتلك صوتًا جميلا لا مثيل له في فلسطين كلّها! وكبادرة لُطف من الفنان الضيف، قال لأبيها: إنت مخبّيها فين؟

فأجاب وليم أفندي، وقد وقَع أسير اللهجة المصرية الجميلة: مش أنا والله، ده جوزها هو اللي مخبّيها!

* * *

على بعد طاولتين كانت طاولة إسكندر ومرتا. انحنى والدها وهمس بضع كلمات في أذن إسكندر، الذي هزّ رأسه وهو يلتفت نحو زوجته.

- القرار قرارها!

- أيّ قرار؟ سألت مرتا.

مال أبوها نحوها وهمس في أذنها.

- مستحيل! قالت، والتفتت نحو زوجها.

- القرار قراركِ.

كانت مرتا متوسطة الجمال، لكنها ذات حضور استثنائي، سواء بلباسها المتأثِّر بموجة الأزياء السائدة في فرنسا، تلك الأيام، أو بتسريحة شعرها التي تعطي وجهها استدارة طفولية آسرة.

متردّدة نهضت، يسبقها أبوها ويتبعهما إسكندر.

صافحتْ فريد، انحنى لها بأدب جمّ، وهو يدعوها للجلوس.

أخذتْ مرتا مكانها في الجهة المقابلة لمقعد الضيف، عدّلتْ جلستها خمس مرات على الأقل، وهي تستعرض وجوه الجميع الذين صمتوا فجأة.

لم يكن حضور فريد الأطرش هو ما يخيفها، فهي تعرف أنه سينساها ما إن تنهض من مكانها! ما كان يخيفها ما ستتناقله الألسُن عنها، ومبالغات البعض التي يمكن أن تصل إلى: أن أباها أقام حفل العشاء على حسابه، فقط ليتيح لها الغناء أمام هذا النّجم!

في محاولة لإعطائها جرعة شجاعة، قال فريد: إن كنتِ مش عايزة تغنّي من غير عود ح أقوم وأجيب العود بنفسي من غرفتي.

شكرته مرتا، وقالت: ممكن أغني على البيانو الموجود هنا!

- ومين إللي ح يعزف؟

- أنا؟ ردّت باقتضاب، ما جعل الضيف يهزّ رأسه إعجابًا، وعيناه تبتسمان.

- وكمان بتعزفي؟!

لم تُجب.

نهضت، فتبعها الجميع.

أخذت مكانها أمام البيانو، اتكأ فريد على الجانب الأيمن منه، بما يذكِّر بمشاهد السينما في تلك الأيام.

وضعتْ طرف منديلها الأزرق السماوي المطرّز بالحرير على فمها، مُخفِية شفتيها، وتنحنحت بلطف شديد، فازداد الصمت.

التفتت نحو إسكندر، فهزّ رأسه مشجّعًا:

- إللي عايزة تغنيه غنّيه، إحنا مش ح نطلب منك أيّ غنوة إن كنت ما بتحبهاش!

فكّرت مرتا قليلا، ووجدت أن من اللياقة أن تغني أغنية تعني الضيف: سأغنّي لأسمهان.

- بس مش لأنها هيَّ أختي!

ضحكوا، وضحكت بخجل: أبدًا والله!

- بقى دي الوقتي نعرف إيه هي الغنْوة.

- (يا إللي هواك شاغل بالي)، من شعر الأستاذ أحمد رامي..

قاطعها فريد: طبعًا! ومن ألحان حضرتي، وعايزة تقوليلي إنك مش بتجامليني.

ضحكوا أكثر، لملمت ابتسامتها.

عادت واستعرضت الوجوه حولها. وضعت طرف منديلها ثانية على شفتيها، لكن أحدًا لم يستطع سماع تلك النّحنحة المكتومة. أغمضت عينيها، وانطلقت تغني.

بعد أقل من دقيقة، لم يكن هناك سواها، كان صوتها يتصاعد عذبا، قويا، مؤثرا، حتى أن بعض من تبادلوا الهمسات الساخرة، قبل غنائها، بدوا مبهورين تماما:

يللي هواك شاغل بالي

وفي غرامك أنا ياما قاسيت

ضحّيتلك حبي الغالي

وفْ بعدك يوم ما اتهنّيت

.. وقبل أن تنهي الكوبليه، كان المطعم كلّه قد تحوّل إلى ساحة للصمت..

تصاعد صوتها وهبط، تقدَّم وعاد، تموّج مثل بحر ورقّ كجدول. تسمّرت عينا الفنان الضيف على وجهها، لم يعد قادرًا على التقاط أنفاسه لفرط دهشته. كان لا بدّ أخيرًا من أن تصل إلى نهاية الأغنية، لكن كل من هناك تمنى أن لا تكون للأغنيات الجميلة أي نهايات.

روحي وروحك متّفقين

وفؤادي عالحب أمين

فرَّقنا لوم اللايمين

وحرمني من اللي تمنّيت

يا واحشني وتايه منّي

على عيني بُعدك عني

ده زماني كذِّب ظني

وحارمني من قولة: يا ريت

ياللي هواك شاغل بالي..

مرّ وقت طويل قبل أن تفتح مرْتا عينيها، كانت قد غدت في مكان آخر.. لم يصفّق أحد، كانوا يحدّقون إليها كما لو أن ملاكا هبط أمامهم. وامتدّ الصمت دقيقة كاملة، دقيقة لا تشبهها أي دقيقة أخرى من دقائق الزمن المتدفّقة بمعنى وبلا معنى. فتحت عينيها، وابتسمت كملاك أيضًا. رفع الفنان الضيف يديه في الهواء، وقال: يا ريت كنت بقدر أصفقلك بعنيّا وقلبي مش بإيديّا! وراح يصفق بحماسة أدهشت الجميع.

عاد الصمت من جديد. قال فريد: إذا جيتي معايا مصر، بعد إذن إسكندر بيه طبعًا والسيد الوالد، أنا بتعهّد من الليلة دي إنك تكوني نجمة النجمات. وتصفّح وجوه الجميع، وأضاف: وحتى تتأكّدوا من كلامي، أنا لحنت أغنية اسمها (ليالي الأُنس) ما حصلتش زيّ ما بنقول، وحتكسّر الدنيا، ومش بس كده، أنا ح راهن إنها ح تعيش 100 سنة جاية. المفروض إنها تكون لأسمهان، لكن أنا بوعدكم، الأغنية دي ح تكون أغنية مرتا! وأنا مش عايز منها سوى إنها تعاهدني تيجي مصر، والعهد بس كلمة واحدة تقولهالي: موافقة!

حطّت العيون على وجه مرتا مثل مئات من طيور تهبط على حافة نهر.

- إللي بقوله مش مجاملة أبدًا، قال فريد، أنا طول عمري مش ح أنسى ديْن فلسطين في رقبتي، مش ح أنسى إن أول لحن وصّلْني للناس هو لحن أغنية (يا ريتني طير لأطير حواليك) للموسيقار الفلسطيني العظيم يحيى اللبابيدي إللي بحييه الليلة، وصفق فريد، فنهض اللبابيدي وحيّا الحاضرين، وأكمل فريد: لحنك ده يا أستاز يحيى اختصر عشر سنين من رحلتي على شان تعرفوني، وأنا بوعِدك يا مدام مرتا إني ح اختصر عشر سنين من مسيرتك، وتكوني مشهورة من أول أغنية ح تغنيها.

صاعقًا جاء عهد فريد، فارتفعت الهمهمات حتى تحوّلت إلى ضجيج. صفّق فريد ثانية داعيًا الجميع للصمت، وقال: يا أستاذ يحيي إزاي موهبة زي دي تفوتك؟!

- بس لأني ما اسمعتهاش قبل كده! بس بوعدك، إذا وافقت تغني من بكرة ح نبتدي مشوارنا في إذاعة فلسطين، قال اللبابيدي الذي مات بعد أيام قليلة من تلك السهرة!

* * *

في تلك الليلة، ارتجف قلب إسكندر خوفا؛ كان على يقين من أنه فقدها إلى الأبد، فمن يستطيع أن يقول: لا لمصر، إذا ما أحبته مصر إلى هذا الحدّ؟!

عدوى الموت

بدأت حكاية إسكندر ومرتا بعد عودته، في نهايات الحرب العالمية الأولى من الجبهة الروسية، إلى فلسطين، سيرًا على الأقدام عبر تركيا، سالكا المناطق المحاذية لكارز، أرضوم، ديار بكر، أورفة، ثم بعدها عبر سوريا قاطعا نهر الفرات إلى حلب. في زحلة بلبنان، أمضى عدة أيام، قبل أن يتوجه جنوبا إلى فلسطين. عرف إسكندر ابنة خالته، مرتا، طفلةً، ولم يخطر بباله يوما أنها ستكبر. حسٌّ عميق لا يعرف له تفسير كان يجعله يحسّ بأنها ستبقى طفلة! ولذا لم يحزن على فراقها حين قرر والدها الهجرة، لأسباب كثيرة، إلى البرازيل، ما إن احتلّ الإنجليز فلسطين. كانت تربط والدها علاقة قوية بعدد كبير من رجالات الدولة العثمانية، وانتابه إحساس قوي بأن الإنجليز سيعاقبون كل من كان قريبا من عدوِّهم المهزوم.

يتذكر إسكندر زيارة مرتا وأمها لتهنئته بالعودة.

في ذلك اليوم وجد والد مرتا عذرًا للتهرّب من الزيارة. تفهّمت زوجته ذلك، وإن لم تكن سعيدة بتصرّف زوجها.

مُنهكًا كان إسكندر، الذي حارب في صفوف الجيش العثماني، بعد أن اقتادته الدولة رغما عنه ليكون جنديا. منهكا رغم مرور ثلاثة أسابيع على عودته، أمضى معظمها نائما. غارت عيناه داخل جمجمته، وبدا نحيلا كنبع على وشك التلاشي؛ ولذا، لن يستطيع استحضار وجه مرتا الصغيرة مهما حاول فيما بعد!

صورة إسكندر انطبعت في ذهن مرتا القادمة من القدس، المدينة الكبيرة، إلى بيت ساحور، القرية الصغيرة، حتى أنها حين صافحته، انتابها شعور مخيف بأنها تصافح شخصًا ميتًا. سحبت

يدها بسرعة، وبقيت عدة أسابيع خائفة من أن تكون أُصيبت بعدوى الموت!

راحت مرتا توجّه السؤال تلو السؤال حول إسكندر.

في البداية سألت: هل هو ميت؟

- الشرّ بعيد!

- هل سيموت؟

- الشرّ بعيد! صرخت في وجهها أمّها وقد تمادت.

لم تنزعج مرتا من غضبة أمها. ذلك طمأنها: ما دام إسكندر حيًّا فلن تموت هي!

ستُحدّثُ إسكندر بكل ذلك بعد زواجهما وهي تضحك؛ أما بعد خمسين عامًا، فإنها ستدّعي أنها لا تتذكر شيئا مما قالته.

في تلك الأيام، خطر ببال مرتا أنها إذا صافحت أكبر عدد من الأحياء، فإنها ستتغلّب على عدوى الموت وتنجو. راحت تصافح أباها، أمّها، أخوتها، الجارات، الجيران، الصديقات، المارّة في الطرقات، أصحاب الدكاكين، طالبات الصف الخامس الابتدائي، المعلمات والمديرة، ولكي تكون أكثر اطمئنانا لم تترك كائنا حيًّا إلّا واحتضنته: الدجاج، الحمام، الأرانب. ربّتت على كلّ حمار أو حصان أو ماعز رأته، وربضت فوق السطح محاولة الإمساك بطيور الدّوري لتمسِكها، تداعبها وتُطلِقها.

شهران كاملان مرَّا، وهي على تلك الحال، إلى أن سمعت أمها تقول، إن إسكندر قرر أن يصبح راهبا.

- هل عاش؟

- عاش. حضرتك فرحانة ولّا زعلانة؟

لم تجب مرتا، وعندما عرضت عليها أمها أن تذهبا لبيت ساحور لعيادة إسكندر، بدت متحمسة بصورة أدهشت الأم.

* * *

في الطريق إلى بيت ساحور عاد القلق يهزّ قلب الصغيرة، كانت تخشى أن يكون قد مات، وأن أمها تخفي الخبر عنها.

- لو مات، لجاء أبي معنا! فكّرت، وراقبت وجه أمها الجالسة إلى جابنها في الكرسي الخلفي لسيارتهم الخاصة التي يقودها سائق خاص؛ بدت أمها سعيدة ومطمئنّة.

رغم ذلك كلّه، سارت مرتا على بعد أربع خطوات من أمها ما إن ترجّلت من السيارة في شارع بيت أهل إسكندر، وظلت محافظة على تلك المسافة، إلى أن رأت أمها تصافح ذلك الميت الحيّ الذي قام بفرح يستقبلهم، ويُقبِّل يد خالته القادمة من القدس.

قطعت مرتا الخطوات الأربع، مدّت يدها بسرعة إليه وصافحته، وشدّت على يده وكأنها تريد أن توصل رسالة خفيّة له، حيّره هذا، أو كما لو أنها تتخلّص، إلى الأبد، من مصافحةِ الموت التي أرّقتها طويلا!

انحنى إسكندر، وقبّل رأس مرتا، فسرَّها أنه فعل ذلك: مصافحة حياةٍ وقبلة حياةٍ، تجعلان الأمر أفضل.

* * *

لم ير إسكندر مرتا قبل توجّهها من القدس إلى حيفا حيث الباخرة التي ستنقلهم إلى جزر الكناري، قبل أن يواصلوا الرحيل بباخرة أخرى باتجاه أمريكا اللاتينية، ولم تخطر مرتا بباله طيلة سنوات الغياب في تلك البلاد البعيدة، كل ما ظل يتذكّره مصافحتها الغريبة القويّة له!

لا شكّ أن انشغاله بالذهاب إلى القدس للانضمام للدّير، أنساه ملامح ذلك الوجه الصغير، وهو يتابع صراع الفلسطينيين مع قيادة الكنيسة الأرثوذكسية، بسبب تفرّد القيادة اليونانية للكنيسة بكل مقدّراتها ومناصبها العليا.

أما ما كان يشغله أيضا فهو قدرته على البقاء حيًّا، وكيف استطاع، على قدميه، أن يقطع تلك المسافات وحيدًا، لا تؤنسه سوى شتلة الدرّاق التي رآها في أحد بساتين أواسط تركيا، فحملها. وما إن أصبحت بين يديه حتى غدا هدفه الأكبر أن يوصِلها حيّة إلى بيت ساحور.

عطِشَ وأسقاها، قطَّع البردُ أطرافه ودفأها، جلس تحت الشمس وحماها بظلّه، جاع، ولم يخطر بباله لحظة أن يأكلها! تماما كما لا يمكنه التفكير بالتهام أصابعه أو ما تبقى من لحم ذراعيه.

أن تموت تلك الشتلة، فإن ذلك يعني أنه التالي.

* * *

أبوه قال له: من الصعب عليّ أن أقول لك لا تصبح راهبًا، ولكنني أرجو ألا تفعل مع قيادة كنسية كهذه، كل ما سيحدث أنك ستكون خادمهم، أكثر مما ستكون خادمًا للربّ. إسكندر، قد تستغرب ما سأقوله لك، ولكنني سأقوله: لقد كانت رعايتك لتلك النبتة التي لم تتركها تموت عطشا، أو برْدًا أكثر الصلوات خشوعا وصدْقا! لم ينقذك الربّ لكي تذهب خادما لهؤلاء، أنقذك لأنه رأى رحمتك على ما خلق.. إسكندر، هل خطر ببالك أنك حين ستمضي للانضمام إلى الكنيسة، فإن عليك أن تخترق جماهير الناس التي تتظاهر ضد قيادة تلك الكنيسة، لتنضمّ إلى أعداء شعبك؟! أرجوك، فكِّر في الأمر، وجِدْ لك طريقا أقرب للسماء، من ذلك الطريق الذي تفكّر في المضيّ فيه!

كان إسكندر قد سمع الكثير من العِظات، لكن تلك العِظة التي سمعها من أبيه الأُميّ، ستبقى الأعمق أثرًا.

* * *

بدأت علاقة إسكندر بذلك الدّراق حين وصل إلى طرف ذلك البستان شبه ميت، فأكل من تلك الثمار حتى كاد يموت تخمة، الثمار التي وجدها أطيب ثمار تذوّقها في حياته. هل كان الجوع هو السبب؟ إسكندر تأكد بعد سنوات أن الجوع لم يكن السبب أبدًا، فكلّ مَن تذوّق ثمار بستانه، شهق كما لو أنه يعود للحياة في تلك اللحظة!

في الطريق الطويل خطرت لإسكندر فكرة غريبة: أنه لن يصل أبدًا، سيضيع، وأن الشتلة ستكبر، تصبح شجرة، وسيظلّ محتضنًا لها، حاملا لها، يأكل من ثمارها، وأن وطنه سيغدو في النهاية هو الطريق.

لكن إسكندر، بعد شهور طويلة، وصل، وما إن عانق أهله، حتى طلب فأسًا، وبآخِر ما تبقى في جسده من قوة، حفر حفرة، وزرع شتلته.

أوصاهم عليها، تناول قليلا من الطعام، ونام نومة أهل الكهف.

العودة من البرازيل

لم ترُق البرازيل لوالد مرتا، ولا لأي من أفراد عائلته، لكن ذلك لم يكن هو الأمر الحاسم بشأن عودتهم.

لم تتوقّف المراسلات بينه وبين أصدقائه في القدس وحيفا والناصرة وسواها، وكلّها تؤكد له أن الإنجليز لم يتعرّضوا، بصورة خطرة، لأي من أصدقاء الدولة العثمانية التي غربت شمسها. كتبوا له: إن الإنجليز معنيون بشيء واحد: دعم اليهود، وإنهم لا يتذكّرون أعداءهم ولا أصدقاء أعدائهم ما داموا المنتصرين.

* * *

في بيتهم في القدس، مدّت مرتا يدها وصافحت إسكندر بعد عودتهم، كانت الحياة كلّها قد تجمّعت فيه، فبدا شابا جميلا بوجهه الحنطي المشرق وعينيه الخجولتين وقامته المديدة التي تتجاوز قامة أبيها طولا.

حسّ ما غمرها، بأنها لم تعد ثانية إلى فلسطين إلا لأن فيها كل تلك الحياة!

حاول إسكندر استعادة وجه مرتا الصغيرة، لم ينجح، إلى أن أصبح على يقين من أن هذا الوجه أنساه كل ما مرّ عليه من وجوه، حتى وجهها الطفلي القديم!

في ذلك المساء أسرّ لأمه: هل تعتقدين أن مرتا يمكن أن تكون زوجة مناسبة لي؟!

* * *

كل مكان جمعهما بعد ذلك، سواء في القدس أو بيت ساحور، كان طيبا، بحيث نبتت فيه زهرة بعد مغادرتهما!

والد مرتا الذي أنفق كثيرًا من مدخراته، كان قد أصبح أكثر تواضعًا، وإن كان أكثر نقمة على تقلّبات الحياة التي عصفت به.

بدا غائبا حين أسرّت له زوجته أن إسكندر يريد الزواج.

- ألف مبروك!

- إنه يتمنّى الزواج من مرتا.

- مرتا من؟

- ابنتنا.

- ماذا؟!

- ابنتنا.

- هل جننتِ؟ وكان على وشك أن يقول لها: ومن هو حتى أعطيه ابنتي؟ لولا أنه تذكّر في اللحظة الأخيرة أن زوجته خالة إسكندر. دعيني أفكر!

بعد عشرة أيام، تحدّثت أمها في الأمر من جديد.

لسبب ما، كان يريدها أن تفعل ذلك، أن تذكّره هي، لأنه لم يكن يريدها أن تحسّ، ولو للحظة، أنه مشغول بالتفكير بابن أختها!

- ما رأي مرتا؟

- لا أعرف. أجابت.

- لا تعرفين؟! ألم تسأليها؟!

تلك الإجابة أراحت أمها كثيرًا، إذ بدت موافقةً ضمنية على ذلك الزواج.

البيانو

- بيانو، قالت مرتا.

- لم أفهم؟ قالت أمها

- أريد بيانو.

- بيانو! وهل تعتقدين أن إسكندر قادر على دفع ثمن بيانو؟

- لا أعرف.

- وماذا نقول للناس إذا ما سألونا عن جهاز عرسك؟!

- قولوا لهم: بيانو.

- في القدس لن يقتنعوا بكلام كهذا، فكيف سيقتنعون به في بيت ساحور؟

- لا أعرف.

- لماذا لا تشترين بيانو بعد زواجك؟

- أريد أن يخرج البيانو معي إلى بيتي الجديد.

- لن يوافق أبوك، ولن يوافق إسكندر. خفّفي الأمر عليهما، خذي من إسكندر وعدًا بأن يشتريه لكِ بعد الزواج.

- ماما، دون البيانو لن يكون هناك زواج!

- ولكنك تحبين إسكندر!

- ما علاقة حبي له بالبيانو. البيانو شيء، وحبي له شيء آخر!

- أهذا هو كلامك الأخير؟

- كلامي الأخير، أنا أحبه، ولكن عليه أن يثبت أيضًا أنه يحبني، ليس إلى نهاية حياته، بل إلى البيانو وما بعد البيانو.

* * *

لم يفهم أحد من عائلة مرتا إصرارها الغريب، حتى أنها بدت عدائية بصورة غير معهودة، أو أنها تنتقم منهم، بسبب جُرم ارتكبوه، لكنهم لا يعرفونه.

- يبدو أنك لا تريدين إسكندر، ولذا تطلبين هذا الطلب التعجيزيّ، منه ومنّا، قالت أمها.

- إنه ابن خالتي وأنا سعيدة لأنه حيّ.

- وهل من المفترض أن نزفّك إلى شخص ميت؟ قال أبوها بحنق.

- إنه حيّ، ولهذا أنا حيّة! ولكنني أريد بيانو.

- مرتا، ما رأيك أن تكون هديتي لك بمناسبة زواجك هذا البيانو؟

- لا، هذا لا يجوز، أريد أن يكون هذا البيانو من إسكندر.

- أظن أن علينا أن ننسى أمر هذا الزواج.

- كما تريد أبي، ولكنني إن لم أتزوج إسكندر فلن أتزوج غيره أبدًا!

طرق أبوها الباب وهو يغادر غرفتها، فأحسّت أن زلزالا ضرب القدس!

* * *

عادت أم إسكندر من القدس تضرب أخماسًا بأسداس، غير قادرة على استيعاب ذلك الطلب الصعب الذي تتمسّك به ابنة أختها لإتمام الزواج.

جلست صامتة نصف ساعة دون أن يتوقّف انهمار الأسئلة على رأسها: هل مات أحد؟ هل غيّرتْ العروس رأيها؟ هل ارتكب اليهود مجزرة في المسجد الأقصى؟ هل مات الحاج أمين الحسيني؟ ووصل الأمر إلى سؤال من إسكندر لم تفهمه: هل أغلق الإنجليز جريدة الكرمل؟ وأعقبها: هل ألقوا القبض على رئيس تحريرها نجيب نصار؟

كانت حريصة طوال الوقت على أن تنظر إلى وجه السائل، وهذا ما جعل الأمر، بالنسبة إليهم، أكثر خطورة!

تعبوا!

الصمت وحده هو الذي انطلق يثرثر بصخب حين سمع أهل إسكندر ما قالته السيدة الوالدة.

- العروس تريد بيانو.

- بيانو؟ وهل تظنّ نفسها فتحية أحمد[1]؟! قال والد إسكندر.

الوحيد الذي أطلق ضحكة مجلجلة، سعيدة، كان إسكندر.

التفتَ إليه والده بغضب؛ كان على وشك أن يقول كلاما قاسيا.

- ليكن، ما تريده مرتا سيكون؟

- هل جُننتَ؟ قالت له أمه.

- بالعكس، حين أفكر في كل ما حدث لي، أجد أن الأمور لم تكن طبيعية معي أبدًا. ذهبتُ إلى حرب كان يمكن أن أموت فيها مائة مرة، ولكنني لم أمُت! فهل هذا طبيعي؟ وعدتُ من الأراضي الروسية إلى فلسطين مشيًا على قدمَيَّ، وكلّي خوف من أن يكون الأتراك الذين انهزموا هناك، ينتظرونني منتصرين هنا! فهل هذا طبيعي؟ جعتُ وعطشت ومرضت وتعبت ولكنني وصلت أخيرًا! فهل هذا طبيعي؟ وحملتُ شتلة درّاق ووصلتُ بها حيّة، وأصبحتْ في النهاية بستانًا كبيرًا! فهل هذا طبيعي؟ ونمتُ طويلا حتى أن حلمي الوحيد الذي حلمته هو أنني صحوت! فهل هذا طبيعي؟ وسافرتْ هذه البنت الصغيرة مع أهلها إلى ما وراء المحيط، ولكنها عادت، عادت إليّ، فهل هذا طبيعي؟ وفاجأتنا حين قالت إنها تريد بيانو، فهل من الطبيعي أن نرفض طلبها الوحيد هذا؟

نهض إسكندر، وضم كتفَي أمّه: لكنكِ لم تخبريني ما رأي والد العروس؟

- لقد غادرتُ القدس وهي تهتزّ بسبب غضبه!

أطلق إسكندر ضحكة أخرى، وقال: تعرفون.. هناك شعوب يكون المَهْر فيها أبقارًا، وشعوب يكون المَهر فيها أن تسبح العروس عارية في بركة ماء، ومن يغطيها على الطرف الآخر يكون قد قبل بها زوجة! وهناك شعوب تأخذ العريس إلى الغابة وتكوي ظهْره بالنار، فإذا تأوه لا يزوِّجونه! وهناك شعوب تطلب منه أن يصارع أسدًا ويتغلّب عليه، طبعًا إذا هُزم سيأكله الأسد ويرتاحون منه!

- لأ.. إذا هيك روح اشتريلها البيانو إللي بدها اياه وخلّصنا، قالت أمه.

ضحكوا، فأضاف: ولكن هل تعرفون أقسى وأغرب مَهْر في الدنيا؟

هزّوا رؤوسهم بالنفي.

- أغرب مَهر، جاء في العهد القديم، حيث طلب شاوُل ملك اليهود من النبي داود مَهْرًا لابنته مائة غُلْفَة من الفلسطينيين، يعني قطعة الجلد التي تُقطع عند الختان! فذهب داود وقتل مائتي فلسطينيّ وأحضر للملك غُلَفهم![2]

- إنت بتحكي صحيح وإلا بتضحك علينا؟! سألته أمه.

- صدّقيني لا أقول غير الصحيح.

التفتَ إسكندر صوب أبيه، فوجده محتضنًا رأسه بين يديه، فسأله:

- أمك اقتنعَتْ، ماشي! ولكن كيف تُقنع الجاهة التي ستطلب يد العروس بأمر كهذا؟!

مرة ثانية حسمت أمّ إسكندر الأمر: يا ختيار، إذا كان هذا طلب أهل العروس الذي وافقنا عليه، فلماذا لا تقبل الجاهة؟! صدَق المثل: أنا راضي وهو راضي وأنت ليش زعلان يا قاضي!

* * *

لم تكن بيت ساحور كبيرة بحيث لا يعرف الناس أخبار بعضهم بعضا، لكن والد إسكندر، أرسل يخبر البلد أنه ينوي إقامة عرس ابنه في نهاية تموز.

تلك الخطوة، كانت على الدّوام ضرورية، حتى لا ينشغل الناس بعرسين في وقت واحد، لأن العرس هو عرس البلد كلّها، بطوائفها المختلفة، مسيحييها ومسلميها، فاستقلّ والده الحافلة، وتوجّه إلى القدس لتأكيد الموعد الذي كانوا قد اتّفقوا عليه أصلا.

* * *

بعد ثلاث ليال أمضاها أهل البلد يرقصون ويغنون، في الساحة المحيطة ببئر السِّيده[3]، التقى الرجال في بيت أهل العريس، تناولوا طعام إفطارهم، كالعادة، الطعام المكون من خبز الطابون والزيت والزعتر والعنب والتين - كانت نهايات شهر تموز ذروة موسم الفواكه- ثمّ توجّهوا إلى الكنيسة لاستقبال موكب العروس، وما إن غادروا حتى توقفت أمام بيت إسكندر، ضحى ذلك الأحد، شاحنة صغيرة تعود لمحلات بوتاجي في حيفا. تجمّع الأولاد، الذين ظنّ بعضهم أن بنات القدس يأتين بالشاحنات إلى بيوت أزواجهن، لا على ظهور الخيول! وحين بدأ العمال بإنزال البيانو، وصدرت عنه بعض النغمات، اعتقد بعض الأولاد أن العروس في داخله!

بعد ساعة، استقر البيانو داخل بيت الزوجية، ولم يغادر الأولاد المكان، إلّا عندما سمعوا تلك الفرحة المرفوعة على أكفّ الأغاني قادمة من جهة الكنيسة المجاورة، فانطلقوا يركضون كما لو أن البيانو، الذي شغَلهم، لم يعد موجودًا.

كان عرسا مثل كل الأعراس، النساء بأثوابهن الجميلة المطرّزة، وجدائلهن السميكة، وشعورهن الطائرة، يغنين بكل ما فيهنّ من فرح، والشباب يعقدون حلقات الدبكة تحت ظلال الأغاني:

يستاهل الرّب راية

وقراية الحَمِد فيها

ساعة سعيدة يا ربي

اللي اتجوز إسكندر فيها

تفاح بياري

والميّ عليه جاري

واحنا ناسبنا السواحرة

ما بِعلى على نَسبْهم عالي

ظليت داير على لِجْواد ت أناسبهم

لما رماني الهوى على مصاطِبهُم

وانتو تعِزّوا النّسب والّا تهينونُه؟

واحنا نِعز النّسب و السيف من دُونه

يا شمس لا تطْلَعي من روس الجْبالِ

واحنا النسب عندنا زيّ الذهب غالي

الصدمة!

في صبيحة اليوم التالي للعرس، وصلت من القدس إلى بيت ساحور عمّةُ مرتا، كانت الزيارة أكثر من مفاجئة. وصول أم العروس كان هو المتوقّع، للاطمئنان على ابنتها.

لم تسأل العمّة عن العروس، ولا عن أخبارها، فسألوها عن أم مرتا، فطمأنتهم أنها بخير، ثم عادت لصمتها من جديد. حيرهم هذا أكثر.

امتدّت يد زُهيرة، شقيقة إسكندر، لها، بكوب الشاي، فرفعت العمّة يدها، لتتناول الكوب، لكن يدها ظلّت معلّقة في الهواء. لقد نسيتْ يدها في الفراغ، نسيتها تمامًا، فلم تجد زهيرة من حلٍّ سوى أن تقرّب الصينية التي اصطفت فوقها الأكواب، أكثر، إلى تلك اليد السّاهمة، وقد ظنّت أن العمّة تعاني من قِصر نظر مفاجئ.

لكن ملامسة طرف الصينية لأصابع العمة، لم يكن كافيًا لإيقاظ يد بدت كأنها فاقدة الوعي!

عينا العمة، لم تكونا أقلّ غيابا وهما تحدّقان إلى وجه زهيرة. وللحظة، ظنّ والد إسكندر أن العمة ماتت، وأن ميتتها هي أغرب ميتة سمع بها أو رآها. نظر إلى زوجته، ففهمت، تناولت كوب شاي من الصينية، ووضعته أمام العمة. التقطتْ زهيرة أنفاسها، وهي تسند قامتها بعد انحناءة طالت.

في تلك اللحظات، تنبّهت العمة. نفضتْ رأسها كما لو أنها تلقي به وما فيه بعيدًا، وسألت: أنتِ زهيرة؟!

تزايدت المخاوف، فالعمّة تعرف زُهيرة منذ طفولتها.

- أنا زهيرة، ألم تعرفيني يا عمتي؟

انسحق قلب العمة وهي تسمع زهيرة تناديها: عمّتي.

كانت زهيرة فتاة قصيرة، في السابعة والعشرين، لا تتمتّع بأي قدْر من الجمال، عيناها ضيّقتان، وفمها واسع إلى درجة أنه كان أطول من تلك المسافة بين أذنيها، كما رأته العمّة!

- جئت اليوم لأطلب يد زهيرة لابني إدوارد.

اهتزّت الصينية في يد زهيرة، فصدر عن ارتطام الكؤوس بالصينية رنين أجراس كالتي تُعلّق في أعناق الماعز!

وللحظات طالت، تجمّدت زهيرة في مكانها، مثل يد العمة التي تجمّدت في الهواء.

- لإدوارد؟! سألت أم إسكندر.

- لإدوارد. أجابت العمة.

في تلك اللحظة، وقف والد إسكندر، وأمسك العمة من يدها، ففهمتْ أن عليها أن تتبعه إلى الخارج. نهضتْ، وحين بلغت الباب، مرّت بجانب حذائها، لكنها لم تحشر قدميها فيه، كما فعل والد إسكندر مع حذائه.

ظلّ يسير، ممسكًا يدها، وهي تتبعه، إلى أن وصلا إلى باب الحوش. كانت الفكرة الوحيدة التي أشعلت رأس العمّة، أنه سيطردها.

لكنه لم يفتح باب الحوش، ولم يطردْها. أسند ظهره إلى الحائط، وطلب منها أن تُعيد ما قالته.

أعادته، دون أن تنسى كلمة مما قالت.

- لإدوارد؟!

- أجل لإدوارد.

- ولكن القدس مليئة بالجميلات، فلماذا يأتي ويطلب يد ابنتنا، وأنت ترينها، لا شيء جميل فيها، حتى روحها، روحها التي كانت جميلة في الماضي، لكن تلك الروح ما إن أدركت أن لا علاقة لزهيرة بالجمال، حتى أصيبت بعدوى وجهها؟!

- إدوارد يريدها، بل قال لي، إن لم تعودي بموافقتهم، فلا تعودي إلى البيت، عودي إلى بيت أخيكِ وليم.

- ألهذا الحدّ يريدها؟!

- لا يريد سواها من بين كلّ نساء الدنيا.

- ما الذي يمكن أن أقوله، غير أن أقول مبروك؟

- ألن تأخذ موافقة زهيرة على الأقل؟

- اطمئني، سآخذ رأيها، لن أجبرها على شيء لا تريده!

* * *

حين انفرد أبو إسكندر بزهيرة وأمها، في غرفة جانبية، كانت العمة تبكي في الغرفة المجاورة بحرقة. وبعد دقائق، خرجت زهيرة، سارت نحو العمّة وقد أحنت ظهرها، كما لو أنها تسير على أربع، وصلتْها، امتدت يدا زهيرة، واحتضنتا اليد اليمنى السّاهمة للعمة، رفعتْها نحو شفتيها الكبيرتين، وقبّلتها.

مثل مسمار غاص في لحمها كانت قبلة خطيبة ابنها، وكم أفرحها ذلك! باتت على يقين من أن اقتراب زهيرة منه سيكون بمثابة انغراس آلاف المسامير في جسده؛ ولعل ذلك أفضل ما سيحدث، همست لنفسها، لأنه لن يكون لها أحفاد من سلالة هذا الكائن العجيب.

تركت زهيرة يد العمة، فسقطت اليد مثل حجر فوق الفِراش. وتقدّمت أم إسكندر وقبّلت العمّة، ورحّبت بها، كما لو أنها تدخل البيت في تلك اللحظة، ثم خرجت إلى الحوش، وأطلقتْ زغرودة عالية سمعتْها بيت ساحور الصغيرة كلّها، وجعلت إسكندر ومرتا في البيت المجاور، يظنّان أن تلك الزغرودة لم تُطلق، إلا لأنهما أنجبا أول أولادهما صبيحة اليوم التالي لليلة الدّخلة!

قفز إسكندر من السرير، ارتدى ثيابه على عجل، وخرج بسرعة، ارتطم جبينه بحافة الباب العلوية. قطع عشر خطوات، وطرَق باب أبيه، فتحت له شقيقته زهيرة الباب، سألها:

- شو في؟!

أغلقتْ عينيها، لكنه لم يعرف إن كانت أغلقتهما فعلا، أم أنهما كانتا مغلقتين قبل أن تفتح الباب، ولم ينتبه لذلك!

تركها في مكانها، وقطع الحوش مسرعًا نحو بوابة البيت، وهناك، فوجئ بعمة مرتا جالسة شبه غائبة عن الوعي.

سمع الأب كل تلك الأسئلة التي كانت تدور في عقل ابنه، فأجاب:

- مبروك، زهيرة انخطبتْ لإدوارد.

* * *

- خير إن شاء الله؟ سألت مرتا عريسها.

- خير. خطبوا زهيرة لإدوارد.

- إدوارد مين؟

- ابن عمتكِ.

- إدوارد؟!

الرّايات السُّود

من بعيد رأى إدوارد أمّه مُقبلة، انتفضَ كزنبرك مضغوط: قام وجلس وقام وجلس عدة مرات، قبل أن يستقرّ واقفًا.

حاول أن يقرأ شيئا يشير إلى نجاح مهمّتها، في ملامحها، مشيتها.

لم يكن هناك سوى الانكسار؛ رأى حاجبَي أمّه ينسدلان على عينيها ويلامسان خدّيها. أما عنقها، فقد اختفى تمامًا، واستقرّ ذقنها في منتصف صدرها.

لم ينتفض جسده في المرة التالية، بل قلبه. تجاوزته ودخلت البيت، كما لو أن قامته لا تحتل ثلاثة أرباع العتبة!

خلف نافذة مقابلة، كانت فتاة جميلة هناك، تحاول لفت انتباه إدوارد، وهي تمشّط شعرها الطويل، وتترك أواخره تتدلى خارج حديد النافذة، كدعوة للصعود.

لم يرها.

لكنها لم تكن يائسة.

تشبّثت الفتاةُ بمكانها كما لو أنه خط الدفاع الأول والأخير.

استدار، دخل البيت، مُغلِقًا الباب الخشبي الكبير، الباب العتيق خلفه.

لكن الفتاة الجميلة، فتاة النافذة، الفتاة التي تدلّى شعرها مثل راية سوداء، مرفرفة، لم تغادر مكانها.

صامتَين، جلسا، الأم وابنها، وبعد زمن طال، لم يسألها خلاله عن ذلك الخبر الذي ينتظره، قالت له الأم: انبسط يا حبّة عيني، قبلوا!

وبدل أن تطلق زغرودة مثل أم إسكندر، تحوّلت إلى شلال دمع، جرف كلّ شيء، إلا ابنها، الذي تشبث بمكانه، وكأنه قابض على صاري شراع عملاق، لم تر الأم فيه إلا سفينة تغرق!

- هزمتْني هزيمتك!

* * *

في الثامنة والعشرين من عمره كان إدوارد، أنهى دراسة علوم الرياضيات في إسطنبول، لكن الزمن لم يُتح له أن يكون مُعلّما في واحدة من مدارس القدس، كما كان يتوقّع، لأن والده توفي بعد أسبوع من عودته، وكأن ذلك الوالد، بعد أن حقق أمنيته في أن يرى ابنه خرّيجًا جامعيًّا، حزم روحه ورحل إلى غير رجعة، راضيا بما حققه لابنه، وبما حققه ابنه له، من دون أخوته الذين أخذتهم حياة اللهو في يافا وحيفا؛ وكانتقام منهم كانت هديته لإدوارد، بمناسبة تخرّجه، أن كتب باسمه كلَّ أملاكه.

الأب، تاجر الحبوب، ترك خلْفه تجارة رابحة، في زمن كان طموح العالم فيه أن يرى رغيفا حقيقيًّا، بعد أزمنة مجاعة طالت، خلّفتْها الحرب العالمية الأولى، وما شهدتْه من انهيار إمبراطوريات، وبزوغ أخرى. لكن إسطنبول، التي بهرَت الشاب، إدوارد، لم تستطع أن تطوّع فيه صفة العناد التي رافقتْه منذ صغره، إذ لم يكن قابلا للزحزحة عن أي موقف يختاره، ولا قابلا للمساومة، فإذا ما أراد شيئا، أو رفض شيئا، فلا رجعة عن قراره، وهذا هو سرّ تعلّقه الشديد بالرياضيات، والتعامل معها كما لو أنها دِيْن! كان يحسّ بأنها تشبهه، تشبهه في كل شيء، 1+1= 2. لا يمكن أن تكون النتيجة غير ذلك. أما حين يقرر شيئا، مهما كان موقف الطرف الثاني من هذا الشيء، فإن النتيجة يجب أن تكون = إدوارد!

والده الذي أعيته تربية أبنائه، عمل بكل ما لديه من ذكاء، أن يجعل رياحه تهبّ، كما تشتهي أشرعة الابن. سايره، وفعل أشياء لم يكن مقتنعًا بها، لأنه لو فعل عكسها لارتطم بحائط الابن.

كان إدوارد مولعا بالرياضيات، وكان ذلك يسرُّ الأب كثيرًا، إذ إن تجارة رابحة، ونامية، كتجارته، لا شيء تحتاجه أكثر من شخص يتقن إحصاء متواليات الأرباح. لم يجد وسيلة لإقناع

إدوارد بدراسة الرياضيات، أفضل من أن يُلحّ عليه أن يدرس علوم الزراعة!

تشبّث الابن بالحقل الذي يحبّه، الحقل الذي لا تنبت فيه سنبلة، ولا يتفتّح فيه برعم! وكان الأب سعيدًا بذلك، لكنه عاش شهورًا طويلة خائفًا أن يكتشف ابنه ما يفكر فيه، فيختار حقلا آخر غير الرياضيات.

سافر إدوارد، درس وعاد. وهو شاب جميل، متعلّم أكثر من إسكندر، بل يفوقه وسامة، وإن لم يكن يفوقه طولا، وبعد أن وقع في حبّ مرتا ما إن سمعها تغني للمرة الأولى في حفل تخرّجه، حتى تقدّم لطلب يدها. لكن مرتا فاجأته بطلب بيانو ليكون أول شيء في جهاز عرسها.

كانت على يقين من أن شابًا سافر ورأى العالم، سيكون متفهِّما لطلبها، بل سيفرح به.

في اللحظة التي أبلغته أمّه بطلب ابنة أخيها الغريب، وأعقبت ذلك بجملةٍ، بدا أن لا قيمة لها، في نظرها: رأيي أن تقبل بشرْطها، رغم أن شرْطا كهذا قد يبدو غريبا على عرسان القدس وبناتها.

قال إدوارد: لتطلب أي شيء، إلا البيانو؟

- وهل لو طلبت أورغن ستأتي لها به؟ سألته أمّه.

- لا أريدها أن تشترط. سأقدّم لها أشياء أفضل مائة مرّة من مطالبها، أما أن تشترط فلا.

- وهل كنت ستهديها بيانو لو لم تطلبه؟

- بل عشرة!

* * *

رفضت مرتا أن يكون البيانو هدية، وأصرَّت: البيانو من جهاز عرسي.

وأصرّ إدوارد: بل هدية ما بعد الزواج.

- يا إبني، أنا أعرفك؛ من مصغرك وأنت تحبّ البنت، لا تضيّعها هكذا! وصمتت الأم، ثم ألقت تلك الحقيقة التي خبأتها مع أبيه طويلا، مضيفةً: بسبب عنادك.

نفى إدوارد أن يكون عنيدًا، نفى ذلك بشدّة، وقال لأمه: نحن نتناقش!

ـ نتناقش في ماذا، ما دمتَ رافضًا أن تسمعها، أو تسمعني؟

ـ بل سمعتكِ، وسمعتها، ولكنّ لي رأيًا أيضًا، ورأيي هو ما قلته.

* * *

رفْضُ إدوارد للبيانو، أشعل في صدر مرتا عنادًا فاق عناده، مع أنها لم تطلب البيانو إلا لأنها كانت تريد أن تمتحن حبّه لها، وتمسُّكَه بها، واستعداده لأن يكون طيّعا أمام تلك الرغبة التي تفتّحت في رأسها لأول مرة حين جاءت عمّتها تطلب يدها.

* * *

حين وصلت أم إسكندر، وطلبت يد مرتا لابنها، كانت مرتا قد بدأت تتعلّق بإسكندر، لكنها لم تجد شيئا تتشبث به غير البيانو؛ لا لأنها تريده، بل لأنها تريد أن تقول لإدوارد: أرأيت؟ هناك من يحبني أكثر منك!

كانت الليلة التي تلت عودة أم إسكندر إلى بيت ساحور، بعد سماعها مطلب العروس، أقسى ليلة تعيشها مرتا في حياتها، فرفْضُ إسكندر، كان كافيا لتحطيم كرامتها أمام إدوارد، بل وسحْقها. إدوارد الذي سينظر إليها باستعلاء وكأنها دودة، إن حدث ذلك، وسيرفض الاقتران بها حتى لو أتته زاحفة على عشرين يدًا وعشرين ساقًا.

* * *

مع إشراقة شمس اليوم التالي، كانت مرتا تضحك من كلّ قلبها، وكان إدوارد يقضم أطرافه ويبتلعها.

لقد اكتشف إدوارد أنه يحبها، يحبها، بحيث يمكنه أن يفعل أي شيء من أجلها، أي شيء، حتى إحضار بيانو، لكنه تأخر.

* * *

ـ أمي، أريد أن تذهبي وتخطبي لي أخت إسكندر.

ـ إسكندر مين؟

- إسكندر مرتا!

- زهيرة؟!

- زهيرة.

- زهيرة.. زهيرة؟! مجنون أنت؟ لماذا لا أخطب لك فكتوريا، فهي تسكن على حافة الشّبّاك منذ عودتك، وهي أجمل بعشرين مرة من مرتا.

- قلت زهيرة.

واستسلمت الأم، وذهبت، وعادت وفوق كتفيها همّ العالم، وفوق لسانها أشدّ الأخبار مرارة: موافقة أهل زهيرة.

لَيالي الصيَّاد

مفاجأة الكوداك!

قبول نتالي به زوجًا، كانت تلك أجمل لحظة في حياة موشيه.

لكن لحظة أخرى لم يكن يتوقعها، لم تكن أقل جمالا!

- لقد استطعنا الحصول لك على أفضل كاميرا اختُرعَتْ حتى الآن، قال والده ياكوف: كوداك، صغيرة وعمليَّة، ويسهُل حمْلها والتنقّل بها، وكذلك الأمر بالنسبة لأفلامها؛ لفائف صغيرة تستطيع أن تضع عشرًا منها في جيوبك..

- أنت اشتريتها؟!

تلك الكاميرا كانت حلم موشيه منذ أن رآها في واجهة محلات توماس جوستاف على بعد مائة متر من مقرّ الصحيفة التي يعمل فيها. ولأيام طويلة كان موشيه يسير نحو تلك الواجهة، يتفقّد الكاميرا، ويحلم بامتلاكها.

قبل يومين لم يجدها. انتابه حزن شديد.

- نعم، اشتريناها لك، والآن، نريد أن نرى ما الذي يمكن أن تفعله بحلمك الذي تحقّق.

- أين هي؟

أطلق ياكوف صوته القوي، فأطلّت راشيل، أم موشيه. لم تكن مضطرّة لأن تدّعي أنها لم تسمع كل كلمة دارت بينهما.

مطر برلين في الخارج، بدا لها أنه الأشدّ منذ أن التقتْ بالمطر للمرة الأولى في حياتها!

انحنت، حملتْ الكاميرا في صندوقها الصغير، توقفتْ قليلا، عيناها على الشباك الذي رأته بِرْكةً صغيرة تقف أمامها بشكل عمودي!

- ما الذي تفعلينه يا راشيل؟ كم علينا أن ننتظر؟ جاء صوت زوجها. تنبّهت إلى أنها نسيت نفسها.

لم تُجب، استدارت، توجّهتْ إلى مصدر الصوت، دخلتْ الصالون. عيناها مثبتتان على نافذته المطلّة على الشارع العام.

بركة المطر المواجهة لها كانت هناك، تقف محدّقة إليها.

نهض موشيه، تناول الكاميرا من بين يديها. جلس، وضعَها في حضنه، وراح يتفقّدها.

* * *

كان موشيه معجبا بأفكار الصحفي ناحوم نوردو، أحد أفراد عائلة ماكس نوردو الذي كان الساعد الأيمن للزعيم الصهيوني تيودور هرتزل، إلى تلك الدرجة التي عمل فيها موشيه معه ستة أشهر كاملة دون أجر في دار شتيرن لنشر الكتب العبرية التي أسسها ناحوم، في برلين. ومن المصادفات أن موشيه كان ينتمي إلى عائلة تُدعى نوردو أيضًا.

- نحن أبناء عمومة، كان ناحوم نوردو يقول له مازحًا باستمرار.

في تلك الفترة، خطرت فكرة في بال موشيه، مدفوعًا بإعجابه المتعاظم بنوردو، أن يطلق اسم ناحوم على أول ولد سينجبه، وأخبره بذلك، حتى قبل أن يتزوج.

الفتاة الوحيدة التي كانت تحتلّ مخيّلة موشيه هي زميلته نتالي، العاملة في دار النشر، والتي باح موشيه لرئيسه نوردو باسمها.

كانت المشكلة التي واجهتْه أن جمال نتالي يفوق طاقته، كما أنه يراها دائما صحبة شاب يمتلك مصبغة على بُعد مائتين وستة وستين مترًا من مبنى دار النشر؛ نعم على بُعد مائتين وستة وستين مترًا، يعرفها بدقة، لفرط ما قطعها سائرا خلف نتالي كلّما غادرت دار النشر.

توقّع نوردو أن يسمع خبرًا عن زواج موشيه: ابن عمّه! العامل الخجول المجتهد، الذي لا يُخفي شغفه بكل آلة تصوير يراها؛ لكن ذلك لم يحدث، وحين سأله: يبدو أنك تراجعت عن التقدّم لنتالي؟! صارحه موشيه بأنه لم يجرؤ على ذلك! تأمّله نوردو، فرأى أن لا شيء يدعو لأن يكون هذا الشاب الواقف أمامه جبانا. قال له: أتريدني أن أتحدّث معها في الأمر؟!

صمت موشيه! وبعد أقل من ساعة، استدعاه إلى مكتبه، وقال له: أظن أن زوجة المستقبل تستحقّ أن تستجمع نفسك وتتحدّث إليها.

- هل رفضتْ؟

- لا، لم ترفض، ولكنها تتوقّع أن تتزوّج من رجل شجاع! أما الشيء الذي يجب عليك أن تعرفه، وسيساعدك كثيرًا، فهو أنها، مثلك، نذرت حياتها للعمل معنا، وإذا ما نسيتَ شجاعتك ذات يوم فتذكّر أباك، ياكوف، الذي يعمل الكثير، هنا، ليمهّد الطريق لك ولسواك كي تكونوا في المكان الذي تنتمون إليه: (أرض إسرائيل).

- أعاهدك يا سيد نوردو مرّة ثانية، أن ولدي الأول سيحمل اسمك: ناحوم.

- عليك أن تُسرع إذًا، ليس من أجلك فقط، بل لأنني طالما حلمتُ بأن أرى نفسي طفلًا صغيرًا مرّة ثانية!

لم ينجب موشيه ولدًا واحدًا فقط، بل أنجب اثنين، ناحوم، ثم هِلْمان.

* * *

لم يكن ياكوف، والد موشيه، الذي تجاوز الستين، أقلّ حماسة من رئيسه نوردو، في أي قضية تُطرح بشأن أرض الميعاد، بل يفوقه في شيء أساسيّ: القدرة على لقاء يهود برلين وحشدهم من أجل الهدف الأكبر: العودة.

أبيض وطويلا وذا عينين زرقاوين كان ياكوف، لا يستطيع أي شخص أن يميزّه عن الألمان، وهذا ما سهّل حركته دائما، وفي مرات كثيرة، استطاع الخروج من بين قوات الأمن التي أطبقت على اجتماع يحضره، دون أن يعترض طريقه أحد.

ذات مساء ممطر استدعى ياكوف ولده: لقد تحدثتُ مع السيد نوردو بشأنك، ورأينا أن أفضل ما يمكن أن تقوم به، هو أن نرسلك إلى أرض إسرائيل.

- إلى أرض إسرائيل؟! متى؟

- في أقرب فرصة.

- وما الذي يمكن أن أفعله هناك؟

- لا شيء كثيرًا! لقد كان السيد نوردو حريصًا، إن لاحظتَ، على أن تُنمّي خبراتك في مجال التصوير في العام الأخير، بعد أن لاحظنا أنك تمتلك موهبة خاصة في هذا المجال. والآن، بعد أن تعلّمت كل شيء، التصوير والتظهير، مطلوب منك أن تبدأ بالتقاط الصّور التي نحتاجها.

- صور ماذا؟

- صور أرض إسرائيل.

- أتعني أن عليّ الذهاب إلى هناك لأصوّر؟

- كلنا سنذهب إلى هناك أخيرًا، ولكنك تنال شرف العودة قبْلنا، والقيام بشيء كبير نحتاجه.

- و...

- موشيه، أنا لا أتحدّث معك الآن كأب، أتحدّث معك كمسؤول. كل شيء أُعدّ لسفرك. ثم إن هناك عددًا من المراحل التي عليك أن تعرفها، لأنها الخطوات الأساسية التي لا بدّ أن تخطوها فوق أرض إسرائيل لتعود هذه الأرض لنا من جديد:

المرحلة الأولى: اذهب وعش بينهم، سيكرّمونك، أعني مجموعات العرب[4] الذين يسكنونها الآن، إنهم يحترمون الغرباء، وتصرّف كما لو أنك واحد منهم. هذه المرحلة، لحسن حظك، أراحك منها من سبقوك إلى هناك.

المرحلة الثانية: عليك أن تسكن في مستوطنة. أنت الآن نقيضهم، وعليك أن تبدأ العمل على طردهم.

المرحلة الثالثة: الآن، أنت هُم، عليك أن تكون العربي الفِعلي، فأرضهم أرضك، لباسهم لباسك، طعامهم طعامك، وثقافتهم ثقافتك. فهمت؟

أما المرحلة الرابعة فهي كلمة واحدة: طرْدهم.

هزّ موشيه رأسه مؤكدًا أنه فهم.

أمّه لم تكن سعيدة بذهاب ابنها، فهي تعرف أن الأخطار تنتظره هناك، فالأرض ممتلئة بـ (العرب)، والمشاكل التي تتطوّر إلى اشتباكات بين حين وآخر، ويموت فيها يهود وعرب، ليست سرًّا خفيًّا بالنسبة لها.

مرّت صورة نتالي أمام موشيه بسرعة، جفل قلبه.

- ستتبعك زوجتك بعد وقت قريب! قال له والده. كل ما عليك أن تفعله هناك، هو تجهيز البيت الذي ستسكنان فيه أيضًا.

- هل ستتبعني فعلا؟

- موشيه، لقد أخبرتك؛ كلّنا سنمضي إلى هناك، ألم تسمعْني؟! ولكن قل لي، ما هي أخبار الكوداك؟

لم يكن صعبًا على موشيه أن يعرف أنه بات في قبضة أقسى المقايضات: إذا ما أردتَ أن تكون الكاميرا لك، فإن عليك أن تذهب، وأن تصوِّر.

- ولكن ما الذي عليَّ أن أصوّره هناك؟

صرخات في البيت المجاور

كانت مرتا تعزف على البيانو، مساء السادس من نيسان، وحولها مجموعة من الأولاد تعلّمهم بعض الأغاني.

فجأة، ارتفعت أصابعها عن مفاتيح البيانو مبتعدة، مثل رفّ طيور، شربَ وارتوى. ظلّت بعض مقاطع أغنية: زوروني كلّ سنة مرة، عالقة على شفاه وألسِنة الأطفال الذين لم ينتبهوا لتوقّف العزف.

انتبهوا أخيرًا، وعندها فقط، استطاعت مرتا أن تسمع بكاء المولود القادم من البيت المجاور.

نهضت بسرعة، هبطت الدرجات، كان البيت فارغًا.

دخلت الحوش الملاصق، وجدت نفسها وجهًا لوجه مع حماتها، أم إسكندر، التي أطلقت زغرودة، وهي تحدّق في بطن مرتا، وتدعو لها: عقبالك!

لقد فعلتها زهيرة، وسبقتْها، هي التي تزوّجت بعدها بثلاثة أسابيع!

* * *

أصرّ إدوارد على أن يسكن في بيت ساحور. كان ذلك هو المعنى الوحيد لزواجه من زهيرة! رفضت أمه في البداية، ثم خضعت مضطرّة، رغم أن أحدًا لم يستطع فهم ما حدث؛ فكيف يمكن أن يترك بيته الكبير في القدس، أجمل المدن، ليسكن في نصف مساحته في بيت ساحور، القرية الصغيرة!

إدوارد نفسه، لم يكن باستطاعته تفسير ما حدث، ولذلك لجأ إلى أبسط الحلول، وأكثرها قوة. ركب سيارة البلايموث البيضاء، بعد مراسيم الخطبة، وتوجّه إلى بيت خطيبته. سيارة جديدة، تخطف أنفاس كل من يراها، لكن أكثر مَن بُهر بها زهيرة. زهيرة التي كانت تتمنّى أن تتزوج بأسرع وقت، كي يتاح لها ركوبها!

- أريدك أن تطلبي مني أن أسكن في بيت ساحور، قرب والديكِ! قال لزهيرة. سأرفض في البداية! ولكن عليك أن تُصرّي على ذلك، ولكنني أحذّرك، لا تُصرّي أكثر مما يجب، لأنني عندها سأرفض، وسيُلغى الزواج!

- وكيف لي أن أعرف أنني أصرّ قليلا أو كثيرًا، وأدركُ متى توافق على طلبي؟ أعني طلبكَ، ومتى سترفضه؟!

هزّ إدوارد رأسه وقال:

- حين أهزّ رأسي سيتوقف إصراركِ، وفي تلك اللحظة سأوافق.

بذكاء منقطع النظير، وبراعة نادرة، سارت زهيرة على الحبل الرفيع المشدود الذي ثَبَّتَ جانبيه، بقوة، زوجُ المستقبل. وطوال حياتها معه، ستتقن ذلك، حتى مع بدايات ضعف بصرها، بل ضمور عينيها، واختفائهما في محجريها مثلما تختفي الينابيع التي تجفّ في عمق الأرض.

اشترى إدوارد البيت المجاور لبيت إسكندر ومرتا. لم يجد صعوبة؛ دفع مبلغًا كبيرًا. لم يترك لأصحاب البيت أيّ مجال للتفكير في الأمر. باعوه، بشرط أن لا يُعلن إدوارد حجم المبلغ الذي دفعه، لأن ذيوعه، سيُغلق الطريق أمامهم لشراء بيت جيد في القرية.

أبسط ما كان يمكن أن يُقال لهم: تبيعون بيتا صغيرًا بمبلغ...، لتشتروا بالمبلغ نفسه بيتنا الأشبه بقصر!

كانت الصفقة على وشك أن تفشل، حين سمع إدوارد، كلمة: (بشرط)، فطلب من أصحاب البيت أن يعدّلوا الجملة، بحيث تصبح: نرجو ألا تعلن عن حجم المبلغ الذي ستدفعه ثمنًا للبيت، بدل أن تقولوا: (بشرط.)

استغربوا طلب إدوارد العجيب، وقالوا: لن تُفِسد اتفاقنا كلمة، ما دمتَ ستصبح واحدًا من أهل البلد!

قبول صاحب البيت بطلب إدوارد كان موفّقًا، إذ أرضاه، وأرضى نفسه، دفعة واحدة.

في صبيحة اليوم التالي للصفقة، توجّه صاحب البيت واشترى أجمل بيت في القرية، وبعد أسبوع كان بيت إدوارد قد جُهّز، بصورة كاملة، إذ وصلت، بعد تنظيفه وطلائه، شاحنتان محمّلتان بأفضل الأثاث من حيفا، وأنزلتا حمولتيهما، التي كانت تضمّ أيضًا بيانو من محلات بوتاجي، يفوق البيانو الذي اشتراه إسكندر لمرتا، حجما وأهمية.

فرحت زهيرة بالبيانو أكثر مما فرحت بأي جديد عمَّر بيتها، رغم أنها لا تعرف من البيانو إلا شكله الخارجي؛ إذ أحست أنها ليست أقلّ في شيء من ابنة القدس، زوجة أخيها. وحين راحت تقارن بين حجم البيانو الذي تملكه، وحجم بيانو مرتا، أصبحتْ أسعد. لم يكن ينقصها شيء كي تطير سوى قول مرتا لها: هل تعرفين يا زهيرة أن البيانو الذي لديك أفضل بثلاث مرات من الذي لديّ؟

- لا أعرف هذا، ردّت زهيرة، ولكن الشيء الوحيد الذي أعرفه أنه أكبر.

ضحكت مرتا من قلبها وقالت لها هامسة: لو كنت مكانك، لتعلّمت العزف عليه، قبل أن أحبل.

فالتفتت إليها زهيرة، وقالت: إلّا هذا!

ضحكت مرتا من كل قلبها، فأدركت زهيرة أن زوجة أخيها تمازحها، لا أكثر. صمتت، وسألتها: ما رأيك أن يتمّ الأمران في الوقت نفسه؟

- تعنين الحبَل والتعليم؟ وطي صوتك، فضحتينا، لسة ما تزوجت، وبدينا نحكي عن الحبِل بصوت عالي؟!

- خلينا نحكي عن تعلّم العزف إذًا.

- موافقة! ردّت زهيرة.

عبور شارع الملوك

عانى موشيه من مشكلات كثيرة في البحر، سببها الدُّوار. منهكًا وصل إلى ميناء حيفا، ولولا أن ثلاثة من المهاجرين اليهود الذين سبقوه كانوا في استقباله، لعادت به السفينة إلى ميناء هامبورغ جثة.

من أعلى سُلّم الباخرة، صاح أحد العاملين في السفينة: هل هناك مَن ينتظر موشيه نوردو؟

وأعاد النداء عدة مرات مضطرًّا، فوق قمة جبل الضجيج الذي يحتل الميناء[5].

من بين الجموع، صاح أحد مستقبليه: نحن هنا. لكن صوته لم يصل حتى لأولئك الواقفين بجانبه، كما لم يرَ يدَه الملوِّحة أحد.

استدار عامل السفينة عائدًا إلى جوف دهاليزها المعتمة.

الجنود البريطانيون الموجودون في الميناء، سمحوا لأحد مستقبلي موشيه بالصعود، وهو رجل ضخم ينتمي للبحر أكثر من انتمائه للبر، بعد أن احتجزوا جواز سفره والاثنين الذين معه.

صعد الضخم الدرجات مسرعًا، كما لو أن السفينة على وشك الإبحار، هي التي وصلت منذ نصف ساعة.

غاب، حتى ظنّ الجنود البريطانيون أنه خدعهم، ففتح الجندي جواز السفر الذي في يده، ليتأكد من أن الجواز لذلك الذي صعد إلى السفينة فعلا.

كانت الصورة شاحبة، ولم يكن باستطاعة الجندي ربطها بملامح صاحب الجواز، لأن شيئا منه لم يعْلَق بذاكرته، غير قامته. بعد ربع ساعة، أطلّ المهاجر وموشيه ملقى على كتفه الأيمن مثل ميت فارق الحياة منذ لحظات.

أشار لمن على الرصيف أن يصعدوا لمساعدته. لم يمانع الجنود البريطانيون، ولم يدهمْهم أي شكّ في الاستغاثة.

بعد قليل، كان موشيه يهبط مستندًا إلى رجُلين، في حين تكفّل الضخم بحمل حقيبة المهاجر الجديد، وفي داخلها، استقرّت كاميرا كوداك، الكاميرا التي التقط موشيه بها أول صوَرِهِ للحياة في برلين.

النتائج التي حصل عليها كانت مفاجئة، له، ولمن تكفّلوا بشراء الكاميرا، وسيتكفّلون بتكاليف رحلته إلى (أرض الميعاد).

- تخيَّلْ أيّ صور تلك التي ستلتقطها هناك مقارنة بهذه الصور التي التقطتها هنا! موشيه، نغبطك لأنك سترى، قبْلنا، الجنة التي حلم بها أجدادك، قال والده.

لم يجد موشيه كلامًا يقوله، اكتفى بابتسامة خجولة، ومرّت يده بلطف على صندوق الكاميرا كما لو أنها حيوان أليف، وهذه عادة سترافقه دائما.

* * *

عندما وصل موشيه مع والده، بعد ثلاثة أيام، ميناءَ هامبورغ على نهر إلبه، أو كما يسميه الألمان: بوابة العالم، شدّ والده على يده، وقال: موشيه، سأقول لك شيئًا، وعليك أن تتذكره تمامًا: لقد قيل في هذا الاختراع الذي سُمِّي الكاميرا بأنه أكبر سُلطة لامتلاك الزمان، وأظنكَ تعرف هذا تمامًا، لكننا نحتاج منك شيئا أكبر من هذا، نريدك أن تحوّلها إلى أكبر سُلطة لامتلاك المكان، هل فهمتني؟

هزّ موشيه رأسه مؤكدًا أنه فهِم ما قاله أبوه، لكن وقتا طويلا سيمرّ، وكلاما كثيرا سيقال، قبل أن يفهم ما سمعه.

بدأ موشيه رحلة البحث عن معنى كلام أبيه، بمجرد وصوله إلى أعلى سُلّم الباخرة، وبداية اختفائه في جوفها، الباخرة التي بدت له مظلمة كليل، في ذلك النهار الغائم من أكتوبر.

* * *

تجاوزت الباخرة نهر (إلبه) إلى المحيط الأطلسي، مرورًا بهولندا، بريطانيا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال، ثم إسبانيا ثانية قبل أن تدخل مضيق جبل طارق باتجاه المتوسط. كان موشيه لما يزل يبحث عن معنى لما سمع، وفكّر: إذا كانوا يريدونني أن أمتلك المكان، فقد كان الأحرى بهم أن يمنحوني بندقية، لا هذه الكاميرا!

بعد أيام هادئة في المحيط، بدأت السفينة تتأرجح بعنف فوق مياه المتوسط الهائجة، ومعها، تأرجح عقل موشيه. تأرجحت عيناه في محجريهما، معدته، أمعاؤه، تأرجحت رئتاه، وذلك الهواء الرّطب الذي كان يسمع ارتطامه فيهما في الداخل، كما لو أن الهواء ماء داخل قِرْبة أو وعاء نصف ملآن.

* * *

يعرف والده، كما يعرف رئيسه ناحوم نوردو، أن أفضل ما في موشيه هما عيناه، فمنذ أن أمسك الكاميرا لأول مرّة، والتقط الصورة الأولى، أحسّ الجميع بمولد مُصوِّر من طراز غير عادي.

رتّب مسرح الصورة، موليًا اهتمامًا خاصًا لمساقط الضوء وتوزّعه على وجوه العاملين في المجلة المجتمعين لالتقاط صورة تذكاريّة، وحين نزل إبهامه على نابض الكاميرا، كانوا قد أحسّوا، قبل أن يروا الصورة، أن ثمة شيئا مختلفًا سيرونه.

ما كان يلزم موشيه الذي يتقن التقاط الصور، فكّر والده، قدْرٌ أعلى من الذكاء كي يكون لصوره التي سيرسلها من هناك فائدة أكبر.

لكن ياكوف، لم يشأ أن يُبسِّط الأمور كثيرًا، كي لا يحسّ موشيه أنهم يتعاملون معه كطفل، وهذا ما فعله دائما؛ بالعكس، حرص على أن يقول له كلاما أكبر من مستواه، كي يدفع هذا المحرك الذي في رأس ابنه لمضاعفة دورانه أثناء العمل.

جملة أبيه على رصيف ميناء هامبورغ، لم تكن الأولى، إذ سبق وأن قال له في الليلة السابقة:

ـ موشيه، أنت ذاهب إلى هناك لتثبت لنا، هنا، بما لا يدع مجالا للشكّ صِدْق التوراة. إن إيمان كثير منا، للأسف، يبدو مهتزًّا، حينما نتحدّث عن أرض الأجداد؛ بل يمكنني القول، وأنا أشدّ أسفًا، إن البعض فقَدوا هذا الإيمان تمامًا، ولا يفكرون سوى في الهجرة إلى أماكن أبعد؛ إما للعثور على فرص حياة أفضل، وإما خوفًا من المستقبل، هنا في ألمانيا. مهمتك موشيه الآن، أن تُعيد إليهم إيمانهم!

* * *

فكر موشيه في ذلك كلّه، محاولا الخروج من ضعفه وانهدام جسده وتشوّش حواسّه، بينما السيارة التي تقلّه تعبر أجمل شوارع فلسطين وأكثرها غنى: شارع الملوك، أو شريان حيفا الممتلئ بالحياة.

جمّع موشيه نفسه عندما تذكر أنه على وشك أن يُضيّع الفرصة التي لن تتكّرر ثانية: لحظة وصوله إلى أرض الميعاد. هو المصوّر الذي لا جمال يفتنه كجمال الأماكن والبشر.

رفع رأسه، ونظر من شباك السيارة التي راحت تسير ببطء في ذلك الشارع، وكأنها مرْكب، وشهق: هل كل هؤلاء عرب؟!

كان المهاجر الضخم الجالس بجانبه على وشك أن يوجه له ضربة على رأس معدته مستخدمًا قوة كوعه، لكنه تذكّر، أن أي ضربة ستقتله، فقال له: موشيه، يبدو أنك مريض جدًا، أين هم العرب؟! الشارع فارغ يا موشيه، لا أحد هنا سوانا، حدِّقْ جيدًا لتتأكد مما أقوله.

دعَكَ موشيه عينيه، لكن الفلسطينيين لم يختفوا، فقال: ولكنني أراهم! عند ذلك تلقى تلك الضربة التي ستُضاعف ضعْفه عشرات المرات. غاب عن الوعي ثلاثة أيام قبل أن يصحو في مستعمرة الخضيرة التي سيبدأ، منها، مشوار اكتشافه لـ (أرض الميعاد)!

طاووس صلاة الأحد!

رفض إدوارد بشدة، أن تقوم مرتا بتعليم زهيرة العزف على البيانو. فكل ما أراده من البيانو الفخم، أن يكون رسالة لا أكثر، أما أن تتعلّم زوجته العزف، فلم يكن يعني له سوى شيء واحد، أنه يتمنى أن تكون له زوجة مثل مرتا، وهذا ما سيعيش حياته كلّها لينفيه.

كلما اختلى بها إدوارد، أو اختلتْ بنفسها، كانت زهيرة تبكي بصمت. فهِمَ إدوارد السبب، ولم يكن مرّ على زواجهما إلّا بضعة أسابيع. بكاؤها كان محرجًا له، أكثر مما هو محرج لزهيرة، إذ بدأت الأسئلة تنهال عليه:

- هل كل شيء بينكَ وبين العروس على ما يرام؟!

ويصمت إدوارد أكثر.

- إذا كانت هنالك مشكلة، أخبرني، قالت له أمّه، وهي تفكّر في أن فتاة على هذه الدّرجة من البشاعة، لن يكون معها أبو زيد الهلالي، نفسه، رجلًا لو تزوّجها!

* * *

- أطلبي أي شيء غير تعلُّم البيانو، سأنفذه، قال إدوارد لعروسه.

- أيّ شيء؟!

- أيّ شيء.

- وتعدني أن تلبّي طلبي مهما كان؟!

- مهما كان، أعدك.

- سأخبرك غدًا بما أريد.

- ولكن لن تغادري البيت حتى تقرّري.

- ولماذا؟ سألته مستغربة.

- لأنني لا أريد أن يهمس أحد في أذنك أي كلمة، أريد أن يكون القرار قراركِ.

- موافِقة. قالت زهيرة، وكأنها تعرف تمامًا ما تريد.

* * *

أمضت ليلتها تحدّق إلى البيانو وتفكّر في بديله، كانت تريد أن يكون المقابل بأهمية تلك الموسيقى التي سمعتْ مرتا تعزفها، وتمنّت أن تتدفق من داخلها، سائرة عبر أصابعها إلى أذَني كل من يسمعها كسحر.

أغفت، وفي الصباح، حين فتحت عينيها، وجدت إدوارد يحدّق إليها: هل اخترتِ؟

- شهر عسل.

- ماذا؟

- شهر عسل، هذا ما أريده مقابل عدم تعلُّم الموسيقى.

- لا يمكن أن يحدث هذا، نحن في بيت ساحور، ولسنا في القدس.

- لقد وعدتَني، وهذا هو طلبي.

* * *

عندما ظهر حمْل زهيرة، قبل أن يظهر حمْل مرتا، تهامست نساء بيت ساحور: هذا من مفعول شهر العسل!

لكن مرتا التي سمعت ذلك، كانت من تلك الفئة النادرة التي لا تتأثر بالقيل والقال، بل إنها انطلقت مع التيار، وهمست لزهيرة بفرح: ستسبقينني، ولكن هذا غش!

ـ ولماذا غش؟

ـ لأنك استعنتِ عليّ بشهر العسل.

* * *

ما لم يكن يخفى، أن مرتا تحبّ زهيرة، بقدر ما تحبها زهيرة وأكثر، وقد رأت مرتا في قرار إدوارد الزواج من زهيرة، نعمة هبطت من أوسع أبواب السماء على تلك الفتاة، متواضعة الجمال، ودليلا على أن أفضل ما حدث أن إدوارد لم يوافق على البيانو، فهو عنيد، مكابر، مستعد أن يدمّر نفسه، من أجل ألا يقول كلمة نعم.

عادت زهيرة من شهر عسلها، غير زهيرة التي كانت قبْله، واستطاع كل من رآها في سيارة البلايموث إلى جوار إدوارد يوم عودتهما من بيروت، أن يلحظ ذلك البريق الذي سكن عينيها الصغيرتين ووسَّعهما، حتى لكأنها استبدلتْهما! وعندما سارت في الشوارع، بدا وكأنها تحوّلت إلى طاووس، حتى وهي ذاهبة لصلاة الأحد.

كانت أول امرأة في بيت ساحور، كما يتذكّرون، تذهب في شهر عسل.

.. وأصبحت أجمل،

فأعادت النسوة جُملتهنَّ الأولى: كل هذا بسبب شهر العسل. ولم تتردد بعض الزوجات ممن مرّ على زواجهن سنوات، في المطالبة بشهر العسل الذي حُرِمْنَ منه عندما تزوّجن، وهكذا اشتعلت الخلافات في عدد من المنازل، والتجأت نساء إلى بيوت آبائهن، حرَدًا، ولم يتزحزح أي من الأزواج عن موقفه، وانصبّ الغضب على إدوارد الذي فتح بابا لريح عاتية بعثرت بيوتهم الآمنة القانعة.

* * *

لم تهدأ المطالب المتباعدة بشهر العسل، إلّا حينما أنجبت زهيرة ابنة ثانية، عند ذلك همست امرأة في أُذن جارتها:

- أرأيتِ؟ لا تنجب زهيرة سوى البنات، أتعرفين لماذا؟!

- لا، لا أعرف.

- كلّ هذا بسبب شهر العسل.

صمتت الجارة التي فوجئت بذلك التحليل، التحليل الذي بدا لها منطقيًّا، وقالت: الحمد لله أن زوجي رفض طلبي!

- والحمد لله أن زوجي رفض أيضا!

وستمضي سنوات طوال قبل أن تُعيد بنات زهيرة لشهر العسل مكانته!

الكاميرا العمياء!

بعد ثلاثة أيام صعبة، أمضاها موشيه غائبًا عن الوعي، أشرع عينيه. كان يستلقي على سرير في غرفة عيادة صغيرة في مستعمرة الخضيرة. تلفّت حوله باحثا عن شخص ما، أي شخص، لم يكن هناك أحد.

حاول أن ينادي، لم يعثر على صوته.

بدأ رحلة مضنية لاسترجاع ما عاشه منذ وصول السفينة، اكتشف صعوبة ذلك؛ كما لو أن جدارًا عاليًا بُني بينه وبين الأيام التي مضت، الأيام التي لا يعرف عددها. تذكّر الكاميرا، انتفض، حرّك رأسه بصعوبة باحثًا عنها. لم يرَ حقيبته، لم يرَ سوى ذلك البياض المنتشر في كل شيء.

طعم موتٍ ما كان يسدّ حلقه. حاول أن يصيح ثانية دون جدوى.

بعد نصف ساعة أطلّت ممرضة بوجه أشدّ بياضا من ملابسها. عينان خضراوان واسعتان، ووجه مستدير، كان يمكن أن تكون ملكة جمال، لولا فمها الصغير للغاية، فمها الذي كان بحجم أصغر قطعة نقدية على أرض البشر!

لم يسمعها حينما تكلّمت، فأصبح على يقين من أن كلامها لا يستطيع الخروج من فمها. خرجت وعادت ومعها رجل أدرك موشيه أنه الطبيب، وضع يده على جبهة موشيه، أمسك برسغه جاسًّا نبضه، في الوقت الذي واصلت فيه الممرضة التحدّث إليه دون أن يسمعها.

رأى ابتسامة الطبيب الواسعة، فاطمأن أنه لم يمت بعد.

غابت الممرضة ثانية، عادت وفي يدها صينية طعام، لم يكن عليها في الحقيقة سوى صحن من حساء الدجاج.

وضعت الصينية على الطاولة الصغيرة بجانب سريره، أسندت مريضها، راحت يدها التي تحمل الملعقة، تتحرّك بين فمه والصحن، دون أن يرفع موشيه عينيه عن فمها، فمها الذي بدا له أكثر صغرًا مما اعتقد.

الشيء الجيد الذي حدث، هو أن الصحن الذي دخل الغرفة ممتلئا خرج منها فارغًا تمامًا.

ابتسمت الممرضة، لم يفهم ابتسامتها، بدت وكأنها تلفظ حرفًا واحدًا، قدَّر أنه الباء! أمسك بيدها قبل أن تبتعد، أشار إليها بيدين مرهقتين راسِما شكل حقيبته في الهواء.

انحنت الممرضة، حتى لم يعد يُرى من جسدها سوى مؤخرتها العالية، وحين انتصبت ثانية، كانت تعمل على رفع حقيبته الثقيلة حتى طرف السرير.

فرحٌ غامر انتابه وقد أبصر الحقيبة، الحقيبة التي كان يستعيدها، من خلف ذلك الجدار الذي انتصب عاليا بينه وبين الأيام المعتمة الماضية.

* * *

بعد ستة أيام، غادر موشيه السرير مستعيدًا قواه تمامًا، بحيث أحسّ أن تلك هي آخر مرة له في سرير، أيّ سرير.

كانت الكاميرا، بالنسبة إليه، اتحاد عينيه في عين ثالثة ترى أكثر مما تريان! سار باتجاه الأسلاك الشائكة للمستعمرة، ممسكا حامل الكاميرا بيد، والكاميرا بالثانية. ثبّت الحامل، وتحت غيوم نوفمبر توزَّع ضوء الشمس بنعومة بالغة على أشجار الحمضيات البعيدة.

التقط الصورة الأولى التي كانت بمثابة لحظة انطلاق رحلته، ثم التقط عددًا من الصور للمستوطنة، ظهر فيها أناس يعملون وأطفال وبيوت جاهزة حديثة، ولم ينسَ أن يُظهر العيادة التي أمضى فيها عدة أيام. كان يريد أن يقول لنفسه: إن رحلته الفعلية ابتدأت من هنا، بعد أن مات على تلك الباخرة، وأن صورة العيادة ستكون الرمز السِّريّ بينه وبين نفسه، الرمز الذي سيحتفظ به ما دام حيًّا.

* * *

طُرقَ الباب، دخل الرجال الثلاثة، الذين استقبلوه في الميناء. لم يعرفهم أبدًا.

أحسوا بذلك، قال الرجل الضخم: نحن الذين أتينا بك إلى هنا من الميناء.

باغتت موشيه ضربة على رأس معدته، لكنه لم يتذكر أي تفاصيل. كان الألم الخاطف الذي دهمه كصعقة كهرباء هو الحقيقة الوحيدة.

رأى موشيه أنهم لم يتحرّكوا، أدرك أن عليه أن يدعوهم للجلوس، وقد أصبحت له غرفة خاصة.

لسعةُ برد شديدة سكنت هواء الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم. لكن الشمس سطعت فجأة. تركهم ومضى إلى الدّاخل بسرعة، أخرج الكاميرا، مضى راكضًا إلى حيث كان يقف في الضحى، التقط صورة أخرى لأشجار الحمضيات بأوراقها اللامعة، ولتلك البيوت التي بدت حجارتها مضاءة بصورة ساحرة مع انعكاس شمس ما قبل الغروب عليها.

كان الرجال الثلاثة يحدّقون إليها، ويتبادلون النظرات.

حين عاد، ربّت المهاجر الضخم على كتفه برفق، طالبًا منه أن يعود إلى الداخل، ففهم موشيه، أن تلك الغرفة ليست له هو، بل لهم. وحين بدأ الرجل الضخم يتحدث، أحس بأنه هو، موشيه، لم يعد يملك نفسه، لأنه لهم أيضا، هو وتلك الكاميرا التي يحبّها.

* * *

كانت المحاضرة التي استمع إليها بصمت من فم الرجل الضخم، أشبه ما تكون بسلسلة من الأوامر المتتالية، التي لم يسمع طوال حياته، ربْعها، من فم أبيه. ولما وصل الرجل الضخم إلى تلك الجملة التي يقول له فيها: موشيه، أنت الآن جندي. كان موشيه قد فهم تمامًا، أن عليه أن يصوّر كما يريدونه أن يصوّر، كما يُحدَّد للجنديّ الهدف الذي سيُطلق عليه الرصاص في أرض المعركة.

- موشيه، منذ اليوم سيكون أمامك أن تصوّر ثلاثة أنواع من الصوّر لا غير: صور الطبيعة الجميلة جدًا، صور المناطق الجرداء، وصور لهذه الكيبوتسات الرائعة التي بنيناها. أما الشيء الذي لن يظهر في صورك بعد اليوم فهو العرب.

- وهل يوجد أي منهم هنا؟! خيّل لي أنني رأيتهم في حيفا، لكنني غير متأكد الآن.

- موشيه، لقد حلّت اللعنة على هذه الأرض منذ أن صلبنا المسيح، ولذلك لم يسكنها أحد!

- ولكنني رأيت قراهم، وأظنني رأيتهم، لم أفهم.

- موشيه، ربما تصادف بعضهم وتراهم، لكن هذه الكاميرا التي تحملها لا تستطيع أن تراهم؟

- كيف، أليسوا بشرًا مثلنا؟!

- موشيه، الكاميرا لن تراهم لأنك لن تصوّر أيًّا منهم، لأنه غير مسموح لك بأن تصوّر أيًّا منهم. فهمت؟ هذا أمرٌ.

تأكد لموشيه أنه جندي فعلا، وأن عليه أن يستعيد بهذه الكاميرا التي في يده المكانَ الذي خرج منه أجداده قبل ألفي عام. واستعاد كلمات أبيه: نريدك أن تحوّلها إلى سلطة لامتلاك المكان!

- منذ الغد، ستتحرّك نحو طبريّة، لا أريد أن تتأخر، فالأمور تسير نحو الانفجار بتسارع غير معهود.

- أي انفجار؟

تجاهل الرجل الضخم سؤال موشيه:

- هناك شخص عليك أن تقابله، إنه يعرف المنطقة جيدًا، وعليك أن تعتبره منذ الآن معلّمك، وبعد لحظة صمت، أحسّ معها الرجل الضخم بأن جفاف حلْقه هو الشخص الخامس الذي يجلس معهم، ابتسم وقال: بعد ذلك، دعنا نرَ أيّ مصوِّر عظيم أنت.

العصيان

بالقدر الذي بدا فيه إسكندر فرحًا بعزْف مرتا، وتجمّع الأولاد حولها بعد عصر كل يوم، بدا إدوارد منزعجًا من تلك الضجة التي لا تسمح له أن ينام وقت القيلولة!

احتج على ذلك علانية، لكن مرتا لم تستجب لاحتجاجاته، وتتوقف عن العزف. وحين أصرّ، طالبًا من إسكندر أن يلجم بيانو زوجته! وصمتَ البيانو يومين كاملين، كان الأولاد يقودون أول احتجاج سِلمي صامت ضد إدوارد.

استيقظ مساء ذلك اليوم، وجد الأولاد يُغلقون طريق خروجه، واضعين أصابعهم في آذانهم أمام عتبة البيت.

طلب منهم أن يتحرّكوا. تصرّفوا وكأنهم ولِدوا محرومين من حاسّة السَّمع.

تجاوزهم، رفع قدمه، موسِّعًا خطوته، وتركَهم حيث هم.

لم يكن صعبًا على إدوارد وهو الذّكي اللمّاح، أن يُدرك ما يدور في عقول الأطفال، ويعرف مطلبهم، مع ذلك الصمت الذي أطبق على الحارة.

ابتعد كثيرًا، حتى وصل كنيسة المهد، دخلها، صلّى، فأتاه صوت الأورغن رخيما كما لو أنه صوت تنفّس الأرض، وعميقًا؛ لامس قلبه، بل وأحسّ بارتعاشة لم يحسّ بها من قبل.

استعاد جملة زوجته، زهيرة، التي ردّدتها في يومَي صمت البيانو: تعرف يا حبيبي يا إدوارد، والله ما أنا عارفة أنام بدون موسيقى مرتا!

لم يقل لها إدوارد، أنه لم يستطع أن ينام أيضا، لا لشيء، إلا لأن عناده كان أقوى منه دائما.

أفضل ما فعله، أنه لم يُعلّق على كلام زوجته، وكانت زهيرة ذكية بحيث لم تُعِد ما قالته مرّة أخرى، لأنها تعرف أنها بذلك ستُلحّ، وتكاد تشترط، لكنها، دون أن تدري حرّكت المشاعر الساكنة في داخله، وجعلته يفتقد صوت البيانو بصورة أشدّ.

بعد عودته من الكنيسة، فوجئ بالأولاد على عتبة البيت، بل وانضمّت إليهم خمس فتيات صغيرات، غاية في العذوبة، جلسن بجانب الأولاد وهنّ يحاولن إدخال أصابعهنّ في آذانهن إلى أعمق مدى.

رقّ قلب إدوارد، وأوشك أن يبكي، فهي المرة الأولى التي يُمتحن فيها عناده بصورة مغايرة؛ أمام أطفال في غاية الجمال والرّقة، وقبل أن يصلهم، رأى رأس الطفلة الأصغر عمرًا يسقط على صدرها، نعَسًا، لكن الغريب أن سبابتيها لم تخرُجا من أذنيها.

نظر الأطفال إليه بأعينهم الذابلة، فانهار عناده:

- ولكن أريدكم أن تقولوا لها أن تُخفض صوت البيانو قليلا حينما تعزف!

انتزعوا أصابعهم من آذانهم وسألوا: ماذا؟

- قولوا لها أن تخفض صوت البيانو قليلا حين تعزف.

تقافز الأولاد فرحِين، نهضوا بسرعة، فأضاف:

- ولا بأس أن تُخفضوا أصواتكم أيضًا وأنتم تغنّون.

- حاضر، قالوا بصوت واحد.

انطلقوا.. وخلفهم، كانت الطفلة الأصغر عمرًا، لم تزل جالسة، وسبابتاها في أذنيها.

انحنى عليها، فانتبهت:

- خلاص، نجح الإضراب! قال.

- شو قلت؟

امتدّت يداه وسحبتا إصبعيها المحشورتين في أذنيها، وأعاد:

- نجح الإضراب.

- يعني راح نرجع نغنّي؟

- راح ترجعوا اتغنّوا.

- زي ما كنّا زمان؟

- زي ما كنتوا زمان، بس انتِ بالذات بدي إياك تغنّي بصوت أعلى، مفهوم؟

- حاضر، وانطلقت تحاول اللحاق بهم.

- شو إسمك؟

- أنا؟ أنا رولا.

المعلِّم السِّري!

كل شيء كان واضحًا في عقول أولئك الذين استقبلوا موشيه، كما كان واضحًا في عقول أولئك الذين أرسلوه.

كان موشيه منشغلا بصور سيلتقطها، صور التقطها فعلا بمخيلته، ولم يكن يلزمها سوى أن تخرج من رأسه لتستقرّ في الكوداك.

في صبيحة اليوم الثامن لوصوله، في نوفمبر البارد الذي فاجأ الجميع بعواصفه الشديدة وأمطاره الجارفة، كانت السيارة تشقّ طريقها باتجاه طبرية. الرجل الضخم رأى أن أفضل مكان يمكن أن يبدأ فيه موشيه العمل، تلك المدينة الصغيرة الجميلة، وقبل هذا، وبعده، هناك أهم مُعلِّم يمكن أن يحظى به موشيه، الذي لم يكن غير آدم نحماني[6].

كان المطر الشديد أشبه بجدار يحرم موشيه من مشاهدة تلك الكروم والقرى على جانبي الطريق، ولسبب ما، انتابه حسّ، أنهم لم يصرّوا على سفره في ذلك اليوم إلا لأنهم لا يريدون له أن يرى أي مخلوق، أو أي شيء، قبل أن يرى نحماني الذي رفضوا الحديث عنه كما لو أنه سرُّ الأسرار.

- سيراك هناك، وإذا رأى فيك ذلك التلميذ النبيه الذي نأمل أن يكون موجودًا فيك، سيُعرِّفكَ إلى نفسه حينها، أما إذا لم ير ذلك، فستعود إلينا هنا، دون أن تعرف أيّ وجه هو وجهه من بين تلك الوجوه الكثيرة التي ستراها!

تَرْكُ أمر بهذه الخطورة مُعلَّقًا، أربك موشيه على الفور.

في منتصف الطريق سأل موشيه السائق، هل بقي الكثير؟ فقال له باقتضاب:

- قليل من الصبر سينفعك كثيرًا.

حاول موشيه أن يعرف كم تبقّى من الوقت للوصول إلى وجْهتهما الأخيرة، فأجابه السائق:

- في مثل هذا الطقس، لا تعود الدقائق مقياسًا جيدًا للسفر.

.. وخطرت لموشيه تلك الفكرة المرعبة: هل يمكن أن يكون السائق هو نحماني نفسه، يتخفّى خلف هذا الدّور ليدرس كلّ حركة من حركاتي؟ أم هو ذلك الرّجل الضخم الذي تركته ورائي، وسأجده أمامي في طبرية يواصل الدّور بدهاء؟ فما قاله ذلك الرجل حول أشياء كثيرة كان يبدو أكثر من دروس أو نصائح!

أطبق موشيه فمه على بقية الأسئلة التي خطرت بباله، وقرر أن لا يتكلّم إلا في أقصى حدود الحاجة، كي لا تفلت منه كلمة دون انتباه وتغدو سببا في إعادته مهزومًا إلى برلين. لكن ذلك لم يمنعه من أن يحاول التقاط صورة، بخياله، لنحماني قبل أن يراه، وهذا ما كان يفعله دائما كلما حاول أن يسبق الوقت، رغم أن المفاجآت كانت تهزّ ثقته بخياله، بين حين وحين.

طرد صوَر كل من قابلهم بعيدًا، بمن فيهم السائق!

ابتدأ بقامة نحماني، فرآه رجلا متوسط القامة، بعينين برّاقتين، أشدّ قوة من عين أفضل المصورين المشهورين بالتقاط أدقّ التفاصيل، وخمّن أنه يمارس التصوير والرسم، لكنه أُرسل إلى هنا، مثله، ليكون سمسار أراض، لأن الأراضي الجميلة لا يراها أحد مثلما يراها الرسامون والمصورون والشعراء والسماسرة والغُزاة! وإن كان لكل منهم منطق العين الخاصّ به.

وفكر موشيه، وقد أحس برأسه يتّسع وخياله يغدو أكثر رحابة وعينيه أكثر اتساعًا: في الوقت الذي يكتفي فيه المصور بالتقاط صورة للمكان وقد تجمّد الزمان فيه، ناقلا المكان إلى الورق، يستطيع السمسار بحنكة ساحر وخفّة يد نشال، وذكاء ثعلب، أن ينقل المكان من يد إلى يد، مع أن المكان يبقى في مكانه!

فرح موشيه بتلك الأفكار التي تورِق في رأسه للمرة الأولى. تلمّس بروحه الأمكنة الفارغة الكثيرة التي في عقله، الأمكنة المتعطشة لالتماعات كثيرة من هذا النوع، تملؤها.

نظر إلى السماء، رأى خيوط المطر السميكة تهبط بقوة، وللحظة أحسّ بأن السماء تريد أن تقول له كل شيء دفعة واحدة، أن السماء تكلِّمه!

- ألهذا لم يتحدّث معي أبي كثيرا؟! تساءل، أكان أبي يعرف أن السماء هنا في انتظاري وستقول لي ما لا يستطيع أن يقوله لي أيّ إنسان؟!

لجم موشيه موجة اندفاع أفكاره؛ تذكر أن السماء لا تتحدّث مباشرة إلا مع الأنبياء، وما هو إلّا مصوّر يهودي من برلين، لم يقدِّم أي شيء لهذه الأرض منذ ألفَي عام؛ مصوّر، يمكن القول: إنه مبتدئ، لا شيء يميّزه سوى امتلاكه لكاميرا حديثة من نوع كوداك، اشتروها له ليستثيروا حماسته للهجرة والعمل الجيد.

* * *

قبل أن يصلوا إلى البحيرة شعَر موشيه بأن يدًا عملاقة تضغط على جمجمته، تكاد تسحقها، وبدا له أنه لم يعد قادرًا على سماع صوت الرّعد والمطر كما كان يسمعهما بعد بدايات الرحلة بقليل.

هل تكون السماء قد بدأت فصل عِقابه، بعد كل تلك الأفكار التي خطرت بباله، وصوّرت له أنه أول يهودي تخاطبه منذ موسى؟!

كان على وشك أن يسأل السائق عما يحدث له، ابتلع سؤاله، ومع ابتلاعه لسؤاله، كما حدث فعلا، عادت أذناه إلى طبيعتهما الأولى، فابتلع سؤالا آخر كان على وشك أن يسأله للسائق: متى سنعود ثانية إلى الخضيرة؟

تحسّن وضع أذنيه، وأدرك بما لا يدع مجالا للشك أن السماء تريد منه شيئا واحدا: أن يصمت! فصمتَ، دون أن يتوقّف عن ابتلاع أسئلة أخرى بين حين وحين، كلما ساء وضع أذنيه.

* * *

رؤيته للبحيرة جعلته ينتبه إلى أن المطر توقّف. كانت كبيرة، أكبر مما تصوَّر، ورائقة، تزيدها انعكاسات الشمس المتسللة من بين الغيوم، بين لحظة وأخرى، فتنةً.

دخلت السيارة طبرية، من الشمال متّجهة إلى الجنوب، على يساره البحيرة ومعظم البيوت.

عاد انشغاله بنحماني، ومتى ستكون لحظة اللقاء الأولى به؟ وهل سيتمكن من أن يعرفه؟ وقبل أن يواصل أسئلته، وجد نفسه وجهًا لوجه مع عدد من العرب على جانبي الطريق، يسيرون أو يعملون.

ارتبك، هل أتوا به إلى هنا لإلقائه للأعداء فريسةً، هم الذين قالوا له إنهم غير موجودين، ليروا كيف سيتصرف؟ هل هذا أول الاختبارات؟!

كان السائق منطلقًا بالسيارة دون استعجال، حتى أنه توقّف عندما رأى سيارة عربية تدخل الشارع من طريق جانبي!

حدّق موشيه في وجه السائق، وصُعق كثيرًا: إنهم قادرون على قيادة السيارات أيضا!

أسند ظهره إلى المقعد، بعد أن اكتشف أن الفضول يكاد يقذف به خارج شباك السيارة، دَهَمه حرّ شديد، بعد برد قارص عانى منه طوال الرحلة؛ حيث تبدأ درجات الحرارة بالارتفاع كلما هبط الإنسان باتجاه منطقة طبرية، التي تشكل امتدادًا لأخفض بقعة في العالم عن سطح البحر.

هل يكون السائق، أو نحماني المتخفّي هذا، لاحظ حركاته وارتباكه؟! قرر أن يظلّ ملتصقًا بالمقعد مهما حدث.

الشيء الوحيد الذي بقيَ يزعجه، هو الحرّ.

كان شباك السائق مُشرعا أقلّ من النصف. لم يعرف إن كان عليه أن يفعل الأمر نفسه، أم أن مروره في منطقة معادية يُلزمه بإبقاء الشباك مغلقًا؟

انعطفت السيارة إلى بحر المدينة البشريّ، ثم إلى شارع جانبي صاعد، عبرتْ بوابة كبيرة، وتوقّفت أمام الدرجات المؤدية لمبنى حجريّ تتوسط ساحته نخلة عالية.

ترجّل السائق، فترجّل موشيه، وقبل أن يضع قدمه اليمنى على الأرض، رأى ذلك الرجل المسنّ القصير، ذا اللحية البيضاء والعينين الثاقبتين، فانتابه حس شديد بأنه نحماني.

وضع قدمه، التي عِلقتْ في الهواء لحظات، على الأرض، وسار بخطى متعثّرة نحو الرجل الغامض كتمثال قديم متقن الصنع، وصافحه.

استدار الرجل ومشى أمامه، تجاوز عتبة حجرية عريضة، ودخل، ووراءه دخل موشيه، وإذا به أمام جمْع من اليهود يجلسون على كراسيهم مشكِّلين ثلاثة أرباع دائرة. توقّف للحظات، ألقى نظرة بانورامية سريعة على وجوه الجميع، وليس لديه من أُمنية أكبر من أن يعرف نحماني من النظرة الأولى!

الضربة القاضية!

رغم وعده بعدم الاحتجاج على غناء الأطفال، وعزْف مرتا، شعر إدوارد أنه هُزم في أول معركة يخوضها، وعزّز غضبته بيقين زرعه عميقًا في عقله، أن مرتا استخدمت الخديعة لتتغلب عليه بالضربة القاضية. بات يؤمن أن مرتا هي التي دفعت الصغار، وأوقفت تقدّمه، بعد أن نجح في وقف عزفها؛ رغم عدم استعانته بأي أطراف خارجية، أو لجوئه للتهديد، كأن يُنذر زوجته زهيرة، بأنه سيهجرها إن لم تُوقف زوجةُ أخيها إقلاق راحته في أكثر الساعات التي هو بحاجة إليها لقيلولته.

لم يعترف إدوارد حتى لنفسه، أنه أمضى اليومين التاليين لصمت موسيقى مرتا وجوقة عصافيرها، كما كان يدعوهم، في تأمل البيانو الفخم الذي اشتراه، البيانو الذي يستريح، بكسل ما بعده كسل، في نهاية صالة الضيوف الكبيرة، متمطّيا مثل أي كنبة تدرك بعمق سبب وجودها في هذا العالم، أو مثل دبّ في سباته الطويل.

لم يعترف إدوارد أنه لم يستطع إغماض عينيه، في تلكما العصريتين، إلا بعد أن تخيّل مرتا تعزف على البيانو في صالته، وأنه حين استيقظ، كانت لم تزل هناك تعزف، ولما رأته يشرع عينيه، اختتمت المعزوفة برشاقة لم تتح له أن يعرف أنها اختصرتْها.

* * *

تبرعمتْ شوكة عناده من جديد بعد أشهر، كانت بالنسبة إليه كافية لكي يتذرّع بأنه نسيَ وعده للصغار، لكن زهيرة كانت له بالمرصاد؛ قالت له: إن الساعة الوحيدة التي تنام خلالها ابنتهما، رنا، بعمق، هي تلك الساعة التي تعزف فيها مرتا، ويغني الأطفال. بل وزادت على ذلك، إنها تحسّ بجنينها يهدأ، ويكفّ عن المشاغبة، هو أيضًا، كشقيقته، في تلك الساعة من ساعات ما بعد العصر! لكن ذلك كله لم يكن كافيًا لإقناعه، رغم التزامه الصمت أربعة أيام بعد ذلك.

* * *

سمع إدوارد أن مرتا ستغادر مع إسكندر إلى حيفا لقضاء أسبوع هناك، ففهم الأمر كمحاولة متأخرة لتقليد شهر عسله مع زهيرة.

راقب إدوارد صغيرته، رنا، ووجد أنها تنام بعمق، بعد صمت بيانو مرتا، عكس ما ادّعت زوجته، زوجته التي قالت له: إنها تنام، لأنها لم تزل تظنّ أن مرتا تعزف وعصافيرها تغنّي، وحين تنتبه إلى أن ذلك غير حقيقي، ستبدأ بالبكاء، وسترى؟

لم تعجب إدوارد كلمة (وسترى)، إذ بدت له شبه تحذير، أو حتى شبه تهديد، لكن تعلّقه بصغيرته، منعه من أن يرفع صوته في وجه زهيرة، كأن يصرخ: هل أنتِ مع مرتا أم معي؟

صمت..

في اليوم الثالث، صرخ: أَسكتي البنت، أريد أن أنام.

فحملت زهيرة صغيرتها وخرجت إلى بيت أبيها تاركة إدوارد يتقلّب كجمرة في قيلولته الحارقة، في نهايات آب، أغسطس.

* * *

عادت مرتا أكثر حيوية مما ذهبت، وجهها مضاء بشمس مشرقة، وأطرافها تتحرّك برشاقة كما لو أن في كل طرف موجة.

كانت العصافير في انتظارها، ويبدو أن خوفهم من فقدانهم لحناجرهم طوال أسبوع، جعلهم يغنّون بكل ما فيهم من اندفاع. استطاع إدوارد رغم ذلك أن يلتقط صوت تلك الصغيرة التي وعدتْه بأن تغني بصوت أعلى من الجميع. وعادت صغيرته لأفضل ساعات نومها، لكن زهيرة لم تسعَ لتأكيد ما قالته، فهي لم تكن ترغب في أن تكون على حقّ وزوجها على باطل.

* * *

بعد شهر من عودة مرتا وإسكندر من رحلتهما، بدأت أغان وموسيقى من نوع آخر تتدفق عبر شبابيك بيتهما، وتحلّق في فضاء البلدة الصغيرة صاعدة هابطة، مثل طيور ملونة. زهيرة نظرت إلى السماء ورأتها، نفضت رأسها عدة مرات، غير مصدقة عينيها، لكن الطيور الملونة لم

تختف، أدارت رأسها، نحو الشرفة المجاورة لبيتها، ولم يكن صعبًا عليها أن ترى الطيور تخرج من هناك، حيث يتواصل عزْف مرتا.

خرجت تركض حافية، غير قادرة على أن تسمع نداءات إدوارد التي كانت تطاردها: إلى أين؟

وصرخ بصوت أعلى، انتبهت، التفتت إليه، لم ترد، أشارت إلى السماء. نظر إدوارد إلى الأعلى لم يرَ شيئا، واختفت زهيرة.

- لقد جنّت، قال لنفسه.

بعد لحظات، صمت البيانو، تلاشت الموسيقى، فغدا الأفق شاحبًا، لكن ذلك لم يطُل.

كانت زهيرة تحتضن مرتا، وهي تضحك فرحة:

- صحيح إللي بفكر فيه؟

- صحيح، صحيح يا زهيرة.

- ألف مبروك، لا تقولي لي متى حدث الحمْل. منذ سفرك وإسكندر في أسبوع العسل؟ صحيح؟

- صحيح.

- لا تزعلي مني يا مرتا، ولكن كان عليك أن تذهبي في رحلة شهر عسل من سنوات طويلة، لو فعلتِ، لكان ابنك يركض الآن في الحارة.

- ولكنني أظن أنها ابنة.

- لا، لا يمكن. تعتقدين ذلك لأنني أنجبتُ بنتًا بعد شهر عسلي، أنتِ غير!

- سنرى..

تقافزت زهيرة في الهواء راقصة.

- هل تسمحين لي أن أعزف على البيانو بهذه المناسبة؟

- يا ريت.

راحت زهيرة تعزف، وكأنها تعجن، وفي الأسفل، سمع إدوارد تلك الفوضى المنبعثة من البيت العلوي المجاور، فهمس لنفسه: امرأة تخرج راكضة حافية، واسمها زهيرة، لا يمكن إلا أن يكون هذا عزفها.

دسّ سبابتيه في أذنيه.

قتْل الصورة!

أحبَّ موشيه طبرية: البحيرةَ وشطَّها، وأسماكها المتقافزة في الهواء بين حين وحين مشكِّلة دوائر صغيرة على سطح الماء. عمل الكثير لالتقاط صورة جيدة لها، لكن المسافة بينه وبينها، وسرعة ظهورها واختفائها كانتا تحولان دون ذلك.

.. وكره موشيه طبرية، لأنها شكّلت أول امتحان له، كرهها لأنه لم يستطع أن يُخْلِيْها من الناس، وهو يعني هنا: الفلسطينيين، لأنهم كانوا يملأون المكان كله، بشوارعه وبيوته ونوافذه وحقوله وبياراته، بسياراتهم وعرباتهم وأولادهم ونسائهم ورجالهم، وكذلك البحيرة، بمراكبهم.

ليس لهم وجود كما أخبره الرجل الضخم!

ولكنهم أكثر منا!

لكنه وهو يجوب شوارعها، ويفاجأ بصغار فلسطينيين يتحلّقون حوله، أثارهم ظهور الكوداك الصغيرة الخفيفة، لم يرَ إلا المعاملة الطيبة منهم، حتى أنهم كانوا يحاولون التحدّث معه. وكلما اقتربوا، تراجع أكثر، حريصًا على أن يترك مسافة مترين بينه وبينهم على الأقل.

الرجل الضخم قال له: إن صادفتهم، إياك أن تلمسهم، أو تسمح لهم بأن يلمسوك، إنهم مرضى؟

- مرضى؟ جميعهم؟!

- نعم يا موشيه، كلهم مرضى، وسيموتون، عاجلا أم آجلا، وأنت هنا لتعيش، أليس كذلك؟

- بالطبع، أنا هنا لأعيش.

- وحاذر أيضا أن تصوّرهم، لأنك ستخسر الكاميرا إذا فعلت ذلك!

- الكاميرا؟!

- الكاميرا.

* * *

ما أثار انتباه موشيه أن أحدًا من مستقبليه لم يتحدّث معه بعد أن أمّنوا له غرفة في مقر الصندوق اليهودي. كل ما حدث أن صاحب اللحية البيضاء قال له: يمكنك أن تبدأ عملك غدًا، باستطاعتك أن تتجوّل، لا توجد أية أخطار، فالمكان آمن.

سأل موشيه عن نحماني، فقال له ذو اللحية البيضاء: إنه في جولة خارج المدينة. سيعود، وسيعثر عليك بنفسه، هذا رجل لن تجده إذا بحثتَ عنه!

في مساء اليوم الثاني لوصوله، استطاع موشيه أن يلتقط عدة صور للمدينة، عن بعد، من بينها صورة لطائرة البريد البريطانية التي تصل طبرية مرتين في الأسبوع، قبل أن تواصل طريقها إلى عناوين أخرى.

أدهشه كثيرًا هبوطها وإقلاعها فوق الماء. كانت الصورة التي التقطها لها أفضل صورة يلتقطها حتى ذلك الوقت.

بعد عودته، قام موشيه بتظهير الصوّر، هوى قلبه، لقد رأى امرأة فلسطينية وطفلها الممسك بطرف ثوبها، في الجانب الأيمن لواحدة من الصور.

صُعق، تلفّت نحو الكاميرا، وهو ينتظر اللحظة التي ستنفجر فيها، أو تحترق، أو تذوب.

لم تنفجر، لم تحترق.

أحرق الصورة، وأعاد تظهيرها لاغيًا أي أثر للفلسطينية وطفلها.

أنهى عمله، غسل يديه، جفّفهما، وقبل أن يخرج، تذكر النجاتيف، أحرقه.

* * *

لم يظهر نحماني. وبعد أسبوع أرسل موشيه مجموعة من الصّور، حملتْها طائرة البريد غربا إلى لندن، إلى عنوان شخص، ما، لا يعرفه، ليقوم بدوره بإرسالها إلى برلين.

كل شخص رآه موشيه يثير الريبة، اعتقد أنه نحماني، حتى أن بعض الفلسطينيين الذين أثارت هيآتهم في نفسه الشكوك، ظنهم بين حين وآخر نحماني المتخفّي.

استعاد جملة الرجل ذي اللحية البيضاء، عن نحماني: هذا الرجل لن تجده إذا بحثتَ عنه!

قرّر أن ينسى نحماني تمامًا، وأن يعمل كما يحسّ هو، وغلَبه فضوله، فصوّر عددًا من الصيادين الفلسطينيين العائدين من رحلات صيدهم، عند الصباح، بمراكبهم الممتلئة بالسمك.

كان مشهدهم جميلا فعلا، لم يستطع مقاومته، وتأكد من جمال المشهد، حين تجرأ وطبع الصّور. كانت تحفًا فنية حقًا.

لسبب لا يعرفه، قرر موشيه أن يرسل كل الصور التي يلتقطها، وأن يترك لبرلين مهمة تحديد الصورة الجيدة من السيئة!

مساء الخميس، كانت الدفعة الثانية، وعددها أربع وعشرون صورة تُقلع نحو الفضاء، صوب وجهتها النهائية.

الجريمة.. والعقاب!

زمن طويل مرَّ، وإدوارد فرح وحزين بعزف مرتا وغناء عصافيرها، إلى أن عاد ذات يوم من أيام عام 1936، من عمله في القدس، بعد إغلاق مخازن الحبوب التي تعود إليه، ظانًّا أن الإضراب الذي تمّ إعلانه، ضد السياسة البريطانية وموجات الهجرة اليهودية، سينتهي خلال يومين، أو حتى أسبوع، لأن الإدارة البريطانية، سترضخ في النهاية لصوت الشعب الفلسطيني لتتلافى غضبة من نوع آخر قد تعمّ البلاد.

أوقف إدوارد سيارة البلايموث أمام بيت والدته قبل عودته إلى بيت ساحور، وطلب منها أن ترافقه، لأن الوضع في القدس سيكون أخطر، مقارنة بأي مكان آخر. رفضت: هذا بيتي وأنا لا أغادره مهما حدث.

خرج، رفع رأسه، وهو على يقين من أنه سيرى ما سيراه. كانت ابنة جارهم، فكتوريا، هناك على الشباك، بشعرها الذي طال، خارجًا من بين حديد الحماية، وهابطًا بسواده العميق، وهو على وشك ملامسة الحافة العليا لأحد شبابيك الطابق الذي تحتها.

أربكه الأمر، وأزعجه.

خرج من الشارع مسرعًا.

* * *

أمام باب بيته الخارجي، في بيت ساحور، سمع إدوارد صوت بيانو. نظر إلى ساعته، لم تكن تشير إلى الوقت الذي تعزف فيه مرتا! ولم يبدُ له الصوت قادمًا من بيت إسكندر. فتح الباب ودخل؛ تأكّد له أن الصوت يأتي من داخل بيته!

تقدّم بحذر، فتح الباب، ازدادت قوة الصوت، أطلّ متلصِّصا، فوجئ بزهيرة جالسة أمام البيانو تعزف، وابنته رنا تستمع لها بانتباه وفرح.

كما لو أنها ارتكبتْ خطأ غير متوقّع، لا يجوز أن ترتكبه، تجمّدت أصابع زهيرة في الهواء. أحست بوجود شخص آخر في البيت، حتى قبل أن تراه، أو تراه صغيرتها.

أما إدوارد، فتحوّل إلى عمود من ملح، وكان عليه أن يمضي وقتا طويلا محدّقًا في زوجته، قبل أن يراها تقترب منه مرحّبة، تسأله عن تلك المفاجأة الجميلة المتمثلة في عودته في غير موعده إلى البيت!

- أنتِ تعزفين؟!

- وكيف يمكنني أن أعزف؟! كنت أُسلّي الصغيرة بتحريك أصابعي على مفاتيح البيانو دون أن أعرف أيّ الأصابع لأي المفاتيح!

- بل كنت تعزفين بشكل جيد.

- صحيح؟! لا، لا أظن ذلك، كنت أتحرّك من نغمة إلى نغمة بفوضى لا أكثر.

- زهيرة، إياك أن تكوني قد تعلَّمتِ العزف من وراء ظهري.

- أنا، كيف تتخيّل أنني يمكن أن أفعل شيئا كهذا؟! إذا كان ما سمعته جيدًا، كما تقول، فهو ليس أكثر من حظ المبتدئين لا أكثر، فأنا في النهاية لا أعرف عن البيانو إلا ما أسمعه عن بعد من معزوفات مرتا وغناء عصافيرها.

فكّر إدوارد قليلا في الأمر، لكنه لم يجرؤ على طرح ذلك السؤال الخطير: هل تُعلمكِ مرتا العزف دون معرفتي؟! وبدل أن يفعل ذلك، قال لها: اذهبي واطلبي من زوجة أخيك أن تتوقّف عن العزف، منذ اليوم، لأن فلسطين تعيش أيامًا صعبة، لا نعرف إلى أي مدى ستصل التطوّرات بعدها، كما أنه لا يجوز أن يكون هناك أناس يموتون وأناس يعزفون، هذا ليس وقت العزف.

* * *

أسبوعا كاملا صمتَ بيانو مرتا، مرتا التي لم تستطع دحض حجة إدوارد، إلى أن جاءها الأولاد في اليوم الثامن مطالبين بمواصلة الغناء.

عادت إلى العزف.

وكم فوجئ إدوارد بذلك، نفض عن نفسه الغطاء، واندفع نحو الباب، وقبل أن يتجاوز العتبة، توقّفت سيارة عسكرية بريطانية أمامه مباشرة، تأمله المستر سيكرست مفتش البوليس الإنجليزي، ثم هبط من السيارة.

- ألا تعرف أن هناك حظرًا للتجوال؟

ارتبك إدوارد: لا، لا أعرف.

- لا تعرف! أكاد أصدّقك! بدل أن ترشدونا للثوار الذين يختبئون في بيوتكم، تعزفون الموسيقى، وكأننا لسنا هنا!

وأشار لسائق السيارة أن يُطفئ محرّكها.

أنصت.

- كأن هناك مذياعًا، أو اسطوانة؟! بل يبدو أن هناك من يعزف.

- لا أظن أن هناك أحدًا يعزف.

- بل هناك من يعزف. قال الضابط. وأضاف، أنتم تكذبون حينما تقولون الصّدق، فكيف يكون الأمر في اعتقادك حين تكذبون؟!

أشار الضابط لجنوده باتجاه الصوت، فانطلقوا. بعد دقائق عمّ الصمت من جديد. عاد الجنود.

- هناك امرأة تعزف على البيانو.

نظر الضابط إلى عيني إدوارد مباشرة، وقال: لا أريدك أن تقول شيئا، لأنني أعرف أنك ستكذب ثانية.

وأمر الجندي أن يسير أمامه إلى حيث البيانو.

فوجئ الضابط ببيانو فخم، هزّ رأسه، ثم أشار إلى جنوده.

- حطموه.

تردّد الجنود.

وقفوا حائرين، وهم يحدّقون إلى وجه مرتا التي كانت ترتجف، غير قادرة على أن تعرف سببا واضحا لارتجافها، هل هو خوفها على البيانو؟ أم خوفها على ما في بطنها، جنينها الذي كانت تتوقّع خروجه إلى العالم في أي لحظة؟ أم خوفها من أن يكون أحدهم قدّم تقريرا عن إسكندر وغيابه عن بيت ساحور منذ انطلاق الثورة؟

- قلت حطموه واتبعوني، أمرهم المفتش سيكرست ثانية، وخرج.

اطمأن قلب مرتا وهي تتابع صوت خطواته تبتعد، لقد نجا إسكندر!

توقف الزمن للحظات، والجنود ينقّلون بصرهم بين بطن مرتا الأشبه بقبة، والبيانو الرابض بصمت ويأس غريبين، منتظرًا لحظة إعدامه.

وانفجر قلب مرتا، حتى قبل أن يرفع أحد الجنود بندقيته في الهواء، ويهوي على البيانو، مرّة تلو أخرى.

ومن داخل البيانو انفجرت عدة صيحات حادّة..

وأمام الباب، قال الضابط لإدوارد: هذا لكي لا تكذب مرّة أخرى.

* * *

أغلق إدوارد الباب، عاد إلى زوجته وابنته. اتخذ مكانه فوق الأريكة الطويلة، ولم تفارق عيناه البيانو المستغرق في سباته كدبّ، إلى أن هبط الليل.

زيارة سريعة

الرجل ذو اللحية البيضاء، قال لموشيه: عليك أن تخصص وقتًا محددًا، لكي تتدرب على السلاح.

- ولكنني مصوّر؟

- نحن نتّجه إلى المجهول هذه الأيام، ولا مكان هنا بيننا للمصوّرين إن لم يعرفوا شيئا غير التصوير. ثم إن هذا لحمايتك، إن لم يكن اليوم، فغدا. في لحظة ما لست تدري متى تحين، ستكون مضطرًّا لوضع الكاميرا جانبا للدفاع عن نفسك، أو للدفاع عن الكاميرا، ألا تحبّها؟

- بالطبع.

- غدا سيبدأ تدريبك ولنرَ أي مقاتل عظيم أنت!

وتوالت الأسابيع، لم يظهر نحماني..

بعد منتصف الليل

لم يستطع إدوارد أن ينام، كلما أغمض عينيه، كان يحسّ بأنه يهوي أعمق وأعمق في بئر الصمت الثقيل، الصمت اللزج الذي يطبق على وجهه، وجسمه. وعبرتْه فكرة قاتلة، أنه لن يستطيع سماع أي شيء ما دام بيانو مرتا قد صمت.

تقلّب في فراشه، كانت أعضاؤه ثقيلة.

بعد منتصف الليل، سرت فيه رعشة حين خيّل إليه أن حاسة السمع قد عادت. نفض رأسه غير مصدّق ما يسمع، التفت حوله، كان الضوء الشاحب يغمر الغرفة، استند، لم تكن زهيرة هناك.

وعاد الصوت ثانية إلى أذنيه، لم يكن صوتًا صادرًا من أي واحدة من ابنتيه النائمتين بسلام، كان يأتي من الخارج.

خفق قلبه.

في تلك الليلة أطلّ على العالم إنسان جديد، وعندما أطلق صرخاته الأولى، سمعت مرتا البيانو المحطم يعدو للحياة من جديد. رقصت زهيرة، كما رقصت حينما علمت بأن مرتا حامل، وهي تردّد: ولد، ولد، ثم توقفت فجأة ونظرت إلى وجه مرتا، وقالت بفرح:

ـ ألم أقل لك أنتِ غير؟ أم نسيتِ؟

ـ لا، لم أنس.

ـ هل اخترتِ له أسما؟

- نديم، إسكندر طلب مني أن أسميه نديم.

الامتحانات كلها!

سمع موشيه طرْقًا قويًا على باب غرفته. أشرع عينيه، كان الظلام وحده هناك. أشعل الضوء، سار نحو الباب بأقدام مترنّحة.

الرجل الطويل النحيل ذو العينين البنّيتن والملامح الحادة، الرجل الذي طرق باب غرفة موشيه، سقط على وجهه ضوء الغرفة عبر الباب، كان أشبه بإنسان يرى وجهُهُ النورَ لأول مرة في حياته، أبيض بصورة لا تُصدّق، في جيب سترته البنية قلم حبر، وعلى ظهره كيس من خيش، يقبض عليه بيد يُسرى معروقة.

مدّ يمناه، صافح موشيه.

ـ أنا ليفي، وطلب منه أن يرتدي ملابسه على عجل ويتبعه.

تمنى موشيه لو أن الكاميرا في يده، لكان التقط، لليفي هذا، صورة نادرة، لوجهٍ من تلك الوجوه التي يراها المرء في الزوايا المعتمة للوحات رسامي القرون الوسطى.

ـ هل آتي بالكاميرا؟

ـ ما هذا السؤال؟! طبعا عليك أن تأتي بها، حتى أكثر الجنود شجاعة، لا يذهبون إلى الحرب دون بنادقهم!

بسرعة ارتدى موشيه ملابسه.

تبِع ليفي. بعد مائة متر، استقلا سيارة متوقّفة في طريق ضيّق معتم؛ بمجرد أن جلسا فيها، انطلقت السيارة. موشيه في المقعد الخلفي، وليفي في المقعد الأمامي، بجانب السائق.

بصمت راحت السيارة تسير في طريق صاعد، قبل أن تنعطف في طرق جانبية غير معبّدة. مسافة طويلة قطعتْ، حتى توقفتْ في قطعة من الأرض صغيرة بين جبلين.

فتح ليفي باب السيارة، ترجّل، ففعل موشيه الأمر نفسه. ألقى نظرة نحو السائق، كان السائق نفسه الذي أحضره من الخضيرة!

لم يكونا قد ابتعدا أكثر من عشرين مترا حين استدارت السيارة عائدة!

أنزل ليفي الكيس. بعد لحظات سمع موشيه صوت قطع معدنية يرتطم بعضها ببعض. وتحت ظلمة تتبدّد، رأى بندقية أمام عينيه.

- أتعرف وجه الشبه بين البندقية والكاميرا؟

- لا.

- حين نُطلق الرصاص يسمي الإنجليز هذه العملية: Shoot شووت، وحين تلتقط الصورة يقولون أيضًا: شووت. أترى، أنت جندي، حتى دون أن تعرف! سننتظر إلى أن يكون هنالك ضوء، ونبدأ العمل، قال له ليفي، وأعاد السؤال ثانية: أتعرف وجه الشبه بين البندقية والكاميرا؟!

افترشت مشاعر الضيق ملامح موشيه، وتساءل: هل يمتحنني هذا الرجل؟

- نعم، التقاط الصور وإطلاق الرصاصة، يطلق عليهما بالإنجليزية: شووت.

- لا، فاجأه الرّجل، أنا أتحدّث عن فرق آخر.

صمت موشيه، أضاف ليفي: أنت لا تستطيع أن تصيب هدفك في الظلام، وكذلك الأمر مع الكاميرا، إلا إذا أردت أن تُغامر، فإطلاق النار سيكشف مكانك، وكذلك الأمر إذا ما استخدمت أي ضوء لالتقاط الصورة! أنا وأنت لا نستطيع أن نفعل ما نفعله متى نريد، بل في الوقت المناسب!

أسند ليفي ظهره إلى صخرة كبيرة، وقال لموشيه: استرح، سننتظر بزوغ الشمس لنبدأ العمل.

شعور قويّ دَهَم موشيه: يرسلونني للقاء نحماني، فألتقي بليفي، ما الذي يضمرونه لي؟!

* * *

أشرقت الشمس، ولما يزل ليفي يتبع السؤال بآخر، ومع كل إجابة رمادية يصل إليها، يزداد وجهه احتقانا.

فوجئ موشيه بالبندقية تسقط على فخذيه، تنبه.

- علينا أن نبدأ. أمامنا عمل طويل.

نهض موشيه.

- هل سبق لك أن أطلقت النار؟ سأله ليفي.

- أبدًا.

- هذا أفضل، لأنني أحب أن أبدأ مع جنودي من نقطة الصفر، هكذا أستطيع أن أصنع منهم مقاتلين مختلفين! وصمت قليلا وهو يتأمل المكان، هل ترى تلك الصخرة البيضاء الكبيرة هناك؟ صوِّب بندقيتك وفجِّر قلبها.

ارتبك موشيه، لكنه أدرك أن ما يسمعه أوامر، لا طلبات.

رفع موشيه البندقية، ووجه فوهتها نحو الصخرة.

- الآن.

ضغط موشيه على الزناد متوقّعًا صوتًا يصمّ أذنيه، وقوة ارتداد تلقيه أرضًا.

كان الصمت وحده هناك.

- أتعرف الفرق بين البندقية والكاميرا يا موشيه؟

سمع موشيه انفجار نفسه، كان غاضبًا: اسم الإطلاق واسم الالتقاط، وعلاقة الكاميرا والبندقية بالضوء والليل!

- ليس هذا وحده يا موشيه. حين توجّه البندقية إلى شخص ما، يجب أن تكون متأكّدًا من أنك حشوتها بالرصاص، وإلّا لن تصيبه، مهما كنتَ ماهرًا! وكذلك الكاميرا، عليك أن تتأكد من أن هناك فيلما في داخلها.

امتدّت يد ليفي إلى البندقية، ذخّرها، وناوله إياها: بإمكانك الآن أن تطلق الرّصاص.

دوَّت الرصاصة، ارتد جسد موشيه إلى الوراء قليلا. لم يسقط، أحسّ بأنه تلقّى لكمة قوية في التجويف الضيق بين حافة كتفه الأيمن وأسفل رقبته.

- لقد قمت بشيء جيد، علينا أن نتأكد من مدى براعتك الآن.

سار ليفي نحو الصخرة يتبعه تلميذه. لم يكن هناك أي أثر للرصاصة على سطح الصخرة. تنهّد ليفي، وسأل:

- أتعرف وجه الشبه بين البندقية والكاميرا؟

- أيضًا!

- بندقيتك التي بعين واحدة، وكاميرتك التي بعين واحدة، لا يمكن أن تكونا عمياوين إلا إذا كنت أعمى. كما يخلو الهدف من آثار الطلقة، يكون الفيلم فارغا لا شيء فيه، لأنك لم تستطع التقاط ما تريده، حقا، من المشهد الواسع الذي أمامك.

تحت أشعة شمس النهار المتسللة من بين الغيوم، كان وجه موشيه قد تحوّل إلى كتلة من رماد كثيف.

جلس ليفي على الأرض، وبدأ بتفكيك البندقية.

- هل انتهى التدريب؟!

- هذه بداية تكفي، لن آخذ من وقتك أكثر، أمامك مهمّة أخرى، أليس كذلك؟!

أعاد ليفي البندقية إلى الكيس، رأى موشيه قطعًا من الملابس المحشورة فيه.

- أظن أن باستطاعتي أن أمسك بالكاميرا، أليس كذلك؟ سأله ليفي.

- بالتأكيد؟

- أتظنّ أن باستطاعتي أن أتعلم التصوير بالسرعة التي ستتعلم فيها أنت التصويب؟

- بالتأكيد.

- ويمكنك أن تعلّمني؟

هزّ موشيه رأسه كمن يقول: أجل. وعبَرَه فرح سريّ، فها هو يتحوّل إلى معلّم أيضا.

* * *

- أسمع صوت السيارة عائدة، هيا بنا. قال ليفي.

العودة إلى القدس

غدت الحارة أكثر اكتئابًا.

استعاد إدوارد صورة المستر سيكرست، وهو يعطي أوامره بتحطيم البيانو، حين وصله خبر استشهاد الشاب سامي الأنصاري.

في التاسعة عشرة من عمره كان الأنصاري، أستاذًا للغة الإنجليزية في المدرسة الرَّشيدية، وقد اهتزت القدس وفلسطين كلها عند استشهاده، هذا الشاب الذي لم يعد يحتمل جنون وفظائع المستر سيكرست مفتش البوليس الإنجليزي، فكمَن له الأنصاري مع شاب آخر، بين باب الأسباط وباب الساهرة، وأطلقا النار عليه، فأصاباه، وأصابا الجندي المرافق له، لكن الجندي استطاع أن يجرح سامي.

تدافع بعض شباب المدينة لإسعافه، لكن الجنود تابعوهم واعتقلوه، وقبل وصوله إلى المستشفى، في سيارة الإسعاف، فارق الحياة بسبب الضرب الشديد.

قرر إدوارد أن يتسلل إلى القدس.

في طريقه إليها، لم يكن صوت تهشّم البيانو يفارق أذني إدوارد، حاول مرارًا استحضار معزوفات مرْتا، ونجح، لكن صوت ارتطام بنادق الجنود بتلك الآلة المسالمة الجميلة، كان ضربة النهاية التي لا شيء بعدها غير دويّ الصمت.

أما أغرب ما حدث له، فهو مرور صوت بيانو مرتا المهشم خطفًا، وهو يسمع خشخشة مفاتيح مخازنه وهو يخرجها من جيبه في تلك الظهيرة الحزيرانية الحارّة.

مُنهكة كانت المدينة، والحياة متوقّفة فيها.

* * *

- هذه هي مفاتيح المخازن، وزّعوا ما فيها على الناس، كما ترون. قال لرجال الثورة في المدينة.

حين فتحوا المخازن، كانت ممتلئة، حتى السقوف.

ارتبك رجال الثورة:

- ولكننا لن نستطيع أن ندفع لك ثمنا لهذا، إلا إذا أعلنّا استقلالنا وأصبحت لنا دولة!

- لا عليكم، أنا صبور جدًا، ويمكنني أن أنتظر حتى قيام الدولة، لكن لا ضرورة لأن تنشغلوا بثمنها، فأنا لم أدفع لأبي ثمنها حين ورثْتها.

- هل أنت متأكد مما تقوله؟

- ما دامت الحالة مستورة، فكل شيء على ما يرام.

بتردّد استلموا المفاتيح. عانقه أولهم، طال العناق، وتململ الدمع في عيون البقية.

- لن ننسى ما قدمته أبدًا.

- بل عليكم أن تنسوا، لأن الشيء الوحيد الذي يجب ألا ننساه أبدًا هو دماء شبابنا.

* * *

في داخل البيت كانت أمه تنتظره، وخارجه، امرأة أخرى على الشباك. قالت له أمّه وهي تحتضنه: كل شيء توقّعته أن يحدث إلا قدومك! وحيّره أن قلبها، بكلِّ صفائه، لم يستطع أن يتوقّع ذلك، هو الذي لم يفهم، كيف ظهرت تلك الجارة على الشباك، ما إن رفع بصره، وقبل أن يخفضه، كان شعرها يرف خارج حديده، لكنها سحبته بسرعة، فزمان الثورة لا يتّسع لرايات سود.

من تلك الفئة النادرة من الأمهات اللواتي لا يطلبن شيئا، كانت أمه، بل والقادرات على تبرير حتى غياب أبنائهن طويلا عنهنّ.

- الله يعينك، فالحِمْل الذي على كتفيك ثقيل. كانت تردّد دائما. رغم أن أسابيع كثيرة كانت تمرّ، أحيانا، دون أن يراها، ورغم معرفتها أنه يملك الكثير الذي يساعده في ألا ينشغل عنها!

أخبرها أنه سلم مفاتيح المخازن لرجال الثورة، ولم يكن مضطرًا لأن يشرح لها أي شيء، وأضاف، أخبرتهم أن يسلموا المفاتيح لكِ، بعد توزيع ما فيها.

- أظن أن وضع الناس في المدن أقسى بكثير من وضعهم في القرى، فهناك اعتاد الناس على أن يعيشوا على ما يزرعون ويربّون. ولكن قل لي، كيف عائلتك؟

- الحمد لله، سنزورك في أول يوم تنتصر فيه الثورة.

- طوال الليل أدعو الله أن يرينا يوم نصر.

- هانت، لم يبقَ سوى القليل، إنها معركة العضّ على الأصابع.

* * *

كانت القدس كلها هناك في بيت والد سامي الأنصاري، بحيث يمكن لإدوارد أن يقول إنه التقى كل من يعرفهم في ساعات قليلة. التربوي والأديب خليل السكاكيني أشار له أن يجلس بجانبه، عانقه، وجلس. لاحت منه نظرة للجريدة التي يحملها السكاكيني في يده. لاحظ السكاكيني ذلك.

- إنها جريدة بالستاين بوست، الإنجليزية، التي يُصدرها اليهود. لقد أغلق الإنجليز كل صحفنا وطاردوا صحفييها، وتركوا لليهود الحرية الكاملة في إصدار صحفهم. سأرسلها إلى ابني سِري، ليطلّ على أوضاع البلاد، حتى لو كانوا هم من صاغ أخبارنا. سيفهم الأمر حين يقرأ عن أكبر مناورة حربية إنجليزية منذ الحرب الكبرى لملاحقة الثوار من جبال نابلس حتى خط سكة الحديد في اللد وحيفا.

- إنهم يكتبون عن هجومهم علينا، لكنهم لا يكتبون عما نفعله فيهم، علّق إدوارد.

- كلما اشتدّت الهجمات، اعرف أننا أقوياء، فهجماتهم لا تتراجع إلا حين نكون مُتراجعين، ولا تنتهي إلا إذا انتهينا تماما، لا سمح الله.

- أمس سمعتُ قصة من تلك التي لا تكتبها الصحف، عن فلاح أمسك معه الجنود الإنجليز شفرة حلاقة، فاعتبروها سلاحًا، رغم أنه أقسم لهم أنها لحلاقة ذقنه، وهذا هو سبب صناعة مثل هذه الشفرات، لم يصدّقوا بالطبع.

- ضربوه حتى أوشك على الموت، قبل أن تنقله واحدة من عرباتهم إلى السجن، لمحاكمته فيما بعد على جريمته التي زلزلت أركان الإمبراطورية في كل جهات الأرض! أضاف أحد الحاضرين وهو يهزّ رأسه بأسى.

قبل أن يغادر السكاكيني، مال نحو إدوارد، وهمس له: سمعت بما قمتَ به، لن تنسى لك فلسطين تبرّعك بكل ما تملك للثورة.

صمت إدوارد قليلا، أخذ نفسًا، ثم مال نحو السكاكيني وهمس أيضا:

- إنهم يبالغون يا مُعلِّم.

- لا أظنهم يبالغون، وقد تبرّعت بكل ما في مخازنك، ولم تُبقِ شيئًا لك.

- بل أبقيت الكثير، فهناك بيتنا هنا، وبيتي في بيت ساحور، سيارتي، وأشياء أخرى كثيرة لم أتبرع بها، أرأيت؟ إنهم يبالغون.

امتدت اليد اليمنى للسكاكيني وربّتت على يُسرى إدوارد، ونهض مودّعًا.

دروس أخرى!

ستة أيام تواصل المشهد: صباحًا يطرق ليفي باب غرفة موشيه، ينهض، يتبعه، تحملهما السيارة إلى الموقع نفسه بين الجبلين، يجلسان حتى بزوغ الشمس، ثم يبدأ العمل. لكن الشيء المختلف عن اليوم الأول، أن ليفي لم يكن يكلّم موشيه في شيء؛ يأتي صامتًا، يستقل السيارة صامتًا، يناوله البندقية وهو يدعوه لإعادة تركيبها، صامتًا، يطلب منه أن يطلق النار، صامتا، يتفقّد الصخرة، صامتًا، ويدعوه لتفكيك البندقية صامتًا، وإعادتها إلى الكيس، صامتًا!

لم يُعلّق على أيّ مما قام به موشيه، ملامحه كانت تتكفّل بذلك، عيناه، وعندما نجح موشيه في إصابة الدائرة التي تشير إلى قلب الصخرة، مرتين، بفارق ثلاثة سنتيمترات بين الرصاصة والأخرى، ربّت ليفي على كتفه، وهزّ رأسه بإعجاب واضح.

في كل يوم من الأيام الستة، بعد انتهاء التدريب، كان ليفي يحمل الكوداك برفق، ويتعلّم طريقة استخدامها، مرّة يوجهها صوب موشيه، ومرة صوب تلك الصخرة البيضاء التي لم يبق جزء فيها خاليا من آثار طلقات التدريب.

موشيه كان سعيدًا بالصمت، لأنه أراحه من ذلك السؤال الذي تكرر كثيرا في صبيحة اليوم الأول، عن أوجه الشبه بين البندقية والكاميرا.

* * *

حين وصلا عائدين إلى طبرية مساء ذلك اليوم معزَّزين بنجاحات موشيه في مجال استخدام البندقية، شدّ ليفي على يده، وتأمله من رأسه إلى قدميه، حتى خيل لموشيه أنه يودعه.

غاب ليفي ثلاثة أيام، وبدا وكأن موشيه نسي تمامًا أمر نحماني، لفرط سعادته بنجاحاته المتكرّرة في إطلاق النار.

شيء ما غامض، كالحنين، استولى عليه وهو يتقلّب في فراشه متذكّرا ملمس البندقية، واحتضانه لها. ولو سمح له ليفي بالكلام، في الأيام السابقة، لقال له: إن ما يجعل البندقية مختلفة عن الكاميرا، أنك تحسّ بنبض البندقية، أوضحَ، حين تُطلق النار، وإن ذلك يترك أثرًا مدوِّيا، قويا وجميلا، كما أن البندقية تترك أثرا في جسدك، كتفك، تماما كما تفعل أيّ امرأة تحبك في لحظة اتحادكما الكبرى!

* * *

خلال الأيام الثلاثة، تجوّل موشيه صحبة السائق في مناطق مختلفة في الشمال، ذهب إلى الناصرة، صفد، شفا عمرو، صفّورية، دير حنّا، عرّابة، وفي المساء كان يعود ويبدأ بتظهير الصّور.

بعد أن جلس ليرتاح مساء اليوم الثالث، سمع طرْقا على باب غرفته، فعرف الطارقَ قبل أن يفتح الباب.

- مساء الخير موشيه.

- مساء الخير.

- هل تسمح لي بالدخول؟

- أهلا وسهلا.

وحاول موشيه أن يتبسّط معه أكثر فكرّر: أهلا وسهلا مُعلّمي؛ كان مزاجه جيدًا.

- علمت أنك أمضيت الأيام الثلاثة في الشمال. لم ترسل الصّور بعد إلى برلين، أليس كذلك؟

- لا لم أرسِلها.

- هل أستطيع رؤيتها؟

- بالتأكيد.

توجّه موشيه لإحضار الصور، فسأله ليفي: أرجو ألا تكون قد تعرّضت لأي أخطار؟

- شكرًا على سؤالك، كنا حذرين، ولكن يبدو لي أن الأمور تسير نحو الانفجار، لقد رأيت عن بُعد مظاهرات عربية، وشاهدت سيارة جيب بريطانية محترقة، وحدّثونا عن هجمات متكرّرة يشنّها العرب ضدنا في الناصرة والمناطق المحيطة بها.

لم يعلّق ليفي. نشر الصور ما إن ناوله إياها موشيه على أرضية الغرفة، تأمّلها بصمت شديد، ثم بدأ بتقسيمها إلى مجموعات.

رفع مجموعة من الصور، وسأل ذلك السؤال الذي طالما كرهه موشيه: أتعرف وجه الشبه بين البندقية والكاميرا؟

موشيه الفرِح بإنجازاته في مجال التصويب، كان أكثر ثقة، فقال: تعني بالتأكيد أوجهًا مختلفةً عن تلك التي أخبرتني بها؟

- أجل.

- أعرف شيئا لا يجعلهما متشابهتين!

- وما هو؟

تحدّث موشيه باستفاضة عن المرأة والبندقية والآثار التي تتركها في كتف الرجل في لحظتهما الكبرى، مستعيدًا وجه زوجته نتالي، فسأله: متزوج أنت يا موشيه؟

- أجل، ولي من امرأتي ولد، اسمه ناحوم، ناحوم نوردو. إنه يحمل اسم الصحفي الشهير: ناحوم نوردو.

هزّ ليفي رأسه بطريقة لم يستطع موشيه أن يفهمها.

- ستصل امرأتك وولدك إلى هنا، لا أستطيع أن أحدّد لك الموعد تمامًا، لكنهما سيصلان.

أدرك موشيه أن ليفي هو السبب في قدوم امرأته وولده إلى هذه الأرض التي قال عنها بنفسه: إنها موشكة على الانفجار.

أما ما أرعبه، فهو الثقة التي يتحدّث بها ليفي كما لو أنه الآمر الناهي، يأتي بمن يشاء، ويُبعد من يشاء.

- كنت سألتك عن وجه الشبه...

- ليس في ذهني شيء.

- أنظر إلى هذه الصور، هل تلاحظ فيها شيئا ما؟

- لا.

- بعض الرصاصات يجب أن تُطلق من مكان قريب كي تُصيب مَقْتَلًا، وكذلك بعض الصّور، وإلا لن تحقق الهدف! سيخيّل إليك أنك أصبتَ، وهذا صحيح، ولكنك لم تقتُل. هذا هو وجه الشبه الخامس.

ناول ليفي مجموعة الصور التي علّق عليها لموشيه، وهو يهزّ رأسه، يدعوه للنظر إليها.

- الكاميرا لم تستطع إصابة شيء في هذه الصور يا موشيه، هناك منظر واسع صحيح، ولكنه لا يبدو جميلا، لأن تفاصيله غائبة، هذا لا يدفعني للتعلّق بالمكان الذي صوّرتَه، لا يجعلني أحسّ به. هذا مشهد ميت، ولو كنا نتحدّث عن البندقية لقلنا إنك نجحت في قتْل المشهد. لكن مهمتك هنا أن تحييه في كل عين ستراه في برلين وسواها، وأن تقول: هذا المشهد الآن حيّ، لا كما كانوا يظنون.

صمت ليفي طويلا. انحنى وتناول المجموعة الثانية، وبدأ يهز رأسه:

- أتعرف ما وجه...؟ سأقفز عن السؤال: يهيأ لي أنه بدأ يضايقك، فهذه صور جميلة حقًا، ولذا أحبّ أن أقول: بعض الطلقات صامتة، وبعض الصور يمكن أن نُطلق عليها (طبيعة صامتة) كما يُطلقون هذا الوصف على لوحات الرسامين.

لم يبدُ موشيه فرحًا بالثناء على المجموعة الثانية من الصّور، فطلب منه ليفي ورقة وقلما، ولما أحضرهما، راح يكتب ويكتب. أنهى الكتابة، ناوله الورقة ونهض.

سار موشيه خلْفه، وبودّه أن يكوِّر الورقة ويلقيها أرضًا، لولا أنه تذكر أن ليفي ربما يكون، فعلا، الشخص الذي أصدر أمرًا بإحضار زوجته وولده.

أخذ نفسًا عميقًا، وراح يقرأ بصوت مرتفع:

- بعض الرصاصات يمكن أن تكون سامّة، وبعض الصّور أيضًا.

- حين تطلق بعضَ الرصاصات يجب أن تكون متخفيًا بطريقة جيدة، كي تستطيع إطلاق رصاصات أخرى، وكذلك بعض الصّور.

- بعض الرصاصات عمياء، ولذا لا تستطيع أن تضمن أنها ستصيب، وبعض الصور أيضًا، لا أنصحك بها، إلا إذا كنت مضطرًّا!

- بعض الرصاصات تُطلَق لإخافة العدو وإبعاده، وبعض الصور، فالناس يخافون الصورة كي لا تلقي عليهم القبض متلبِّسين بفعل يعاقبون عليه.

- بعض الرصاصات قادرة على أن تصيب أكثر من شخص في مقتل، وبعض الصّور أيضًا.

* * *

تلك الليلة لم ينم موشيه، ظلّ يتأمل الصور باحثا عما يربطها بما كتبه ليفي. أحيانا يعثر على رابط بين الطلقات والصور، وأحيانا لا يعثر.

قبيل الفجر أسند ظهره إلى الجدار، والورقة في يده. لحظات وأغفى.

بعد أقل من ساعتين سمع الطرَقات نفسها على الباب.

نهض فزعًا.

فتح الباب، امتدت يد ليفي إليه بكيس كان في يده اليمنى، وأمره: اتبعني.

- إلى أين؟

- علينا أن نذهب لنصوّر الآن!

- سأحضر الكاميرا.

- لا ضرورة لذلك. اليوم، لن تحتاجها!

عودة الغائب

عاد الرجال إلى مدنهم وقراهم، كأنهم قادمون من سفر طويل، سفر ما انتهى ولن ينتهي. استعاد إسكندر رحلته من الأراضي الروسية إلى فلسطين، لم يكن أقل تعبًا، وهو يعود إلى بيته بعد انتهاء أكبر إضراب في تاريخ بلاده.

عاد الرجال إلى مدنهم وقراهم، رجال عاشوا في الجبال، قاتلوا، لوحِقوا، جُرحوا، واستُشهد كثير من رفاقهم في المعارك أو أعدِموا، عادوا حاملين حلمَ تحقّقِ الوعود التي قطعها لهم الملوك والأمراء العرب، من أجل وقف الثورة.

ولم يطل الوقت قبل أن ينزل المطر في نهايات تشرين الثاني، نوفمبر، مطر غزير، لم يجرف التراب في السفوح والوديان، وحسب، بل بدا وكأنه يجرف كل الوعود بوطن أكثر أمانا. وما إن دخل كانون الأول، ديسمبر، ومطلع سنة 1937، حتى تجمّد كل شيء. بردٌ شديد، وليل أكثر سوادًا من ذلك الذي عاشته فلسطين في أيّ يوم مضى.

* * *

كان الصمت موحشا، قابضا على أعناق البشر، ماحيا أصواتهم، وأصوات خطاهم، صرير أبوابهم ونوافذهم وهي تفتح وتغلق، وأصوات طيورهم في السماء وفي أفنية البيوت.

أول ما فعله إدوارد أن طلب من مرتا وإسكندر أن يُعيراه البيانو!

نظر الواحد منهما إلى وجه الآخر، ولم يكن يلزمهما أن يسألا: ما الذي ستفعله بهذا البيانو المهشّم؟

- فقط أعيراني إياه.

بدل أن ينقل البيانو إلى بيته، وصلت شاحنة، نزل منها عمال مَهَرَة، غلّفوا البيانو جيدًا، ووضعوه في صندوقها. في وقت تجمّع فيه الأولاد يحدّقون في تلك الكتلة بحزن، الكتلة التي لم تكن سوى جثة البيانو الذي أسعدهم كثيرًا. أما الشاحنة، فبدت لهم ذاهبة إلى مكان واحد، هو مقبرة الصمت التي تُدفن فيها، هناك، كل الآلات الموسيقية التي تموت!

منذ تهشيمه، لم يكن ما فعله الإنجليز يغيب عن بال إدوارد، لكنه لم يجرؤ أن يجرح مرتا بإرسال البيانو الذي في بيته إليها، فهو يعرف أن ذلك البيانو ليس كأي بيانو في العالم، إنه السعادة، التي لم يجرؤ على تقديمها لها.

* * *

في ظهيرة يوم مشمس، بعد أسابيع، سمعت بيت ساحور كلها، هدير محرّك تلك الشاحنة الهابطة من بيت لحم. ظلّت تسير إلى أن توقّفت أمام باب بيت مرتا وإسكندر. وقبل أن تلامس أقدام العمال المَهَرة الأرض، كانت عصافير مرتا كلها قد تجمّعت حول الشاحنة، وحينما لامس البيانو الأرض، وسمع الصغار صوت الحياة القادم من جوفه، نغمات افتقدوها طويلا، قالت الصغيرة رولا للطفل الذي بجانبها:

- يعني راح نرجع نغني زي زمان؟

* * *

من بيته، سمع إدوارد البيانو يعود للحياة في بيت مرتا. أخذ نفسًا عميقًا، محاولا أن يضبط إيقاع قلبه، ليكون جزءًا من إيقاع اللحن.

لكن البيانو عاد لصمته، حين قال إسكندر لمرتا، وهو يمسّد رأس ابنه، نديم، الغافي.

- لا أظن أننا سنغني من قلوبنا من الآن وإلى زمن طويل.

- ما زلت متشائما.

- بل ترسّب تشاؤمي في داخلي، كالطين، أعمق وأعمق. قلت لك: في اليوم الذي توقّف فيه الإضراب، وانتهت الثورة، فلسطين ضاعت! ولم يحدث منذ ذلك التاريخ شيء يشير إلى أنني أخطأت. ليتني أخطأت يا مرتا.

- لا تقل كلاما كهذا، فلسطين لا تضيع ما دمنا موجودين فيها.

- يا مرتا، يا حبيبتي، حين يُقايض الثوار ثوراتهم بالوعود، يخسرون كلّ شيء. لا أعرف كيف قبلوا أن يقايضوا عملا وأملا وغضبا وحلما بوعود. يا مرتا سنشتهي يوما كنا نجوع فيه ونُطارَد ونُسجَن ونُقتَل، ونفضّله على يوم لا نفعل فيه شيئا سوى انتظار أن يُنصفونا. يا مرتا لن ينصفنا أحد إن لم ننصف أنفسنا.

* * *

يوم عودة البيانو من حيفا، اختلى إسكندر بإدوارد، قال له: رضيت أن تأخذ البيانو وتصلحه، لأنني لا أعرف من يُصلحه، بل إنني في الحقيقة اعتقدتُ أنه أُعطب ولا مجال لأن يعود ثانية كما كان. كنت كمن يضع بين يدك شخصًا ميتًا، ولن يحزن أكثر إن لم تستطع إعادته للحياة، فالضرر الذي ألحقوه به، كان كبيرًا. كنت على يقين من أن البيانو سيبقى هنا ذكرى غالية لزواجي بمرتا. ولا أكتمك، لقد خفت أمرًا واحدًا: أن يحدث له ضرر أكبر أثناء نقله، أو أن يضيع، أو يُدمَّر لأي سبب من الأسباب، لكنك فاجأتني، وفاجأت مرتا بعودته جديدًا كما كان. فشكرًا لك، لكن الشيء الذي يتوجب عليّ أن أفعله هو أن أسألك عن نفقات تصليحه، لأنني أظنها كانت كبيرة.

رفع إدوارد رأسه الذي كان مُطرقًا طوال الوقت، وهو يستمع، ونظر إلى عيني إسكندر مباشرة:

- أولًا، لا يمكن أن تشكرني على أمر كهذا، لأننا عائلة، ثم إن تصليح البيانو لم يكلّف كثيرًا كما تعتقد، سوى نقله، فصاحب الشركة التي تمّ تصليحه فيها رفض أي نقود مقابل عمله، لأنه أوشك أن يبكي وأنا أخبره بقصة البيانو مع الجنود الإنجليز، أما الأهم من هذا كله، فهو أنني كنت السبب في تحطيمهم له، ولو لم أستطع إصلاحه لحزنتُ كثيرًا.

- لكن ذلك لا يجوز، علّق إسكندر.

- لو غاب سبب واحد، أو اثنان، من تلك التي ذكرتها، لطلبتُ منك بنفسي أن تدفع لي. لكن هناك ثلاثة أسباب، ثلاثة أسباب كبيرة، فهل تقبل عليّ أن آخذ منك أجرة السيارة التي حملتْه وأعادتْه؟

ربّت إسكندر على كتف إدوارد، وهو يعرف أنه سيكون في مأزق كبير لو أنه دفع لإدوارد مقابل تصليحه، فطوال شهور الإضراب الستة، كان بيت إسكندر في أسوأ حالات الضيق، كما كل منازل بيت ساحور التي أرهقها السعي وراء حياة لم يعد فيها من علامات الحياة غير اسمها.

* * *

كل من رأوا البيانو عائدا، انتظروا انطلاق نغماته، وأولهم عصافير مرتا، لكن ذلك لم يحدث.

في مكانه القديم، صامتا، كان البيانو، كما لو أن من أصلح هيكله، نسي إصلاح عطب أكبر، لم يره، في داخله.

مأزق العنوان!

وصول دفعات جيدة من صور موشيه إلى برلين، كان فرصة أخرى لكي يجلس ياكوف وناحوم نوردو معًا، لتأمّلها، كما فعل ليفي تمامًا، ولكنهما قسّماها إلى مجموعات خمس، بخلاف ليفي الذي وزّعها إلى أربع.

الأولى: صور المستعمرات وما يحدث فيها من بناء وتطوير.

الثانية: صور الأراضي الخالية.

الثالثة: صور الفلسطينيين في المدن والقرى والسهول والمزارع والأسواق وعلى شاطئ المتوسط وضفة طبرية.. وغيرها.

الرابعة: صور الطبيعة الجميلة.

الخامسة: الصور الفنية، والتي قرّرا وضعها جانبًا، لأنها كانت معنيّة بتفاصيل ومشاهد صغيرة، لشجرة أو مشهد غروب أو نافذة بيت.

قررا أن يخصّصا المجموعتين: المستعمرات والأراضي الخالية، للنشر في المجلة، وللعرض في المحاضرات العامة واللقاءات مع سياسيين، فالمجموعتان تقدمان أفضل دليل لدعم قولهما بأن الأرض كانت جرداء وكيف تمّ إحياؤها!

المجموعة الثالثة: صور الفلسطينيين، خُصصت للعرض في اجتماعات القيادات الصهيونية الكبيرة، لتدارس كيفية مضاعفة الجهد للتعرّف على حجم الخطر الذي يواجه إقامة الدولة. ولم يغب عن بالهما الخطأ الذي وقع فيه ذات يوم ثيودور هيرتزل في كتابه الدولة اليهودية، حين كتَبَ: (إن

فلسطين أرض خالية من السكان)، وصدّق ذلك الكثيرون بسبب اعتقاد سائد أنها أرض جرداء ملعونة، وخالية من البشر منذ أن صُلب فيها المسيح[7].

أما مجموعة الطبيعة، فقررا أن تكون وسيلة لإقناع اليهود بالسفر إلى فلسطين، باعتبارها أرض اللبن والعسل، وهذه الصور لا يتمّ نشرها خارج هذا النطاق، كما قررا ربط المجموعة، بصور المستعمرات وبيوتها ومنشآتها الحديثة.

أمسك ياكوف المجموعة الخامسة، وهي الصور الفنية، وقال: هذه سآخذها معي.

لم يسأله نوردو: ما الذي ستفعله بها؟ فقد كان يثق بذكائه.

* * *

عاد ياكوف إلى البيت، وجد نتالي، زوجة موشيه، وحفيده الصغير ناحوم؛ كان اقتراب موعد هجرتهما يملؤه بالوحشة حتى قبل أن يحدث.

رفع ناحوم الصغير، وقبّله، وقال لنتالي، أظن أن عليَّ أن آخذ ناحوم الصغير للسيد ناحوم ليودّعه، أنت تعرفين كم يحبه.

تعمّد ياكوف، حينما اندفع لاحتضان حفيده، أن يضع الصور متعمّدًا فوق طاولة وسط صالون البيت، بحيث تتناثر كاشفة ما فيها.

لاحظت نتالي الصور فورًا، بدأت بتصفحها. حضرت زوجته، وقبل أن تمسك بها تساءلت: أهي صور موشيه؟ هزّ ياكوف رأسه مؤكدًا ذلك، ومواربة راح يسترق النظر ليعرف مدى تأثير الصّور.

- ما هذه الصور؟ سألت نتالي؟ وابتعدت زوجة موشيه غاضبة باتجاه المطبخ، وهي تسأل: لماذا لا يُرسل صورًا له؟

تأكدت وجهة نظر ياكوف بشأنها: هذه صور لا تثير اهتمام أحد، حتى أمّ المصوّر!

* * *

في المساء، وضعها في مظروف يشبه ذلك الذي جاءت به، وكتب رسالة من ست كلمات: موشيه! لم نرسلْك إلى هناك لتصبح فنانا!

وفي صباح اليوم التالي مضى لإرسالها بالبريد؛ كانت تلك المهمّة أمرًا يكرهه تمامًا، لأن عليه في كل مرّة يُرسل فيها رسالة إلى هناك أن يكتب:

العنوان: فلسطين..

لأنه يعرف أنه لو كتب: (إسرائيل) لما وصلت أبدًا!

عودة العصافير

شيء ما كان يعتصر قلب إسكندر، ضاعفه صمت مرتا، صمت العالم حوله، الفراغ الذي ابتلع كل شيء، البلاد والعباد. من ساحة كنيسة المهد كان خارجا، كان يائسا، لا خلاص أمامه ولا خلاص خلفه. توقّف، غير قادر على أن يقرر: هل يعود إلى البيت، أم يسير نحو الكنيسة اللوثرية للقاء القس سعيد عبود؟ همس لنفسه يكفي ذلك الرجل ما هو فيه، سأضاعف همومه لو ذهبت.

. هزّته يد ناعمة، التفتَ:

- كريمة عبود، مصوّرِتنا العظيمة![8]

- كريمة، ولكن بلا أي عظَمَة، كيف الحال؟

- تستطيعين أن تقولي إنني نصف بخير، ولكنني لا أعرف إلى متى سأظلّ كذلك!

- لم أفهمك.

- في الحقيقة معك حق، لأنني لا أفهم أيضا ما أنا فيه. على أي حال، أظن أنني بحاجة إليك لأجمع مرتا وعصافيرها من جديد، في صورة واحدة.

- هل باتت تربي العصافير؟

- أعني فرقة الصغار الذين تعلِّمهم الموسيقى.

- أنا حاضرة. ما هو أفضل وقت لكم؟

- في أسرع وقت، لأنني أحسّ بأنّ شيئا ما سيحدث، ولا أعرف نتائجه!

ـ وما هو؟

ـ هذه هي المشكلة، فأنا لا أعرف ما هو.

ـ أظن أن الأمور معقدة، أليس كذلك؟

ـ معقدة؟ أظنّ كثيرًا؛ ولكن قد تستغربين، كنت أفكر قبل لحظات بزيارة والدك القسّ سعيد، وتوصلت إلى أن الوقت غير ملائم الآن. في أيّ حال سأزوره وأترك عنده خبرًا عن موعد التقاط الصورة، إن لم تكوني موجودة.

ـ وأنا في الانتظار، عن إذنك، سلِّم لي على الست مرتا وقبِّل لي عصافيرها.

ـ سلمتِ، يوصل.

استدارت كريمة، راقبها حتى وضعتْ الكاميرا في صندوق سيارتها، ثم قادتها مبتعدة.

* * *

بعد أسبوع من صمت قاتل، طلب إدوارد من زهيرة، أن تُحضر جوقة عصافير مرتا كلها. استغربت ذلك، لكنها فعلت. تجمّع الأولاد والبنات في حوش بيت إدوارد غير قادرين على معرفة السبب الذي دعا لجمْعهم في مكان طالما أزعجوا بغنائهم صاحبه.

ـ أريدكم أن تغنوا.

فوجئ الصغار.

لكن بشرط: بصوت منخفض!

.. وغنّوا بصوت منخفض، صوت مكتوم.

دعكت مرتا عينيها، وحين تأكد لها أن ما يحدث لا يمتّ لعالم الأحلام، ابتسمت.

وضعت صغيرها في سريره، وسارت باتجاه البيانو، حرّكت أصابعها، نافضة الصدأ الذي علق بهما لشهور طويلة، وقبل أن تلامس البيانو، سمعت النغمات تخرج منه.

كانت تعزف في الأعلى، والصغار يغنون متتبعين نغمات البيانو بانضباط شديد أمام إدوارد في الأسفل.

في تلك اللحظات، خفق قلبه، وقد تخيّل أنه يعيش تحت سقف واحد مع مرتا! وخفق قلب إسكندر بقوة أكبر، فها هو إدوارد يكسر صمت مرتا، وينتصر عليه، بإعادتها إلى الموسيقى!

يوم الغارة

أقلعت الباخرة التي حملتْ نتالي وابنها ناحوم، عبر خط بحري مباشر بين ميناء هامبورغ وميناء حيفا لنقل المهاجرين اليهود أقيم بإشراف مباشر من حاخامية هامبورغ[9]. كانت رحلة مثالية لم يحظ بها موشيه، أو أولئك الذين هاجرون قبله.

في أجواء بحرية هادئة وطقس نهايات أيار المعتدل، شقّت الباخرة طريقها بيسر. كانت التحسينات الكثيرة التي طرأت بعد الرحلات الأولى، قادرة على أن تبعث الأيمان في نفوس المهاجرين في صوابية وجهتهم، وخيار الهجرة، كما لو أن السماء تشقّ لهم البحر ليعبروا، للمرّة الثانية!

* * *

المفاجأة الكبرى التي وجدتها نتالي في انتظارها، انضمام موشيه إلى منظمة عسكرية يهودية، وتخلّيه عن الكاميرا.

ولكي يضمن صمتها أجبرها على أن تُقسم أنها لن تُبلغ أحدًا بما تعرف.

* * *

كان الباب الذي فتحه وصول الكوداك في رأس ليفي واسعًا بحيث لا يمكن إغلاقه. فبعد تلك الدّروس المرتجلة، الحكيمة، كما وصفها، الدّروس التي ألقاها على مسامع موشيه، بدأ نهر من الأفكار يهدر بلا توقف في جمجمته، حول البندقية والكاميرا، إلى أن وصل لأول أفكاره الكبرى: برصاصة البندقية تستطيع أن تقتل شخصًا واحدًا أو اثنين، إذا كنت موفّقا! لكنك بالكاميرا تستطيع أن تبيد مدينة حين تُخْليها من سكانها!

بوصوله إلى تلك النتيجة تغيّرت حياته تمامًا.

انفرد ليفي بموشيه، بعد أيام من عصف ذهني أضناه. كل شيء كان في رأسه واضحًا، لكنه لم يكن يعرف أفضل السبل لإقناع موشيه بما يفكر فيه. في النهاية، ما إن جلسا، حتى طرح الأمر دفعة واحدة، حريصًا على أن يبدو كطرْفة: ما رأيك أن أعطيك بندقيتي وتعطيني الكوداك؟ وأطلق ضحكة مرتبكة لم تخرج من القلب، بل من عمق الخوف.

ضحك موشيه بدوره، وأجاب: كان يمكن أن تكون فكرة جميلة لو لم تكن تسخر من الكوداك!

استجمع ليفي شجاعته، وقال: ولماذا تظن أنني أسخر؟

- أنت تقصد ما تقوله إذًا؟!

- كل كلمة!

ارتبك موشيه، وبدأ يفكر بسرعة مستعرضًا كل النتائج التي تنتظره إذا ما أقدَم على ذلك.

قطع ليفي حبل أفكاره: هنا لن يهتم أحدٌ بما سنفعله، فالجميع يرى أنك أفضل قناص رأوه حتى الآن، وهم يحتاجونك كثيرًا، أما مَن تخشى غضبهم في برلين، فسأرسل إليهم صورًا لم يحلموا بها، وأعاهدك: ستظلّ هذه الصور تُرسل إلى هناك وكأنكَ مُرْسلها، وإذا أردت أن تكون مطمئنا أكثر؛ سأصوّر، أعطيك الصور لتظهيرها واختيار الأفضل منها، ثم تُرسلها بنفسك إلى العنوان، الذي لا أريد أن أعرفه.

مدّ موشيه يده، صافح ليفي، فكاد الثاني أن يطير فرحًا وقد تمَّ الأمر بسهولة لا تُصدَّق.

- لدي سؤال واحد: لماذا توافق على صفقة كهذه؟ سأله موشيه.

- أولا لأنك تملك موهبة نادرة في إصابة الأهداف، لنقل: أفضل مني، وثانيًا..

ومال ليفي إلى أذن موشيه وهمس فكرته عن صورة قادرة على إبادة مدينة بإخلائها من سكانها، لكن موشيه لم يفهم الفكرة تمامًا.

* * *

لو تُرك الأمر لموشيه لتقديم ذلك العرض من الجهة المقابلة، لما تمّت تلك الصفقة أبدًا، بسبب خوفه من طرحها. هو الذي خطرت له أفكار كثيرة عن البندقية ورغبته العارمة في الحصول عليها، وضجره من رحلات التصوير المحفوفة بالمخاطر، في بلاد يدرك أصحابها أنك لم تأتِ إلى هنا إلّا لسلبهم إياها.

بدت البندقية مصدر ثقة، أعلى، بالنسبة إليه، بعيدًا عن كل تلك المقارنات الذكية التي سمعها من ليفي.

أحاسيس غريبة كانت تنتابه حين تكون البندقية في يده؛ كان يصبح أقوى، أكثر ثقة بنفسه، قادرًا على التحكّم في كل شيء حوله؛ في الطيور والحجارة وسيقان الأشجار وأعاليها، وبرؤوس البشر وصدورهم.

وفكّر: لو كانت لديّ بندقية مثلها منذ البداية، لما تردّدت لحظة في التقدّم صوب نتالي والحديث معها بجرأة، بدل أن أقف أمام السيد نوردو مرتبكا كطفل صغير، لأقول له إنني لم أستطع الحديث معها.

استعاد موشيه وجوه أطفال كبار كانوا يضايقونه، لكمات تلقّاها صامتًا، وصفعات عاد باكيًا إلى البيت وآثارها على وجهه.

- فقط، لو كانت هذه البندقية في يدي منذ تلك الأيام!

* * *

قبل أن يطلق موشيه النار على رأس أي فلسطيني، التحق بمناورة مشتركة، يهودية إنجليزية، كان هدفها التدرّب على اقتحام قرية فلسطينية وإخلائها من سكانها، بعد السيطرة عليها، ونسْف بيوت المُطارَدين.

توقّع موشيه أن يكون التدريب داخل مجسَّم مصغّر لقرية يُبنى لهذا الغرض، لكن المفاجأة التي كانت في انتظاره أن القرية كانت حقيقية، وأنه سيكون لأول مرّة في حياته وجهًا لوجه، في وسط معركة، مع فلسطينيين.

قائد المناورة، الضابط البريطاني، أخبر الجميع أنها قرية آمنة، لم تحدث فيها أي مشاكل من قبل، ولكن عليكم أن تكونوا حذرين، وأن تضعوا في رؤوسكم أن أي شخص في القرية يمكن أن يكون مسلّحًا، وهو بالتالي لن يتردد في إطلاق النار عليكم. لكنني أعيد: هي قرية هادئة، وهذه المناورة هي مقدّمة لمعركة ستجدون أنفسكم تخوضونها، مستقبلا، في قرى كثيرة ليست هادئة أبدًا.

* * *

كان أفضل وقت قبل الغروب بقليل، فهناك القرية كاملة، حيث تكتمل عودة الناس من حقولهم وأعمالهم، وهناك الظلام الأول، الذي يُعطي الجميع حسًّا بأن المداهمة حقيقية، كما يوقظ حواسّ المشاركين، إذ سيتوقع كل منهم أن يباغته مقاتل من زاوية ما، شبه مظلمة، ويُطلق النار عليه.

من ثلاث جهات شُنّ الهجوم. تقدّم الجميع، بألبسة الجنود البريطانيين، وبدأوا بإطلاق النار في الهواء، رصاص حيّ.

خطرت ببال موشيه تلك الأفكار عن الرصاصة والصورة، والرصاصة التي تُطلق لتخيف، وبعض الصور التي تُلتقط لتخيف، ووصل إلى أن لا شيء يضاهي البندقية في هذا. كان الناس العُزّل، يفرّون أمام القوات المهاجمة، الخيول تصهل وهي تدور حول نفسها، والمواشي تنفرط كحبات مسبحة، وقلوب الآباء والأمهات تلفحها نار الخوف على صغارهم الفزعين.

اقتحموا بيوتا، وأخرجوا مَن فيها، أو من استطاع الوصول إلى داخلها. اقتحموا حظائر الحيوانات، وواصلوا إطلاق الرصاص خلفها وهم يرونها تنتشر في الاتجاهات كلها.

وضعوا الجميع في ساحة القرية: الرجال في جانب والنساء والأطفال في جانب، وتقدّم رجل على رأسه كيس خيش، وعيناه تبرقان من فتحتين أُعدّتا لكي يرى.

تصفّح كيسُ الخيش وجوه الجميع، أشار بصمت إلى أحد الشباب.

طلب الضابط الإنجليزي من الشاب أن يتقدّم، سأله: ماذا تعمل؟

- أنا مهندس زراعي، أعمل في المنطقة، وأسكن هنا.

- مهندس إذًا؟!

اختلى الضابط الإنجليزي برئيس الفرقة اليهودية المشاركة في المناورة، وتهامسا.

- موشيه بالتأكيد، إنه الأفضل، يجب أن نعطيه حافزًا.

فوجئ موشيه حين طلب منه الضابط الإنجليزي أن يُطلق الرصاص على المهندس، لكنه لم يرتبك، صوّب البندقية، وقبل أن يصرخ الضابط: نار! كان موشيه قد أرداه قتيلا برصاصة في قلبه تماما.

ثار الناس، فوجدوا أنفسهم في مواجهة أكثر من مائة بندقية موجّهة إلى صدورهم.

وهكذا، ظلَّ المشاركون في المناورة يتراجعون، وعيون بنادقهم وعيونهم محدّقة إلى الناس، حتى فارقوا القرية.

* * *

في المعسكر الإنجليزي، احتفى الجميع بنجاح المناورة، وفي أوج إحساسهم بالنصر، دخل رجل على رأسه كيس خيش، رأوه، فصمتوا، كما لو أنه سيشير إليهم جميعًا، ممهّدًا قرار قتْلِهم، أو محاكمتهم.

امتدّت يده اليمنى، رفع الكيس ببطء، وقلوب من هناك تخفق بشدة، وكلما انكشف وجهه أكثر تعالت الشهقات، حتى ظهر وجهه تماما.

- هَلو! قال.

- هلو، هلو، هلو، ردّدوها، متقطعة، في بحر دهشتهم.

كان كيس الخيش جنديا بريطانيا.

- ولكن كيف؟ سأل قائد المجموعة اليهودية.

- حين تُقدِم على فعل شيء كبير كالقتل، فإن عليك أن تجد ذريعة مُقنعة، وفي هذه الحالة، ليس هناك أفضل من كيس الخيش، إذ سيعتقدون أنه جاسوس عربيّ منهم لا نريدهم أن يعرفوه، وأن

ما قمنا به لم يكن ارتجالا، قال الضابط الإنجليزي.

- ولماذا أمرتَ بقتل المهندس؟ سأل القائد اليهودي.

صمت الضابط الإنجليزي قليلا، دون أن يتوقّف عن تصفّح وجوه الجميع، ثم قال:

- لثلاثة أسباب: الأول، لأنه مهندس، وللواقعين تحت الاحتلال خياران: أن يظلوا جهلاء، أو أن يكونوا قتلى! أما الثاني، فهو أن يصدّقوا أننا قتلناه لسبب! في حين أن السبب الثالث، هو أن المهندس ليس من سكان القرية، سيحزنون عليه أجل، ويغضبون، ولكنهم لن يثوروا في وجهنا كما كانوا سيثورون لو أن القتيل واحد منهم!

- وكنت تعرف ذلك كله؟ سأل القائد اليهودي.

- وهل يمكن أن تدخل أرض معركة وأنت تجهل طبيعتها؟

وصمت الجميع، أما موشيه فقد أحسّ بشيء واحد: أنهم سرقوا نصره منه، بعد أن تبّين، أن الأمر كلّه خدعة لا أكثر!

انتظار!

لم يعد إدوارد يتذمر من صوت البيانو، كان يجلس كلّ مساء ويستمع إلى إن يصمت الصغار، ثم يتلاشى وقع خطاهم في طريقهم إلى بيوتهم.

كان يعرف، أن نصف ساعة، على الأقل، ستنقضي، قبل عودة ابنتيه من بيت خالهما إسكندر، لأنهما ستمضيان ذلك الوقت تلهوان مع الصغير نديم، فرحتين به، وحينما ستصلان، ستنطقان تلك الجملة معا، كما في كل يوم، الجملة الموجهة لأمّهما زهيرة:

- نريد أخًا لنا، مثل نديم.

وتردّ زهيرة، معيدة كل يوم الجملة ذاتها:

- لماذا تطلبان مني هذا؟ أذهبا واطلباه من أبيكما!

المصوِّر الشّبح

في الثالثة صباحًا، سمع موشيه طرْقًا قويا على باب بيته، ارتبك، كان بحاجة إلى بعض الوقت ليدرك ما يدور.

اشتدّ الطرْق، فطار إلى بندقيته في زاوية الغرفة، ذخّرها، وصرخ: مَن؟

كان على ثقة من أنه لن يسمع أيّ إجابة، لأن مَن في الخارج هم عرب جاؤوا لمهاجمته!

استيقظت زوجته وولداه ناحوم، وهِلْمان الذي وُلد بعد تسعة أشهر من وصول أمّه. أرسل لهما أمرًا بالصمت، وهو يشهر سبابته ويلصقها بشفتيه.

تقدّم صوب الباب، بملاصقة الحائط، وصرخ ثانية: مَن؟

- أنا ليفي، افتح الباب بسرعة.

لم يكن الصوت غريبًا عنه، فالصّور التي يصورّها ليفي، ما زال يمررّها، حتى بعد سنوات، كل مرة، إلى موشيه، ليختار منها ما يريد، ويرسلها إلى العناوين الجديدة التي زوّدوه بها في لندن، فيلينوس، موسكو.. وسواها، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية.

كان موشيه قد تحوّل إلى وكالة إخبارية مصوّرة، ولم يكن ذلك إلا بفضل المصوِّر الشبح الذي يقوم بعمله: ليفي.

- ألم يكن باستطاعتك أن تطرق الباب بهدوء في مثل هذا الوقت من الليل؟ أفزعتنا جميعا. قال له موشيه وهو يبتعد به عن بوابة البيت.

- كانوا سيرسلون إليك شخصا آخر، ولكنني تطوّعت أن آتيك. وتعرف السبب.

- من هم؟

- هم يا موشيه، هم، وهل هنالك غيرهم؟ القيادة.

كان الهواء باردًا في الخارج، ولم تزل رائحة شتاء فيه تتسلل إلى شهر نيسان، فتختلط مع روائح العشب، والأزهار، لكن ذلك كله لم يبدد مخاوف موشيه.

ظلّا يسيران حتى وصلا إلى طرف المستعمرة، اختار ليفي صخرة مُطلّة على الوادي وجلس، ففهم موشيه أن عليه أن يجلس.

سأله ليفي عن ناحوم وهِلْمان، ورغم أن موشيه كان يعرف أن سبب الزيارة المفاجئة لم يكن للاطمئنان على أسرته، إلا أنه أجاب بسعادة:

- هِلْمان ينمو بسرعة، يبدو أكبر من عمره بكثير، أما ناحوم، فلم أكن أتمنى ولدًا أكثر حماسة منه، كلما غفلت عن البندقية، لحظة، وجدته يحتضنها. هذا الولد خُلق جنديًّا.

لم يعلِّق ليفي، فتأكد لموشيه أن شريك صفقة التبادل نسيَ سؤاله!

* * *

كان عمود النور جوارهما يحوّل الليل إلى نهار.

- لماذا علينا أن نجلس هنا، ما دمت رسول القيادة؟ كان يمكن أن نجلس في البيت.

- ليس من الضروري أن نزعج أسرتك، ثم إن هناك كلاما ليس من الضروري أن يسمعه أحد.

كان موشيه على وشك أن يسأل: أي كلام؟ لكن اليد اليمنى لليفي سبقته، وسحبت صحيفة من الكيس القماشي، فاستطاع موشيه أن يرى الكاميرا، الكاميرا نفسها، خاصته، التي استبدل بها بندقية.

- ما الذي يحدث؟ سأل موشيه. لا تقلْ لي إنك قادم في هذا الوقت، بتكليف من القيادة، لتريني صحيفة عربية.

بسط ليفي الجريدة أمام عينَي موشيه، وبلا أي مقدمات، قال له بحنق شديد: لقد هزمتْني مصورةٌ عربية، أعني هزمتكَ، أعني هزمتْنا.

لم يكن صعبًا على موشيه، الذي ظلت الكاميرا حبه الأول أن يفهم معنى ما سمِع. كانت الصور واضحة، إنها صوره، صور ليفي! التي أرسلها إلى لندن منذ أشهر طويلة، لكنها ليست الصّور نفسها، إن هناك بشرًا يملأونها.

- إياك أن تكون أخطأت وأرسلت هذه الصّور إلى هناك، دون معرفتي؟

- أنت لم تفهمْني يا موشيه، هذه ليست صورنا، هذه صور التقطتْها مصوِّرة عربية..

- مصوِّرة؟ وعربية؟!

- أجل، مصورة وعربية اسمها كريمة عبود، ونشرتْها لتثبت أن صورنا كاذبة، وأن للبيوت التي صوّرناها أصحابا عربا، وأن مَن حولها أناس عرب؛ ويسكنها أناس عرب، أتفهم هذا؟

- وما الذي يخيفك؟ سأل موشيه، وأوضح: في النهاية، هي صور منشورة في صحيفة عربية لا يقرؤها سوى العرب.

- موشيه، عليك أن تخاف من أي شيء يُنشر، أيّا كانت اللغة التي يُنشر فيها؛ فما دام نُشر، لن تستطيع محوه، ولن تستطيع منع انتقاله، وهناك كثيرون ممن ليسوا معنا، إنجليز، أمريكان، ألمان؛ فالألمان في حيفا وطبرية والقدس، وبعضهم جاء إلى هنا قبلي وقبلك، والحرب مشتعلة هناك، وهم يعرفون أن ما يحدث من حرق وتدمير لممتلكاتهم هنا، نحن الذين نقوم به، انتقاما لما يحدث لنا على أيديهم هناك.

- وما الذي علي أن أفعله؟ لقد نُشرت الصّور.

- يا موشيه، هذه المصوِّرة ستُلحق ضررًا كبيرًا بي، أعني بك، بنا، إنها تُكذّب صورنا، وقد تُعيد نشرها صحف أخرى، عن هذه الصحيفة، وسنجد أنفسنا في مأزق كبير، أننا كذبنا.

- ليفي، باختصار، ما الذي تريده القيادة منّي؟ لم تأت في هذا الليل لتبوح لي بمخاوفك فقط.

- صحيح.

- إنني أسمعك، قال موشيه.

- لقد استبدلتُ ببندقيتي الكاميرا الخاصة بك، وكنتُ وفيًّا لهذه الكاميرا وحريصًا على كل صورة التقطتُها؛ والآن، آن الأوان، لكي تكون البندقية التي وضعتُها بين يديك وفيَّة لهذه الكاميرا؛ الآن، أكثر من أيّ وقت آخر.

- والمطلوب؟

- المطلوب أن تُخلّصني منها، أعني تتخلّص منها، أن نتخلّص منها، هذه المصوِّرة إلى الأبد. فلا مجال لأن تكون صورها إلى جانب صورنا، لا هنا، ولا في أيّ مكان في العالم.

- فهمت. أنت تعرف أين تسكن بالتأكيد.

- لقد زوّدتنا القيادة بكل المعلومات اللازمة عنها، وذهبتُ وتأكّدتُ من كل شيء، على الأرض، بنفسي.

- اطمئن. لن تزعجك ثانية، أعني لن تزعجني، أعني لن تزعجنا، قالها موشيه وابتسم كما لو أنه أتمّ مهمّته وعاد ليخبر ليفي بنجاحها.

فجأة عاد الصمت من جديد، سمعوا غناء شحرور، وبدت رائحة الورود أكثر وضوحًا.

- هل تعرف هذه الرائحة؟ أعني هل تعرف رائحة أيّ وردة نشمّ الآن؟ سأله ليفي.

عبَّ موشيه حفنة هواء ملأت صدره، وصمت قليلا، قبل أن يجيب:

- أهذا امتحان؟ لا، لا أعرف. وأنت هل تعرف؟

- لا، لا أعرف. قال ليفي وهو يضحك.

لغز الشابة الغامضة التي رفضت دخول الجنة!

كانت أجمل أغنية يسمعها إسكندر حتى ذلك الوقت، مبهورًا توقّف أمام متجر لبيع الأدوات المنزلية في بيت لحم. عرفه البائع، لاحظ وقفته، لكنه لم يجرؤ، حتى بكلمة، على جرح ذلك السّحر الذي أخذ بعقل الرجل الواقف أمام الباب. أما إسكندر فتمنى ألا تنتهي الأغنية، تمنّى أن يكون باستطاعته أن يطويها برقة، كرسالة حبّ، ويضعها في قلبه، سرًّا لا يعرفه أحد.

كانت الموسيقى جديدة تمامًا، وإيقاع الفالس يعلو ويهبط، يحمله، يؤرجحه، يحمل الأرض التي تحت قدميه، يحمل بيت لحم، بيت ساحور، القدس، يحمل العالم، ويعلو أكثر فأكثر.

لم يكن صوت المغنية غريبا عليه، لكنه لم يسمعه من قبل بهذه العذوبة، وهذا الجمال. ومثل كل شيء جميل، يرحل؛ مثل كلّ أغنية جميلة، تنتهي؛ انتهت الأغنية. وحين بدأ يستعيد بعض ما نقشه اللحن في قلبه، مُدندنًا، مستعيدًا لحنها وكلماتها، عرف إسكندر أن الأغاني الجميلة لا تنتهي. الأغاني الجميلة تسكنك، وتسكن كل من يسمعها، وتتسرّب منه لسواه، حين يغنيها، يحسّها. يسير في الشوارع وهي فيه، وتورِقُ في أحلامه حين ينام. لكن أكثر ما أخافه أن تسمعها مرتا، ستموت لو سمعتها، ستحترق، سيراها تقف عمودًا من رماد، وما إن تهبّ أول نسمة حتى تبعثرها إلى الأبد.

استرجع وجوها كثيرة تعرف قصة الأغنية، وجوها حضرت ذلك الحفل، في تلك الليلة، معظمهم كانوا من سكان القدس، لكن إدوارد حضرها أيضا، وإدوارد في بيت ساحور، في بيت مجاور لبيته. هل سمعها إدوارد قبل أن يسمعها هو، إسكندر، فهو يُصبِحُ في القدس ويُمسي في بيت ساحور. لم يعرف إسكندر ما الذي عليه أن يفعله، هل يستدير مبتعدًا، كما لو أنه لم يسمع شيئا؟ ولكن مرتا ستسمعها، ألم يقل إن الأغاني الجميلة لا تنتهي، تظلّ تتوالد، ولقد قالها في تلك الليلة فريد الأطرش بنفسه، هذه الأغنية ستعيش مائة عام على الأقل!

لقد خسرتْها مرتا فعلا، خسرت (ليالي الأُنس)، الأُنس كلّه، فأغنية كهذه لا تغنيها المغنية فقط، بل تغدو بيتها وجناحها وشمسها، تصبح عنوانها، جزءًا من اسمها، إن لم تكن اسمها كلّه.

حمد إسكندر الرّب أنه لم يفتح فمه حين عرض فريد على مرتا ذلك المشروع: أن تمضي إلى مصر، وأن تسجل لليالي الأنس، حمد الرّب أنه ترك الأمر لها، لتقرر، رغم أنه يعرف أنه أعطاها الحرية ليتحرّر من لوم أبيها، لو سمح لها أن تسافر؛ فوالد مرتا لن يكون مسرورًا بتحوّل ابنته إلى مطربة، ولن يكون أقل استياء من أهل فريد الأطرش نفسه، وشقيقته أسمهان، الذين وقفوا بشدّة ضد عملهما في الغناء والموسيقى.

.. وعاد يطوف بين الوجوه التي حضرت ثانية، هو يعرف أن بعضهم سيشمتُ بها أيضا، سيقولون لها، بعد سماعهم للأغنية: هل يُعقل أنك ضيّعت فرصة كهذه؟ مَن المجنونة التي تفعل ذلك؟

هل سيشمت بها إدوارد؟

لم تكن سرًّا مسألة رفض مرتا له زوجًا، وإن كان إسكندر قد أقنع نفسه، أن عناد إدوارد برفْضه تقديم البيانو لها، كان أفضل ما حدث. أقنع نفسه، لو أن مرتا كانت تحب إدوارد لتنازلت هي، ولما كانت أكثر عنادًا منه. هو يعرف أنه، إسكندر، تنازل لمرتا، قبِل أن يقدّم لها البيانو، لأنه يحبها، فمن المجنون الذي لا يقبل أن تكون الموسيقى جسرا بين حياته وحياة من يُحب.

..وفجأة، تذكر إسكندر أن أسمهان ماتت، فمتى يمكن أن تكون غنّتها!

* * *

.. ابتعد إسكندر، وما إن حاذى كنيسة المهد، حتى أحسّ بيد عملاقة تشدّه إلى الوراء. توقّف، التفتَ خلْفه، وعاد.

قبل أن يصل بوابة المتجر، أدرك أنه كان على حق، وأن الأغاني الجميلة لا تنتهي، لن تنتهي أبدًا، كانت إذاعة فلسطين تُعيد بثّ الأغنية، وكما في المرة الأولى، توقّف أمام الباب، وثانية سمعها، وثانية أحسّ بأن الأغنية تحمله، تحمل الأرض التي يقف عليها، تحمل بيت لحم، بيت ساحور، القدس، تحمل العالم. حدّق إلى الداخل، سار نحو البائع:

ـ ولكن ألم تمت أسمهان؟! متى غنّتها؟!

- أسمهان كانت سجلتها لفيلم (غرام وانتقام)، وماتت قبل انتهاء الفيلم أيضا، لكنهم تصرفوا وأنهوه بطريقة ما.

- هل نزلت أسطوانة هذه الأغنية؟

- معلوماتي تقول إنها نزلت، ولا يشغل مصر شيء هذه الأيام مثلما تشغلها هذه الأغنية والفيلم الذي تُغنيها فيه، ورغم موت صاحبتها إلا أن كبار المطربين كما تقول صحيفة الأهرام، وبسطَها أمامه، أصابهم الجنون عندما سمعوها، أتعرف لماذا؟

- لماذا؟

- لأنهم يعتقدون أن أسمهان ستظل تنافسهم بهذه الأغنية، حتى وهي ميتة، إلى زمن طويل!

- ولكن الأسطوانة لم تصل إلى هنا، هذا ما تريد قوله.

- للأسف، لن تصل قبل شهر، فمصر كبيرة، 18 مليون إنسان، والأغنية باتت مطلوبة كالخبز هناك.

أُحبط إسكندر، فلو وجد الأسطوانة، لاستمع إليها مع مرتا في أي بيت يملك غرامافون، وهو يعرف أن هناك ستة بيوت تملكه، من بينها بيت أخته زهيرة.

صمت قليلا.

لم يكن صعبًا على صاحب المتجر أن يرى ويسمع ما يدور في رأس إسكندر، فقال له:

- أظن أن هذا هو القرار السليم!

- أن أشتري المذياع؟

- أن تشتري المذياع. وبما أنني أعرف حكاية هذه الأغنية، فلن آخذ منك مُقدّم ثمن الراديو، سأقبله على دفعات مُيسرة؛ إذ يفضل أن تستمع زوجتك للأغنية من راديو تملكه، قبل أن تسمعها من أيّ راديو آخر، وصمت قليلا، قبل أن يضيف: يا سيد إسكندر.

* * *

عندما غادر المتجر والراديو بين يديه،، تأكّد إسكندر أن فلسطين بحجم القلب، فعلًا، لا يضيع فيها أحد، ولا يخفَى فيها شيء، واستغرب أنه نسي ذلك الخبر الذي تسلل إلى صفحات جريدة فلسطين، ونشرتْه الجريدة عن عرض فريد الأطرش الذي قدَّمه لشابة فلسطينية، بإعطائها أحد ألحانه، رغم أن الجريدة لم تُشر من قريب أو بعيد، أو توحي للقارئ باسم تلك الشابة، كأن تنشر الأحرف الأولى من اسمها. الشيء الذي لم يدركه، أن تحوّل الخبر إلى لغز، ضاعف عدد القراء عشرات المرات، وأن الناس استماتوا لكي يحلّوا لغز الشابة الغامضة التي رفضت دخول الجنة!

* * *

كان آخر شيء تتوقّعه مرتا في ذلك اليوم، أن يدخل إسكندر البيت، وفي يده ذلك الصندوق الكبير.

سألته عما فيه، فظل صامتًا، كما لو أنه لم يسمع السؤال، أما يداه، فكانتا تعملان بحرص على فتْحه. ظهر ما في داخله، شهقت مرتا: راديو؟

هزّ إسكندر رأسه، وواصل عمله بصمت. رفع الراديو، وضعه فوق طاولة، بجانب البيانو، قرب الشباك المطلّ على سهل الرّعوات، وأعدّه لاستقبال البث. شيء ما تحرّك في قلب مرتا، شيء غامض، لم تعرف ما هو، لكنها أدركت أن إسكندر لم يحضره إلّا لأن سرًّا كبيرًا في داخله، ولم يصمت كلَّ الصمت إلا لأنه يعرف أنه أعجز من أن يشرح لها ذلك السرّ.

فتح الراديو.

كان أول ما سمعاه معا صوت المذيع يعلن الثانية ظهرًا، موعد نشرة الأخبار.

خفق قلب مرتا من جديد، فلا أحد يستطيع أن يحمل الأخبار السيئة بالكفاءة التي حملتها، وظلّت تحملها نشرات الأخبار!

ولم يتكلّم إسكندر، وسارت النشرة، كالعادة، لا شيء فيها يسرّ.

ولم تتوقّف مرتا عن النظر إليه.

انتهت النشرة، وأعلن المذيع، وكما توقّع إسكندر، عن الأغنية الجديدة (التي اتفق نقاد الفن على أنها أعظم أغنية تغنيها أسمهان، وأفضل الأعمال الموسيقية حتى اليوم للموسيقار والمطرب فريد الأطرش)، وقبل أن ينطق المذيع اسم الأغنية، هوى قلب مرْتا.

* * *

- هل تعدني بشيء يا إسكندر؟

- أطلبي ولا تتردّدي.

- لا أريدك أن تطلب منّي أن أغني هذه الأغنية لك.

- لن يحدث هذا.

- وإذا طلب مني أحد أن أغنيها، وألحّ، ساعدني ألّا أغنيها.

- اتفقنا.

المُفكِّر!

أمضى موشيه أجمل سنوات حياته في فلسطين فرحًا ببندقيته، بل وعاشقًا لها، لكنه كان يحسّها مقيّدة إلى حدّ بعيد، مثل ولده ناحوم الذي كان يسابق الزمان كي يكبر أكثر. كان الاثنان يتطلّعان لمعارك حقيقية، لحرية أكبر في أن يُطلقا البندقية تعمل دون أن يكونا مضطرّين لتفسير أيّ شيء لأي أحد.

كان موشيه يتابع بلهفة ما يقوله قادته عن المعركة الشاملة للسيطرة على فلسطين. أكثر القادة اندفاعا، كان يرى أن ذلك ليس عمليًّا قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، أما من كان يراهم متشائمين، ويدعوهم: رسُل الشؤم، فقد كانوا يتحدّثون عن منتصف الخمسينيات.

ليفي، لسبب ما، لا يدركه، أحسّ أن أفضل ما يمكن أن يقوم به هو أن يصوّر، لا أن يقتل، فقد توصّل إلى أن صورة جيدة ستدفع ألف يهودي في روسيا وألمانيا وأوروبا للهجرة إلى فلسطين، في حين أن قتل فلسطيني برصاصة، لن يحقق نتيجة كهذه، وهذا أمر يرى أن الكاميرا تتفوق فيه على البندقية.

- دع ألفًا، بصورتك المتقنة، يأتون، وسيتمكّنون من قتل مائة عربي أو خمسمائة عربي، بدل تضييع الوقت في انتظار معركة، قد لا تتمكن فيها من قتل أكثر من اثنين أو ثلاثة.

المشكلة الكبرى -يصفها ليفي هكذا، وهو يعرف أنه يبالغ قليلا- كانت بينه وبين عدد من أصدقائه؛ فليفي تجاوز الأربعين، ولكنه لم يتزوج بعد، وحين كانوا يلحوّن في بحثهم عن سبب ذلك، كان يقول: في السفينة التي حملتْني إلى هنا، عاهدت نفسي أن لا أتزوج قبل أن أقتل عشرة من العرب.

ذلك العدد، كان مقنعًا بالنسبة إليه، لكن الفكرة في الحقيقة لم تكن فكرته. كانت فكرة لشاعر روسي يدعى يوري فاسيلي قرأ ذات يوم حوارًا صحفيا معه، يفسِّر فيه عزوفه عن الزواج، معللا ذلك بعهد قطعه على نفسه أن لا يتزوج قبل أن يصدر خمسة دواوين شعرية!

ليفي، وجد رقم خمسة صغيرًا إلى حدّ لا يستطيع المفاخرة به، فضاعف الرقم، رغم أن بقية إجابة الشاعر الروسي كانت: لأنني بالتأكيد سأتوقف عن كتابة الشعر إذا ما تزوجت!

ليفي لم يكن على يقين من أنه سيتوقف عن قتل العرب بعد الزواج، فكتابة الشعر شيء، واستخدام البندقية شيء آخر.

أيامها، فكّر ليفي كثيرا في الفرق بين القلم والبندقية، بين الكلمات والرصاصات، بين ظلمة الحبر وظلمة الموت، ولذا، حينما وصل موشيه، كان في الحقيقة مستعدًا لمقارنة الكاميرا بالبندقية.

* * *

الانتقال إلى الكاميرا كان مُحرجا بالنسبة إليه؛ رأى ذلك واضحا في عيون أفراد مجموعته العسكرية، بل ورأى أن بعضهم يتغامزون فيما بينهم حول سبب تخلّيه عن بندقيته.

عبثا حاول أن يشرح لهم ما الذي يمكن أن تعنيه صورة ناجحة. كانت الردود واحدة تقريبًا، تؤكد أن حجّته ضعيفة، لسبب واضح: حين تقتل عربيا فإن فعْل القتل أمرٌ مؤكّد، أما حين تصوِّر صورة، فإن حجم تأثيرها مجرد احتمال.

أحد أفراد المجموعة، قال له، بين الهزل والجد: أخشى أن ما تفعله يعود لعدم قدرتك على القيام بواجبات الزوجة مستقبلا! امتدّت يده إلى بنطاله، وأخرج عضوه، وقال أراهن أنه أكبر من أعضائكم كلها أنتم الخمسة، وتصاعد غضبه أكثر حين قال: بهذا سأقتل عددًا من العربيات، عندما يحين الوقت، أكثر مما ستقتلون ببنادقكم!

بهتوا، لم يعودوا لفتح الموضوع من جديد.

* * *

تحديات كثيرة كانت تواجه ليفي، فعلى الرغم من أنه لم يعد يسمع اتهامات جديدة له، إلا أنه كان يسمع خشخشات صمتهم بين وقت وآخر.

كان عليه أن يثبت لهم ولنفسه، وقبل ذلك لموشيه، ومن ينتظرون الصّور في برلين، أن ما يفعله أهم من أي شيء يمكن أن يفعله الآخرون.

* * *

بعد صور ناجحة التقطها ليفي، أدرك موشيه أن موهبته في مجال التصوير كانت أقلّ مما اعتقد، وتأكد من هذا حينما بدأت الرسائل تصله من برلين مشيدة بما يفعله! ومؤكدة على أنهم لم يخطئوا في إرساله إلى فلسطين. ولم يكن يلزمه سوى شيء آخر ليدرك مكانته كمصوّر: وصول رسالة غامضة له، فتحها، وقبل أن يقرأها، قرأ اسم مرسلها: آدم نحماني، ذلك الغامض الذي لم يره، نحماني الذي كان يمنحه فيها مرتبة الشرف!

بعد الصور الناجحة، خطرت ببال ليفي فكرة اختراع الصّور، أي أن يتمّ تأليفها ورسْمها في المخيلة أولا، ثم تصويرها ثانيا، كما يحدث في السينما.

كان ليفي بحاجة إلى أشخاص يمثّلون في الصورة، ولذا، كلما كان يمضي ليلتقط الصور، كان يبحث عن وجه قادر على الإفادة منه في صوَر المخيلة. في مستعمرة الخضيرة وجد ذات يوم مطلبه. رجل في الخامسة والأربعين من عمره، يعاني من شيب شعر مبكر بصورة لافتة، تخيله ليفي مزارعا يهوديًا بلحية كثيفة، يعمل دون كلل في أحد الحقول. كانت الصورة التي لم تُلتقط بعد، في رأي ليفي، أفضل صورة تقول لمن لم يهاجروا: أنظروا إلى هذا العجوز الذي يعمل على أن يجعل الأرض خضراء، ليمهّد سبيل عودتكم، رغم كبر سنّه وضعفه. رأى ليفي أن صورة كهذه لا بدّ من أن تُلتقط في حقل خصيب، حافل بنباتاته العالية.

طرح ليفي الفكرة على الرجل الأشيب، فوافق على الفور؛ كان يحب أن تكون له صور جيدة أيضا، يفتخر بها. وبعد أربعة أسابيع، طالت خلالها لحية الرجل الأشيب أكثر، ألبسه ليفي ثيابا ملائمة، وأخذه إلى الحقل الذي اختاره في تلال طبرية المطلّة على البحيرة، وبعث فيه حماسة غير عادية حين قال له: أنت الآن ممثل مثل همفري بوغارت!

وانتظر أربعة أسابيع أخرى، ليأخذ الرجل إلى القدس، ويلتقط له صورة أمام كنيسة القيامة، باعتباره كبير حاخامات أورشليم!

* * *

حوار طويل دار بين موشيه وليفي حول الصور المخترعة، قرر بعده موشيه أن يرسل الصور إلى لندن، رغم معرفته أنه يقامر بإعجابهم الذي ناله حتى ذلك الوقت!

المفاجأة كانت صاعقة: أحبّوا الصّور! أحبّوها كثيرًا، بحيث أرسل له السيد ناحوم نوردو نفسه، الذي هرب إلى لندن، رسالة يقول له فيها: كيف تمكّنت من فعل ذلك يا موشيه، لقد أقنعتنا نحن الذين نعرف الحقيقة، أن هناك كبير حاخامات في المدينة! أنت لن تستطيع تخيّل مقدار الحماسة التي أشعلتها في قلوب شعبك هنا، إن كثيرين منهم يحسون الآن أن موسى بُعث من جديد، وأنه في انتظارهم لكي يعيد بناء الهيكل معهم من جديد. موشيه، أنت مفكّر، ولكن وسيلة تعبيرك هي الصورة، إنك أعظم من أيّ مصّور عرفته من قبل، واصلْ عملك، ولن ينساك شعبك أبدًا، لن ينساك المستقبل.

* * *

أثارت الرسالة في قلب موشيه غيظا شديدًا، مع أنها موجهة إليه؛ قرر أن يخفيها! أما ليفي، فلم يكن يتوقّف عن السؤال عن أثر الصّور ورأي القادة البعيدين فيها. وفي كل مرة، كانت إجابات موشيه مختصرة وشبه غامضة: يقولون، إنها جيدة أحيانا، ولا بأس بها أحيانا أخرى. لقد أحبّوا صورة ما، لكني لا أعرف أي صورة يقصدون!

كل ما كان يخشاه موشيه أن يقول له ليفي: خذ الكاميرا وأعِد لي البندقية. وهذا ما كاد يحدث حين بدأ ليفي بالتحدث عن الصور المخترعة. لكن موشيه تدارك الأمر بسرعة، وقال له: إنهم يرون أنها أفضل صور أرسِلتْ إليهم حتى الآن.

مسّد ليفي على ظهر الكوداك، كما فعل موشيه في ذلك اليوم الذي وجدها فيه بين يديه أول مرة. وقال جملة واحدة: سأجعل اسمك لامعًا كأسطورة جديدة، يا موشيه!

ونهض بسرعة، كما لو أنه نسيَ موعدًا مع ألف صورة تنتظره في مكان ما.

كسْر الصمت..

ستة أيام أمضتها مرتا صامتة، حتى حينما تجمّع الأطفال مساء الأحد، وعزفت لهم، وغنّوا؛ ظلت صامتة. وإن كان ثمة شيء مفرح في ذلك الصمت، فهو أن الأطفال كانوا ينطلقون في غناء الأغنية، ما إن يسمعوا مطلعها الموسيقي، ومعهم ينطلق نديم، الذي بدأت ملامحه أقرب إلى ملامح أمه، وقامته تعِد بقامة طويلة كقامة أبيه.

- لم يذهب جهدكِ، وحبكِ لهم هباء، همست مرتا لنفسها.

ها هم يكبرون، وباتوا يأتون إليها من بيت لحم، والقرى المحيطة ببيت ساحور، وكلما تزايدت أعدادهم أصبح صمت إدوارد أكبر، إدوارد الذي كان يحس بأن ثمة شيئا مفقودًا في الغناء، إلى أن اكتشف أنه صوت مرتا. قال لزهيرة في مساء اليوم الأول: أذهبي واعرفي ماذا يدور في بيت مرتا وإسكندر.

بسرعة أجابته:

- لو كان هنالك شيء، لعلمنا به قبل الجميع.

- هنالك شيء يدور في بيت مرتا وإسكندر يا زهيرة، قلت لكِ اذهبي واعرفي ما هو.

بسرعة، ذهبت زهيرة، رأت الأطفال يتزاحمون بالباب خارجين، عائدين إلى بيوتهم.

لم تكن زهيرة قادرة على عصيان أيّ أمر لإدوارد، لكنها كانت قادرة على أن تخفي عنه أي شيء، إذا ما تعلّق بمرتا، فلسبب، تعرفه الاثنتان، ولا تتحدثان فيه، تدرك زهيرة أن مرتا هي السبب الوحيد في هذا العالم، الذي دفع رجلا للتقدّم إليها، للزواج منها، لأن مرتا لو قبلت به، دون بيانو،

فإنها، زهيرة، ستكون عانسًا مدى الحياة. ابتسمت مرتا لمّا رأتها، مرتا الرقيقة كنغمات البيانو التي تتسلل كالنسمات عبر شبابيك وأبواب وأحواش البيوت المجاورة.

سألتها عن صحتها، فظلت الابتسامة نفسها على وجه مرتا. عند ذلك لم تجد زهيرة سوى أن تسألها مباشرة: ما الذي يحدث في البيت، عندكم، وأنا لا أعرف به؟

رفعت مرتا رأسها إلى الأعلى، والابتسامة نفسها على شفتيها، وظلت تحدق إلى السقف، حتى رأت زهيرة دمعتين كبيرتين تنزلقان على وجهها.

ارتعبت.

اعتذرتْ لها، نهضتْ، احتضنت مرتا، وهي تدعو على نفسها:

ـ الله يوخذ عمرك يا زهيرة، ويريّحني منك! ماذا فعلتِ؟!

برفق أبعدتها مرتا، وبدل أن تقول شيئا، نهضت وسارت نحو الراديو، وفتحتْه. لم تفهم زهيرة من ذلك، سوى شيء واحد، أنها تريد منها أن تصمت. صمتت. بعد نصف ساعة، نصف ساعة طويل، كليلة دبقة حارّة، لا نوم فيها، سمع إدوارد أغنية (ليالي الأُنس) تتسرّب إلى أذنيه، هوى قلبه.

استعاد حكاية الأغنية، حكاية تلك السهرة، ذلك العرض، وما إن انتهت الأغنية، حتى قامت مرتا وأغلقت الراديو، فعمّ الصمت، وعندها، سمعتا صوت إدوارد يأتي من فوق السور: زهيرة، تعالي بسرعة.

نهضت زهيرة، لكنها قبل أن تغادر، قبّلت رأس مرتا.

* * *

ـ كنتُ على وشك أن أعرف ذلك الأمر الذي قلتَ لي إن عليَّ أن أعرفه، لماذا ناديتني؟

ـ أشكرك يا زهيرة، لأنكِ نجحتِ في مهمتكِ، وحللتِ اللغز!

ـ أي لغز ذاك الذي حللته، وأنا نفسي لم أعرف شيئا؟!

- ليس مهما أن تعرفي يا زهيرة، المهم أنكِ أخبرتني بما كنت أريد أن أعرفه.

- والله، لم أفهم شيئا مما قلت.

- لا تقلقي، لقد عملتِ ما عليكِ، فشكرا لأنك ذكرتِني بشيء كنت نسيته.

كانت زهيرة على وشك أن تعلّق، لكن إدوارد أدرك أن حوارًا كهذا لن ينتهي، فأغلقه: ما هو عشاؤنا اليوم؟

ابتلعت زهيرة كل أسئلتها، لدرجة أنها من فرط غضبها، أحست بأن معدتها امتلأت فجأة، فقالت: مش جعانة.

فقال: أنا جعان.

* * *

إسكندر الذي أربكه صمت مرتا، لم يندم على ما فعل. أن تعرف منه، لا من سواه، هذا أفضل، وأن تسمع الأغنية، للمرة الأولى، في بيتها، لا في بيت أحد آخر، فهذا أفضل وأفضل، لكن حزنها تسلل إليه؛ كان يمكن أن تكون تلك الأغنية طفلتها، فرحتها بالعالم، كمية الهواء التي هي بحاجة إليها كي تقول إنها هنا، إنها على قيد الحياة.

في اليوم السابع، فتحت مرتا عينيها أبكر من العادة، نظرت إلى وجه إسكندر، وهالها كم كان حزينا، حتى في نومه، نهضت، غابت في الداخل، عادت واندسّت في السرير إلى جانبه، التصقتْ به، أحسّ بها، فتح عينيه، قبّلت جبينه، احتضنتْه، كانت دافئة، دافئة كما لم تكن في أي يوم مضى، التصق بها، سرى فيه فرح مباغت، وهو يرى ملامح حزنها تتلاشى، كان على يقين من أن تلك اللحظة هي أعظم لحظة تنتظرها الحياة لكي تتفتّح.

تسلل ضوء الشمس، لافًا جسديهما بذهبيته العميقة السّاحرة، أحست بتلك البذرة تهبط إلى أعمق أعماقها، وتستقرّ هناك في روحها.

نهض إسكندر، جلس على طرف السرير، قبّل جبينها، فجاءه صوتها: أريد أن أبقى اليوم في السرير، لا تقلق.

- استريحي.

- أحسّ بأن بشارة قادم!

- بشارة؟ مَن بشارة؟

- ابننا!

ابتعد إسكندر بصمت، خائفا أن يجرح ما قالته؛ أجمل كلام سمعه في حياته. انحنى، أنزل قدميه على الأرض برفق، كان على وشك أن يدسّهما في خفّيه، تراجع، سار حافيا، مضى إلى غرفة صغيره نديم، كان نائما، تأمله بفرح وأقفل الباب برفق خلفه.

* * *

عندما خرج إدوارد من باب بيته، ليتوجّه إلى القدس، رأى إسكندر جالسا على عتبة البيت، استغرب ذلك. ألقى عليه تحية الصباح، أشار له إسكندر أن يخفض صوته.

- ماذا يحدث؟

- مرتا نائمة.

- ماذا؟ همس.

- قلت لك مرتا نائمة.

- ولكن عليّ أن أدير محرّك السيارة!

- سأدفعها معك حتى طرف الحارة، وهناك تُدير محرّكها.

- لا حوْل ولا!

وقف إسكندر، وحافيًا سار بجانب إدوارد. نظر إدوارد إلى قدميه الحافيتين، ثم إلى وجهه. التقت نظراتهما، همس إسكندر:

- قلت لك، مرتا نائمة!

خيّل لإسكندر أن صوت عجلات السيارة أعلى من صوت محرّكها في ذلك الصباح، لكنه واصل دفع السيارة، دون أن يكفّ عن النظر إلى شباك غرفة نومه، حيث مرتا. وصلا إلى طرف الحارة، بعد رحلة كانت الأطول في حياة إسكندر. أوقف إدوارد السيارة بأن ضغط على كابحها. توقّفت فجأة، صدر عنها صوت، كان بالنسبة لإسكندر أشبه بانفجار قنبلة!

- ماذا فعلتَ؟! قال مؤنّبا زوج أخته، وهو ينظر نحو شباك غرفة النوم.

- هذا يكفي في ظنّي.

- أكيد؟

- أكيد. قال إدوارد وهو يخرج رأسه من شباك السيارة.

ارتفع صوت محرّك السيارة، وتحرّكتْ.

* * *

بعد خمسة وأربعين يوما، من ذلك الصباح، همست مرتا في أذن زوجها، وقد أصبحت على يقين مما ستقوله، لأنها باتت تحسّه كما لو أنها تراه: مرتا حامل!

زمن آخر

في الوقت الذي بدت فيه مرتا أنها نسيت صغيريها نديم وبشارة، مع تزايد أعداد تلك الجموع من المهجَّرين الذين طردوا من قراهم والتجأوا إلى بيت ساحور، كما التجأوا لسواها من القرى والمدن، عام النكبة، كان على الجانب الآخر من الحكاية فتى اسمه ناحوم نوردو قد كبر، وأصبحت لديه بندقيته الخاصة به، وطريق سيقوده إلى بيت ساحور.

* * *

ثلاثة أسباب دفعت قائد مجموعة الهاجناه لاختيار ناحوم:

جرأة ناحوم الذي أطاع الأوامر حين طوّح بذلك العربي الصغير إلى أبعد نقطة في الوادي السحيق. عودة ناحوم سالما، بعد أن وجد نفسه خلف خطوط الأعداء وحيدًا؛ وكان قائد المجموعة يريد أن يمنحه سببًا ثالثًا، يمهّد به طريق ناحوم ليكون ضابطا في المستقبل.

ما إن انتهوا من تفخيخ بيوت قرية (راس السّرو)[10]، وراح السّلك الكهربائي الملتفّ على بكرة كبيرة يتحرّر مترًا بعد آخر، ما إن ألقوا نظرة ملؤها الشماتة على تلك القرية التي قاتلتْهم كثيرًا، ما إن صاح قائد المجموعة مُعلنا أن لحظة التفجير قد حانت، حتى دعا ناحوم لنيل شرف تدمير تلك القرية العربية التي وقفت شوكة في حلوقهم ستة أشهر بعد إعلانهم قيام الدولة:

- ناحوم، أريدك أن تقوم بأفضل ما لديك، بحيث لا أرى بعد ذلك أيا من ظلال بيوتها، أشجارها، أسوارها، أو ظلال من طردناهم منها. أتعرف لماذا؟ لأن وجود ظل واحد، لبيت أو لشجرة، أو لواحد منهم، سيكون بمثابة منارة ترشدهم، إذا ما فكّروا في العودة ثانية.

بدأ قائد المجموعة العدّ التنازلي من 10 إلى 1، لكن ما فاجأه أن ناحوم لم يفهم المعنى العميق لذلك التكريم، فبدل أن يشقّ الطريق مبعثرًا أفراد المجموعة، وقف محدّقًا إلى مَن حوله.

سار قائده نحوه، أمسكه من يده ومضى به نحو مفتاح التفجير، وهو يهمس له:

- ناحوم، هل لاحظت أن معظم أبواب بيوتهم كانت مغلقة في كل قرية طردناهم منها؟ إنهم يعتقدون: ما دامت مفاتيح بيوتهم معهم، فإننا لن نستطيع دخولها. ولكنهم نسوا أن لدينا مفتاحًا واحدًا قادرا على فتح كل الأبواب.

- أي مفتاح؟ أجاب ناحوم ببله واضح.

- الذي في يدك الآن، قال قائده، وأضاف: 10.

عمّ الصمت، كما لو أن الصمت هو الانفجار. رفع ناحوم عينيه عن مفتاح التفجير، ونظر إلى القرية، فلم يرَ غير بيت أم جاسر. كل البيوت، في عينيه، كانت متشابهة، إلا ذلك البيت الذي لا يعرف أحد في العالم، غير أصحابه، ذلك الفصلَ الخفيَّ من حياة ناحوم!

ولكي يخرجه قائده من ارتباكه، ويجعله أصلب أمام زملائه، ضغط على كتفه الممسك بمفتاح التفجير برفق، وهو يعد: 9، 8، 7، 6، 5، 4، 3، 2، وبصوت مرتفع: 1.

بسرعة أنزل ناحوم يده، وبالسرعة نفسها صعدت الأرض إلى السماء. طارت القرية، طار بيت أم جاسر الذي يعرفه ناحوم جيدًا!

- أولئك العرب الذين حملوا مفاتيح بيوتهم، لن يستطيعوا العودة إلى أي شيء بعد اليوم. قال قائد المجموعة. وأضاف: سيكون سجلّك العسكري، يا ناحوم، منذ اليوم، مضاءً بهذه المأثرة الكبرى، لقد محوت بنفسك قرية عربية من الوجود.

هلّل أفراد المجموعة مربّتين بسعادة على كتفَي ناحوم، وعانقه بعضهم، وأفاق ناحوم أخيرًا على نشيد:

عود لو أڤداه تكڤاتينو
هاتكڤاه هانوشاناه

لشوف لإيرتس آڤوتينو

لعير با داڤيد حاناه[11]

* * *

همس ناحوم لنفسه: لو لم يكونوا مذنبين، لو لم يستحقّوا العقاب، لما أرسلهم القدر إليّ لانتقم منهم.

ليَالي المَوت

ليلة العرس

قال له المحقق الإسرائيلي ناحوم نوردو، الذي يطلق على نفسه اسم داود، وهو ينظر إلى ساعته: بشارة، سأمنحك سبع عشرة ساعة وخمسًا وثلاثين دقيقة فقط، هي أغلى ما يمكن أن تحصل عليه من هذا الزمن! وإن لم تعد حاملا كشفًا بأسماء أعضاء الخلية التخريبية التي أسستَها مع أخيك! أعدك بشرفي العسكري، لن يكتمل عرسك غدًا، وإذا اكتمل، لن يكتمل زواجك، وإذا التقيت بعروسك، هذا إن التقيتها، فلن تكون قادرًا على أن تتجب منها حتى ذبابة. أما الآن فبإمكانك أن تنصرف.

* * *

موعد الزواج كان قد حُدِّد، لم يكن هناك اختلاف على التاريخ الذي سيتمّ فيه، بل على ما إذا كان الظرف يسمح بإقامة عرس أم لا.

انقسم أهل العروسين إلى قسمين: إسكندر، والد بشارة، كان مع فكرة: آن لنا أن نفرح! وليس هناك من مناسبة أفضل من العرس، يتاح لنا أن نغني فيها ونرقص! أما والد العروس فقال: سيبدو العرس كاحتفال شماتة بالإسرائيليين، صحيح أن العرس سيكون في الكنيسة، لا في ساحة من ساحات القرية، لأن آثار حُصْرم حزيران لم تزل تحت أسناننا، إلا أن الإسرائيليين لن يفهموا الأمر كذلك، بعد هزيمتهم في معركة الكرامة.

كانت معركة الكرامة بين الفدائيين الفلسطينيين والوحدات العسكرية الأردنية المتمرّدة على قيادتها، من جهة، والجيش الإسرائيلي الذي عبَرَ نهر الأردن إلى الأراضي الأردنية، من جهة أخرى، هي أول معركة كبيرة بعد قيام إسرائيل في حرب حزيران 1967 باحتلال ما تبقى من أراضي فلسطين، إضافة إلى سيناء المصرية، والجولان السورية.

* * *

الرسالة التي اعترضت طريقها سلطات الاحتلال كانت تثير الرِّيبة. صحيح أنها موجّهة من أخ لأخيه، إلّا أن نديم، الأخ الشاب الذي اختفى بطريقة غامضة قبل ثلاثة أشهر من معركة الكرامة، خلّف وراءه كثيرا من الهمس حول التحاقه بالفدائيين في الأردن.

لم يمرّ وقت طويل قبل وصول ذلك الهمس إلى السلطات العسكرية الإسرائيلية، إذ كان هناك من يسعون بدأب شديد لنيل رضا الحكّام الجُدد للضفة الغربية.

ما أثار ناحوم، أو داود، هو غموض الرسالة؛ تلك الفراغات المراوغة بين كلماتها وبين سطورها! وإذا ما أضاف إلى ذلك النتيجة العسكرية القاسية لمعركة الكرامة، فإن الأمر يتجاوز مرحلة الخطورة كثيرًا.

وقف المحقق داود بباب بيت إسكندر والرسالة في يده. تأمل الجميع، ثم استقرتْ عيناه على وجه بشارة. أشار للجنود بأن يعتقلوه. ففعلوا ذلك ببطء جنود واثقين، استطاعوا احتلال بلاد بأكملها في ستة أيام لا غير!

* * *

خرج بشارة من مقر الحاكم العسكري لبيت لحم، متوجّها إلى منزله في بيت ساحور، كان على يقين من أنه تحوّل إلى ساعة رملية، إلى ذلك الحدّ الذي دفعه لأن يتوقف مرّتين لينظر حيث قدماه، ليتأكد من أنه لن يتناثر على طول الطريق قبل وصول البيت!

لم يكن داود شخصًا غامضًا في منطقة بيت لحم وما جاورها. في أول أيامه فعل كل ما لديه ليبدو الأقسى. توقّع أهل البلد أن ذلك لن يستمرّ طويلا، لكن ذلك استمرّ.

نهايات شهر آذار من عام 1968 كانت أجمل الأوقات التي تعيشها بيت ساحور منذ احتلالها قبل أقل من عام! إذ بدا الناس ولأول مرة منذ الهزيمة قادرين على النّظر في عيون الجنود الإسرائيليين دون خوف؛ أخبار هزيمة الجيش الإسرائيلي في معركة الكرامة شكّلت أول خبر مفرح حقًا، لا منذ هزيمة حزيران، فقط، بل منذ النكبة. للمرّة الأولى أدركوا معنى وجود مقاومة فلسطينية، بعد أن كانت البيانات التي تصدر، عن عملية هنا وأخرى هناك، أمرًا يشبه الأحلام.

قال إسكندر لبشارة العائد من براغ، قبل حرب حزيران بأسبوع واحد، بعد أن أكمل دراسته هناك.

- أظن أن الوقت قد حان لنفرح بك.

* * *

فكّر بشارة في عدة مخارج: أن يهرب تاركًا عروسه إلى وقت آخر يمكن أن يكون فيه العرس أمرًا عاديًّا كما في أي مكان من هذا العالم، لكنه كان يعرف أن هذا سيحطّم ماري، ويحطّم أسرتها إلى الأبد، كما أن اختفاءً من هذا النوع، سيجعله، هو نفسه، عرضة لشائعات لا أول لها ولا آخر.

كان مُراقَبًا، هو يعرف، كما أن أي منزل سيدخله في أيّ حارة، سيكون هدفا مثاليًّا لغارة مباغتة لاقتحامه.

فكرة واحدة خطرت بباله، فكرة واحدة يمكن أن تطيح بكل تهديدات المحقق داود.. ولم يتردّد.

* * *

طرح الأمر على والده ووالدته. بدت فكرته معقولة تمامًا، وأكّد والده: أظن أن أهل ماري سيتفهّمون.

كانت الخطة بسيطة: أن يُقنعوا أهل ماري بإتمام مراسم الزواج في تلك الليلة، قبل الغد، وليكن ذلك في بيت العروس، أو في بيتهم، وليحدث ما يحدث.

مثل فراشة رشيقة انطلق بشارة، من سطح إلى سطح، ولم يكن الأمر صعبا مع تلاصق البيوت. بعد أقل من خمس دقائق، في العاشرة ليلا، كان يهبط مثل عاشق واثق داخل حوش أهل ماري.

طرق الباب، حدّق مَن في الداخل كل منهم في وجه الآخر. إذ لا يعقل أن يكون أحدهم قد نسي باب البيت الخارجي مفتوحًا دون أن ينتبه.

أشرع والد ماري الباب، وجد بشارة أمامه، ارتجف قلبه.

رسالة في ليل حالك، وزمن قابل للاشتعال في أيّ لحظة، كانت كافية لإثارة كلّ مخاوفه.

- شو إللي صاير لتيجي في نصّ الليل؟!

شرح لهم بشارة الوضع بخجل لا ارتباك فيه، وسأل السؤال الذي لا بدّ منه: أبي يسألكم ما رأيكم؟

كما توقّع بشارة، لم يرُق الحلّ لأهل ماري: ابنتهم تتزوج كما لو أن زواجها سرقة!

قال بشارة: احتفال الزواج يتمّ غدًا، كما كان مقررًا، وإذا لم يتمّ، سيكون الزواج نفسه قد تمّ الليلة غصبًا عنهم! وأعاد سؤاله: وأبي يسألكم: ما رأيكم؟

فكّر والد ماري للحظة، راقته الفكرة، حلّ وسط، بين تأجيل العرس وإقامته. أخفى رضاه، ألقى نظرة على وجوه أولئك المتحفّزين لمعرفة قراره، متأمّلا ملامحهم! كما لو أنه يتأمّل وجهه في مرآة، قال: ما رأيُ ماري؟

- أظن أن رأيي من رأيك يا أبي، فأنا أعرفك جيدًا!

- صار! التفتَ إلى بشارة وقال له: ما دام إسكندر يرى ذلك أيضًا، فعليك أن تحضر الأب عطا الله ليزوّجكما. امنحونا نصف ساعة لترتيب وضعنا هنا.

* * *

جلس إسكندر محدّقا في ساعته، ومع عودة بشارة الذي طلب من الأب عطا الله الذهاب إلى بيت أهل ماري، كانت عينا إسكندر تحدّقان إلى كل ساعة كانت في البيت.

* * *

تصافح الجميع على عجل، خرجت ماري بفستان عرسها من غرفة مجاورة للصالون. راقبوها تسير غير قادرين على استيعاب ما يدور.

أمسكت أم بشارة شمعة من تلك الشموع التي أعدّتْها لطقوس الزواج في الكنيسة غدا، لم تكن الشمعة تضيء شيئا مثلما تضيء مسحة الحزن التي تفترش ملامحها.

وقف بشارة وماري وكل منهما ممسك بيد الآخر، وبدأ الأب عطا الله مراسم الزواج:

ـ أيها العزيزان لقد جئتكما كي يعطي الربّ زواجكما طابعاً مقدسًا أمام الكنيسة وأمام الكاهن.

إن المسيح يبارك الحب الزوجي ويقي المعمدين ويقويهم برباط مقدس خاص فيحافظون على الأمانة المتبادلة ويقومون بما يمليه الزواج من واجبات، لذلك أطلب منكما أن تجيبا صراحة أمام جماعة المؤمنين وبحريّة تامة.

لقد تقدَّمتَ أيها الابن المبارك (بشارة) وحضرتَ لتقترن بـ (ماري) بموجب السنّة المسيحية والقوانين الكنسيّة، فهل تريد أن تأخذها قريبة لك بزواج شرعي ثابت غير قابل للانفكاك من دون جبر وإكراه وبرضاك التام؟

ـ نعم، أجاب بشارة.

ـ لقد تقدَّمتِ أيتها الابنة المباركة (ماري) وحضرتِ لتقترني (ببشارة) بموجب السنة المسيحية والقوانين الكنسية، فهل تريدين أن تأخذيه قرينًا لك بزواج شرعي ثابت غير قابل للانفكاك من دون جبر ولا إكراه وبرضاك التام؟

ـ نعم، أجابت ماري.

ـ يشهد الله عليكما الرّب يباركك ويسكب عليكما غزير إنعاماته الإلهية ويكثر نسلكما وينجح أموركما ويجعل هذا الاقتران واسطة لخلاصكما ويربطكما بوثائق المحبة مدّة حياتكما بشفاعة العذراء القديسة، وجميع القديسين، آمين.

صلى الأب عطا الله على الخاتَمين: أيها المسيح السماوي بارك هذين الخاتَمين واجعلهما عربون رضا وعلامة حبّ بين العروسين بصلاة قديسك وكنيستك فيتمجّد اسمك بأعمالهما الصالحة يا ربّ الكلِّ الآب، الابن، الروح القدس، إلى الأبد...

ـ آمين.

ـ من أجل سعادة هذه الأسرة الجديدة وازدياد المحبة نسألك لكي يبقى إيمان العروسين راسخًا وحبهما عميقًا وأملهما بالمستقبل وطيدًا. نسألك..

لكي يتحابّ العروسان بإخلاص وتفان مثلما أحبّ المسيح كنيسته.

ويؤسّسا شركة حياة دائمة نسألك..

لكي ينعم الرّب عليهما بأولاد صالحين يكونون بهجة بينهما على الأرض وأكاليل مجدهما في السماء نسألك..

لأجل جميع الأقارب والحاضرين والغائبين أشملْهم بعطفك ورحمتك الأبوية.. نسألك..

...

باسم الكنيسة المقدّسة أسلِّم الواحد منكما للآخر فلتحلّ عليكما بركة ربنا يسوع المسيح وصلوات مريم العذراء القديسة وجميع العريسين آمين..

.. وأمسك الأب عطا الله بيدي العروسين ووضعهما إحداهما فوق الأخرى..

رقصت أم العريس بصمت، دون أن تجرؤ على دعوة أم العروس التي كانت مُطْرِقة طوال الوقت، كما لو أنها ترزح تحت ثقل فضيحة أعرض من كتفيها.

كان ذلك أقصى ما يمكن أن يتمّ في تلك الليلة، إذ بدا الأمر محزنًا، لدرجة لا يمكن معها لأحد، حتى الأب عطا الله نفسه، أن يقترح إتمام العرس بدخول العروسين إلى إحدى غرف البيت، بعد أن أصبحا زوجين أمام الرّب.

* * *

في اليوم التالي، أشرع بشارة باب بيته للتوجّه وأهله وأقاربه إلى الكنيسة، فوجد الجنود في انتظاره.

أما في داخل الكنيسة، هناك، فكان الصمت يكبر ويبتلع قلوب الناس.

انتظروا عودة بشارة ساعتين، دون جدوى، وحين رأى الناس سيارة عسكرية قادمة، عصف خوف غامض في قلوبهم: فأن يوصله الجنود إلى باب الكنيسة بأنفسهم أمرٌ يدعو لإثارة الرّعب، وأن لا يكون بشارة في السيارة أمر يثير الرّعب أيضًا.

توقّفت السيارة، أطلّ المحقق داود من شباكها، وقال: لا تنتظروه، سيمرّ زمن طويل قبل أن تروه، ولعلكم لن تروه أبدًا!

تراجعت موجة شماتتهم بالجيش الإسرائيلي الذي هُزم، وأيقنوا أنهم لا يستطيعون أن يشمتوا بجيش احتلال قبل أن يرحل تمامًا عن أرضهم. برَقَ دمع في أعينهم التي فاضت ضوءًا طوال الأيام التي أعقبت معركة الكرامة، الأعين التي حدّقت إلى كلّ جندي رأته، قائلة: لن يستمرَّ بقاؤك هنا إلى الأبد.

ـ كم عمره الآن؟ أعني بشارة، سألهم ناحوم.

لم يجب أحد.

تصفّح وجوههم العابسة وقال: عمره 24 عاما، أعدكم، لن يخرج من السجن قبل بلوغه الرابعة والأربعين.

وأشار للسائق أن ينطلق.

في تلك اللحظات السود، فكّر أكثر من واحد أن ينحني ويلتقط حجرًا ويرمي به السيارة العسكرية، لكنهم، لسبب ما، كانوا يفكّرون في أن سلطة الاحتلال ستكون أشدّ قسوة مع بشارة.

تفرّقوا عائدين إلى بيوتهم، وخلفهم سارت العروس، ماري، بفستانها الأبيض، فوق آثار عجلات سيارة ناحوم. وكلما مرّ الفستان الطويل على تلك الآثار، كان يمحوها. التفتت خلفها لتتأكد مما خطر ببالها، وفعلتْه، كانت آثار فستانها وحدها التي هناك. طفرت دمعتان كبيرتان من عينيها وانحدرتا بصمت فوق خديها.

* * *

بعد عشرين يومًا من اعتقاله، في العاشرة صباحًا، وقفت عربة عسكرية بباب بيت أسرة بشارة، نزل منها جندي، طرق الباب، خرجت مرتا، أم بشارة. فوجئت بوجود العربة. قال لها الجندي الإسرائيلي بلهجة عربية مكسَّرة:

- إنتَ أم بشارة؟

هزّت رأسها برعب، مؤكدة الأمر.

- إنتَ بدّك إبنك بشارة؟!

- ما بدّي من الدنيا غيره.

طرق الجندي حديد السيارة، هبط جنديان، اختفى نصفهما داخل صندوق السيارة ثانية، وبعد قليل رأت بين أيديهما ذلك الجسد المحطم الذي لا تعرف جسدًا مثلما تعرفه.

مثل كيس أرجحاه، قبل أن يُلقيا به عند قدميها، ومع ارتطامه بالأرض هوى قلبها.

كانت تُنقِّل بصرها بين الجسد وبين عربة عسكرية تبتعد. حاولت أن تصيح طالبة المساعدة، هي التي وجدت نفسها غير قادرة على تلمّسه، لكن صوتها كان يغوص أكثر في داخلها كلما أوشك أحد الحروف أن يبلغ حنجرتها. بيديها، راحت تمزق الهواء المتحجّر فوق رأسها وهي تستغيث.

عشرون عاماً.. عشرون يومًا

بعد ثلاثة أيام من اعتقال بشارة، ثلاثة أيام من التعذيب المتواصل، كان المحقق داود يتّصل خلالها، بالمحققين المساعدين، كل ساعتين، ليسألهم سؤالا واحدًا: هل اعترف؟ كانت الإجابة في البداية: لا، ثم أصبحت الإجابة لحظات طويلة من الصمت! بعد ثلاثة أيام، ذهب المحقق داود بنفسه إلى السجن، وجد بشارة معلّقا في السقف، يدور كمروحة تنثر الدم مُلطِّخة الأرض والجدران. كان على وشك أن يسأل: هل اعترف؟! لكنه رأى الإجابة بأمّ عينيه: ذلك الجسد الممزّق.

طلب من المحققين أن ينزلوه. ألقوه أرضًا تحت قدمَي داود الذي جلس على كرسيّ معدني.

- بشارة، لا ضرورة لأن تُضيّع عمرك بسبب مُخرِّب، حتى لو كان هذا المخرِّب أخاك!

وصمت قليلا، إلى أن اكتشف أن بشارة غائب عن الوعي، أو يدّعي.

سطل الماء البارد كان كفيلا بأن يجعل الجسد الملقى ينتفض، كما لو أنه تعرض إلى صعقة كهرباء.

في تلك المسافة الزمنية القصيرة التي لا تتجاوز ثلاث دقائق، طرأت للمحقق داود فكرة، اعتبرها واحدة من أهمّ أفكاره العبقرية منذ تعيينه في منطقة بيت لحم.

- بشارة، عمرك أربعة وعشرون عامًا؛ كنت وعدتُ أولئك الذين حضروا عرسك أنك لن تخرج من السجن قبل عشرين عاما، لكنني تراجعت عن هذا! ستكون خارج السجن بعد عشرين يومًا! مضى منها ثلاثة أيام، أي ثلاثة أعوام من عمرك! كل يوم تمضيه في هذا السجن، دون اعتراف، سيساوي عامًا. صحيح أننا لم ننتزع منك اعترافا حتى الآن، ولكن، أستطيع أن أؤكد لك

أنه لم يبقَ من حياتك سوى سبعة عشر عامًا، هي كل رصيدك. للمرة الأخيرة أحذّرك، غدًا حين سأعود سيكون ما تبقى لك على وجه الأرض 16 عامًا، أي 16 يومًا، وبعده 15 عامًا، أي 15 يومًا! فهمت؟ وفي النهاية سأعيدك إلى أمك، وعروسك جثة، عمْرها صفر. تعرف يا بشارة، لقد ألهمْتَني فكرة جميلة، غريب: يموت الناس لا لأنهم يبلغون الثمانين أو المائة من أعمارهم، يموتون عندما يصبح عمْرهم صفرًا!

* * *

- إنه مجرد ولد في النهاية، أليس لديكم وسيلة ناجعة تجعله يعترف؟ سأل داود المحققين وهو يغادر السجن.

- سيدي، لم يبقَ سوى أن نستخدم سلاح الطيران ضدّه!

* * *

في اليوم ما قبل الأخير، اتصل داود بالمحققين: أرجو ألا تكونوا قتلتموه قبل الموعد؟!

- اطمئن سيدي، لم يزل هناك يوم كامل!

- أريد أن يخرج من السجن عند منتصف نهار غد، لا أريد أن يموت عندنا. ليمُت في بيته، هذا أفضل.

في الثانية عشرة من ظهر الخامس من أيار 1968 وصل المحقق داود.

لم يكن هناك سوى وجه لا ملامح له؛ كسور كثيرة، جراح غائرة، جسد منتفخ، لا شيء يثبت وجود الحياة فيه سوى تلك التشنّجات، والشهيق الذي يحاول عبثا الوصول إلى هواء لم يعد موجودًا.

- أيقِظوه، قال المحقق داود.

لم يستطيعوا، كان شبه ميت.

- من الضروري أن يسمع منّي كلمات الوداع الأخيرة.

ـ أظنه سيفارق الحياة في أيّ لحظة سيدي.

سار داود نحو الجسد الملقى على ظهره. ببسطاره ركَل قدم بشارة اليمنى، ثم ركَل اليسرى، انفرجت ساقا بشارة، تقدّم خطوة، وركَل بشارة بكلّ ما فيه من قوة بين فخذيه، مكررًا ذلك ثلاث مرات: هذه لكي تستطيع النوم مع عروسك الليلة! قال، وهمس لنفسه الجملة التي يحبها: لو لم يكن مذنبًا، يستحقّ العقاب، لما أرسله القدر إليّ لانتقم منه.

* * *

يعرف المحقق داود أن أباه عمل الكثير لكي تكون هذه الأرض له، هو بالذات، ناحوم، أو المحقق داود، وتغيرت صورة والده، من صورة الوالد الحريص على عائلته، إلى صورة البطل عام 1948، فحين سمعه يتحدّث عن قتل عشرات العرب في مسجد دهمش في اللد، وكيف ألقوهم في بئر وصفّحوا باب البئر، كي لا يستطيع أي من القتلى، ولا حتى ظلالهم، أو أشباحهم، الخروج ثانية! أحس بأن والده بطل فعلا، وعندما محا ناحوم، بنفسه، قرية راس السرو، كان على يقين من أنه أكمل ما قام به والده.

ما أزعج المحقق داود، حين كان يطارد بقايا الجيش الأردني عام 1967، أنه وأباه، أيضا، لم يختارا بئرًا أعمق، لأنه اكتشف أن هناك مئات الآلاف من الناس الذين سيكون مضطرا للتعامل معهم، والبحث عن بئر تتّسع لهم، بعد أن تحقق له النّصر.

* * *

ركلات داود بين فخذَي بشارة، كانت الإضافة التي لا بدّ منها حتى لا يترك خلْفه أيّ منفذ يخرج منه عرب آخرون سيجد ابن داود نفسه مضطرًّا لمقارعتهم بعد عشرين عاما من الآن، إذا ما قُدّر وأن عاد بشارة إلى الحياة من جديد.

أشباح داود

أغلقت ماري الباب خلفها، وضعت صينية الطعام على الطاولة، سارت نحو بشارة الملقى على ظهره، انحنت، قبّلت جبهته، وهمست في أذنه: سأنتظر يومين آخرين، لا أكثر!

حاول أن يقول شيئًا. قرّبت أصابع يدها اليمنى من فمه محاذرة أن تلمس جروحه، طالبة منه السكوت.

- اليوم هو الاثنين، موعدنا الأربعاء. همست مرة أخرى. أما الآن فإلى الطعام.

أمسكت بالملعقة، وراحت تسكب حساء الدجاج في فمه بحذر شديد.

* * *

الآن، بعد عشرين عامًا، تبدو المسألة لبشارة أوضح، لكنه لم يهتد لحلّ ذلك اللغز الذي جعله يتجاوز ذلك الحائط العالي، الذي يفصله عن ماري.

يومان طويلان أمضاهما يفكّر، كما لو أن المحقق داود يدفعه نحو ظلمة اليوم الحادي والعشرين، الظلمة التي لا تبدّدها شمس ولا يضيئها قمر ولا يُحْييها هواء.

حاول أن يتذكّر إن كان أحسّ برجولته تتحرّك منذ أن استيقظ من موته الخاطف، موته الذي عبره كطلقة ولم يقتله، فواصل طريقه إلى جسد آخر في هذا الكون لينتزع الحياة منه؛ لم يتذكّر شيئا. انشغل بآخر ما تبقّى من حياة بين ساقيه. حاول أن يحلم بماري، حاول أن يكمل رحلته التي لم تتمّ من باب الكنيسة إلى ليلة عرسه الأولى، حاول أن يصل إلى الصباح التالي، إلى فرحة أمّه، وفرحة

أهل ماري بطهارة ابنتهم. لم يتحقق شيء! وحين اقتربت منه ماري وأطعمتْه مساء، تصرّفت كما لو أنها على موعد معه، موعد حدّدته بنفسها، موعد لا يمكنه التأخّر عنه.

استعاد فتات الوعيد الذي أطلقه المحقق داود، كل شيء كان غامضًا، حتى الضربات التي تلقّاها بين فخذيه، لم يكن متأكدًا من أنه تلقّاها هناك، فجسده كان غائبا عن الوعي مثل عقله تماما؛ جسده الذي لم يعد يعرف إن كان موثقا بكرسي أو بحائط أو معلّقا في السقف، إن كان رأسه أسفله، أم فوق كتفيه، إن كان ثابتا فوق هوّة، أم يدور كمروحة بلا توقّف في السقف.

* * *

عندما استيقظ في البيت، للمرّة الأولى، بعد إعادته، رأى جسده ثابتا، متجمّدًا، لكن عقله كان يدور، يهوي ويصعد، يرتطم ويرتدّ، ينهار ويتماسك، يصرخ ويبتلع صراخه.

كان يعرف أنه حتى لو كان يستطيع، فإنه لن يستطيع تنفيذ ذلك الذي تنتظره ماري منه بسبب ضعفه.

* * *

صبيحة يوم الثلاثاء أيقظته بقبلة على جبينه، ماري الجميلة، ذات الشعر المتموّج الأسود، والوجه الصغير مثل وجه غزالة. كانت تبتسم، بل كانت فرحة، وخجلة أيضًا، كما لو أنه يراها صبيحة اليوم التالي لليلة عرسهما.

- كيفك حبيبي اليوم؟

أغمض عينيه وأشرعهما.

- كنت متأكدة أنك اليوم أفضل. مرّت ساعة وأنا أتأمّلك!

أغمض عينيه وأشرعهما ثانية.

مسحت أمه دموعها قبل أن تدخل حاملة صينية طعام، سألت: كيف العريس؟!

أغمض عينيه وأشرعهما.

لم يحب ذلك السؤال، لكنه لأول مرة وجد نفسه يحاول أن يجلس. سحب قدميه قليلا من تحت اللحاف، محاولا الاتكاء على مرفق يده اليسرى، المرفق الذي يحسّ بأنه أفضل عضو في جسده منذ عودته إلى الحياة. انحنت ماري تساعده، هزّ رأسه محاولا أن يقول لا. تراجعت ماري. ولم يُكمل المحاولة.

* * *

مرّة أخرى جاء الليل، ولم يكن أقلّ حلكة من الليلة الماضية. وجه ماري أمامه، قرب وجهه، على بعد قُبلة أو أقلّ، أنفاسها الحارة تحرقه، ارتفعت يده اليسرى. كان يريد أن يلمسها على الأقل، استيقظ، وضاعت ماري، اختفت من حلمه! استدار برأسه نحوها، وشكر الربّ لأنها لم تزل موجودة.

بوداعة كانت تغفو، النوم حوَّلها إلى فراشة، هي نفسها التي رآها غزالة في الصباح! بدت له أصغر من عمرها، فتاة لا تتجاوز الثامنة عشرة لا أكثر. وكان بشارة يتجمّع، عضوا عضوا، خلية خلية، ليمضي إلى موعدها، قاطعًا أطول المسافات، ليصلها، بشارة الذي لن يكون مضطرًّا لمغادرة مكانه.

أغفى، مضى مثل طائر محلّق يدور فوق بيوت بيت ساحور والسهول المحيطة بها، الوادي، الامتداد الجبلي الذي يسند ظهرها: بيت لحم. كان جريئا في شبابه، لكن جرأته كلها، لم تساعده لأن يحظى بأكثر من قبلة، أول قبلة في حياته: قبلة ماري، وإن لم يكن هو المبادر في ذلك اليوم. كان يغطّي ارتباكه حين يلقاها بسيل لا ينقطع من الكلام، في ذلك اليوم سألته: هل تسمح لي بأن أتكلم؟ قال لها: تفضلي! سارت نحوه وقبّلته طويلا!

مُنهكًا في صباح الأربعاء كان، أكثر من أيّ يوم مضى. مرَّ وجه المحقّق داود خطفًا واختفى. أشرع عينيه، وجد ماري تتأمّله عارية.

تلك كانت مرة أولى أيضًا، مثل قبلة ماري الأولى، نام!

باغته داود بضربة أخرى بين ساقيه، أشرع عينيه، كان هنالك مائة داود في الغرفة، صرخ، استيقظ، لكن ماري كانت تبتسم!

الهاجس المشترك!

صباح السابع من تموز، يوليو، 1968 وصل بشارة إلى مبنى الحاكم العسكري في البصّة، كان ثمة عرج واضح في ساقه اليسرى. نسيم الساعة العاشرة أشبه بريح ثقيلة تخرج من جوف فرن، أما الفرن فكان بشارة يدرك أنه البصّة.

لم يكن بشارة نفسه الذي عرفه المحقق داود قبل شهرين ونصف الشهر، كان أشبه ما يكون بشخص تبرّعوا له بعدد من الأعضاء لكي يستطيع العيش من جديد. هذا ما خطر ببال داود ما إن رآه، أما الفكرة التي أرّقته أكثر، فهي: من هو ذلك الذي تبرّع له بعضو تناسلي؟! كان على ثقة بأن ضربات مثل تلك التي غرسها عميقًا بين فخذَي بشارة كانت كافية لمحو سلالته إلى الأبد.

داود كان يعرف ما جرى لجده ياكوف، لا لأن جدّه قال له ذلك مباشرة، ولا لأنه سمع همْسَ أسرته الخافت. داود عرف ذلك حين رأى شهادة جدّه الفلميّة المسجّلة. كانوا يضربونه هناك بين الفخذين تمامًا، ولا شيء غير ذلك، كانوا يحرصون على يديه ورجليه وصدره ورأسه وبقية أعضائه، لأنهم يريدون كل تلك الأعضاء لتنفيذ ما يطلبونه منه من أعمال شاقة في معسكر الاعتقال. حرصهم الوحيد ألا تكون له سلالة، إن عاش.

داود لم يكن يريد من بشارة أن يقوم بأي عمل شاق، كان يريده أن يكون طيّعا لأوامره العسكرية. داود فوجئ، فقط، أن أمثال بشارة كُثر، أكثر مما تصوّر! وأن موشيه، والده، قد كذب عليه، حين دخل البيت سعيدًا بعد مشاركته في مذبحة دير ياسين، يوم التاسع من نيسان 1948 وهو يصرخ فرحًا: قتلناهم جميعًا.. قتلناهم جميعًا!

* * *

هِلْمان، الأخ الصغير، ظنّ في البداية أن والده تمكّن من قتْل أولئك الذين عذّبوا جدّه، لكنه حين فهم أن الأمر غير ذلك، سأل: ولماذا قتلنا هؤلاء؟

ردّ والده بحزم وهو ينتزع صور العائلة الفلسطينية، صاحبة المنزل، من إطاراتها، ويضع مكانها صور عائلته، العائلة الفلسطينية التي يعرفها هِلْمان وناحوم جيدًا: كي لا يعذّبونا في المستقبل!

- ولكننا نحن الذين أتينا إليهم، وليسوا هم من أتوا إلينا!

- هِلْمان، آن لك أن تفهم، نحن على وشك أن يكون لنا دولة، دولة لنا وحدنا، فهمت؟ ومن أجل هذه الدولة جئنا إلى هنا.

- ولماذا إذًا سنقتلهم جميعًا؟!

- ما الذي يحدث في رأسك الصغير يا هِلْمان، سأفهمك: حين تنتقل من بيت إلى بيت جديد لتسكن فيه، هل تسكن مع أناس آخرين، أم تسكن مع أسرتك لأن هذا البيت سيكون بيتك؟

- لا، لا أسكن مع أناس آخرين.

- من الجيد أنك فهمت، مع أنني أستغرب أنك جعلتني أشرح لكَ أمرًا بسيطا كهذا! كيف نسيتَ أننا منذ ثلاث سنوات فقط، ثلاث سنوات يا هِلْمان، لم يكن لنا بيت.

- ولكن كان لنا بيت في المستعمرة، وأمي تظل تتحدّث عن بيتنا في برلين.

التفت موشيه إلى ناحوم، وقال له: سيقتلني أخوك هذا، لا بدّ أن في عروقه دمًا عربيًّا! اشرح له الأمر، لعله يفهم منك!

- هِلْمان، ذلك البيت لم يكن بيتنا تماما! لأن بيتنا هنا! قال له ناحوم.

- ولكن كان في هذا البيت، البيت الجديد، عرب نعرفهم!

- يمكنك القول إنهم كانوا مستأجرين لا أكثر، ولذلك كانوا جيدين معنا، هل فهمت؟ آن لهم أن يرحلوا. هذا البيت لنا وحدنا الآن. كيف يمكن أن يكون لك بيت وهناك من يشاركونك غرفتك

وألعابك وحمّامك، والساحة التي تلعب فيها؟ كل ما في الأمر يا هِلْمان أننا عدْنا إلى بيتنا، بيتنا الذي كان لنا منذ ألفَي سنة.

- هل تعني أن هذا البيت كان لجدي ياكوف؟

- ليس تمامًا؟ يمكن أن تقول إنه كان لجدّ جدّك!

- ولكن ماذا عن صورهم التي كانت في الإطارات، أعني صور العرب؟

- ما الذي تعنيه؟

- لماذا ينتزع أبي صورهم ويضع صورَنا مكانها؟

- لأن البيت بيتنا.

- ولماذا يكون هذا هو الشيء الوحيد الذي نُغيّره في البيت، ألم يكن علينا أن نغيّر أسرَّتهم مثلا، بدل أن ننام عليها؟ والصحون التي كانوا يأكلون فيها، بدل أن نستبدل صورنا بصورهم؟

- كل هذا أصبح لنا يا هِلْمان، فلماذا نغيّره؟

- لماذا أحس أننا نحن الذين استأجرنا البيت؟ نحن لم نغيّر أي شيء فيه سوى الصّور. لماذا أحسّ أنهم سيعودون؟ لقد وضع أبي صورهم في دُرْج خزانتهم.

- هم لن يعودوا أبدًا، فهمت؟ صرخ والده، أما صورهم فلا وجود لها. انحنى، أخرج الصور من درج الخزانة وراح يمزّقها كما لو أنه يقتل أصحابها.

- هل فهمت الآن؟

- فهمت، ولكن هل تعتقد أنهم لا يملكون صورًا أخرى كالتي مزَّقتها؟

مال موشيه نحو ناحوم، وهمس له: خذ هِلْمان إلى الخارج قبل أن أقتُله.

* * *

إحساس ناحوم بعذابات جدّه، هو الفتى الذي بات مفتونًا بالفتيات ومشتعلا بهنّ، ليلا نهارًا، في تلك الأيام، جعله يفهم لأول مرة، ما الذي يمكن أن يحدث للرجل حين يطحنون خصيتيه بالبساطير الثقيلة.

لكن والده، لم يكن صادقًا معه، إذ تبين له أنه لم يقتلهم كلهم: العرب.

* * *

- كيف استطعت أن تعود ثانية إلى الحياة؟ لقد قتلتك بنفسي.

ظلّ بشارة صامتًا. فكّر داود للحظة أنه ليس حيًّا تمامًا، وإلّا لكان تكلّم. فأضاف: أظنك نصف ميت وإلا لكنت تكلّمت! هل صحيح ما يُشاع عن حمْل زوجتك؟! واصل بشارة صمته، فقال داود: يبدو أن الخبر وصلنا قبل أن يصلك! هل عرفت من هو الأب الحقيقي؟!

- زوجتي مش حامل.

- هل أنت متأكد من هذا؟!

- زوجتي مش حامل.

- باستطاعتك أن تنصرف!

استدار بشارة ليخرج، فصرخ داود: انتظر.

استدار بشارة، وجد داود يحدّق إليه طويلا قبل أن يسأله: ما أخبار أخيك، نديم؟ لقد علِمنا أنه يُكمل دراسته في بلجيكا! تخيّل، كنت سأقتلك بسببه، باعتباره مخرّبا، وإذا به يذهب إلى بلجيكا، هل تعرف كم هنَّ جميلات النساء هناك؟ بالطبع هذا موضوع لم يعد يهمّك أبدًا! ما يهمك هو ما سأقوله لك: ربما كان من الصعب علينا أن نصل إلى أخيك في قواعد المخربين في جبال السّلط أو في غور الأردن قبل أشهر، ولكنه أصبح الآن بين أيدينا تمامًا في بروكسل. انصرف.

* * *

عاد بشارة على قدميه إلى بيته عبر الشارع الهابط من بيت لحم إلى بيت ساحور. ولو فكّر في العواقب، لما فعل، لأنه سيكتشف فور وصوله أن كلّ الآلام التي عاشها بعد خروجه من السجن

عادت تطحنه بالقوة ذاتها.

سألته ماري: ما الذي حدث هناك؟

كان ينظر إلى بطنها، ويتساءل، متى ستظهر علامات الحمْل؟! وللحظة، فكّر أن يُهرِّب زوجته عبر نهر الأردن، بأي طريقة. لكنه أدرك أن ذلك أمر مستحيل، فإذا ما أرادت أن تخرج فلن تخرج إلا بإذن يوقّعه داود بنفسه، أما إذا ما أرادت التسلّل عبر النهر، فإن الموت سيكون في انتظارها، إذ بدأ الجيش الإسرائيلي يتصرّف بهياج ووحشية في وجه أي عمل يمسّ كيان الدولة بعد معركة الكرامة.

* * *

بشارة يعرف ذلك المثل الفلسطيني جيدًا: أمران لا يمكن إخفاؤهما: الحمْل والحبّ!

طيلة الشهر التالي لتربص المحقّق داود بهما، حرص بشارة على ألّا تكون ماري بحاجة لأي طبيب. تحسّن وضعه؛ عادت إليه قوته من جديد، ولو كان ممكنا أن تحمل امرأته فوق حمْلها، لما تردّد في عمل المستحيل لتحقيق ذلك!

* * *

في نهاية شهرها الثالث، وبينما كانا يغادران الكنيسة عقب قداس الأحد، فوجئ بشارة بوجود المحقق داود. أحسّ بشارة بأن داود لم يأتِ إلا لسبب واحد. كان بشارة على وشك أن يطلب من امرأته أن تخفي بطنها، لكنه أدرك أن أي حركة منها ستكون شهادة على أنها حامل.

أخد نفسًا عميقًا، وحاول، ما أمكن، ألّا تلتقي عيناه بعينَي داود. سارا قليلا، قبل أن ينعطفا مع عدد من المصلّين باتجاه (بئر السِّيده)، ثم يختفيا تماما في الشوارع الضيقة المؤدية إلى المنطقة المطلّة على وادي أبو سعدى.

مجرد إحساس بشارة أن عينَي داود لم تعودا منغرستين في ظهره، أراحه، لكن الذي لم يكن يعرفه تمامًا هو أن حمْل ماري أصبح هاجس المحقّق داود كما هو هاجسه، وأكثر!

اللغز

ذات صباح مشرق في نهايات حزيران 1968، طرقت ماري باب جارتها أم خليل، الذي تفصله عن بيتها أربعة بيوت، ما إن عبرت العتبة، حتى راحت تبكي بحرقة مؤلمة. احتضنتها أم خليل التي لم تجد سؤالا تسأله سوى: هل اعتقلوا بشارة من جديد؟

- لا لم يعتقلوه؟

- ليس هناك من سبب يمكن أن يدعوكِ لأن تبكي بعد ضياع البلاد سوى اعتقال بشارة!

أطلقت أم خليل تنهيدة عميقة؛ لقد مرّ عام على احتلال بيت ساحور، دون أن ينسحب الجيش الإسرائيلي، قرارات وبيانات ووعود، والنتيجة لا شيء، تمامًا كما حدث بعد احتلال بيتها في اللد قبل عشرين عامًا.

سارت أم خليل أمام ماري، كانت امرأة صلبة، قوية، ذات ملامح دقيقة، يمكن أن ترى فيها صرامةً وطفولة وفرحًا وأسى في الوقت نفسه، أما شعرها فقد كان ينسدل إلى آخر ظهرها. كانت أطرافه قد تشققت، لكنها لم تعمل على قص تلك الرؤوس التالفة التي تعطيه مظهر شعر امرأة عجوز، رغم أن صاحبته لم تزل في الخامسة والأربعين.

- أنا حامل! قالتها ماري دفعة واحدة ما إن جلست.

وضعت أم خليل يدها على فمها تمهيدًا لإطلاق زغرودة، لكن ماري كانت أسرع منها حين وضعت راحتها فوق راحة أم خليل ومنعتْها.

- لماذا تمنعين خالتك أم خليل من أن تفرح؟

- لأنني خائفة على ما في بطني! وصمتت قليلا قبل أن تضيف: حين أخرجوا بشارة من السجن، لم يكن هدفهم أن يحرّروه، بل أن يموت في بيته، عندي، لكنه عاش، وسيكون له ولد، وكلّي خوف ألا يسامحوه على ذلك!

- وهل أنت متأكدة من أنك حامل؟

- لا أعرف، ولكنني أحس بأن هناك حياة في داخلي.

- وما الذي يجعلك تقولين هذا؟

- أصبحت أحب الحياة أكثر، بعد أن كرهتها كثيرًا أيام اعتقال بشارة.

- هل اخترتما له اسمًا؟

- لا أعرف إن كان جيدا أن نختار له اسما منذ الآن، وهناك من ينتظر اللحظة التي سيقتله فيها.

- طيب خذي مني ها الوعد، إذا ثبت أنك حامل، وهذا ما أدعو الله أن يكون، فسأحمل، وسأنجب بنتا لتكون عروسًا لابنك.

- ولكن..!

- لا تقولي ولكنكم مسلمون ونحن مسيحيون؟

- لا، لم أفكر بذلك؟

- أتعرفين ما هو الأصعب من مسألة الدين؟

- ما هو؟

- أن أحبل! مع أنني والله أستطيع، ولكن أبو خليل لم يقترب مني منذ نهاية حرب حزيران.

* * *

في اللحظة التي خرجت فيها ماري من بيت أم خليل، في اللحظة التي أشرعت فيها الباب، وجدت نفسها وجهًا لوجه مع المحقق داود. كان يجلس في سيارة الجيب مُغلِقًا الشارع.

التقتْ أعينهما، ارتبكت ماري، ارتدَّتْ للوراء خطوتين، مصطدمة بأم خليل خلْفها.

صاح المحقق داود:

- ما تخافيش ماري، إحنا ناس مُتحضِّرين.

عادت وقطعت المسافة التي تراجعتها:

- مبروك ماري! مبروك! سمعت أنكِ حامل، فجئت أبارك لكِ بنفسي. أعترف أن زوجك كان قويًّا، يمكنك أن تقولي كان بطلا، أعترف لكِ بهذا، وهو يستحق أن يكون له ولد، نعم يستحق. مبروك ماري.

- أنا مش حامل، قالتها بتصميم.

- أنتم ولست أنا من يقول: الحبُّ والحبَل لا يمكن إخفاؤهما، وإذا كان هناك شخص يمكن أن يراهما قبل الجميع فهو أنا، ماري.

لم تكن ماري جريئة بما يكفي لأن تطلق تلك الصرخة التي عصفت داخل صدرها: أنتم لا تعرفون سوى الكراهية والموت وتحطيم الناس. لم تكن ماري جريئة بما يكفي، لأن المحقق داود كان منتصرًا، وغامضًا مثل أي غزاة يجتاحون أرضًا جديدة، ولعل خوفها على ما في بطنها كان أكبر من أيّ خوف. صمتت.

- كنت خارجة لتذهبي إلى بيتكِ، يمكنك أن تواصلي طريقك، تفضّلي، قلت لك نحن أناس مُتحضّرون، هل تعرفين أنني عشت طفولتي في برلين؟ وبعد الاستقلال درست في لندن؟!

- كنتُ خارجة لأنني اعتقدتُ أن هناك من يطرق باب بيتي.

- إذا كان الأمر كذلك، فيمكنك أن تعودي إلى الداخل ثانية، وتستمتعي بلقاء جارتك.

وصمت قليلا، حين وقع نظره على وجه أم خليل. تراجع خطوتين، كما لو أنه رأى شبحًا! قاد العربة العسكرية مبتعدًا بجنون، وفجأة ألقى بكل ثقله على دعسة كوابحها، فتوقّفت السيارة مصدرة صوتًا حادًّا.

- لن أهرب من هذه المرأة أيضًا!

استدار عائدًا بسرعة مجنونة، وثانية ألقى بكل ثقله على دعسة كوابحها، في الوقت الذي كانت فيه أم خليل تقول لماري:

- أظن أنني رأيت هذا الوجه من قبل.

غاب صوت أم خليل بسبب صوت الاحتكاك الشديد لعجلات العربة بالشارع.

حين اختفى الصوت سألتها ماري:

- ماذا قلتِ؟

- لا شيء، لا شيء.

سحبتْها أم خليل إلى الداخل، وقبل أن تصلا الباب، هبّ صوت المحقق داود:.

- حتى لو أغلقت الباب يا أم خليل! واختبأتِ خلفه، فلن تستطيعي الهروب مني!

هبط صمت قاتل خلف الباب المغلق، فوق البيت، فوق الحارة، فوق بيت ساحور بأكملها. حبست المرأتان أنفاسهما، منتظرتَين سماع محرك الجيب يدور، ويبتعد، لكن ذلك لم يحدث.

أحستا أنهما باتتا مُطارّدتين.

وأحسّ المحقق داوود أنه كان يواجه مشكلة، فأصبح يواجه مشكلتين.

على رؤوس أصابعهما سارتا إلى الداخل. وما إن أغلقت أم خليل الباب وراءهما، حتى راحت ماري تنتفض. احتضنتْها أم خليل بشدة: إذا إللي في بطنك مكتوبله حياة، ما راح يقدر لا داود ولا دولة داود عليه.

في الغرفة الواسعة انسحب النشيج إلى الداخل أعمق فأعمق، وفي الخارج تصاعد الصمت مبتلعًا المكان.

حين هدأت ماري، سألَتْ أم خليل:

- لماذا يقول إنه يعرفكِ؟ هل تعرفينه؟

- لا أعرف يا ماري، لا أعرف، ليتني أتذكر أين رأيتُ هذا الوجه.

* * *

عند الظهيرة قالت أم خليل: سأخرج لأرى إذا انقلع هذا الداود أم لا.

على رؤوس أصابعها سارت نحو الباب الخارجي، وضعت أذنها على صفيحه الأخضر السميك، تسمّعت، لا شيء. بهدوء أشرعت الباب؛ كان المحقق داود في مكانه، مُلقيًا برأسه فوق راحتيه اللتين تحتضنان فوهة بندقيته.

بهدوء عادت وأغلقت الباب.

- يا خوفي يكون ناوي على شرّ، همست ماري.

- وهل هناك شرّ أكبر من الذي فعلوه ويفعلونه؟!

المهمَّة العاجلة!

احتمال وجود جَنين في رحم زوجة بشارة، أطار النوم من عينَي داود، داود الذي كان يشعر بغيظ شديد من فنّي كهرباء اسمه سلامة. كان أول تقرير وصله عنه. كان سلامة لا يتوقف عن الحديث عن مقاومته للإنجليز، ودوره الشجاع ما قبل (قيام الدولة).

ارتبك سلامة عند سماعه طرْقًا قويًّا على الباب، في زمن لم يعد فيه أحد يزور أحدًا إلا للضرورة. وجد سيارة عسكرية أمام بيته. ألقى له جندي يجلس بجانب سائقها أمرًا بالحضور إلى قيادة الحاكم العسكري.

كانت يد سلامة ترجف، بحيث لم تستطع عيناه القراءة بشكل مريح.

- ماذا يحدث؟ سألته زوجته، كاترين، وهي تحدّق إلى لونه الأصفر الشّاحب.

تمالك نفسه:

- لا شيء، ها هي متاعبي تبدأ من جديد، بوصول محتلٍّ جديد!

قرأت كاترين الأمر العسكري صامتة، لكن حديثها مع نفسها كان عاليا إلى درجة لا تُحتمل. وشبّ شجار عنيف بين عقلها وقلبها، لكن أحدًا منهما لم يصرخ في وجه الآخر: تلك فرصتكِ يا كاترين للتخلّص من سلامة إلى الأبد، بعد أن أنقذتْه النكبة!

- لا عليكَ، اذهب، وقابلهم، لا شك أنهم بحثوا عن كل من يمكن أن يشكل خطرًا عليهم، فلم يجدوا أحدًا أكثر خطورة منك في البلد!

ما قالته كاترين بعثَ فيه أملا وقوة كبيرين.

- هل تعتقدين ذلك؟

- لا شكّ عندي، إنهم يريدون معرفة قوة البلد من خلالك!

* * *

ما إن وصل إلى النقطة التي تقول له: ها قد غدوتَ الآن في بيت لحم، حيث مقرّ الحاكم العسكري، حتى أحسّ بالهواء يزداد سخونة، هو الذي يعرف أن ليس ثمة هواء أرقّ من هواء الأعالي الذي ينحدر على السفح المتدرّج نحو سهل الرّعوات، السهل الذي يشكّل الحدود الشرقية لبيت ساحور. هو الذي طالما فكّر: إذا تحسنت أموري ذات يوم سأبيع بيتي وأشتري بيتا في هذه (العلالي)!

* * *

دخل سلامة بشاربه الذي يشبه بصمة الإبهام، وقامته الدقيقة كفكرة طازجة، وعينيه الواسعتين اللتين طالما افتخرتْ أمّه باتّساعهما، مقارَنة بعينَي زوجته اللتين لا تُغلقهما حتى عندما تنام.

وجد المحقق داود يدور في المكتب كدبّور في وعاء زجاجيّ. أدرك سلامة أن الدولة فعلا في مهبّ خطر كبير، وحين خطرت بباله معركة الكرامة، والهزيمة التي لحقت بهم، أصبح ظنّه حقيقة: أهناك إشارات لحرب أخرى لم يستطيعوا تحليلها، ولذا قرّروا اعتقالي لتأمين جبهتهم الخلفيّة؟

وقف ثابتًا كما لو أنه عمود ملح، منتظرًا أن يقول المحقق داود شيئا. لكن المحقق كان غائبًا، فأعاد الجندي الذي أدخل سلامة جملته: لقد وصل، سيدي.

توقّف المحقق داود فجأة، وقال له مؤنّبًا: لقد تأخرت!

- مسافة الطريق والله.. ردّ خائفًا.

- هناك مسألة كبيرة أريدك أن تحسمها.

- مسألة كبيرة؟!

- زوجة بشارة.

- ماري؟! هل فعلت شيئًا خطيرًا؟!

- بل بشارة هو الذي فعل.

- لم أفهم يا خواجا، ولكنك تتحدّث عن ماري!

- هذا صحيح.

- لماذا لا تستدعون بشارة نفسه إذًا وتحقّقون معه؟!

- ربما يكون واحدًا غيره هو من فعلها، ولكن بشارة لم يعرف بذلك بعد!

- لماذا لا تراقب، يا خواجا، ذلك الذي يمكن أن يكون قد فعلها، بدل أن تراقب ماري؟!

- سلامة، صرخ داود، أريدك أن تراقب ماري وتقدِّم لي تقريرك بعد يومين لا أكثر، يومين.

- ولماذا أراقبها أنا، وعندكم جنود ودبابات على الأرض، وطيّارون وطائرات في الجوّ؟

- اسمعني يا سلامة، إذا لم تنفّذ ما سأقوله لك، سألقي بك إلى ما وراء الضفة الغربية من النهر، إلى الأردن، ولن ترى زوجتك كاترين بعد ذلك.

- أنت تعرف اسم زوجتي يا خواجا؟!

- أنا أعرف كل شيء عن كل شخص يسير على قدميه أو يديه في هذا المكان، ومهمّتك أن تساعدني في معرفةِ أكثر من هذا!

- ومن أنا لأعرف أكثر من هذا؟

- من لا يتوقّف عن الحديث عن بطولاته في كل مكان يجلس فيه، عليه أن يعرف هذا.

ـ كنت تتحدّث عن ماري، ما الذي يمكن أن أعرفه عنها، ما دمت تعرف كل شيء عن كل من يسير على قدميه أو يديه؟

ـ أريد أن تأتينا بخبر واضح عن بطنها.

ـ بطنها؟!

ـ نعم بطنها يا سلامة.

ـ هل تخفي بيانات، أسلحة، تحت ثيابها؟ أعرف أن الفلسطينيات خبيرات في هذا حتى قبل ميلاد دولة إسرائيل.

لم يستطع المحقق داود، مع سماعه ذلك الكلام إلّا أن يصرخ في وجه سلامة:

ـ يا حمار، دولة إسرائيل موجودة منذ ألفَي سنة.

ـ ما دمت تقول هذا فأنت تقول الحقّ، ولا يفسر عدم رؤيتنا لها إلا ضعف في بصرنا لم نكن نحسّ به، أو أنها كانت خفيّة!

ـ لم تكن خفيّة يا سلامة، بل كنتم عُمْيًا.

ـ ربما! رغم أن أمّي لا تتوقّف عن التغزّل باتّساع عينيّ! ولكن لم تقل لي حتى الآن يا خواجا، ما الذي أراقبه في بطن ماري؟

ـ ستراقب إن كانت حاملا أم لا.

ـ وكيف يمكن لإنسان أن يتأكد من ذلك يا خواجا؟!

ـ لماذا تصرّ على أن تثبت أنكَ أعمى في هذه أيضًا، وأننا نعتمد على جاسوس أعمى ليقدّم لنا ما نريد؟!

ـ أنا لست جاسوسًا يا خواجا.

- لقد عيّنتك منذ الآن جاسوسًا، ولن تجرؤ على رفض هذا القرار، لأنك سمعتَ ما سأفعله بك، إن لم تطعني، هذا إن لم أُلقكَ في النهر نفسه. سلامة، أنت تملك عدة وسائل للتأكّد من هذا: أولا، يمكنك أن تنظر وتقدّر الوضع، فعيناك اللتان تتغزل بهما أمّك واسعتان، أليس كذلك؟ ويمكنك أن تسأل، أن تُرسل امرأتك لزيارتها، بل يمكن أن تقوم بزيارة عائلية لبيت بشارة، يمكنك أن تعرف ذلك من همْس الجيران، من الطبيب، من الصيدلاني، فالمرأة الحامل بحاجة، إن لم يكن اليوم، ففي الغد، إلى رعاية صحّية. هل أواصل شرح ما عليك القيام به في مسألة تافهة كهذه؟!

- هذا يكفي يا خواجا.

- يكفي الشرح؟

- بل يكفي الشّتم الذي لا مبرر له يا خواجا، فأنا لم أفعل شيئًا.

- حين ترفض ما تؤمر به، فأنت تفعل شيئًا، وشيئا كبيرًا، وتجبرني على القيام بتنفيذ قرار إبعادك الآن إلى الأردن، الآن، فهمت؟ يمكن أن تبدأ عملك على إنجاز مهمتك منذ الليلة، انصرف.

- منذ الليلة؟! من الذي يستطيع رؤية بطن ويتأكد من أنه يخفي جنينا في مثل هذا الليل!

- الآن تذهب إلى بيتك وتفكّر في الخطة التي ستنفّذها غدًا؟

- خطة؟!

- وهناك شيء آخر يا سلامة!

- ما هو؟

- شاربك، يا سلامة!

- ماذا به؟

- عليك أن تحلِقه، أو تطيله، لا أريد أن أراه بهذا الشكل!

تحسّس سلامة شاربه، فعزّ عليه حتى التفكير في حلْقه، شاربه الجميل الذي بقيَ على تلك الصورة منذ أن بلغ السادسة عشرة.

- ولكن يا خواجا، لماذا أحلقه؟!

- يا سلامة، باختصار، شاربك يذكّرني بشارب هتلر.

- هتلر؟! ارتعب سلامة، ولكنه دائري يا خواجا، وأنا شخصيا لم أحب هتلر في أيّ يوم من الأيام، فقد كان يعتبرنا مثلكم، أي كان يريد أن يمحونا عن الأرض كما أراد محوكم!

- سلامة، أنتم لستم مثلنا، عليك أن تفهم هذا، صرخ داود، أما بشأن الشارب، فلديك واحد من ثلاثة حلول: إما أن تحلقه بيدك، أو تطيله، وإما أن أحلقه لك بنفسي. سأمهلك فترة أسبوع لا غير لتتصرّف به.

* * *

غادر سلامة مبنى الحاكم العسكري كما لم يدخله، أصابعه تتحسّس شاربه بقلق، وأفكاره تتضارب مثل سفن حشرتها قبضةُ عاصفةٍ مجنونة أمام واجهة صخرية.

الهواء ثقيل في الخارج، والليل حالك كالثقوب السود التي طالما قرأ عنها كعاشق للعلوم والاكتشافات الجديدة، وكلما تذكر سؤال المحقق داود: (هل أواصل شرح ما عليك القيام به في مسألة تافهة كهذه؟!) انقبض قلبه.

حين وصل البيت، ذهب مباشرة إلى سيارته التي لم تغادر الكراج منذ عشرين سنة، إلا للضرورات القصوى، أبعد الغطاء السميك عنها، وبدأ بتنظيفها. كانت العناية بها، دائما، أفضل وسيلة للتغلّب على قلقه، وضياعه، وأقصر الطّرق للوصول إلى أفكار خلّاقة، وحلول لأي مشكلة تعترضه.

- تذهب إليهم واثقًا بخطورتك على أمنهم، وإذا بهم يطلبون منك التخلّص من شاربك، ومراقبة بطن ماري، كما لو أن بطنها مفاعل نووي!

راح سلامة يفكّر في المسافة التي تفصل كلمة: مَنوي، عن كلمة نووي، بل واستدعى صورًا للمفاعلات الذريّة ذات القباب الضخمة، وقارنها ببطون النساء المنتفخة، فأدرك أن المحقق يدرك خطورة المهمّة التافهة، حتى لو أطلق عليها تلك الصفة القاسية.

قبل أن ينتبه إلى أن السيارة باتت تلمع، كأنها تخرج للتوّ من الوكالة، جديدةً، كان قد استوعب خطورة أن يُلقى به خلف النهر بعيدًا عن كاترين، وفكّر في الخطة المطلوبة، وقدّر احتمالات النجاح والفشل، واختار ثلاث خطط بديلة! وعندما قام بوضع الغطاء على السيارة، كان على يقين من أن داود إن لم يعرف اليوم، بحمْلها، فإن الطبيعة ستقدّم له بنفسها تقريرًا حول ما يريد بعد أشهر!

وسأل نفسه: كيف سأحلّ مسألة الشارب في أسبوع؟

فكر في أن يرفع الغطاء عن السيارة وينظّفها مرّة أخرى، من أجل العثور على فكرة تسعفه في هذه القضية الأعقد. لم يفعل.

حصان طروادة

كل محاولات سلامة، المرتبكة، المتردِّدة، التي قام بها بين الثامنة من صباح اليوم التالي حتى السادسة مساء، ذهبت هباء: دوران حول بيت بشارة، توجيه الأسئلة بطريقة غير مباشرة لكل من يراه، الدخول إلى صيدلية رشماوي والتباكي على الناس الذين اضطرُّوا للرحيل إلى الضفة الشرقية خوفًا من تكرار المذابح التي ارتُكبتْ عام النكبة، والاستفسار عن معدلات الإنجاب بعد وصول الاحتلال، مقارنة بالمرحلة الأردنية..!

لم يتوصّل إلى شيء، ولأنه كان يريد أن يسبق الوقت، لم يكن قادرًا على أن يُضيّع اليومين في الدّوران حول قضية لا يمكن أن تكون سرًّا خطيرًا إلّا إذا كان هنالك أحد غير بشارة مسؤولا عنها فعلا!

أكثر ما كان يخشاه أن تتوقّف عربة عسكرية، في أي لحظة، ويُلقي به الجنود في جوفها، لتمضي به شرقًا وتنفّذ تهديد المحقق داود.

على عجل قرر الذهاب إلى بيت لحم لشراء ما أَطلق عليه في الطريق: حصان طروادة.

بعد عودته، وجد امرأته مستلقية. لم يعرف إن كانت مستيقظة أم نائمة، فعيناها اللتان لا تنغلقان، لم تؤكّدا له شيئا. التفتَ إلى ساعته، وقدّر أنها لا يمكن أن تكون نائمة في هذا الوقت من النهار.

طلب منها أن ترتدي ملابسها على عجل وتتبعه.

لم تستجب.

انحنى ودفعها بيده برفق.

ـ نائمة؟

انتفضت:

ـ ماذا تريد؟ ألا تراني نائمة؟

تجاهل سؤالها.

* * *

ناولها كيسين ورقيين، في الأول ثلاثة كيلو غرامات من التفاح الفاخر، ومثلها من الموز في الثاني، واحتفظ بالهدية الأهمّ تحت إبطه.

حاولت امرأته أن تعرف المكان الذي يقصدانه، فقال لها بغضب لم تر مثله من قبل: عندما نصل تعرفين!

هذه السّريّة قرأ عنها سلامة جيدًا، وعادة ما تُطبّقها الجيوش عند القيام بتنفيذ عمليات سريّة خاصة: لا يعرف الجنود وجْهتهم إلا عندما يصلون!

كانت كاترين هي الجندي الوحيد الذي عليه أن يُنفّذ أوامره!

ما جعل الفأر يلعب في عبّ امرأته كاترين، أن سلامة منذ زواجهما لم يدخل البيت حاملا مُحمَّلا كما يفعل الآن. فهو معروف بالبخل منذ ليلة زواجه، عام النكبة.

* * *

كان سلامة يعتبر الموز والتفاح طُعْما، أما الفخ فقد كان في أمان بين يديه، ولم يكن سوى طقم ملابس أزرق لا يمكن لمولودٍ ذكَر أن يبدأ حياته إلا به ما إن ينتهي من إطلاق صرخته الأولى.

وفكّر: اللون الأزرق سيبعث في بشارة وماري فخرًا ما، وأملا، باعتباره فألا حسنا، بخلاف الزّهري المخصّص للبنات!

رحّب بشارة بسلامة وزوجته، وشكرهما على زيارتهما، دون أن ينسى قول تلك الجملة المتوارَثة، وهو ينظر إلى التفاح والموز: ليش مغلبين حالكم؟!

ردّ سلامة: هذا أقلّ من الواجب! وأحبّ أن تعذرني لأن زيارتي لك تأخرت، بعد خروجك من السجن؛ لم أكن أريد إنهاكك بزيارة في عزّ تعبك، فانتظرت إلى أن استعدتَ قوتك! فرأى بشارة في سلامة رجلا حضاريًّا.

ولأن الموضوعات الشخصية التي يمكن الحديث فيها انتهت منذ وصول جيش الاحتلال، سأل بشارة الضيفَ: سمعت أنهم استدعوك للتحقيق ليلا.

انتفض سلامة، وأوشك أن يرتكب الخطأ الأكبر، أن ينفي الأمر، لكنه أخذ نفسًا عميقًا وقال: الله يعين!

- هل ضربوك أو أساؤوا إليك؟

- أبدًا؟ ولكن يبدو أن واحدًا منا، والقمْح سُوسُه منه دائما، أوصل لهم رسالة أفزعتْهم!

- أفزعت الحاكم العسكري؟

- أجل!

- وما الذي يمكن أن يقال عنك ليُفزع الحاكم العسكري؟! سأل بشارة، فانقبض قلب سلامة، ونظر إلى صاحب البيت بعتب غاضب، فأدرك بشارة أنه قلّل من قيمة ضيفه، فأعاد طرح السؤال من جديد: وهل بقي هناك شيء يمكن أن يُفزع جيشًا احتلّ كلَّ هذه البلاد في ستة أيام؟

- العِلْم، يا سيدي، العِلْم!

- وما علاقتكَ بالعِلْم؟

وقبل أن ينقبض قلب سلامة ثانية ويُمطره بنظرة عتب غاضب، قال بشارة: ما هو الشيء الذي يمكن أن يُفزع دولةً تمتلك قنبلة نووية؟! بل عدة قنابل نووية؟!

- يفزعها العِلْم، ويبدو أن هناك من كتب بأن لديَّ اهتمامات علميّة كبيرة، تتجاوز الاهتمامات العامة للناس!

- لم أفهم.

- تعرف، منذ وعيتُ الحياة انشغلتُ بمسائل كبيرة: مثلث برمودا، أسرار الثقوب السوداء، والبغ بانغ، يعني الانفجار الكبير! كما أنا منشغل الآن بمسألة الوصول إلى الكواكب الأخرى، التي إن لم تحدث هذه الأيام، فإنها ستحدث العام المقبل، وفي ظنّي، بل يمكنني القول، إن الإنسان سيهبط على القمر، أقرب جيراننا إلينا، إن لم يكن اليوم فغدًا. أرى هذا مثلما أراك الآن.

- المهم، ما هي نتيجة التحقيق؟

- كنت مضطرّا لأن أقول للمحقق إن الأمريكان هم من سيهبطون أولا على القمر، مع أنني أظن أن أصدقاءنا الروس هم من سيفعلون ذلك!

- قلت ذلك لأنك خائف من المحقق؟!

- أبدًا، لم يخطر الخوف ببالي، ولكنني لو قلت له إن الروس سيهبطون على القمر أولا، سيغضب مني، ولا أريد أن يكون خلافي معهم على هذا المستوى العالي، بخاصة أنني لن أستطيع إثبات وجهة نظري هذه؛ ثم إن ثقتي بالرّوس قد تجعل الأمريكان يسرّعون العمل لكي يكونوا أول من يحقق هذا الإنجاز، وأنت تعرف، الإسرائيليون والأمريكان لا أسرار بينهم، ورأيي سيصل إلى وكالة ناسا قبل أن أكون قد وصلت إلى البيت.

- أشهد أن تفكيرك عميق! علّق بشارة بملامح جديّة، وهذا ما أسعد سلامة كثيرًا.

* * *

كان يمكن لسلامة أن يُغادر بيت بشارة محترمًا كما دخله، لولا قصة التحقيق هذه، فسلامة معروف بمبالغاته لكل أهل البلد، منذ أن ادّعى عام 1948 بأن حادث اصطدام سيارته بسيارة المندوب السامي البريطاني، في القدس، كان مدبّرًا، وأنه تعمد حرْف السيارة نحو سيارة المندوب السامي، قاصدًا قتْله، إلا أن سيارة سلامة كانت أقل قوة وأرقّ هيكلا من سيارة الأعداء.

أحد أبناء بيت ساحور، وكان يعمل شرطيًّا في البوليس البريطاني، سرّب أنه رأى بنفسه محضر الحادث، وأن سائق المندوب السامي هو المتسبب! جنّ جنون سلامة، صرخ في وجهه: وهل تتوقّع من الناس أن تصدّقك وأنت مجرد بسطار في قدم الإنجليز؟!

انتهت تلك الحادثة، بأن قرر سلامة الاحتفاظ بسيارته، كما تحتفظ عروس بمنديل عفّتها بعد أن لاكتْها ألسنٌ لا حصر لها.

أهم فكرة خطرت لسلامة، بعد حرب حزيران، أن يُحيي حكاية السيارة، الحكاية التي طالما تكتّم عليها بعد وحدة الضّفتين، وقد أدرك أن موضوعًا كهذا كان يجب أن يُطوى، ما دام الأردن حليفًا استراتيجيًّا لبريطانيا.

* * *

ما حيّر بشارة وماري، وزوجة سلامة، ذلك الشيء المغلّف بعناية، الذي يبدو كهدية.

في البداية ظنّ بشارة أن سلامة نسيَ تقديم الهدية لأن الحديث تشعّب حتى وصل القمر، ولم يكن قادرًا بالطبع أن يشير لهذا الموضوع من قريب أو بعيد، بل تعامل مع الهدية، كما لو أنها شيء لا يُرى، أو حتى غير موجود.

المدخل الخطأ سيوصل بالتأكيد إلى نتائج ليس فيها سوى سلسلة أخطاء. يعرف سلامة هذا من الكيمياء، والرياضيات، وخطط المعارك... أيضًا.

كان يريد أن يفاجئ بشارة وماري بالسؤال الكبير في اللحظة المناسبة، بحيث يقولان الحقيقة معًا، أو يقولها أحدهما فيرتبك الآخر، أو يرتبكان معًا، وبذلك يكون ارتباكه وارتباكها كافيين لتشكيل الحقيقة التي يريد.

لم تكن هنالك لحظة أفضل من تلك اللحظة التي أحضرتْ فيها ماري القهوة، وانحنتْ تقدِّمها لسلامة أولا. تلك اللحظة المناسبة لأن يستغلها سلامة ويباغت فيها ماري قائلا: نسيتُ الطّقم، ولد وإلّا بنت، بشّرونا!

شرود أفكار سلامة الذي طال، دفع بشارة لأن يتناول صينية القهوة من يد زوجته، ويدعو ضيفه لتناول الفنجان.

اختفت القهوة فجأة ولم ير سلامة سوى آثار تلك الجروح الغائرة من ساعدي بشارة، الجروح التي لم تبرأ تماما.

انتفض قلب سلامة، كما لو أنه تلقّى طعنة أعادته إلى الحياة، مع أن الطعنات لم توجد إلا لتقتل. تململ، دسّ الطقم تحت فخذه الأيمن، تناول فنجان القهوة بأصابع مرتجفة وعينين مرتبكتين، شربه دفعة واحدة، وحين أعاده للصينية فارغًا، قال: أخي بشارة، أختي ماري، أنتما أحقّ الناس بالأطفال بعد ما حصل لكما، ونهض دون أن يسمع تعليق أي منهما، فتبعتْه زوجته كاترين التي لم تمسّ فنجانها!

* * *

وصلا المفترق المؤدّي إلى البيت، سحبت كاترين الطقم من تحت الإبط الأيمن لسلامة، وفتحته بسرعة، فأشرق ازرقاق أيقظ في قلبها شوقًا دفينًا، وخوفًا، حين أدركت أن سلامة لم يحمل تلك الهدية إلا لأنه يريد أن يعرف نتائج التعذيب الذي تعرّض له بشارة. تقدّم سلامة لينتزع الطقم من يدها، فألقته في وجهه، وسارت في الاتجاه المعاكس.

- إلى أين؟ صاح غاضبًا من نفسه، أكثر مما هو غاضب منها.

- إلى الطبيب؟

- هل أنت مريضة؟

- لا، بل أنا وأنت.

تفقّد سلامة نفسه، وقال:

- أنا لست مريضًا!

- وأنا قلتُ لكَ بل أنا وأنت.

- يا كاترين، أرجوك أن توضّحي، يكفيني ما أنا فيه!

- أريد أن أعرف لماذا لم نستطع إنجاب أطفال حتى الآن.

- وتريدين أن نذهب الآن؟!

- الآن.

يوم غائم.. معتم بارد!

غاضبًا من نفسه، أكثر من أي كائن آخر على هذه الأرض، مضى سلامة إلى مقر الحاكم العسكري، بعد أن اكتشف أنه يخشى كاترين أكثر مما يخشى داود، كاترين التي فهمت ما يدور في رأسه، فألقته أرضًا بعد عودتهما من عيادة الطبيب، غاضبة من نتائج الفحص، وجلست فوقه، مهدّدة إياه بأنها ستجلس فوقه نائمًا أو مستيقظًا، إلى أن تخنقه، إذا أفشى سرّ حمْل ماري لأي كائن على وجه الأرض.

- ولكنني لا أعرف إذا كانت حاملا أم لا، ولا أريد أن أعرف.

- شوف يا سلامة، أهل البلد تعاملوا معك دائما كواحد كذاب محبوب، وأنا تعاملت معك ككذاب! لكنك تعرف ما الذي يمكن أن يفعلوه بأي متعاون مع العدوّ؛ إنهم يقتلونه فورًا، فهمت؟

- ما الذي تقولينه يا امرأة؟

- أقول أغلق فمك، لأن كاترين هي التي ستكون أحقّ بأن تقتلك من أي شخص آخر إذا فتحته لسبب آخر غير الحديث معي!

* * *

حاول سلامة ما استطاع أن يُرضي المحقق داود بكلام كثير لا يقول شيئا، داود الذي اعتبره: أكبر الجواسيس فشلا في تاريخ البشرية! سلامة غضب من الوصف؛ على الرّغم من أنه يعرف أن وصفًا كهذا لن يسمعه أحد، ولا ينطبق عليه، لأنه ليس جاسوسًا، أصلا.

المحقق داود أخبر سلامة أنه غير مرحَّب به في إدارة الحكم العسكري، المحقق داود لم يكتف بهذا، أنذره: إذا رأيتك مرّة أخرى هنا سأعتقلك، وإذا رأيتك في الشارع سأعتقلك؛ ولذا، فإن أفضل ما تفعله هو أن تختفي، لا من بيت ساحور، وحسب، بل من العالم كله، وعليك، منذ الآن، أن تعيش مع قرار إبعادك الذي يمكن أن يُنفّذ في أي لحظة.

حاول سلامة أن يفتح فمه ليقول شيئًا، أسكته المحقق داود بأن سحب مسدسه وصوّبه إليه، وأعاد: فاشل، أفشل جاسوس في تاريخ البشرية! أنصرف، سأحلّ المشكلة بنفسي.

* * *

أحس سلامة أن رحلته من مبنى الحاكم العسكري في بيت لحم، إلى بيت ساحور، كانت أطول رحلاته، رغم أنه سار على قدميه من الناصرة إلى بيت ساحور ثلاث مرات، ذهابا وإيابا، عام النكبة!

كانت سيارته، الأوستن، قد استقرت في الناصرة، بعد حادث الاصطدام الشهير بسيارة المندوب السّامي. جندي بريطاني نصحه بإصلاح السيارة، لا في القدس بل في الناصرة، لأن هناك كراجا هو الأشهر، وصاحبه الأمهر في معالجة أمر كهذا.

ما كان لسلامة سوى أن يوافق، كان الأمر يعنيه، كما لو قيل له إن علاج ابنه المريض في الصّين، مع أن البلد ممتلئ أطباء، ومع أنه لم يكن تزوج ورُزق بأولاد. كما أن النصيحة جاءته، لوجه الله، من جندي طاف وشاف هذا العالم.

سلامة لا يأتي على سيرة الجندي البريطاني، سلامة يقول دائما: نصحني صديق، ثم يلعن ذلك الصديق لأنه سبب بقاء السيارة في الناصرة في زمن حرب.

لم يكن باستطاعة صاحب الكراج أن يُتمّ العمل، ففي منتصف تموز من عام النكبة اندفعت قوات العصابات الصهيونية واجتاحت المدينة، لكن أفضل ما حدث أن السيارة كانت في مكان آمن: الكراج المغلق.

بعد أربعة أيام من احتلال الناصرة، قرر سلامة التسلل لإعادة السيارة أيا كان الثمن. حين وصل، وجد الكراج مغلقًا، وتبيّن له، أن بقاءه سيعني موته، بخاصة أنه لم يستطع الوصول إلى

صاحب الكراج، ولم يكن كسْرُ الباب وإخراج السيارة حلًّا، لأن أمرًا كهذا قد يلحق به تهمة السّطو على بيوت المهجَّرين.

- صاحب الكراج توجّه شمالا إلى لبنان هاربًا من الموت. هكذا أخبره بعض من قابلهم.

إلى بيت ساحور عاد سلامة، حزينًا كيوم غائم ضبابي مُعتم وبارد. اعتكف في البيت أسبوعين كاملين، إلى أن سمع أن بعض الذين رحلوا عن بيوتهم من الجليل تسللوا عائدين إليها.

إلى الناصرة، انطلق سلامة من جديد، متسللا، يسير في الليل، ويختفي في النهار.

خطيبته كاترين، التي ستصبح زوجته فيما بعد، حاولت منْعه، توسّلت إليه، لكنها في النهاية أمسكت بالصليب الذي يتدلّى فوق صدرها، وطوّقت بسلسلته الذهبية عنق سلامة، وتوسّلت للعذراء أن تحميه وتنصره.

ما فعلتْه كاترين ترك أثرًا بالغًا فيه، بحيث يمكن القول إن تلك الحادثة كانت أصفى وأجمل لحظة حبّ في تاريخهما العاطفي قبل الزواج وبعده.

* * *

ما حدث، أن سلامة فكّر في أمر السلسلة والصليب الذّهبيين، واكتشف أن المغامرة بحياته أهون من المغامرة بهذا الذّهب، وهكذا وجد نفسه يتخلّى عن حماية العذراء، مبقيًا السنسال الذّهبي عند أمّه.

- ما هذا؟ سألته.

- سنسال لكاترين!

- عجيبة! هل ستهديها إياه؟!

هزّ سلامة رأسه، ففهمت أمّه أنه سيفعل، لكنها لم تصدّق الأمر أبدًا، ولأنها تحبّ كاترين، ابنة أختها، كثيرًا، لم تناقشه في الأمر، وقالت: لم يُهدِها السنسال إلا لأن السنسال سيكون في متناول يديه بعد زواجه منها! لكنها كانت تخشى تراجعه عن خطوته غير المألوفة.

* * *

عاريًا من حماية مريم العذراء، قطع سلامة الطريق الذي بات يعرفه جيدًا، يسير نهارًا وينام ليلا، إلى أن وصل الناصرة. سأل عن صاحب الكراج، فقيل له أنه موجود، فقال: يعني، استطاع العودة من لبنان؟!

فردّ الرجل: إنه لم يغادر الناصرة أصلا!

الرجل الذي تحدّث معه انتابته الشكوك، فهو لا يعرف سلامة؛ ربما يكون جاسوسًا، ففي زمن الحرب يتكاثر الجواسيس كما يتكاثر الفِطر بعد المطر. أما سلامة، فقد استنتج أن من أخبروه بسفر صاحب الكراج، إما كذبوا عليه، وإما قالوا ذلك عن جهل بعد أن رأوا الجحيم القادم من الغرب بأمّهات أعينهم.

* * *

عشرة أيام أمضاها سلامة في الناصرة، حتى تمّ إصلاح السيارة. كان يعرف أن العودة بها ليست سهلة، بل هي مغامرة المغامرات. لم يعرف إن كان عليه أن يقودها نهارًا أم ليلا؛ ففي النهار، هناك خطر، وفي الليل أخطار، إذ لا يمكن أن يقودها بلا أضواء.

وضع سلامة خطة، وقرّر الالتزام بها رغم المشقّات التي سيتحمّلها، والأخطار التي يمكن أن تقع.

* * *

ذات ضحى، ودّعَ صاحب الكراج، كي لا يلفت الانتباه إذا تسلل مبكرًا؛ وقبل أن يبدأ رحلته، تحسّس عنقه، لم يكن سنسال كاترين هناك. فكّر في الأمر بحزن، وتوصّل إلى أن تخلِّيه عن حماية مريم العذراء كان خطأ كبيرًا، فإذا كانت حياته لا تستحق المغامرة بالسنسال، فإن السيارة كانت تستحقّ، لأن سعرها ببساطة أعلى بكثير من تلك السلسلة الذهبيّة.

بعد خروجه من الناصرة متوجّها إلى الشرق، توقّف في قرية دبّورية، أخفى السيارة في حقل زيتون محاذ لها، وسار خمسة كيلو مترات جنوبا باتجاه إندور، على قدميه، مستطلعًا الطريق. كانت الأرض خالية من الأعداء، إذ لم يكونوا قد تمكّنوا بعد من بسط سيطرتهم على كل شيء.

وجد سلامة أن الطريق آمن، فعاد إلى السيارة سيرًا على الأقدام ثانية، استقلّها بحذر شديد. وهكذا ظلّ، يسير مرّة، ويقودها مرّة، عابرًا أراضي ناعورة. خبأها في قوميَة، وسار على قدميه. في زِرْعين عثر على حمار سائب، امتطاه وعاد إلى السيارة في قومية، ثم اتجه إلى المزار، وكان الحمار يجري مربوطًا بمؤخرتها متقطع الأنفاس.

أجرى سلامة عملية حسابية، فتبيّن له أن عليه التخلّي عن الحمار. صحيح أنه يستطيع الانطلاق به، من، وإلى، السيارة بصورة أسرع، لكنه يجعل السيارة أبطأ لأنه موثق بها. أخذ سلامة قراره: لا يمكن أن يكون في النهاية رهينةً لسرعة الحمار، فأطلق سراحه وكلّه أمل أن يعثر على حمير سائبة في طريق عودته، يظلّ يمتطيها ويُطلق سراحها.

ثلاث مرات كان يمكن أن يقع سلامة في أيدي الكتائب الصهيونية، وكان يعرف تمامًا مصيره، لو حدث ذلك؛ لكنه استطاع الاختباء، ولم يكن يعود إلى السيارة إلا بعد أن يتأكّد من خلوِّ الطريق تمامًا.

* * *

في الليلة العاشرة، كانت أم سلامة وخطيبته على يقين من أن سلامة لن يعود! وأوشك الخلاف أن يشتد بين عائلته وعائلة خطيبته، حين قال والد كاترين: كان عليه أن ينسى السيارة، فحياته أهمّ، ومستقبله مع خطيبته أهمّ.

وقالت كاترين: لم تغمض لي عين منذ ذهب.

ولأن أم سلامة لم تكن تعرف شيئا عن عينَي الخطيبة، لم تجد وسيلة تدافع بها عن ابنها غير أن تقول: ولكن هذه السيارة ليست كأي سيارة!

- وهل ابنتنا كأيّ بنت أخرى؟! ردّت عليها شقيقتها، أم كاترين.

محاورة كتلك، محتشدة بالخوف على مصير سلامة، كان يمكن أن تتطوّر إلى نزاع يُنذر بفسخ الخطبة. رأت أم سلامة الكارثة قبل أن تقع، فقالت: مثل كاترين، وجمالها، لا توجد فتاة في بيت ساحور كلّها، بل في فلسطين كلها! ولكنكم تعرفون، هذه السيارة ليست كأيّ سيارة لأن لها

تاريخًا! لقد صدم بها سلامة سيارة المندوب السامي، وكان يمكن أن يُقتَل. هل تعرفون كم سيارة من سيارات جيوش الإنقاذ اصطدمت بسيارة بريطانية؟ أو بسيارات الكتائب الصهيونية؟!

عمّ الصمت، فما قالته أم سلامة كان تهوّرًا في وقت لم يزل فيه بعض جنود جيش الإنقاذ في الجوار، فقالت: انسوا كلّ ما قلت! ولكي تستطيع الخروج من الموقف الذي حشرتْ نفسها فيه، طلبت من والدَي الخطيبة أن تنفرد بعروس المستقبل. سارت أم سلامة ببطء نحو غرفة جانبية، تبعتْها كاترين. تأكّدتْ أم سلامة من أن أحدًا لا يسمع ما ستقوله. اختفتْ يدها في شق حرير ثوبها المطرّز بالأحمر والبرتقالي والأصفر، وأخرجت من عبّها ذلك السنسال الذهبي. شهقت كاترين حين رأته! وقبل أن تقول شيئا، باغتتها أم سلامة: لقد اشتراه سلامة هدية لكِ، كان يريد أن يقدّمه بنفسه، ولكنه تأخّر في الناصرة. هذا لكي تتأكّدي من أن سلامة يحبكِ أكثر بكثير من السيارة!

* * *

استعاد سلامة حوادث تلك الرحلة أثناء عودته من مبنى إدارة الحكم العسكري، وهو يتلفّت خلفه بين لحظة وأخرى متوقّعًا إطباق الجنود عليه، لتنفيذ أمر إبعاده.

سألته كاترين التي لم تعد صبية: شو صار معك؟

- عذّبوني، ولم أقل كلمة واحدة!

فكّرت كاترين: هل يعقل أن تكون ذاكرة زوجها ضعيفة إلى هذا الحدّ؟ هل نسي ما فعلتْه به؟

ربّتت كاترين على كتف زوجها، وهي تردّد: بطل!

فهز رأسه مؤكِّدا كلامها.

فأعادت: بطل. مؤكدة هزّة رأسه، كما وافقتْه بعد عودته من الناصرة سالما، يقود السيارة، حين قال لها:

- ولكن ألا ترين معي، أنني أهديتك أفضل سنسال ذهبيّ لبستْه فتاة في بيت ساحور؟! وقبل أن تجيب واصل: ولكنني كنت أحبّ أن أقدّمه لك بنفسي.

تأمّلته كاترين يومها شبه باكية وقالت: إنتَ أو أمك ما في فرْق!

* * *

كان يمكن أن تنتهي الخطبة عند ذلك الحدّ، لكن والد كاترين وبّخها:

- ألا تكفي مصيبة ضياع فلسطين؟! هل تريدين أن تفسخي الخطوبة فتحلَّ ببيتنا مصيبة أخرى؟! ثم صمت قليلا، وقال والدموع تملأ عينيه: الله بيعوّض يا بنتي.

كانت كاترين تريد أن تسأله إن كان يبكي عليها أم يبكي على فلسطين، أم عليهما معًا، لكنها لم تجرؤ.

* * *

قبل زواجهما، قدّمت عائلات البلدة إلى سلامة الهدية التي اعتبرها هدية حياته: قرار تخفيض قيمة (الفيْد)[12] إلى ستة دنانير أردنية، بعد أن كانت تصل في بعض الحالات إلى مائة جنيه فلسطيني. كان فيد كاترين، كما اتفقوا، 40 جنيها، لكن سلامة أصرّ على ما اتفق عليه أهالي البلدة. وكاد مشروع الزواج أن ينتهي، وهذا ما كانت تحلم به كاترين، إلا أن أباها أصرّ: مصيبة وفسخ خطيبة، ما بيجتمعوا في بيت! فذهب قوله مثلا.

* * *

يا ريتك مباركة　　سبع بركات

كما بارك المسيح　　ع الخمس خبزات

ليالي المعسكر!

ثلاثة أيام أمضاها المحقق داود يسأل نفسه عن مدى تسرّعه بشأن سلامة. كان على يقين من أنه بحاجة إليه، إن لم يكن اليوم فغدًا. المحقق داود كان يعرف أن الأيام الهادئة لا تستمرّ إلى الأبد، وأن الناس ما زالوا تحت وقع الصدمة، أنهم لم يستوعبوا، بعدُ، ما حدث. المحقق داود عايش بدايات الصمت التي أعقبت النكبة، ثم كيف بدأ التّململ، ثم كيف تصاعد بهدوء: (العرب ليسوا صراصير في زجاجة، كما قال ذلك الحاخام، العرب أسوأ من هذا بكثير!) همس لنفسه.

المحقق داود كان على يقين من أن سلامة صرصور، مجرد صرصور، ولكنه بحاجة إليه لكي يعرف ما تفكّر فيه الصراصير الأخرى!

الهواجس التي كانت تُلهب رأس داود في تموز، يوليو، كانت أشدّ اشتعالا من شمس ذلك الشهر الناريّ. هو يعرف أن بإمكانه أن يمرّ من الشارع الذي يقع فيه بيت بشارة مرّة، مرتين يوميًّا، ولكنه لن يستطيع أن يُقيم معسكرًا أمام ذلك البيت.

للحظة حدَّث نفسه: ولمَ لا؟ سأقيم معسكرًا هناك أمام بيته، وليكن ما يكون!

* * *

وصلت دوريات وأغلقت الشارع من مدخلَيْه. تسلّم الأهالي إنذارًا يُلزمهم بعدم مغادرة منازلهم حتى إشعار آخر. بعد أقلّ من ساعة حضرت أربع شاحنات عسكرية، تقافز منها الجنود، وقبل أن تلمس أقدامهم الأرض، نصبوا الخيام بسرعة كما لو أنهم استخدموها في هبوطهم كمظلات!

بعد أن تأكّد داود من أن المعسكر أصبح قائما، أعلن بمكبرات الصوت السماح لسكان الشارع بمغادرة منازلهم والعودة إليها ما بين الساعة التاسعة صباحًا والخامسة مساء.

في تلك المساحة الزمنية، كان باستطاعة المحقق داود أن يرى كل شيء بوضوح تام. كان باب خيمة القيادة مواجهًا لباب بيت بشارة. هكذا كان داود قادرًا على مراقبة كلّ شيء.

أحد زملائه المحققين سأله: داود، ما الذي تفعله؟! في الوقت الذي تراقب فيه بيت بشارة هذا، لتتأكد من أن امرأته حامل أم لا، هناك مئات النساء، الآن، يحمِلن ويلِدن في بيت ساحور، فما بالك بمن يحمِلن، الآن، ويلِدن في بيت لحم وما حولها؟!

رغم أن حقيقة كتلك لا تحتاج إلى التّذكير بها، إلا أن داود فوجئ، بل بدا مصعوقًا، لا من تلك الحقيقة وحدها، بل لأن زميله المحقق يقولها كما لو أنها أمر طبيعي يحدث في تل أبيب!

- وما الذي تفعله أنت هنا؟ أليس لك عمل تقوم به غير أن تذكّرني بأن هناك مواليد جددًا لهذه الصراصير؟ صرخ في وجه زميله، وهو يتقدّم نحوه مندفعًا.

* * *

لم تغادر ماري البيت. انتابته عدّة هواجس: هل تتسلل ليلا من أمامنا دون أن ننتبه؟! هل تخرج من باب سرّيّ؟ هل تتجاوز حائطًا؟ أم تصعد إلى السطح بسلَّم وتهبط في الشارع الخلفي، وتتحرّك على هواها؟

في الليلة الرابعة أحسّ داود بحركة في حوش بيت بشارة، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلا. استيقظ، وجد نفسه غارقًا في لزُوجة عَرَقه. مسح عينيه، أحس أنه ملأهما بحفنتَي ملح.. تقلّب من شدّة الألم.

عيناه المغلقتان على ألم حادّ، لم تستطيعا حجْب ذلك الصوت الذي كان يتصاعد في الحوش المقابل. حين تمكّن من فتح عينيه تمامًا، بوغت بجدار بيت بشارة ينتفخ وينتفخ، ويتقدّم نحو خيمته كقوس حجري هائل، يُطبق على الخيمة التي يجلس فيها، يُقطِّع حبالها، ويدفع سريره نحو الحائط خلفه. كان حديد السرير يتلوّى كما لو أنه سيتحوّل بعد قليل إلى كرة معدنية. تراجع داود إلى الخلف،

وواصل تراجعه مع تقدّم الحائط أكثر. أوشك أن يصرخ، لكنه رأى أن أمرًا كهذا لا يليق بجندي احتياط، فكيف إذا ما تعلّق بقائد المعسكر نفسه؟!

صرخ في النهاية.

في ليل معتم ملتهب مثل ذلك الليل، صرخة كتلك، كانت كافية لإيقاظ مدينة بأكملها، لكن أحدًا لم يستيقظ.

* * *

أربعة أيام كاملة، لم تظهر ماري ولم يظهر بشارة، ولا أم خليل، ولا أي من الجيران الذين تطلّ أبوابهم على المعسكر من جانبي الشارع. كان الأولاد والفتيات هم من يخرجون ويعودون، يلعبون في الشوارع المجاورة، وتصله أصواتهم عالية. يخرجون متضاحكين، يلعبون متضاحكين، ويعودون متضاحكين، كما لو أنهم لا يرون الجنود، ولا تُعيق حبال الخيام مرورهم!

* * *

في الليلة السابعة، كان داود منهكًا، بحيث لم يتذكّر سبب وجوده في ذلك الشارع الضيق. نام، وحينما استيقظ، كانت الشمس في منتصف السماء. استغرب أن نومه امتدّ إلى تلك الساعة. سار نحو باب الخيمة، تلفّت حوله، لم تكن هناك إلّا خيمته؛ الجنود كلّهم رحلوا!

حاول أن يتذكّر إن كان أصدر أمرًا بتفكيك المعسكر، لم يتذكّر. عاد إلى الداخل، جلس على طرف سريره، انحنى ليعقد رباط حذاء قدمه اليمنى. في تلك اللحظة سمع حركة، رفع رأسه وثبّت عينية الثاقبتين على باب بيت بشارة. الصوت قادم من خلف ذلك الباب، سمع ضحكات أطفال! تقطّعتْ أنفاسه. تصاعدت الضحكات، انحبست أنفاسه، حاول أن يتنفّس من فمه، لم يستطع. ثم فجأة، فُتح الباب، فاندفع من داخله عشرات الأطفال؛ أطفال صغار كلّهم في الثالثة من أعمارهم، بنات وأولاد، أطفال يتراكضون كطيور البطريق، يتعثّرون ولا يسقطون، وخلفهم ماري وبشارة يسيرون مبتسمَيْن.

اندفعوا في الشارع، صاحت ماري: يا ماما شوي شوي!

تسللت يد المحقق داود إلى البندقية بصمت، وجَّهها نحوهم وراح يطلق النار بلا توقف.

استيقظ فزعًا.

* * *

طرد المحقق داود فكرة إقامة ذلك المعسكر، طردها بعيدًا: إن لم تخرج ماري اليوم ستخرج غدًا، وإن لم تظهر علامات حمْلها الآن، ستظهر الشهر المقبل!

كان يكره الانتظار.

.. وانتظر.

* * *

زميل داود، المحقق الذي لا يكفّ عن توجيه الأسئلة الصعبة له، سأله: لا أعرف لماذا تضيّع كل هذا الوقت لتعرف إن كانت تلك المرأة حاملا أم لا! ألم تخطر ببالك الطريقة الأقصر والأسهل؟!

- ماذا تقصد بالطريقة الأقصر والأسهل؟

- داود، يمكنك ببساطة أن تشق بطنها وتتأكّد بنفسك!

القائمة السوداء

لم تكن كاترين عاشقة لسلامة، فمنذ حادثة السنسال، تكسّرت أشياء كثيرة في داخلها، ولولا مواظبته على إعادة سرد حكايته مع المندوب السّامي، في كلّ مرة بطريقة مختلفة، لتلاشى تمامًا بالنسبة إليها.

عشرون سنة مرّت على زواجهما، تساءلت خلالها ألف مرّة على الأقل: ما الذي يُلزمني بالبقاء معه؟! وقبل عام النكسة، 1967، أي ببلوغ زواجهما التاسعة عشرة من عمره، كانت على وشك الانفصال عنه: سأتركه حتى لو كان الموت هو ورقة الطلاق! هكذا قالت لأمها.

بعد أقل من شهرين، اجتاحت القوات الإسرائيلية الضفة الغربية وغزة وسيناء والجولان، فصمتت كاترين أسبوعين، كما صمت الجميع، كما فقد الجميع أي حسّ بالحياة؛ لم يعد يهمّها إن كان سلامة فوقها، أو فوق السطح، أو في جهنم الحمراء! بعد انتهاء الأسبوعين، رأته أمامها، ففوجئت كاترين تماما، حتى أنها سألته: ما الذي تفعله هنا؟

كانت ببساطة قد طلّقته ألف مرة في أحلام يقظتها، حتى بات الأمر أكثر قوة من الحقيقة.

ارتبك سلامة، تحسّس شاربه الصغير. تلفّت حوله، متوقّعًا أن الكلام موجه لسواه، لم يكن هنالك أحد غيره، فسألها: أنا؟!

- ومن غيرك؟

في تلك اللحظة استيقظت كاترين، تذكّرت أنها لم تطلِّقه بعد. انتعلتْ حذاءها وخرجت صوب بيت أبيها.

كانت سماء حزيران تقطر دمًا، والصمت هو الجيش الوحيد الذي يتجوّل في شوارع بيت ساحور وأزقتها، فكما حدث بعد عام النكبة، لم يكن جيش الاحتلال قد انتشر في كل مكان، كان ثمِلا بهذه البلاد الجميلة التي احتلّها، ولم يكن يعرف أي الأماكن، هي الأفضل، لرفْع راياته فوقها!

قال لها أبوها: كاترين، يكفينا نكسة واحدة، لا تجعليها نكستين!

عند ذلك جُنّت كاترين وصرخت: هل تذكر يا أبي؟ عام النكبة كنت أريد فسخ الخطبة، فقلت لي: ألا تكفي ضياع فلسطين؟! مصيبة، وفسخ خطيبة، ما بيجتمعوا في بيت! أم نسيتَ؟

- لا، لم أنسَ.

- وهل كُتب عليَّ ألّا أُطلِّق سلامة إلّا إذا انتصرنا؟!

صمت أبوها، أجرى عملية حسابية بسيطة: إذا كانت هناك حرب تشتعل كل عشرين سنة، فلن تكون أمامنا فرصة للنصر قبل عشرين سنة أخرى! وستكون كاترين عندها قد تجاوزت الستين، وأظن أن الطلاق لن يفيدها حينذاك في شيء!

سارت كاترين حتى وصلت نهايات سهل الرّعوات، انتظرت أن تمرّ سيارةٌ ذلك المساء لتقلّها إلى أي مكان، حتى لو كان ذلك إلى ما وراء نهر الأردن. ستذهب إلى عمّان وتقضي ما تبقّى لها من حياة في بيت خالتها سامية، التي تقطن سفح جبل الأشرفية المطلّ على قلب العاصمة.

لم تمرّ أي سيارة، لا مدنية ولا عسكرية، وهبط الليل.

على عتبة البيت لاح لها شبح سلامة قلقًا كزوبعة، رآها، فاندفع يركض نحوها.

سلامة يحبّها، هي تعرف ذلك، ولكنه يحبّ ألف شيء أكثر منها.

أمضت الأسبوع التالي صامتة، ثم مدّدت صمتها كأهل البلد الذين مدّدوا صمتهم! وفي الأسبوع الرابع، تجرأ بعض الرجال وسهروا أمام بيتها، على كراسٍ من قشّ، يشربون الشاي، ويُدْلون بتوقّعاتهم عن الفترة التي سيستغرقها انسحاب الجيش الإسرائيلي من (الأراضي المحتلة).

التفاؤل لم يكن الشخص الغائب عن لمّتهم، بل الشخص القتيل الحاضر. لكن سلامة أعلن بصوت واضح، أن الأمر لن يستمر طويلا، وأن المسألة اليوم مختلفة عن عام النكبة، وعزّز حجته

بالقرار الواضح الصريح الذي أصدره مجلس الأمن، والذي دعا فيه إسرائيل للانسحاب، ولم تعارضه بريطانيا -أساس البلاء، ولا أمريكا -أساس استمراره!

في ذلك المساء استعاد سلامة واقعة الاصطدام بسيارة المندوب السامي البريطاني، كما لو أنه يبشّر بالثورة! وبالغ. سمعتْه كاترين، وسعدت كثيرًا بما قال.

- لو اعتمد العرب الطريقة التي قمتُ بها، أعني أن تضرب كل سيارة عربية سيارة إنجليزية، أو صهيونية، لما عانينا مما نعاني منه حتى الآن! وأعقب ذلك بسؤال: ألا ترون أن ذلك هو الطريق الوحيد؟!

نهض سلامة، توجّه إلى حيث تربض السيارة على بعد ستة أمتار منهم، رفع الغطاء، فأبرق جناحها الأيمن، ربّت علىها بلطف، وقال:

- كان عليهم أن يعتمدوا هذا الحلّ!

همهم الرجال، وهزّ بعضهم رؤوسهم موافقين، وتحوّل بعضهم إلى حجارة؛ تعاملوا مع الأمر كما لو أن شيئا لم يُقَل! وسأل أحدهم السؤال الذي لم يتوقّعه سلامة أبدًا:

- ولماذا لا تقوم بما قمتَ به من قبل؟

- ما الذي تعنيه؟

- أعني أن تُشغِّل السيارة وتمضي إلى أي شارع توجد فيه سيارة احتلال وتصدمها.

أخذ سلامة نفسًا عميقًا، وهزّ رأسه عدة مرات بتأثر واضح، في وقت بات فيه الجوّ مشحونًا كأن معركة ستنشب بعد لحظات.

- لا تتخيّل كم أتفهّم سؤالك! إنه سؤال إنسان غيور فعلا، لكن للأسف، لقد فات الوقت، لأن ذلك كان يجب أن يحدث في اللحظة التي دخلت فيه قوات الاحتلال المدينة، لا الآن، بعد أن استقرّت فيها، وهذا هو السبب الأول لعدم قيامي بذلك..

وصمت سلامة كثيرًا دون أن يتوقّف عن هز رأسه والعبث بشاربه، إلى أن سأله رجل آخر:

ـ كأنك نسيت السبب الثاني؟

ـ لا، سلامة لم ينسَ، ولن ينسى السبب الثاني؛ لقد خدعتْنا، أعني الأنظمة العربية، وأبقتنا في بيوتنا، كما فعلتْ عام النكبة، حين قالت نحن الذين لدينا الجيوش ونحن الذي نقاتل، أما أنتم، أيها الناس، فالتزموا بيوتكم. وكما تعرفون، لم أصدّق وحدي ما قالوه، بل كلكم صدقتموه أيضا، ولم أُخدَع وحدي، بل خُدعتم كلكم، وإلا لكنت قمت بما هو أكبر بكثير مما قمتُ به مع سيارة المندوب السامي.

* * *

سلامة الذي دعاهم، مُضحيًا بملعقتَي شاي، وحفنة سكر، في وقت أصبحت فيه لهذه الأشياء قيمة مضاعفة، كان يحاول المستحيل لكبت غضبه بسبب ذلك السؤال الفجّ الذي طرحه ضيفه.

وما إن خرجوا حتى تخيل نفسه يبحث عن ورقة ويعدّ قائمة سوداء بأسماء كل الضيوف، ويمضي بها في عزّ النهار إلى مكتب المحقق داود، ويناوله إياها!

ـ ما هذا؟

ـ هي قائمة بأسماء من يغتابون الاحتلال.

ـ يا سلامة، أولا، نحن لسنا قوات احتلال، قال وهو يفتح القائمة، ثم إننا لسنا بحاجة لمعرفة أسماء من يغتابوننا، الاستغابة تفاهة اجتماعية، وليست تهديدات عسكرية تخريبية، وأعاد له الورقة، وهو يضيف: واحرصْ على أن يكون خطّك واضحًا في المرات القادمة، فتقارير تُكتب بخطّ كخطك تجعل الأمور أكثر غموضًا.

هزّته كاترين: ماذا حدث لك؟ لقد غادروا جميعا وأنت واقف في مكانك لا تتحرّك!

ـ لقد سمَّمَ بدني ذلك المتذاكي، خسارة فيه كان كوب الشاي.

* * *

لسبب ما، تمنّى سلامة أن يكتشف حقيقة حمْل ماري، وفكر في ذلك السبب كثيرًا، إلى أن أيقن أنه يريد أن يعرف لأنه لا يريد أن يعترف بما يعرفه! حاول التّسلل من البيت. كاترين، التي لا

تُغمض لها عين، أمسكت به كاترين التي عادت تحسّ أن صوت خطواته، حافيًا، على الأرض أكثر هديرًا من مرور دبابة فوق واحدة من أذنيها!

- إلى أين؟ سألته.

- سأغيب قليلا وأعود!

أكثر ما كان يخشاه سلامة أن تخبر كاترين ماري بما يدور في ذهنها؛ ذلك سيكون كافيًا ليدعمها جميع أهل البلد في مسألة الطلاق.

- أنا ذاهبة معك.

رفض سلامة أن ترافقه. ابتعد، وقبل أن يأخذه الانعطاف التالي توقّف كحجر. وظلّ متوقفًا، حتى أن كاترين أحسّت أن غضبها عليه قد حوّله فعلا إلى تمثال!

بين أن تسير باتجاهه لتعرف ما حدث له، فهو في النهاية زوجها! وبين أن تُغلق الباب، وتمنعه من دخول البيت بعد عودته، اختارت أن تظلّ محدّقة إليه، فلعله يكون قد تحجّر!

فجأة استدار، قطعةً واحدة، وتقدّم نحوها ببطء. لقد أدرك سلامة أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو أن يأخذها معه!

* * *

يعرف سلامة أن كاترين هزمتْه منذ بداية زواجهما. لأن أحدًا لم يقل له إنها لا تستطيع إغماض عينيها. في أول خلاف كبير بينهما رشقها بنظرة غاضبة، كان على يقين من أنها كفيلة بسحقها، لكن المفاجأة الكبيرة التي هزّته، أن كاترين ظلّت تحدّق إليه، ما اضطرّه لأن يخفض عينيه، وينظر إلى الأرض، بعدما امتلأتا بالدمع.

لم ينسَ سلامة هزيمته، وقرر أن يواجهها من جديد، فافتعل شجارًا على طبخة بامية، كانت أعدّتها له، وصرخ: إنها أكثر ملوحة من البحر الميت.

مدّت كاترين يدها، وتذوّقت ما في صحنها، مع أنها أكلت لقمة قبل لحظات، لم تلدغها تلك الملوحة التي تحدّث عنها.

- ليست مالحة.

- بل مالحة.

-ربما عليكَ أن تتمضمض، وتتأكد من أن فمك ليس مالحًا.

ثار سلامة، وقال:

- قلت لكِ إنها أكثر ملوحة من البحر الميت، وحدّق إليها بعينين يتطاير منهما الشرر.

بعد خمسين ثانية تدفق الدمع منهما فانطفأ الشّرر، وظلت كاترين محدقة إليه لنصف ساعة، كلما رفع عينيه وجد عينيها مشرعتين، قادرتين على ابتلاعه.

أدرك سلامة أن امرأة تملك عينين مثل عينيها لا يمكن أن تنتصر عليها في معركة النظرات الغاضبة.

* * *

تحوّل بشارة إلى تمثال حجري حين فُتح الباب ووجد سلامة أمامه. لم يعرف صاحب البيت إن كان عليه أن يُغلق الباب، أم يسأله: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لا تتركنا ننتظر أكثر. قال سلامة بخوف. فالتقط بشارة بأعمق ما فيه من حواسّ ذلك.

ما إن جلس وزوجته، حتى سألتْهم ماري: خير؟!

لم يكن سلامة ينتظر كلمة مثلما كان ينتظر تلك الكلمة، فاندفع يتحدّث، ساردًا تاريخه الوطني المتوّج باصطدام سيارته بسيارة المندوب السّامي. قاطعَه بشارة:

- هاتها من الأخير!

ارتبك سلامة، ونظر صوب زوجته، زوجته التي أشارت له أن يقول كل ما عنده، رغم عدم معرفتها بما سيقوله.

تحدّث سلامة عن التعذيب الذي تعرّض له على يدَي المحقّق داود نفسه، في الوقت الذي كان فيه بشاره يبحث عن خدش واحد، في جسد سلامة، تحدث عن داود الذي هدّده بنسف بيته! وطرْده إلى ما وراء ضفة نهر الأردن الشرقية، إذا لم يأت له بالخبر اليقين حول حمْل ماري. تحدّث سلامة عن زيارته الأولى مؤكدًا أنها كانت بدافع الخوف عليهما، لإنذارهما! لكنهما لم يتيحا له هذا! قال سلامة إن المحقق داود استدعاه وحقّق معه ثانية، وعذبه، ولكنه لم يعترف بشيء!

وختم كلامه: جئت لأحذركما: المحقق داود مجنون، ويريد أن يعرف، بأي طريقة، إذا كانت ماري حاملا أم لا. فانتبهي. هذا كل ما كنت أريد أن أقوله.

سألته ماري: وهل تعرف أنتَ إن كنتُ حاملا أم لا؟

- لا أعرف.

- ولماذا تحذّرني؟ هل هو فخ آخر؟

- أبدًا.

- هل تريد أن تعرف الحقيقة؟ سأله بشارة.

- لا، لا أريد، أرجوك؟ فقط أريدكِ يا ماري أن تنتبهي سواء أكنت حاملا أم ستحملين مستقبلا. إن ما يحيرني والله هو سبب هذه العداوة بين المحقق داود وبين جَنين لم يولَد بعد!

* * *

في طريق عودته إلى البيت كانت سعادة سلامة أضعاف خوفه، فأفضل ما حدث أن المحقق داود لم يره داخلا بيت بشارة أو خارجًا منه، أما ما أسعده أكثر، فهو طلب كاترين منه، الطلب الذي قالته بدلال لا يجوز أن يلاحظه أي شخص غريب قد يسمعها، فأوقدت في صدره دفء سعادة لم يحسّها منذ زمن بعيد: سلامة، استناني، إمشي شوي شوي، ليش هيك مستعجل!

نهاية سعيدة!

أول ما فكر فيه سلامة حين توقّفت سيارة الجيب العسكرية أمام منزله، أنها قادمة لتنفيذ أمر إبعاده.

لكن الجندي الجالس بجانب السائق ألقى له بورقة، لم يكن صعبًا عليه أن يعرف ما فيها.

لو كانوا يريدون إبعاده لألقوا به في صندوقها.

شمس آب اللاهبة سقطت داخل جمجمته، كما لو أنها وجدت مستقرها أخيرًا، وتحوّل جسده الصغير إلى كرة مجنونة، كلما ارتطمت بجدار من جدران البيت اندفعت إلى جدار آخر، ثم غيّرت مجراها لترتطم بأرضية الغرفة وسقفها.

كاترين حاولت السيطرة عليه، دفعَها، فكادت تلتصق بالحائط! فاجأها أن فيه تلك القوة، وحيّرها أنه عاش يخافها! هي التي كلما اختبرت شجاعته عثرت على جبنه.

كان لا بدّ أن يهدأ في النهاية.

الغريب في الأمر، أنه حين غادر المنزل توقّف طويلا، كتمثال في نقطة صفر لا يدركها سواه.

في المساء، استطاع انتزاع جسده من عتمة الليل. جمّع نفسه، وبكل ما فيه من قوة استدار للخلف، لتلك الجهة التي تشير إلى طريق البيت.

طمأنته كاترين: اذهب، لا تخف، سآتي معك غدًا وأنتظرك أمام مقر الحاكم العسكري. لن أغادر المكان إلا وأنت معي.

يعرف سلامة أن كاترين إذا قطعت وعدًا فإنها تكون بحجم وعدها، ليس في مواجهة قوة احتلال بالطبع، إلا أن ذلك أراحه، ما جعله يطلب منها صباحًا: لا ضرورة لذهابكِ معي، ماذا سيقول الناس؟!

- وهل أنت متأكد من كلامك؟ سألته كما لو أنه طفل سيعود بمفرده إلى البيت بعد انتهاء يومه الدّراسيّ الأول.

- متأكّد، أما إذا تجاوزت الساعة الثانية ظهرًا ولم أعد، فافعلي ما عليك أن تفعليه!

لم تعرف كاترين ما الذي عليها أن تفعله، كما لم يعرف هو! ولكنها وقفت تراقبه بقلق وهو يسير في الشارع مبتعدًا، وبين لحظة وأخرى ينظر خلفه كما لو أنه يريد التأكد من وجود تلك العلامات التي ستساعده في طريق عودته.

أخذه الانعطاف الأخير، وحيّر كاترين، أنها لم تزل ترى طيفه يتلفّت نحوها. لم تجد في النهاية من حلّ سوى الدخول وإدارة المفتاح في قفل البيت ثلاث مرات، وهزّ ذراع القفل للتأكّد من إغلاقه.

* * *

بعد أن تجاوز بئر السِّيده، ووصل الشارع الصاعد إلى بيت لحم، أمسكت الحيرة بقلبه، تعتصره. هل يتّجه إلى الشرق؟ يستقل سيارة وينفِّذ ما فكّر فيه أمس: التسلل إلى الضفة الشرقية، أم يصعد نحو بيت لحم ليواجه مصيره.

في تلك اللحظات أدرك سلامة أنه دجاجة، فذلك المثل الشعبي ينطبق عليه بشدّة، بل لم يوجد إلّا له: دجاجة حفرتْ على راسها عفرَتْ! هو الذي لم يتوقّف عن الحديث عن بطولاته. لو توقف عن ذلك، لما عرف ناحوم، أي داود، أن في بيت ساحور شخصا اسمه سلامة.

استعاد ذلك اليوم الذي وصل فيه بسيارته مدخل مقرّ المندوب السامي، في اللحظة التي كان يغادر فيها المكان بسرعة، كجزء من الاحتياطات الأمنية في ذلك الزمن المشتعل، فوجئ به سائق

المندوب السامي، وكان لا بدّ للحادث من أن يقع.

- في تلك المرّة جاءت الضربة في السيارة، فقلتُ يومها: في المال ولا في العيال، لكنني اليوم أتوجّه إلى المحقق داود رغما عني، أعزل حتى من سيارة أصبح عليّ أن أحميها وأحافظ عليها، أكثر مما أحمي نفسي وأحافظ عليها!

* * *

في بحر حساباته وقلقه ولهيب الأسئلة التي استولت عليه، وصل مقرّ الحاكم العسكري.

فوجئ أنه وصل.

قال لحارس المقرّ: إن لديه موعدًا مع المحقق داود. أجرى الجندي اتصالا، وسأل إن كان المحقق داود في الداخل، فهناك من يقول إن لديه موعدًا معه.

سمح الجندي له بالدخول بعد أن فتّشه، وسأله إن كان يعرف المكتب الذي سيلتقي فيه المحقق.

هزّ سلامة رأسه بثقة، كأنه واحد من أعمدة المقرّ.

* * *

أول ما خطر ببال سلامة حين رأى شخصًا آخر يجلس مكان المحقق داود، أن المحقّق داود يعاقبه، بحرمانه من الاجتماع معه. رغم أن ما يخشاه أكثر هو أن يجد نفسه تحت سياط أسئلة داود من جديد وحمم بركان غضبه.

قدّم سلامة نفسه: سلامة!

وقدّم المحقق مردخاي نفسه: أنا أسعد، المحقق الجديد بعد المحقق داود!

ارتبك سلامة، إذ لم يعرف إن كان المحقق يسعد بلقائه، أم اختار اسما جديدًا لضرورات عمله: أسعد.

- لقد أوصاني المحقق داود بك خيرًا. قال لي: عليك أن تعتني بسلامة جيدًا. في الحقيقة لم أعرف ما الذي كان يقصده بكلامه، فقد غادر صباح اليوم المقرّ على عجل وسيغيب طويلا.

- أرجو أن يكون سبب المغادرة خيرًا! قالها سلامة محاولا أن لا يبدو حزينًا ما أمكن، كي لا يفهم المحقق الجديد أن سلامة غير فرح بتعيينه خليفة لداود! همس في نفسه: إلى جهنم.

- اطمئن، المحقق داود ذهب إلى الخارج، دورة تدريبية؟

- أرجو أن لا تطول رحلته؟ علّق سلامة بحياد.

- للأسف، أقولها، ما دام الأمر يهمّك، سيغيب أربع سنوات على الأقل!

- هذه فترة طويلة والله! وهمس لنفسه: الله لا يعيده!

- يبدو أن المحقق داود كان محبوبًا في هذه المنطقة، هذا أمر يُسجّل له!

- محبوب؟! وهزّ سلامة رأسه، خائفا أن تبدر عنه أي من علامات الفرح، وهمس: قطار يسحقه!

- خسارة إذًا!

فجأة غيّر أسعد لهجته: لنتحدّث في العمل.

- في ماذا؟ سيد...!

- أسعد، اسمي أسعد، هل من الصعب عليك أن تحفظ الاسم؟!

* * *

لم يفهم سلامة سبب قيام محقق يمثل سلطة الاحتلال باختيار اسم من أسماء الذين يحتلّهم كي يُعرَف به. في موجة تأمل، سيقول لنفسه بعد سنوات، وهو منهمك في تنظيف سيارته: ما دام استولى على الأرض فما الذي يمنعه من أن يستولي على الأسماء أيضًا؟ قبْلها فسّر الأمر على أنه محاولة للتقرّب من الناس، أي أنه منهم وفيهم، إلى أن تبيّن له أن الذي يتقرّب إلى الناس لا يتقرّب إليهم بتعذيبهم، ووصل إلى نتيجة: إذا كان الأمر كذلك فهؤلاء المحتلون غريبون فعلا!

بعد أيام حلم سلامة بأنه يسير في الشارع وكل الجنود الذين يمرّون فيه ينادون بعضهم بعضًا بأسماء عربية: أحمد، مفيد، خليل، رشيد، عبده، رجب. أربكه الأمر كثيرًا، فراح يبحث عن شخص يعرفه ليناديه باسمه، وقد أحسّ نفسه وحيدًا إلى درجة مخيفة، أبصر حسن، صاحب البقالة، فصاح: حسن!

عند ذلك التفت إليه الجنود الإسرائيليون، نظروا إليه كما لو أنه كائن من الفضاء الخارجي، ووجّهوا أسلحتهم نحوه، وركضوا باتجاهه.

لقد كشف سلامة نفسه، وأرشدهم إلى أنه فلسطيني لأنه لفظ حرف الحاء كما يلفظه الفلسطينيون، حاء، وليس خاء كما يلفظه اليهود.

رفع سلامة يديه معلنًا استسلامه في معركة الحروف تلك، وقبل أن يهوي عقب بندقية أحد الجنود على فمه، صاح، فاستيقظ، وعندها أدرك أن حلمه هو أول تقرير يقدّمه لقوات الاحتلال عن نفسه!

تلك الحادثة الحلمية تحوّلت إلى مصدر إلهام لواحد من أبطال الروايات بعد ذلك!

* * *

تذكّر سلامة الحلم، وهو يهبط من بيت لحم باتجاه بيت ساحور، أمامه يمتدّ سهل الرّعوات أخضر، وترتفع في البعيد تلك الغابة الصغيرة التي تشكل حدّ السّهل شرقًا.

* * *

طرق باب البيت بجرأة غير معهودة، صاحت زوجته: مين.

- خسن! سلامة، مين يعني؟

فتحت الباب فوجدته مبتسما، أخافها الأمر كثيرًا؛ لا يبتسم سلامة هكذا إلّا إذا كان ذلك فرحًا بنجاته، ونجاته دائما كارثة تسقط على رؤوس غيره.

لم تبتعد بجسدها لتسمح له بالمرور: ما الذي حدث هناك يا سلامة؟

فرش ابتسامة أوسع من تلك التي بين أذنيه: باستطاعتك أن تشكريني الآن، باستطاعة الجميع أن يشكروني الآن.

- على شو يا حبّة عيني؟!

- لقد خلصتكم من المحقق داود، جعلتُه يهجّ من البلد!

لَيالي الحقل

حقل الرماية

توقّفت سيارة الجيب العسكرية بجانب حقل البطيخ المحاذي لبستان إسكندر ويشكل امتدادًا له؛ نزل منها أربعة جنود، كانوا في حالة انشراح، كما لو أنهم خارجون للتوِّ من حانة.

ذخّر شاؤول، الأعلى رتبة ممن معه، بندقيته، وبدأ البحث بعينَي خبير، عبر منظارها، عن بطيخة مثالية. كانت رؤوس البطيخ تظهر وتختفي في المنظار، بطيخ من حجم واحد تقريبًا، بطيخ ناضج.

ثبّت شاؤول البندقية على واحدة، وأمر الشاب، صاحب الحقل، أن يذهب لإحضارها.

ارتبك الشاب، فهو لا يعرف أيّ بطيخة تلك التي يقصدها الجندي، كما أن وجود بندقية مشرعة نحو البطيخة المطلوبة، يعني أنه سيكون بعد قليل في مرمى النار.

أمره شاؤول:

- تحرَّك بسرعة.

امتثل الشاب، سار في خط مستقيم نحو الهدف! أدرك الجنود اللعبة، فدخلوها مقهقهين، وواصل شاؤول إصدار أوامره: إلى الأمام، أبعد، أبعد. إلى اليسار!

واتجه الشابّ يسارًا

- إلى اليمين قليلا.

وتحرّك الشابّ يمينا.

- ثلاث خطوات إلى اليسار.

وسار ثلاث خطوات وتوقّف، فظهرت قدماه في المنظار، بجانب البطيخة التي ثُبتت نقطة تقاطع إشارة المنظار على منتصفها.

انحنى الشاب، ولمسها. صاح:

- هذه؟

في تلك اللحظة انطلقت الرصاصة، انفجرت البطيخة مثل قنبلة ولطّخت بفتات قشرتها الخارجية ولبّها الأحمر وجهه، ارتدّ إلى الوراء.

- لقد أفسدتها، كانت جيدة، قال أحد الجنود وهو يراقب المشهد.

نفض الشابّ وجهه، وسمع شاؤول يصيح:

- التي إلى يمينها.

تردّد الشاب، تحركت البندقية نحوه، فأصبح رأسه في مُصلَّب منظارها، أخذ نفسا، انحنى الشابّ ثانية، وتكرّر المشهد: انطلقت الرصاصة، وتناثرت البطيخة، تراجع الشاب بسرعة، سقط على الأرض.

- لقد قتلته، قال جندي ثالث هزيل، لقد قتلته، وأطلق ضحكة عصابية لا تخلو من انفعال كبير، فترنح جسده.

- لم أقتله، هل تعتقد أنني لا أفرّق بين رأس وبطيخة؟! للأسف، كانت خياراتنا هناك واسعة في فيتنام![13] أيّ بلاد متجهّمة هذه؟! أنت لا تستطيع اللهو هنا، حتى، مع بطيخة!

نهض الشاب، فقال شاؤول لزميله:

- هل استرحتَ الآن لأنني لم أخطئ التصويب؟!

- بسرعة، صاح شاؤول.

ألقى الشاب نظرة حوله باحثًا عن أحد يمكن أن ينقذه. كان وحيدًا.

التفت صوب شاؤول بغضب، كان ملطخًا بالأحمر. انحنى ثانية، أمره شاؤول أن يحضر التي إلى يمينه. تردّد، كان يفضّل أن يُقتل في تلك اللحظة، لكنه أشار: هذه؟ وهو يتوقّع انطلاق الرّصاصة الثالثة التي لا يعرف أين ستستقرّ.

لم يجب الجندي، وأعاد الشاب بعد لحظات:

- هذه؟

كان الشابّ متماسكًا إلى حدّ ما، مقارنة بأي شخص يمكن أن يكون في مكانه، غاضبًا، لكنه يعرف أن الغضب يمكن أن يكون أشدّ خطرًا عليه من الرّصاصة التالية.

- هيَ، أحضرها إلى هنا. أمره شاؤول.

انحنى الشاب، فأصبح رأسه على مسافة أقرب من نقطة تقاطع منظار التهديف. الشيء الوحيد الذي لم يكن قادرًا على معرفته: هل سيواصل الجندي لعبته أم أنه يريد البطيخة فعلا؟ كان جبينه قد أصبح في نقطة الموت تماما بعد أن رفع شاؤول فوهة بندقيته إلى الأعلى قليلا.

لم يجد شاؤول في تلك اللحظة سببًا واحدًا يمنعه من ألا يضع الرصاصة بين تلكما العينين الغاضبتين. لكنه صاح:

- أحضرها.

أمسك الشاب البطيخة ورفعها. كانت ثقيلة. سار في اتجاه الجنود. لكن شاؤول لم يُنزل البندقية، البندقية التي ظلّت مثبتة في منتصف ذلك الجبين الملطخ بالأحمر.

- ضعها في صندوق السيارة.

امتثل.

- اعترفْ! كنتَ ترتجف خوفًا هناك، أليس كذلك؟

لم يجب.

- في مرّة قادمة عليك أن تكون أكثر ذكاء، لو عرفتَ البطيخة المقصودة من المرّة الأولى، لأرحتَ نفسك وأرحتَني أيضًا.

راقب الشابّ السيارة تبتعد.

* * *

أغمض عينيه، فتحهما من جديد.

رأى شاحنة عسكرية كبيرة تتقدّم نحوه، ولكن، في صبيحة اليوم التالي.

ظلّت تسير إلى أن توقّفت بجانبه.

- ما اسمك؟ سأله شاؤول.

- زيدان.

- لقد أحب الجنود البطيخة كثيرًا يا زيدان! يريدون مثلها. سأترك لك اختيار أفضل ما عندك هذه المرة؛ ولكنني أحذّرك، إذا جئت بواحدة بيضاء غير ناضجة، سأغمِسُها في دمك وأجبرك على أكْلها.

المراهنة الأولى!

توجّه زيدان إلى أفضل بطيخة، قطفها، عاد بها إليهم. لم يطلقوا النار عليه، بدوا وكأنهم نسوه ونسوا المهمّة التي كلّفوه بها.

- ضعها هنا. هل أنت متأكد من أنها الأفضل؟ سأله شاؤول.

- أجل.

- اذهب وأحضر واحدة أخرى مثلها.

تلكأ زيدان، فوجد بندقية شاؤول بين عينيه. كانت حارة كما لو أنها لم تتوقف عن إطلاق النار منذ مساء أمس.

كان على زيدان أن يذهب عشرين مرة على الأقل، حاملا عشرين بطيخة، وفي كل مرّة كان شاؤول يسأله السؤال نفسه:

- هل أنت متأكد من أنها الأفضل؟

لم يعرف زيدان الفرق بين أن يموت المرء من أجل بطيخة أو عشرين بطيخة! لكنه كان غاضبًا لأمر آخر تمامًا، ومستعدًا لأن يموت من أجله. وتساءل: أهي اللحظة المناسبة لأن أموت الآن؟

لم يستطع الوصول إلى جواب، فالموت دائما سيئ ولا وجود للحظة مناسبة للقائه.

هرَمٌ صغير من البطيخ تجمّع خلف الشاحنة تمامًا.

- ضعها في العربة، أمره شاؤول، وهو يواصل الحديث بالعبرية مع ثلاثة جنود آخرين.

- أمس، لم أكن مضطرًا لإخبار صاحب الحقل بأنكم أخذتم بطيخة! اليوم، حين سيأتي بعد قليل، سيقول لي أنت حرامي، ويتّهمني بسرقة البطيخ.

عند ذلك صرخ شاؤول في وجهه:

- يعني إخنا خرامية؟!

أخذ زيدان نفسًا عميقًا، وقال: لا أنتم لستم خرا.... ميّة!

- لم أتوقع منك أن تقول غير هذا.

- هذا هو الكلام الوحيد الذي يمكن أن يقال لكم!

رفض زيدان أن يحمل البطيخ ويضعه في صندوق الشاحنة.

- أنصخك يا زيدان أن تخمل البطيخ وتضعه في الصندوق.

- من يريد أن يأكل البطيخ يضعه في الصندوق!

هوى عقب بندقية شاؤول على صدر زيدان، فتلاشى الهواء من العالم كلّه. التفتَ إلى الجنود وطلب منهم أن يلقوه في الصندوق. تقدّم اثنان، حملاه من قدميه ورجليه وألقياه فيه.

لم يعرف إن كان ارتطام جسده بالحديد والهزّة العنيفة التي تلقّاها، فتحا مجرى للهواء لكي يعود ثانية إلى صدره، أم أغلقا المجرى إلى الأبد!

تلوّى زيدان.

- سنرمي البطيخ واخدة واخدة إلى الصندوق من هنا، يمكن أن تعتبروا ذلك شكلا من أشكال لعبة البولنغ، ولكن لا أريد أن نخسر بطيخة واخدة، من يكون السبب في كسر بطيخة سيدفع خمسة شواكل للآخرين! قال شاؤول لجنوده.

يعرف شاؤول أن طريقة واحدة تضمن عدم انكسار البطيخ، أن يسقط على الأجزاء الأكثر ليونة في جسد زيدان.

تكوّر زيدان على نفسه محاولا ألّا تتسرّب أخر جرعة هواء في رئتيه.

ألقى الجندي الأول بطيخة، ارتطمت بأرضية الشاحنة، انكسرت. أخرج 5 شيكل ووضعها على الأرض، ثبّتها بحجر.

فهم الآخران اللعبة بسرعة، فبدأ البطيخ يتساقط فوق جسد زيدان، يرتطم به ويتدحرج.

خبأ زيدان رأسه بين يديه، كان ذلك أمرًا جيدًا بالنسبة للجنود؛ هكذا تتضاءل احتمالات الفشل بارتطام البطيخ بجمجمته!

حين تحركت السيارة صوب المعسكر القريب، كان وصول الهواء إلى رئتي زيدان مستحيلا.

* * *

- هل تعتقد أنه سيموت؟ سأل الجندي الهزيل زميله الجالس معه في الصندوق.

- لا، لا أظن ذلك.

- تعرف، إذا مات لن آكل شيئا مما أحضرنا. لا أتصوّر نفسي آكل شيئًا له طعم الموت.

- لن يموت، اطمئن!

- ولكن لنفترض أنه مات.

- قلتُ لك لن يموت، وباستطاعتك أن تبعد البطيخات القريبات من رأسه. لقد خسرتَ خمسة وعشرين شيكلا، وأظن أنك الأحقّ بالاستمتاع بهذا العسل.

* * *

بعد أن انتهوا من إنزال حمولة السيارة، فوجئ جنود المعسكر بالجسد الملقى. سحبوه، ألقوه أرضًا.

كان زيدان يحسّ بأن كلّ عظمة في جسده قد كُسرت، وكل عضلة قد سحقت، لكن عودة الهواء ثانية إلى رئتيه، بعثت الحياة فيه من جديد.

أمضى الليلة بين خيمتين، نام واستيقظ عشرات المرات، كل حركة كانت تبعث ومضة ألم تخترق جسده من رأسه حتى قدميه. الطقس الحار كان النعمة الوحيدة المتوافرة، فلو كان ما يحدث يحدث في نهايات أيلول أو في الشتاء، لتجمّد من شدّة البرد.

المراهنة الثانية!

شجرة الكينياء العالية، كانت آخر ما تبقى من بستان كبير، بعد أن حوّل الجيش الأرض إلى معسكر.

زيدان موثَّق بساقها.

أصوات طيور الدُّوري والحساسين والخُضَّر، كانت الشيء الوحيد الذي معه، في معسكر كل ما فيه ضده، مزنّر بالأسلاك الشائكة والبنادق.

لم يعرف زيدان كيف استطاع جسده احتمال ذلك المطر الجهنّمي الذي تساقط عليه، الذي استقرّ فوقه. كان على يقين من أنه أصيب بعدد من الكسور. حرّك يديه، قدميه، كتفيه، رقبته، بما يتيح له الحبل المشدود على جسده. كان يتألم، لكنه ليس ذلك الألم الذي يمكن أن ينتج عن كسْر؛ فقد جرّب الكسْر لمدة شهرين، بعد أن تلقى على ذراعه الأيمن هراوة خلال واحدة من مظاهرات طلاب مدرسته في أوائل الثمانينيات.

في التاسعة صباحًا تذكر شاؤول أنه أحضر ذلك العربي، كان سؤاله الأول: هل مات؟!

- العرب لهم سبع أرواح.. لا لم يمُت.

- عليّ أن أذهب بنفسي إذًا لأتأكد كم روحًا فقَدَ حتى الآن! وأطلق ضحكة عالية.

* * *

تغريد العصافير يملأ أذنَي زيدان، حاول ما استطاع ألا يسمع شيئًا سواه. وصل شاؤول، فوجئ بزيدان؛ كان على غير ما تصّور، ويمكن أن يقسم أنه لم يفقد أيًّا من أرواحه!

ركله شاؤول ببسطاره، أشرع عينيه.

- أحضِروا كرسيين.

أحضَروهما.

طلب شاؤول من الجنود أن يفكّوا وثاق زيدان، وأن يجلسوه على واحد من الكرسيين المعدنيين القابلين للطيّ، ويعيدوا تقييده.

صفّق شاؤول، فانتبه كثير من الجنود. أشار لهم أن يحضروا.

- هناك مسابقة لطيفة كنا نقوم بها في فيتنام، مُسلِّية. من منكم على استعداد للمشاركة فيها؟

- عليك أن تشرح لنا قواعدها، على الأقل، لنقول نعم أو لا!

- سهلة، إنها سهلة، وليس هناك سوى قاعدة واحدة لها! هنا عربي يجلس أمامكم، من يستطيع أن يوجّه إليه أكبر عدد من الصفعات في نصف دقيقة، يكون الفائز.

- أتعني أن هناك مُراهنات؟ سأل أحد الجنود.

- يضع كل منا عشرة شواكل، أعني، كلّ من يريد أن يشارك. ومن يفُز، يأخذ المبلغ كلّه.

لم يكن مبلغ المراهنة كبيرًا بحيث يتحوّل إلى خسارة إن لم يفُز المُشترك، لكن الفوز بالحصيلة يستحق المغامرة.

- ولماذا نصف دقيقة؟ لم لا تكون دقيقة كاملة؟

- يبدو أنك لا تتخيّل عدد الصفعات التي يمكن أن توجّه في نصف دقيقة!

* * *

سبعة عشر جنديًّا قبِلوا التّحدّي.

وصل الجنديّ الهزيل متأخرًا، سأل: ماذا يحدث؟

شرح له زميله الذي كان معه في الشاحنة، أمس، أصول اللعبة بسرعة:

- فرصتك لاسترداد ما خسرته، أمس، في الحقل.

- نصف دقيقة وقت غير كاف. اعترض جنديّ آخر.

- إذا عملت جيدًا، ستكتشف أنه يكفي ويزيد.

تابع زيدان تغيّرات ملامحهم محاولا، ما استطاع، أن يفهم ما يدور. بدأ خوف ما يتسلل إلى روحه. يعرف أن عبثهم يمكن أن يكون أشدّ إيلامًا من تعذيبهم له.

نظر إلى النقود بين يدي شاؤول، شاؤول الذي قال بفرح:

- مبلغ يستحق الفوز!

تذكّر زيدان أن هناك عصافير، التفتَ للأعلى، ولكن تحلُّق الجنود حوله بدّد ما كان يلتقطه من تغريدها.

تمنّى أن لا تطير بعيدًا إذا ما تزايد هياجهم!

- من سيكون الأول؟

- أنا، رفع أحد الجنود يده، وتقدّم بحماسة وجلس على الكرسي المقابل لزيدان.

- هل عليّ استخدام يد واحدة أم اثنتين؟ سأل، وجسده كتلة من إثارة.

- عليك أن تستخدم الاثنتين معًا، فهذه لعبة إذ ما استخدمت فيها يدًا واحدة، ستكون بعض الصفعات قوية بحيث لن يحتمل العربي ذلك. لن نُفسد، هنا، لعبة لعبناها جيدًا، هناك.

اعتدل الجندي، نظر إلى وجه زيدان، امتدّت يده اليمنى تشير له أن يرفع رأسه.

عشرون طائرًا على الأقل غادرت الشجرة مع الصفعات الأولى. في الوقت الذي راح فيه شاؤول ينقّل نظره بين الوجه والساعة، قبل أن يصرخ:

- Stop.

- 64 صفعة مزدوجة، بداية جيدة! قال شاؤول وهو يهزّ رأسه.

ـ ما هو الرقم الذي يحوّل نتيجة كهذه إلى ممتازة؟ سأل أحد الجنود.

ـ لن أستطيع أن أقول لكم الآن، فهناك فعلا من حطّم الأرقام جميعها وهو يصفع امرأة؛ كانت قنّاصة فيتنامية جميلة. نصيحتي: تخيّلوا أن الذي أمامكم قنّاص وأن عينيه هما منظار بندقيته! ستتحسّن النتائج كثيرًا!

ـ كان عليك أن تقول هذا قبل أن أصفعه! علّق الجندي الذي أنهى مهمّته.

ـ كل ما فعلته أنني ذكّرتكم بما يجب أن لا تنسوه، فهو في النهاية سيتحوّل إلى قناص إن بقي حيًّا! أمرٌ كهذا لا يجب أن يغيب عن أذهانكم.

واصل الجنود اللعبة، ارتفعت أصواتهم في العراء، اختلفوا على عدد الصفعات أحيانا، كانت سريعة إلى ذلك الحدّ الذي لا يستطيع معه أحد أن يحصيها بدقّة.

صوت العصافير تلاشى. لم يعرف زيدان إن كانت غادرت، أم أنها صمتت، أم أنه لم يعد يسمع، أم أن الشجرة نفسها ابتعدت!

حرِصَ شاؤول على أن يكون آخر المتسابقين.

بعد خمس ثوان، أدرك الجميع أنه الفائز، لم تعد المسألة قائمة في مَن يستطيع أن يحصي الصفعات بسبب تسارعها، بل من يستطيع أن يرى يديه وهما تصفعان.

* * *

مدّ يده للجندي الممسك بالنقود، ما إن أنهى جولته، دون أن ينظر إليه، فلم يجرؤ أحد على التشكيك بالنتيجة، رغم أن عدد الصفعات التي وجَّهها ظلّ مجهولا.

ـ كم صفعة كانت؟ سأله أحد الجنود المبهورين.

ـ هل حقا تريد أن تعرف؟

ـ بالتأكيد.

ـ لقد بقيت أعدها إلى أن تجاوزت المائة والعشرين، بعدها لم يعد الأمر مهمًا.

- كم يمكن أن تكون؟

- في ظنّي أنني تجاوزت هذه المرة المائة والخمسين، لكنني أعترف أن قدراتي تتراجع في هذه البلاد.

* * *

كرة كبيرة حمراء كان وجه زيدان، تناثر الدّم من كل مساماته. سقط رأسه نحو صدره، سأل الجندي الهزيل: هل مات؟

- لا لم يمت، لا يموت أحد بمثل هذه الصفعات. قليل من الماء سيعيده إلى وعيه.

* * *

سقط الماء عليه، انتفض جسده، لكن عقله كان مشوّشا، مرتجًّا، لا يعيِ ما يحدث.

دلو الماء الثاني بعد ربع ساعة، كان كافيًا لكي يصحو.

رفع زيدان رأسه ببطء، الصمت كلّه هناك، صمت العالم كلّه هناك، اختفت الأصوات، تلاشت ضحكات الجنود، أحاديثهم، مرّ تغريد العصافير خطفًا، أدرك أنه يتذكّره، لا يسمعه.

بعد ساعة جاء جندي، وضع صحن طعام أمامه، فكّ قيده، وأشار له أن يأكل.

راقب شاؤول المشهد من بعيد:

- لديّ اقتراح!

- ما هو؟ سأل أكثر من جندي.

- مسابقة أخرى.

- لقد اكتفينا بواحدة، من الواضح أنك لا تقترح إلّا تلك المسابقات التي تفوز فيها!

- لن نتراهن على أيّ مبلغ.

- لا مشكلة إذًا.

- ما المسابقة؟

- إطلاق النار.

- عليه!

- لا، لسنا قتلة لنفعل ذلك! كلّ ما في الأمر أننا سنضعه في حقل الرّماية، ونضع صفيحتين فارغتين مثبتتين بإحكام جوار أذنيه، وعلينا أن نحرص على إصابتهما لا إصابة رأسه.

- وما الحكمة في ذلك؟

- أنتم لا تستطيعون أن تتخيّلوا ذلك الصوت الذي يحدثه مرور الرصاص عبر صفيحة فارغة قرب أذن إنسان؛ ثم إننا جنود، وعلينا أن نتدرّب.

وصول الهدية!

كان بشارة يدور في المنزل كما لو أنه معلّق من يديه. أفكاره موزّعة بين ابنه زيدان الذي لم يعد إلى البيت منذ سبعة عشر يومًا، وماري التي تصيح، وهو غير قادر على أن يفعل شيئًا. حظر التَّجوال المضروب على المدينة بعد مظاهرات الصباح، لا يتيح حتى لقطّة التحرُّك خارج أسوار البيوت.

اتصل بثلاثة أطباء من بيت ساحور، كل ما فعلوه أنهم شرحوا له ما عليه القيام به. اتفق اثنان على أن ما تعاني منه ماري هو مغص كلوي حادّ. الطبيب الأول طلب منه أن يعطيها أي دواء مهدئ يمكن أن يكون متوافرًا في البيت.

- لا يوجد سوى الأسبرين، أعطيتها أربع حبات.

- أسبرين! الأسبرين لا ينفع مع حالة كهذه، ألا يوجد لديك بروڤين، ڤولتارين، أي شيء؟

- لا، لا يوجد.

* * *

- لا أعرف إن كان يمكن أن تحتمل حتى حلول الظلام، في تلك الحالة يمكن أن أتسلّل وأساعدها. لكن الأمر مستحيل الآن. قال له الطبيب الثالث، خليل.

- يمكنني أن أحضر بنفسي لآخذ الدواء، قال بشارة.

- لا أريدك أن تخرج، وتتركها.

ـ لكن الأولاد سيعتنون بها!

ـ بشارة، إنهم متلهّفون لقتل أي إنسان هنا لكي يُفهمونا كم هم غاضبون.

الطبيب خليل قال له:

ـ أفضل شيء تفعله أن تذهب إلى الصيدلية التي خلفكم، وإذا وجدتها مغلقة، فأنت تعرف بيت صاحبها. سأتصل به.

ـ الصيدلية ليست بعيدة، ولكنهم وضعوا نقطة مراقبة فوق سطح البناية المجاورة لها، قال بشارة.

ـ تعرف، هناك حلّ واحد أن تتصل بالإسعاف، فقد يرسل الإسرائيليون سيارة، مع أنني أستبعد هذا بعد أن منعوا أي سيارة إسعاف فلسطينية أن تتحرّك.

ـ سأتصل، ليس أمامي سوى أن أتصل.

* * *

أغلق بشارة الهاتف، عبر الصالون باتجاه غرفتهما. كانت ماري تتلوى كما لو أنها داخل فرن. كلّما مسّ جسدها لهيب أرضيته أو جدرانه الضيقة ارتدّ الجسد نحو الجهة الأخرى التي ستوقد آلامه أكثر.

نظر أولاده إليه باحثين عن أمل يمنحهم إياه ولو بالإشارة.

ـ أصمدي قليلا. لقد اتصلت بسيارة إسعاف؛ من المستحيل أن يصل أي طبيب قبل ثلاث ساعات، قبل حلول الليل.

كان ألمها طاغيًا بحيث لم يكن بمستطاعها أن توافق أو ترفض. صاحت، تصاعد الألم مقطعًا جسدها بسكاكينه الخفيّة القاتلة.

وعاد بشارة يدور في البيت كمروحة تتابعه عيون الأولاد.

بعد ربع ساعة وجد نفسه يتّجه إلى الهاتف ثانية، يتّصل، ومن الجهة الأخرى جاءه الصوت:

- لا نستطيع أن نرسل سيارة إسعاف قبل التنسيق مع الجيش بسبب حظر التّجوال. ولكن عليك أن تطمئن، لقد تمكنّا من إرسال سيارة إسعاف أكثر من مرّة في ظروف مشابهة! سنتصل بك فور تحرّك السيارة باتجاهك. هل قال الأطباء عندكم إنه مغص كلويّ حادّ؟

- اثنان توقّعا هذا، الآخر لم يحسم الأمر.

- على أي حال لا تقلق، في غضون نصف ساعة، إلى ساعة، سنكون قد أرسلنا السيارة.

بمجرد أن أغلق الهاتف عاد رنينه ثانية، رفع السماعة، كان الدكتور خليل على الطرف المقابل:

- نسيت أن أقول لك، ربما تجد بعض الأدوية عند أهلي، مع أنني أستبعد هذا، فأمي لا تكفّ عن القول إن صحتها لم تزل جيدة لأنها لم تتناول أي دواء طوال عمرها!

- سأسألها.

* * *

- كيف لم أفكر في الجيران؟ سأل بشارة نفسه.

استطاع تجاوز الأسوار ليصل إلى بيت أبو خليل، وهو يعتذر لأصحابها في كل مرة، قبل أن يتسلقها، لكن تجاوز السور ما قبل الأخير، كان سيحوله إلى هدف سهل لنقطة المراقبة، فهو عال، كما لا يمكن تجاوزه بسهولة.

صاح بشارة بأعلى صوته: يا أبو خليل.

لم يأته جواب، وخيّل إليه أن منع التّجوال الساري منذ سبع ساعات مفروض على الصوت أيضا!

نادى ثانية: يا أم خليل. وثالثة..

- شو في؟ خير؟!

أدرك بشارة أن حظر التجوال لا يمكن أن يشمل الصوت، الصوت وحده يمكنه التحليق فوق المدينة أو السير في شوارعها الخالية.

ـ ما في عندك أي دواء لتخفيف الألم؟

ـ شو؟

ـ دواء لتخفيف الألم، الدكتور خليل طلب مني أن أسألك.

ـ خير إن شا الله؟!

ـ ماري عندها مغص شديد.

ـ لا والله يا ابني ما في، ما انت عارف الدّوا ممنوع يدخل بيتي، ولولا خليل ابني، ما كنت سمحتله، لأنه دكتور، يدخل البيت كمان! لكن بيجوز يكون في عنّا أسبرين، خليني أدوّر عليه وبرجعلك!

صاح: في عندنا أسبرين، بدنا إشي أقوى!

لكنها لم تكن قد سمعته، لأنها دخلت البيت، وبعد دقائق، سمع صوتها: خسارة يا ابني، حتى الأسبرين مش موجود.

وقبل أن تسمع ردّه، رأى صرّة صغيرة تسقط أمامه.

التقطها، كان فيها قليل من المريمية. صاح:

ـ تسلمي يا إم خليل.

ـ الله يسلمك، هذا أقل من الواجب. ما في أحسن من الميرمية للمغص.. اسألني!

لو كان بشارة في وضع غير هذا لكان ضحك كثيرًا، لأن أم خليل التي لا تتناول الدواء أبدًا لا تتردد في إعطاء الوصفات لكل من تسمعه يقول: أخ. كما لو أنها قررت أن تنافس ابنها في مهنته!

* * *

يائسًا عاد بشارة. كان صراخ ماري قد انقطع فجأة. أرعبه هذا كثيرًا، ركض نحو الغرفة، اصطدمت ركبته بحافة الطاولة في الصالون، لكنه لم ينحنِ ليتحسّس، ولو للحظة، تلك النقطة التي عبرت منها في اتجاه رأسه تلك الشرارة الكاوية.

عبَر باب الغرفة، وجد الأولاد يحتضنونها، كانت تعضّ وسادتها، في الوقت الذي تهتزّ فيه أرجلها مثل شخص انقضّت على عنقه راحتان قويتان.

جلس على حافة السرير ممسِّدا جبينها وشعرها، داعيا إياها أن تهدأ، أن تفكر في أيّ شيء آخر، لتنسى ألمها.

في تلك اللحظة أحسّ بألم يعتصره، يمزّق جسده، كما لو أنهما قد تحوّلا إلى جسد واحد.

أدرك بشارة أنه أخطأ حين طلب منها أن تفكر في أيّ شيء آخر! لأن ما هو مؤلم أكثر هو غياب ابنها!

* * *

إذا ما تعلّق الأمر بالجيش، فالسيارة لن تصل؛ يعرف بشارة هذا. لم يكن يعرف هل يأسه في تلك اللحظة هو ما يوجعه، أم أن جسد امرأته هو ما يوجعه، أم مرور الأيام بلا أخبار سارة تأتي، ففي اليوم الثامن عشر سيكون القرار: السجن أو العودة إلى المنزل!

* * *

في السابعة مساء، ولم تكن الشمس قد غربت، سمع بشارة صوت سيارة إسعاف في البعيد، خرج مسرعًا إلى الحوش، تبين له أن أذنيه لم تخدعاه: إنها سيارة إسعاف فعلا.

تتبّعها بأذنيه هابطة الشارع المنحدر من بيت لحم، منعطفة نحو الشارع المؤدي لمبنى البلدية ثم إلى الشارع المتفرّع المؤدي إلى بيته.

لم يستطع التوجّه إلى الباب ليفتحه، كل الاحتمالات واردة، إذ ليس بعيدًا أن يُطلق أحد الجنود النار عليه، إذا ما رآه، بتهمة خرق قرار منع التّجوال. سمع طرْقا على بوابة البيت، طرْقا قويًّا، كما لو أن دورية عسكرية هي القادمة، لا سيارة إسعاف. وأوشك أن يصيح: مين؟! لولا أن صوت بوق إنذار السيارة كان يواصل اندفاعه.

ـ الإسعاف، سمع أحدهم يقول.

تقدّم نحو الباب، أشرعه، باغته الضوء الأحمر فوق السيارة، ضوء أعماه.

ـ لقد اتصلتم بالإسعاف لأن هناك امرأة في حالة خطرة. قال السائق.

هزّ بشارة رأسه:

- زوجتي، زوجتي، راح يردّد.

ورأى باب سيارة الإسعاف الخلفي يُفتح، وبدل أن يهبط من صندوقها ممرضٌ هبط جندي.

وبدل أن يرى بشارة محفّة المرضى، رأى جنديا آخر يقفز من صندوق العربة، وفي أقل من لحظة اتضح كل شيء، امتدت أيدي الجنديين، وقبضتْ على شيء ما في الداخل، وسحبته بقوة، لم يكن ذلك الشيء محفّة، بل قدمَي ابنه زيدان. وهبط جندي آخر، حملا الشاب من يديه وقدميه، وألقياه أمام بشارة، وقبل أن يعودا إلى سيارة الإسعاف ثانية، قال أحد الجنديين: نحن نظن أن ابنك بحاجة لرعايتك الآن أكثر من زوجتك!

اندفعت السيارة بجنون خارجة من الشارع، وخلفها خيط ضوء أحمر كثيف يمتد في ذلك الغروب، كنهر دم.

* * *

بعد نصف ساعة سمع بشارة جرس الهاتف يرن، التقطه، آملا أن يكون على الطرف الآخر الدكتور خليل أو أي دكتور آخر.

ـ ألو، ولم يجب أحد، صمتُ العالم كلّه على الطرف الآخر كان، وأعادها مرة، مرتين، ثلاثا؛ ولا جواب.

كان على وشك أن يغلق السماعة، حين سمع تلك النحنحة، ثم ذلك الصوت الغريب، الصوت الذي ذكّره بصوت سمعه ذات يوم: هل وصلت الهدية؟!

شمس مجروحة

جلست مرتا بجانب سرير حفيدها، زيدان، يداها ترتعشان، وحلْقها محشوّ بألف غصّة، كلما حاولت استعادة ملامحه المشوهة، اختلطت صورته بصورة أبيه، بشارة، في ذلك اليوم البعيد. أحست أن عقلها لم يعد معها، ثمة شيء تعطّل، هوى، تطاير، احترق، تجمّد، تفجّر وتناثر..

كانت حكاية زيدان، وما حدث له في حقل البطيخ والمعسكر، أشبه بصاعق يكفي لتفجير بيت ساحور التي تحوّلت إلى قنبلة باحثة عن فتيل.

بمجرد أن شاع خبر إعادة زيدان شبه ميت إلى بيته، خرج الناس في مظاهرات مساء الخميس، من أكثر من كنيسة، وظهيرة الجمعة، تجدّدت المظاهرات في المساجد بعد صلاة الظهر، ولم تكد شمس صباح الأحد تشرق حتى تسلم الخوارنة والشيوخ أوامر بمراجعة المخابرات الإسرائيلية. ذهب كلّ منهم إلى هناك، وهو يظن أنه الوحيد الذي تمّ استدعاؤه للبصّة، ففوجئوا أن الساحة الداخلية لبناية الحاكم العسكري تغصّ بأمثالهم.

حرْص الإدارة العسكرية الإسرائيلية على إذلالهم، كان واضحًا في ترْكهم ينتظرون، وينتظرون.

بعد مضيّ ساعة، راحوا ينظرون بعضهم في وجوه بعض، وفي أقل من دقيقة، ودون أن يقول أي منهم كلمة، وجدوا أنفسهم ينهضون، ويتّجهون نحو البوابة الخارجية، دون أن يجرؤ أي منهم على طلب التمهّل قليلا حتى تتضح الأمور أكثر.

اعترض بعض الجنود طريقهم، دفعوا الجنود جانبًا، وصاح الأب عطا الله غاضبا: من لديه منكم قرار باعتقالنا فليُخرجْه الآن، وإلا، فلتجهِّزوا هذه القرارات وتعتقلونا من بيوتنا متى أردتم.

* * *

أكثر ما أغضب الناس، رفض الإدارة العسكرية إدخال زيدان إلى المستشفى لأن بشارة قال لموظف الاستقبال: إن الجيش أعاده إلينا على هذه الصورة.

ـ ماذا تقول؟ قال جندي وقد بدا هائجًا وهو يتقدّم نحوهم، وينقّل عينيه بين بشارة وزيدان الغائب عن الوعي، وموظف الاستعلامات.

ـ أقول إن الجيش أعاده إلينا على هذه الصورة.

ـ إذا كان الأمر كذلك، باستطاعتك أن تأخذه فورًا إلى مستشفى عسكري، وهم سيعالجونه مجانًا، إذا كان الجيش هو الذي فعل به هذا!

ـ أنت تعرف أنهم سيطلقون النار عليه هناك، لأنه لم يمت بعد! ردّ بشارة.

ـ أنت واهم، اذهب وتأكّد بنفسك مما تقول! نحن أناس متحضّرون، ولا يمكن أن نطلق النار على الجرحى!

ـ ليس معنا وقت، أرجوك، قلْ أي شيء آخر، لنتمكن من إدخاله غرفة العمليات بسرعة، طلب موظف الاستعلامات من بشارة الذي أخذ نفسًا عميقًا وهو يحدّق في الجندي.

ـ أكتب ما تريد، قال للموظف.

على عجل خطَّ موظف الاستعلامات بضع كلمات في سجل الدّخول، وأشار للممرضين الذين كانوا ينتظرون نتيجة الحوار. قادوا عربة المرضى بسرعة نحو غرفة العمليات. انشقّ بابها، ثم انطبق خلفهم، تاركًا في الممرّ فراغ البياض المخيف.

بعد خمس ساعات خرج أحد الأطباء، سار نحو بشارة: لقد عملنا ما علينا، الباقي على الله.

ـ ما خطورة حالته؟

ـ ليس هناك عضو واحد سليم في جسده، لا الرأس ولا العينان ولا الصدر ولا الكليتان، ولا...، هناك أضرار فادحة في الخصيتين والحالب.

في تلك اللحظة أحس بشارة بركلة مجنونة بين ساقيه، انتفض جسمه، وتكوّر جسده للحظة من فرط الألم.

- هل أنت بخير؟ سأله الطبيب، هزّ بشارة رأسه، لكنه كان يشدّ على نفسه، غير قادر على إشراع عينيه.

- أرجوك، أوضح لي أكثر، طلب بشارة من الطبيب.

- هناك تهتّك لا أستطيع أن أصفه لك، وأخفض صوته قليلا، عضوه أيضا.. ممزق.

وشقّت الرّكلةُ الثانية جسد بشارة، ومرَّ وجه المحققّ داود خطفًا.

- علينا أن نجري عدة عمليات جراحية، سأطلب المساعدة من بعض جرّاحي مستشفى المقاصد في القدس. الآن، باستطاعتي أن أقول لك، لقد عملنا على وقف التّدهور، آملا أن نستطيع السيطرة على الوضع وعلاجه فيما بعد.

ابتعد الطبيب، توجّه بشارة نحو زوجته ماري وأمه مرتا وأبيه إسكندر، كل واحد منهم كان يسند عذابه وضعفه بعذاب الآخر وضعفه.

اليأس وحده، مثل وحش طليق، كان يجوب الممرات ويحطّم مصابيح النيون ويبعثر كل ما في طريقه من بشر وأشياء.

جلس بشارة بين زوجته وأمه، محتضنا إياهما.

سأله والده: ماذا يقول الطبيب؟

- لقد سيطروا على الوضع.

هزّ إسكندر رأسه غير مصدِّق، اشتعلت عيناه بدموع خفيّة، وتصاعد نشيج ماري ومرتا.

* * *

منذ أن ضعف بصر مرتا، بسبب السكري، لم يعد أحد يعرف، ما إذا كانت تدّعي ذلك الضعف الكبير في الإبصار، أما أنها كذلك فعلا؛ ففي أحيان كثيرة كانت تبدو أنها الأبصر بينهم،

وفي أحيان أخرى تتعثر بباب مغلق تعتقده مشرعًا.

الشيء الوحيد الذي كان يجعلها فرحة بهذا الالتباس، هي أيام الأعياد، حيث كان زيدان الصغير يتسلل قبل الجميع للحصول على العيدية، يأخذ حصته، من القروش القليلة، قبل أخوته وأبناء الجيران، وحين يستيقظون، ويقفون في صف طويل أمامها، يقف، ثانية، في منتصف الطابور معهم. يتناول كل منهم نصيبه، وحين يصلها زيدان، تمتدّ إليه يدها كما امتدّت إليهم، وتناوله مبلغًا آخر، مدّعية أنها لا تستطيع الرؤية، فيتناول القروش ويمضي فرحًا، دون أن يلاحظ أن الابتسامة التي افترشت وجهها أكثر سعادة واتساعًا من ابتسامته.

ذلك المشهد كان يتكرّر ثلاث أو أربع مرات في العيد الواحد، وذلك مرهون بمسألة إن كان الأولاد جاؤوا لاستلام عيدياتهم، دفعة واحدة، أم على عدة دفعات.

الشيء الذي كان يُفرحها في زيدان، أنه يمتحن عينيها فقط، ولا يقترب من ذاكرتها، كأن يقول: إنه لم يأت فجرًا قبل الآخرين لاستلام العيدية.

ذات مرّة أمسكت يده وقد أتى لاستلام عيدية ثانية، وسألته: أليست هذه يدَ زيدان؟

- لا، هذه يد بطرس! أجاب، وقد غير صوته.

- جدتك أصبحت عجوزًا يا بطرس! اعتقدتْ أن هذه يد زيدان! اذهب وقل له إن جدته بحاجة إليه في أمر ضروريّ!

- حاضر يا جدتي، ويغيب قليلا، ثم يعود وقد أنزل كم قميصه محاولا التخفّي!

- بطرس قال لي إنك تريدينني في أمر ضروري.

- أنا دائما بحاجة إليك في أمر ضروري، ولكن قل لي: هل أخذت عيديتك مني.

- كنتُ أول من أخذها، ألم تلاحظي؟!

- حين تأتون كلّكم مرّة واحدة، لا أعرف الواحد منكم من الآخر، ألم أقل لك، أقصد، قلتُ لبطرس إن جدتكم عجّزت. لكن لحسن حظي، ما زلتُ أرى جيدًا! خلاص، ما دمتَ أخذتَ عيديتك، يمكنك أن تذهب، هذا هو الشيء الذي كنتُ أريد أن أسألك عنه.

* * *

تنهّدت مرتا: إلهي، لم أكن أعرف كم يمكن أن يكبر الإنسان خلال سنوات قليلة، احفظه أيها الربّ، من أجل مريم وكل قديسيك.

راحت تفكر في سرِّ حبها لهذا الفتى: هل لأنه أول الأحفاد؟ هل لأنه استطاع أن يأتي إلى هذا العالم رغما عن كل ما حدث لأبيه؟ هل لأنه لو لم يأت لما أتى بعده أحد من أخواته وأخوته؟ أم لأنه زيدان فقط؟ زيدان الذي يُحَبّ؟ زيدان الجميل، المؤدب، الشّقيّ، الذكيّ، الذي التصق بها كما التصق بأمه وأكثر؟ والتصقت به أكثر من التصاقها بنفسها وبالبيانو وبصوتها وأصابعها التي ظلّت وفيَّةً لأحزانها وأفراحها وعتمة عينيها وضوئهما!

* * *

كانت مرتا بجانب سريره في غرفة العناية المركزة، قلبها ينتفض، كما لو أنه طائر موثق بخيط، وهناك يد تلوّح به فيرتطم بالجدران، يتناثر ريشه، تتكسّر عظامه، يتألم، دون أن يفقد الأمل في أنه سيطير.

قبّلت جبينه، عادت إلى البيت.

* * *

في المرة الأخيرة التي زارته فيها، كسرها الذبول الساكن في عينيه، بدا لها أنه مثل شجيرة صغيرة ماتت، لكنها مُصرَّة على مواصلة سقايتها. دمعتان كبيرتان سقطتا من عينيها، حينما رأتهما على وجهه، ظنّت، أول الأمر، أن مياها ما تتسرّب من سقف الغرفة، رفعت عينيها إلى الأعلى فرأت المسيح مصلوبا، ودمه ينزُّ من جسده الفتيّ. عادت ونظرت إلى القطرتين اللتين سقطتا على وجهه، كانتا من دم خالص نقيّ.

في ذلك المساء، قبّلت جبينه كما تفعل كلّ مرة، وعادت إلى البيت سيرًا على قدميها، ورغم أن الشمس كانت بحاجه لوقت طويل لتغرب، إلا أن مرتا كانت ترى دم الغروب يغمر سهل الرّعوات، وكل ما جاوره، بلونه السّميك.

حاولت أن تتذكّر النشيد الذي طالما غنته في كنيسة ذلك السهل، لم تتذكر، النشيد الأقرب إلى قلبها، طارَ تبدّد:

مع ملاك الله جندٌ.. لرعاةٍ قد ظهَرْ

حوله الأملاك تشدو.. بخلاص للبشرْ

في العلى لله مجدٌ.. وعلى الأرض السلامْ

وله شكرٌ وحمدٌ.. وسرورٌ للأنامْ

انتبهت إلى أن هناك من يسير إلى جانبها، التفتتْ، فوجئتْ بوجود ابنها نديم! توقّفتْ، امتدت يدها لتلمسه، لم تستطع، ضج دمها في عروقها.

هي تعرف أن لا شيء بقي منه غير الصورة الأخيرة له، ملقى على الرصيف، في قلبه رصاصة، وفي منتصف صدره رصاصة، وفي جبينه رصاصة، وفي يده كتاب.

حائرة وقفت تنظر إليه.

- متى عدتَ؟

- أظن أن علينا أن نسير.

سارت، وواصل السير إلى جانبها، ومرة ثانية عاد دمها يضج في عروقها، عندما اكتشفت أنه بلا ظل، وأن ظلها وحده الذي يسير أمامها متجهًا إلى البيت.

وصلت أول الشارع، اختفى ظلّها، نظرت إلى جانبها، حيث نديم، لم يكن هناك.

* * *

أبعدت غطاء مفاتيح البيانو، جلست نصف ساعة صامتة، ولمّا لمس أحد أصابعها أحد المفاتيح، لم تكن في ذهنها سوى أغنية واحدة، انطلق صوت النغمة الأولى من جوف البيانو. تأرجحت مرتا، وتأرجحت، ثم سقطت فوق السجادة الصغيرة المفروشة أمام البيانو، تحت الكرسي. حاولت أن تستند إلى أيّ عضو فيها كي تعدّل جلستها، كي تنهض، لم تستطع، كانت تحدّق في البيانو كما لو أنه حياتها كلها.

في تلك اللحظات الموزّعة بين الموت والحياة، الغياب والحضور، انطلقت موسيقى الأغنية التي كانت تريد أن تغنيها، انطلقت بكل ما فيها من جراح وألم ورجاء وصبر، ولشدّ ما حيّرها أنها هي مَن كانت تغني الأغنية، وتعزفها:

بيتي أنا بيتك ما إلي حدا

من كتر ما ناديتك وسْع المدى

نطرتك ع بابي وع كِل البواب

كتبتلّك عذابي ع شمس الغياب

لا تهملني لا تنساني

ما إلي غيرك ما تنساني

بلدي صارت منفى

طرقاتي غطّاها الشوك

والأعشاب البريّة

ابعتلي بها الليل من عندك حدا يطلّ عليِّ

من أرض الخوف بنندهلك يا شمس المساكين

من أيام المظلومين

من لفتات الموعودين

......

اعتراف متأخر

لم يترك إسكندر العمل في بستان الدرّاق بخاطره، بشارة أصرّ على ذلك:

ـ لكَ أن تختار حلّا من اثنين، أن أعتني بأمي، أو تعتني بها أنت، أما أن تعتني بها وبالبستان معا فهذا مستحيل! ماذا تريد؟ سأله بشارة.

فكّر إسكندر:

ـ كنت تعرف الإجابة قبل أن تطرح السؤال. على أيّ حال، أرجو أن تعتني بالبستان كما اعتنيتُ به دائما.

ـ أطمئن، أنت تعرف أنني سأفعل هذا.

كان اتفاقًا واضحًا، التزم به الاثنان.

بعد مرور أسبوع، أحسّ إسكندر بأن جسده تيبّس، وأنه على وشك أن يصبح عاجزًا عن خدمة نفسه، وقد تبين له أن بشارة يقوم بمهام رعاية البستان، وماري تقوم بمهام رعاية مرتا، وهو لا يفعل شيئا.

في المساء جلس بشارة بجانبه، مال إسكندر نحوه:

ـ عليّ أن أبحث عن حلّ لما أنا فيه.

ـ حلّ لماذا؟ سأله بشارة.

لم يُجب إسكندر.

* * *

لا يستطيع إسكندر أن ينسى اليوم الذي وصلت فيه ماري إلى البستان، باكية. ماري التي أصرت أن تبلغه الخبر المفجع بنفسها.

- هل حدث لزيدان شيء؟

- بل لجدّته.

انحنى، تناول حطّته عن الأرض، في اللحظة التي سقطت فيها الشمس تماما خلف الأفق، فكَّ طرف قمبازه المحشور في حزامه، انطلق يركض نحو الشارع، أبصر سيارة، اعترضها، كادت تسحق عظامه، وقبل أن يلقي السلام، طلب من السائق أن يأخذه إلى المستشفى. وصل. مدّ إسكندر يده نحو السائق بالأجرة، هزّ السائق رأسه، وهو يقول: الله يشفيها، الله يشفيه!

* * *

لم تكن العناية بمرتا سهلة، رفضَ كلّ عرض بمساعدته.

ذات مرّة غضب من إصرار ماري، صرخ:

- لقد سرتُ من جنوب روسيا حتى هنا على قدمي، هل تعتقدين أن رعايتها أمر صعب عليّ؟!

لم تجب ماري، ظلّت صامتة، وبعد قليل، سمع صوتًا يقول له: لكنك لم تعد ذلك الشاب!

تلفّت حوله، كان الجميع صامتين، وهيئ إليه أن مرتا هي الوحيدة التي كانت تتكلّم.

ربّت على يدها المشلولة، قال لها، كأنه يكمل الحوار:

- لا تقلقي، فقط احرصي على أن تظلّي هنا، هذا كل ما أريده منك.

في ذلك الليل، وقف إسكندر، بدت قامته أطول من المعتاد، قال لهم: أريد حذاء رياضيًّا.

- لماذا؟ سألت ماري.

ظلّ صامتًا، أدركتْ أنه عازم على أمر لا يريد لأحد أن يناقشه فيه.

نهضتْ، وبعد دقائق عادت بحذاء زيدان، تناوله من يدها، انتعله، ضرب قدميه بالأرض مرّتين ليتأكد من أن الحذاء ملائم لهما، خرج.

بعد نصف ساعة عاد يقطر عرقًا، أوشكتْ ماري أن تسأله: أين كنت؟ لكنها ابتلعتْ سؤالها. غاب في الداخل، بعد عشر دقائق عاد وعلى شعره الكثيف وجبينه الواسع قطرات ماء.

جلس، تصفّح الوجوه المحيطة به:

ـ أظن أنني هرمتُ قليلا منذ أن تركتُ البستان، فكرتُ بالعودة إليه، لكنه الآن أصبح أبعد! تبادلوا نظرات ذات معنى، فأضاف: لا، لم أجنّ، البستان أصبح أبعد لأن مرتا مُتعبة، ولا أستطيع الابتعاد عنها كما كنت أبتعد من قبل، الآن عليّ أن أكون أقرب إليها، لذلك أصبح البستان أبعد! عرضتم عليّ المساعدة، وسأعترف لكم أنني بحاجة إليها الآن، ولكن بشرط ألا يلمس أحد منكم مرتا. أعذريني يا ماري، أنتِ التي كنتِ دائما أحنُّ عليها من ابنةٍ. لا أريد لأحد أن يغسل لها وجهها أو ينظِّف لها يديها أو يحمِّمها، أو يُغيِّر ملابسها، هذا أمر لن أسمح به منذ الآن. تساعدونني حين يجلس أحدكم معها في تلك الفترة التي أذهب فيها للمشي. لقد انتبهتُ إلى أنني لن أكون نافعًا لها إن لم تكن في جسدي القوة التي تحتاجها. اليوم مشيت نصف ساعة، وسأرى كم من الوقت أستطيع أن أمشي غدًا، سأرى ما هي القوة التي يجب أن تكون في جسدي لأخدمها. لقد قررتُ، وليغفر لي الربّ، لن أموت قبْلَها!

نظر إسكندر إلى مرتا في سريرها، نظر إليهم وقال: حين كنت شابًّا، كنت أقول في كل جلسة تجمعني مع أصدقائي: في السنوات العشر الأولى من حياته، يحبُّ الإنسان بنتا، وفي العشرين يحب بنتا، وفي الثلاثين يحب بنتا حتى يبلغ الستين، وحين يصلها، فإنه إذا أحبّ واحدة سيحبها طوال حياته. أما الآن فأقول: حين كنتُ في العشرين أحببتُ بنتا اسمها مرتا، وفي الثلاثين أحببتُ بنتا اسمها مرتا، وفي الأربعين والخمسين والستين والسبعين أحببتُ بنتا اسمها مرتا، وفي الثمانين لم أزل أحبها.

وهج مبهر!

قبل أن يصل بشارة وزوجته ماري إلى بيت والده، مساء الخميس الأول من شهر أيلول، نظر خلفه ثلاث مرات على الأقل، كان الطقس هو الشيء الوحيد البارد في محيط مشتعل بالنيران.

لم يكن الطريق طويلا من بيته إلى بيت أسرته المطلِّ على سهل الرعوات ومن نوافذه الجنوبية تُرى أطراف وادي أبو سعدى، فبيت ساحور، القرية كبرت فأصبحت بلدة، البلدة التي كبرت فأصبحت مدينة، لا يضيع فيها أحد. لكن بشارة كان يرزح تحت ثقل آلام كثيرة خلّفتها حفلات التعذيب، رغم مرور أكثر من عشرين عامًا على خروجه من السجن. الآلام التي لم يكن ينقصها شيء لتتفجّر من جديد إلا ذلك الذي حدث لزيدان، وأمه، مرتا، منذ شهرين. ضاع بين أمواج الأفكار التي خطرت بباله، وهو يبحث عن سبب لتلك الدعوة الغامضة، في ذلك الوقت الغامض، الذي اختلطت فيه جهات الرياح.

قبل أن يصل البيت، نظر خلْفه مرّة أخرى، فرأى الشيخ مصطفى، إمام المسجد المجاور، بلحيته الكثيفة وقامته المتينة كقبضة مضمومة!

بين أن ينتظره أو يواصل السير، واصل، إذ أدرك أن لقاءه بالشيخ، الذي يعاني من ضعف كبير في النظر، سيفتح الباب على سلسلة من الأسئلة التي لا يعرف إجاباتها.

كان بشارة على يقين من أن الشيخ لا يمكن أن يراه من مسافة كتلك، رغم أنها لا تتجاوز الستين مترًا.

بعد قليل، انعطف بشارة وزوجته نحو شارع جانبيّ هابط. يقينه من أن عينَي الشيخ مصطفى لا تحفران جسده في تلك اللحظة، أعاده للتفكير في سبب دعوة والده.

تذكر بشارة أن الشيخ وراءه. كان حفيف جبّته يوحي بوجود ريح لا تهبّ إلا عليه وحده!

رفع بشارة يده وضغط مفتاح جرس الباب وانتظر. وما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب وأطلّ ابنه زيدان، بملامحه الدّقيقة ونظراته الحذِرة كجده.

سار زيدان خطوتين، تفقّد الشارع: وصل الشيخ مصطفى.

- هل هو مدعو أيضًا؟

أومأ زيدان برأسه مؤكدًا، فأصبح الوضع أكثر غموضًا.

صافح الشيخ مصطفى زيدان، وهو يسأله: خير إن شاء الله؟!

- خير إن شاء الله! لكن الشيخ لم يطمئن.

- هل رأيت أحدًا يتبعك يا شيخ مصطفى؟!

تضاعف خوف الشيخ وازدادت حيرة بشارة!

- هذا سؤال تسأله لأبيك بشارة وأمك ماري وليس لي، فأنا بصعوبة أرى من أمامي، فما بالك بمَن هو خلفي!

- هل رأيت أحدًا يتبعك؟ سأل زيدان أباه.

- لم أر أحدًا يتبعني سوى الشيخ مصطفى! وأوشك أن يضحك، لولا أن وجه زيدان حينما كان في المستشفى مرّ خطفًا أمامه.

سار زيدان أمامهم، تأمّله الشيخ، فتأكّد له أن في شباب الإنسان شيئا من رائحة الجثّة.

* * *

لم تكن أقل من مفاجأة كبيرة، اكتشاف الشيخ، والابن، وزوجة الابن، أن البيت ممتلئ بالضيوف! أنطون صاحب محل التّحف الخشبية، سليم الصيدلاني، أبو خليل، أم خليل، خليل الطبيب، شباب صغار، بعضهم يراهم لأول مرّة، وقبل أن يروا معظم الوجوه، أغلق زيدان الباب خلْفه، وأدار المفتاح في القفل ثلاث مرات! وطلب من رولا الصغيرة، حفيدة زهيرة، شقيقة جده، أن

تتبعه لتساعده. سار إلى الشباك القريب وأغلقه، وأسدل الستائر، ثم تابع طريقه نحو الشبابيك الأربعة لصالون البيت. أشار لأحد الشباب أن يفعل ما يفعله، فاستجاب، والدهشة تغمر وجوه الجميع، وانطلقت رولا الصغيرة إلى النافذة الغربية وأغلقتها! دخل زيدان إلى المطبخ، فسمع الحاضرون الشباك يُغلق. أُطفئ الضوء. خرج، مضى نحو غرف النوم خائفًا يتلفّت؛ انحنى زيدان وقبَّل رأس جدته الرّاقدة على السرير، امتدّت يده وداعبت شعرها.

- تحمَّلينا شوي! قال لها هامسًا، وأغلق شبابيك غرفتها وأطفأ النور!

كانوا يحدّقون إليه غير قادرين على معرفة ما يحدث له، أو يدور في رأسه.

مال الشيخ نحو الأب عطا الله، وسأله:

- ما الذي يحدث؟

- مثلي مثلك، لا أعرف لماذا يفعلون هذا!

ومال الأب عطا الله نحو إسكندر وسأله:

- ما الذي يحدث؟

- مثلي مثلك، لا أعرف لماذا يفعلون هذا!

ولأن العودة إلى باب البيت لم تكن سهلة، قال زيدان بصوت خفيض كالهمس: أرجوك يا شيخ مصطفى، أطفئ الضوء من عندك!

- ماذا؟! تساءل الشيخ. ولولا أنه يعرف أن واحدًا مثل زيدان، الخارج من الموت، لا يمكن إلا أن يكون جادًّا فيما يقول، لما امتدّت يده نحو مفتاح الضوء، ولما قبل بأن تُطبق العتمة على الجميع.

تصاعدت الهمهمات، وقد أصبح من المستحيل أن يرى الواحد منهم ملامح من بجانبه، رجلا كان أم امرأة!

همس زيدان بصوت عميق: أبو خليل.

فرد أبو خليل: نعم.. شو إللي بصير؟!

- أخفض صوتك إذا سمحت، أنا قادم نحوك.

راح زيدان يشقّ طريقه في العتمة في الاتجاه الذي جاء منه الصوت:

- أبو خليل أين أنت؟

- هنا! ردّ أبو خليل بصوت منخفض.

- لا تتحرّك، لقد عرفت مكانك!

بعد أربع خطوات، أمسك زيدان بيده، وقال: أهذه يدك يا أبو خليل؟!

- هي يدي، أتريدني أن أُقسم على ذلك؟!

- لا تُقسِم.

اقترب زيدان من أذنه، وأطلق تلك الهمسة العميقة: تحيا فلسطين!

- ماذا؟!

- تحيا فلسطين.

- لقد سمعتُ! ولكن...

- لا تتحرّك من مكانك، ولا تخبر أحدًا بما قلته لك! همس وابتعد.

ونادى أحد الشباب هامسًا: عمّي إسكندر؟

لم يعرف إسكندر الصوت، ولكنه أجاب:

- أنا هنا.

اقترب الشاب الذي لم يعرفه من أذنه، وأطلق تلك الهمسة العميقة:

- تحيا فلسطين!

- ماذا؟!

- تحيا فلسطين.

- لقد سمعتُك!

- لا تتحرّك من مكانك، ولا تخبر أحدًا بما قلته لك! همس وابتعد.

.. وهكذا راح الشباب، ومعهم الصغيرة رولا، ينادون عليهم بأسمائهم واحدا واحدا، من إدوارد إلى زهيرة، ويهمسون في آذانهم الكلمتين، نفسهما، الكلمتين اللتين وضعتهما رولا الصغيرة في أذن الشيخ مصطفى.

- تحيا فلسطين.

- ماذا؟!

- تحيا فلسطين.

اعتصر الشيخ لحيته لفرط دهشته، لكن أحدًا لم يره وهو يفعل ذلك.

تساءل زيدان بصوته الخفيض نفسه: هل نسينا أحدًا منكم؟

لم يُجب أحد...

عمّ الصمتُ للحظات، فخرج صوت الشيخ مصطفى مخنوقًا، أكثر منه خافتًا، الشيخ مصطفى، النبيه، صاحب أجمل صوت يقيم الأذان في بيت ساحور منذ مائة عام! وقال:

- وبعدين معك يا زيدان، شو إللي بدّك تقوله؟!

لم يكن زيدان، ومن معه من شباب والصغيرة رولا، ينتظرون شيئا مثلما كانوا ينتظرون ذلك السؤال! فقال زيدان بصوته العميق نفسه: إذا استمر الحال على ما هو عليه هنا، فسنكون مضطرين في المستقبل، أن نفعل ما فعلناه اليوم: نُحْكِم إغلاق الأبواب والشبابيك، ونطفئ الأضواء، ويهمس الواحد منّا في أُذن الآخر، كما فعلت الآن معكم، كلما أردنا أن ننطق اسم فلسطين، أو أردنا الهتاف باسمها. هل وصلت الرسالة؟

تعالت الهمهمات، وفجأة ارتفع صوت زيدان:

- أشعل الضوء يا شيخ مصطفى!

فتحوّل البيت إلى كتلة وهج مبهرة.

ليَالي الميلاد

المستحيل!

كانت جنين حوله تشتعل، حين قفز خلف مقود سيارة الجيب، تاركًا سائقه يتساءل: أي مهمّة عاجلة هذه التي تجعله يترك مقرّ القيادة في هذا الوقت الملتهب؟!

بهدوء جلس السائق إلى جانبه، قابضًا على بندقيته M16. تزايدت سرعة السيارة، فتحوّلت البندقية في يد السائق إلى مقود، يحرّكها شمالا ويمينا، كأنه من يقود السيارة، لا ناحوم.

لم تكن ملامح ناحوم نوردو تشي بأي أحاسيس واضحة. كان يقود بسرعة مجنونة، وينظر إلى البعيد، لا إلى مدى الرؤية الذي يتيحه امتداد شارع، أو زاوية منعطف، أو صعود يتبعه هبوط حادّ. كان ناحوم في مكان آخر. لم يجرؤ السائق أن يسأله: إلى أين؟ اندفاع مجنون كهذا، كان يعني أن القائد يعرف هدفه، ويراه، حتى قبل أن يصِله.

كطلقة عبرت السيارة سهول الزّبابدة، كفير، عقابا، طوباس، وجأر محرّكها عندما أمطرت السماء حجارة بجانب حُوَّارة، وتكرّر المشهد في زَعْتَرة. غيمة منخفضة حطت على صعود الِّلبّن، مغلقة أحد منعطفات الشارع الصاعد المتعرّج، فاجأت ناحوم، لم ير شيئًا خلفها. بسرعة توقّف، كأن جدارًا باغته، لا غيمة. ببطء عبرها. غابت الجهات الأربع حوله. وبعد أطول دقيقة عاشها، خرج من جوف الغيمة، استرخت قبضتا سائقه المتشبثتان بالبندقية؛ وبعد برهة آمنة، لم يعد يوجّهها يمينا ويسارا، فقد أدرك أن قائده هو أفضل سائق عربة عسكرية يراه في حياته.

* * *

كانت المكالمة التي تلقاها ناحوم، واضحة: نريدك أن تذهب حالا إلى بيت لحم، بعد المكالمة الأسوأ التي تلقاها في حياته، قبل أسابيع، طالبين منه الذهاب على عجل إلى قرية راس

السّرو[14].

- يشرفني هذا، قال ناحوم لرئيس الأركان، الذي كان يتوقّع لحظة صمت، وتردّد قبل الإجابة.

لم يتشبث ناحوم بمنصبه كنائب لقائد منطقة جنين، رغم أنه لم يُكمل مهمَّته، ولم يوفِ بعهده: سأجعلها طيّعة كالعجين في أقلّ من شهر.

.. وانتهى الشهر، اتّسعت الانتفاضة، ولم يعد ثمة مكان يمكن أن تمرّ فيه عربة عسكرية إلا وتتساقط عليها الحجارة من عشر جهات.

كان يستعيد ما خلْفه، حين سقطت الحجارة بغزارة على العربة في قرية سِنْجِل. لم يعرف إن كانت الحجارة خرجت من استعادته لمشاهِد سقوطها، أم أنها تسقط فعلا عليه.

أشرع الجندي الجالس بجانب ناحوم بندقيته وأطلق النار صوب مصدر الحجارة القابع وسط الغيوم المنخفضة والخضرة الداكنة، وعاد وذخّر بندقيته من جديد، وقبل أن يُشرعها ثانية، كانت السيارة تتعرّض إلى أسوأ عاصفة حجرية عرفاها.

وفكر الجنديّ: ما دام القائد يعرف أننا نمضي إلى مكان بعيد، فلماذا لم يطلب سيارة حماية مُرافِقة؟

واندفعت السيارة أكثر.

.. وسقط حجر، سقط من جهة لم يستطع أيّ منهما تحديدها، جهة غامضة كالمظاهرات والهجمات التي انفجرت بين يوم وليلة.

يعرف ناحوم أن الشهور القليلة التي مرّت، منذ مطلع كانون أول، ديسمبر الماضي، 1987، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الجيش الإسرائيلي، لا يملك محركات تستطيع تجاوز سرعة الحجارة.

هذه الحقيقة دفعت الجيش للبحث عن سُبل لحماية الجنود، ولم يكن هناك من وسيلة أفضل من وضع شِباك الحماية على العربات العسكرية، لكن الأمر لم يكن سهلا، وما كان يمكن أن يتمّ

بسرعة، في وقت تشتعل فيه الضفة وغزة.

* * *

على مشارف رام الله التي وصلاها، بدأ الطقس يزداد برودة، كان ناحوم لم يزل يحسّ بدفء جنين ودفء هوائها القادم من البحر.

- في الحقيقة لا نرسلك إلى بيت لحم، بل نرسلك إلى بيت ساحور، قال له رئيس الأركان، هناك بداية تمرّد نريد أن ندفنه في مهده، لا نريد للعدوى أن تنتقل إلى المدن الأخرى، لديك مهمّة واحدة: سحق المدينة، ولك مُطلَق الحرية في اختيار الطرق التي تريدها لتحقيق ذلك؛ لا أحد يعرف بيت ساحور مثلك.

استعاد ناحوم ذكرياته عن بيت ساحور، كان يتذكّرها تماما، بل يتذكر بعض الأسماء، لكنه لم يبذل جهدًا لاستعادة الوجوه، إذ لا طائل من ذلك، لأن الملامح لا بدّ أن تكون تغيّرت، تغيّرت تمامًا، وهمس لنفسه: سأكون محظوظا لو أن كل من عرفتهم فيها ماتوا. لكن فكرة خاطفة مرّت في خياله: هل سيعرفونني، أم أنني تغيّرت إلى حدّ لن يستطيعوا معه استعادة ملامحي القديمة؟

بجوار العيْزرية، تدحرجت كرة من نار نحو العربة: عجَل سيارة محترق. استطاع ناحوم أن يكبح جماح محرّك العربة، فمرّ العجل من أمامها، وقد كان يمكن أن يحيلها إلى كرة من نار، لو أصابها في منتصفها، كما خطط بدقة من دفعوا العجَل.

لم يتمكّن الجندي من إطلاق النار، كان الدَّوس الفجائي على مكابح السيارة سببًا في اختلال توازنه، إذ أفلت جسده منه، متأرجحًا كالبندول أكثر من مرّة، إلى الأمام والخلف، قبل أن يستقرّ، وسمع المظاريف الفارغة للرصاصات التي أطلقها تحت رجليه تُصدر فحيحًا كأفعى، وحين استطاع تثبيت جسده، كانت العربة قد تجاوزت الحاجز الحجريّ الذي أغلق الشارع، وراحت تعلو فوقه وتهبط. وثانية، تأكّدت للجندي فكرته حول قيادة الكابتن ناحوم، باعتباره أفضل من يقود سيارة عسكرية في الجيش كلّه، وحين شعر بأن الأمور هدأت، فاجأتهم الحجارة في أبو ديس، والسَّواحرة، والعبيدية.

* * *

لم يكن ناحوم يحب النهايات المفتوحة التي قرأ عنها، وشاهدها في أفلام كثيرة واختُتِمتْ بها روايات وقصص قرأها، ولكنه، كان يعرف أن لديه أسبابا كافيه لكي يكرهها، فقد سمح لنفسه عام 1948 أن يترك نهاية مفتوحة خلْفه، وجدها أمامه مُشرعةً بعد عشرين عامًا. كما ترك نهايات كثيرة مفتوحة حين غادر بيت ساحور، وسافر ليكمل تعليمه العسكري؛ مع أن تلك الرحلة أتاحت له فرصة قتْل نديم، شقيق بشارة في بروكسل، بعد أن تبين له أن شكّه في الرسالة التي أرسلها نديم لأخيه بشارة، عقب معركة الكرامة، كان في محلِّه، فذلك الشّقي تحوّل إلى واحد من أكثر الفلسطينيين تأثيرًا، على المستوى السياسي والرأي العام، في العاصمة البلجيكية، وعندما جاءه الأمر في لندن: عليك أن تتوجّه فورًا إلى بروكسل، لتنفيذ عملية مشتركة للجيش والموساد، لم يخطر بباله سوى أنه ذاهب لتصفية نديم.

كانت فرقة المراقبة التي سبقته إلى هناك قد جهزت كل ما يلزم.

من على بعد خمس خطوات، أشرع ناحوم مسدسه، رآه نديم، أحس بأن المسافة القريبة التي تفصلهما، صلْدة مثل حائط إعدام. انطلقت رصاصة واستقرت في منتصف صدره، وقبل أن تنطلق الثانية، كان قد حوّل الكتاب الذي في يده، إلى سترة حماية، لكن الرصاصة اخترقت الكتاب من وسط عنوانه، وواصلت طريقها صوب قلبه. طلْقة ثالثة في الرأس، وانتهت المهمّة.

ناحوم لمح عنوان الكتاب خطفًا قبل أن يستدير: زوربا اليوناني، ومن بين قطرات الدّم التي تناثرت بعد تلك الطلقة التي استقرّت في منتصف رأس نديم، كان باستطاعة ناحوم أن يرى -في تلك الصورة التي اختارتها دار النشر غلافا للرواية- عينَي أنتوني كوين، ويديه المحلّقتين في واحدة من أشهر الرقصات التي صوَّرتها السينما.

في تلك الليلة، وصل ناحوم إلى لندن، كما غادرها، بجواز سفر أمريكي، لم يكن مزوّرا، بل مستعارًا، كما كان يسميه العملاء النشطون في الخارج.

* * *

على حافة بيت لحم، أوقف ناحوم العربة، ترجّل منها. الرياح القوية خلْفه تدفعه صوب السفح؛ كان عليه أن يبذل الكثير من الجهد ليحفظ توازنه. تأمل السفح الممتدّ حتى حقل الرّعوات، السّفح الذي تتجمع وتتناثر بيت ساحور فوقه، السفح الذي يسمونه ظلُّ المطر.

طلب من الجندي المرافِق أن يقود السيارة؛ كان عليه أن يرى كل شيء، بدقة شديدة، تاركا للجندي مهمة الانتباه للطريق وما حولها.

شيء واحد كان يزعج ناحوم بشدة: إن أي نهاية سيعدّها لتلك المدينة، لن تكون النهاية التي يريدها، فمن تركَهم خلْفه، إن لم يموتوا، هم مجرد عجائز الآن، حسم الزمن المعركة معهم، ولم يترك له حتى فتات نصر صغير، إذا ما وجد نفسه يقف أمامهم وجهًا لوجه.

عاد وأكد لنفسه: إن أسوأ ما يمكن أن يتركه خلفه هو النهايات المفتوحة، وقد ترك، في بيت ساحور، منها الكثير.

ستٌّ مرات دار حول المدينة. بدت مسالمة إلى حدّ مزعج، إذ لم ير سوى أناس منهمكين تمامًا في زراعة أفنية بيوتهم، وقِطع الأراضي الصغيرة حوْلها، وأُصص الشّرفات؛ وخيّل إليه أن أعداد الدجاج لم تكن، من قبل، بهذه الكثرة أبدًا، حين كان هنا. أما الأغنام والماعز فكانت ترعى أول العشب النابت على جانبي الشارع. أشبه بمزرعة كبيرة كانت المدينة[15]، جنّة حقيقية بدت له وهو يستعيد مشاهد المظاهرات في جنين، والحجارة التي انهالت على السيارة في كل بقعة يسكنها الفلسطينيون، أو يزرعونها!

وصل مفترق الشارع الهابط من بيت لحم، المؤدي إلى دار البلدية. أمر سائقه أن يدخل المدينة. شقّ السائق طريقه بهدوء. لم تكن هناك حجارة تملأ الشارع، بدت المدينة أكثر نظافة من تل أبيب نفسها!

لمح وجه امرأة أحس بأنه يعرفه، أشار إلى السائق أن يوقف السيارة.

تأمّلت المرأة وجه الكابتن، وراح عقلها يعمل، ضاجًّا بآلاف الصور، وحين عرفتْه، شهقت.

استدارت مبتعدة، تابعها ناحوم بنظراته. لم يكن متأكدًا من أنه عرفها ليطلب منها أن تتوقف. اختفت، في وقت كان الناس يمرّون بجانب العربة، قادمين ذاهبين، كما لو أنها غير موجودة في المكان.

حيّره هذا أكثر.

استدارت السيارة نحو الطريق الصاعد إلى بيت لحم، وفكرة جميلة واحدة تنعش قلب ناحوم: لقد تلقّت نابلس وجنين ورام الله وطولكرم وسواها الصفعة على الخد الأيمن، وها هي بيت ساحور، تثبت عمْق إيمانها وهي تدير لنا الخدّ الأيسر!

امتدّت يد ناحوم إلى جيبه، تحسس تميمة الحظ التي فيه، وقبل أن يخرج يده ارتفع صوت صرير عجلات السيارة التي تشبثت بالإسفلت، وتوقفت فجأة. رفع ناحوم وجهه، كانت بقرة سوداء ضخمة على بعد متر واحد من مقدّمة العربة.

كم يكره البقر.

بسرعة استعاد أيام مكوثه مع تلك الأبقار، في تلك الحظيرة عام 1947.[16] انقبض قلبه. ولولا خشيته من تحوّله إلى نكتة سمجة، بقتله إياها في أول عمل عسكري يقوم به فور وصوله المدينة، لأطلق النار على رأسها مباشرة.

ظلّت البقرة تحدّق إليه، وكأنها تعرفه، بحيث خيل إليه أنها من سلالة تلك الأبقار الكريهة. أطلق السائق بوق سيارته، لم تتزحزح، واصلت تحديقها إلى ناحوم، إلى أن اكتفت، نفضت رأسها، وأخلت الشارع.

تشاءم ناحوم.

* * *

دخلت كاترين عتبة بيتها ترتجف، سألها سلامة الذي كان يلهث وهو ينظف سيارته، سلامة الذي شاخ كثيرًا:

ـ مالك بترجفي؟ شو صار؟

ظهرت في فمه تلك الفجوة التي خلّفها غياب السنَّين الأماميين من فكه السُفليّ، وافترشت خطوط عرضيّة وجهه من أعلى جبهته حتى نهاية رقبته، لكن ملامحه القديمة، رغم ذلك لم تختفِ، ولعل بريق عينيه القديم، الذي احتفظ به، هو السرّ الذي يساعد كل من يراه، بعد زمن طويل، أن يعرفه بسهولة.

- إللي قلت إنك خَلْيّته يهجّ، رجع.

- شو؟ سأل بصوت مرتفع، كعادة كل أولئك الذين يضعف سمْعهم.

فأعادت:

- إللي قلت إنك خليّته يهجّ، رجع.

فوجئ سلامة وهو يستعيد ذلك الزمن البعيد، وبعد صمت طال، قال:

- المحقق داود؟! بعد إللي عملتُه فيه؟! لا.. مستحيل!

حديث صريح!

ارتجف قلب كاترين ما إن سمعت رنين الهاتف، الهاتف الذي نادرًا ما باتت تستخدمه، بعد أن تراجعت قوة سمع سلامة، وبسبب قلّة من يتّصلون بهما.

كانت إدارة الحكم العسكري تطلب من سلامة مراجعتها، للقاء الحاكم العسكري الجديد.

- سأخبره بذلك، ردّت كاترين بارتباك.

- أريد أن أبلغه الأمر بنفسي، قال المتحدث على الطرف الآخر بلغة عربية مكسَّرة.

- إنه نائم الآن.

تردّد الصوت، أن يطلب منها أن توقظه، أم تخبره بالأمر حين يستيقظ. حسم الأمر:

- أرجو أن تبلغيه بذلك حين يستيقظ.

أغلقت كاترين الهاتف، مطمئنة وخائفة من كلمة (أرجو). مضت بخطى ثقيلة غاضبة نحو غرفة النوم، هزّت سلامة بقوة، استيقظ فزعًا؟ شو في؟

- صاحبك، طالبك؟

- صباح النور، لماذا أيقظتني؟

- قلت لك صاحبك طالبك.

- وأنا قلت لك صباح النور.

في كل الصباحات، ولسبب لا تعرفه يكون سمع سلامة أثقل. خرجتْ.

كانت شمس آذار قد تسللت مبكرًا، وبعثت في هواء الصباح رقة لا تخفى، أما رائحة الخبز الساخن، فكانت تفوح مختلطة برائحة الزعتر، ورائحة المريمية المنبعثة من الشّاي السّاخن.

شرب الشاي، وسألها:

- ما هي أخبار الانتفاضة اليوم؟

- مقر الحاكم العسكري اتصل بك.

- هذا ما توقعته، أن تشتعل أكثر! فشعبنا لن يحتمل أكثر مما احتمل. أتعرفين يا كاترين، شعبنا يذكّرني بنفسي، حين قُدت سيارتي وصدمت سيارة المندوب السامي البريطاني، هل تذكرين؟ لو لم أصدمه في ذلك اليوم، واسمحي لي أن أكون مغرورًا قليلا هذا الصباح، لما قامت هذه الانتفاضة. هذا الأمر شرحته للكثيرين، لكنهم لم يفهموا العلاقة بين ما قمتُ به وبين الانتفاضة، وعبثا يا كاترين حاولتُ أن أشرح لهم تلك النظرية العبقرية التي اسمها أثر الفراشة!

كانت كاترين لا تمانع تصديق ما يقوله زوجها، لأنها عملت طويلا على أن تنسى بعض ما قام به من أشياء، تُخجِلها. لكن قلبها في ذلك الصباح كان يرتجف؛ فالزمن اختلف، وما أوشك أن يقوم به من أمور بعد حرب حزيران، لا يمكن أن تسمح له القيام بها الآن، في زمن الانتفاضة.

استعادت شريط حياتها الطويل، وندمت لأنها فعلت. كانت عاهدت نفسها على أن تنسى. راحت تتأمّله، كانت أشبه بتمثال، سألها:

- شو في؟

- اتصلوا بك من مقر الحاكم العسكري.

- ماذا؟

اقتربت من أذنه اليمنى وصرخت: مكالمة، تلفون.

مسح سلامة أذنه من آثار رذاذ لعاب كاترين، وأوشك أن يصرخ في وجهها لأنها تصرّ على مخاطبته عبر هذه الأذن رغم معرفتها بأنها الأضعف سمعًا، وسأل:

- مِين؟

- داود، المحقق داود!

تقلّصت ملامح سلامة فجأة، صغُر وجهه، وتلاشى ذلك البريق الخاص من عينيه. ارتبكت كاترين، خطر ببالها أنها تحدّث رجلا لا تعرفه.

استجمع نفسه بعد لحظات صمت، اعترف لنفسه أنها طالت أكثر مما يجب، ونفض جسده، كمن ينفض عن نفسه غبار تراب تقلّب فيه. استجمع قوته، وسأل:

- وماذا يريد؟

- سلامة لا تروح.

- ماذا؟

- سلامة لا تروح، قالت صارخة، فمسح اللعاب عن أذنه مرة ثانية، وقال:

- لماذا لا تضعين كمّامة حين تريدين الصراخ في أذني؟

تجاهلت سؤاله، الذي لم يكن ينتظر جوابا له، وقد رأته مُطْرقًا يفكّر.

- إللي بدّه الثاني بيجي لعنده!

قرار سلامة، على ما فيه من مبالغة، جعلها تبتسم، فسألته، بعد أن تأملته فرِحَةً:

- شو حابب توكل اليوم على الغداء؟

لكن سلامة لم يسمعها، كان يفكّر في الآثار المترتبة عن قرار كبير كالذي اتخذه، وهذا القدَر الذي يضعه دائما وجْها لوجه مع أعداء من أعلى المستويات!

* * *

عند الحادية عشرة توقّفت عربة عسكرية، نزل منها ستة جنود، اقتلعوا باب منزل سلامة. لم يسمع صوت تحطم الباب، سمعت كاترين، خرجت مسرعة، وجدت نفسها معهم وجها لوجه، وقبل أن تسألهم عما يريدون، قال أعلاهم رتبة، وكان ضابطا بثلاث نجوم: أين سلامة؟

- إنه ينتظركم في الداخل! قالت، وهي تفكّر في متاعب إصلاح الباب من جديد، إذ لم يكن مصير سلامة يقلقها، لأنها تعرف أن السحابة التي ظللت بيتهما منذ مساء أمس، ستتلاشى ما إن يراه الكابتن داود أمامه. أما ما هو أغرب فقد أحست أن خيبة الكابتن داود برؤية زوجها، هي أفضل انتقام!

عبر الجنود عتبة المطبخ، أظلم المكان، رفع سلامة رأسه، رآهم يحدّقون دهشين في شيخوخته وضعفه. ظلّ ثابتًا. سلامة يعرف أن الزمن تغيّر، وإن كان حزن كثيرا، بل غضب، حين وصلته أخبار الاجتماع في بيت إسكندر، لأنه لم يُدْعَ للحضور.

بهمّة لا تمتّ لعُمره، نهض سلامة. التفت إلى زوجته بابتسامة المنتصر:

- لقد قلت لكِ، إللي بدّه الثاني بيجي لعنده. لكن ما تخافي، خبْري البلد: اعتقلوا سلامة.

- إذا ما رجعت قبل المسا، بيحلْها الحلال.

- طبعا الاحتلال اللي اعتقلني، وإلا شايفة قدامك فرقة البوني إم؟!

* * *

قبل أن تصل السيارة إلى منتصف الطريق المؤدي إلى بيت لحم، مسح سلامة وجهه. كان عرق يتصبب من جبينه، وما تحت عينيه وشفته السفلى، كأنه تحت شمس آب، وليته لم يفعل؛ إذ تحسست أصابع يده اليمنى شاربيه. لم ينتبه في البداية. أشرع عينيه كما لو أنه يحدّق في مرآة، وتحرّكت يده ببطء نحو شاربيه ثانية، تتحسسهما. استعاد آخر أمْر تلقاه من المحقق داود قبل اختفائه، بحلْق شاربيه. دهمه خوف، لم يعرف، إن كان هو الخوف القديم نفسه الذي دهمه، أم خوف جديد ابن لحظته.

* * *

راح سلامة يهزّ رأسه باستغراق كبير، وقد وجد نفسه ثانية وجها لوجه مع المحقق داود الذي بات يحمل رتبة كابتن، وكأن سلامة توصل أخيرًا إلى حكمة حياته، حول الزمن والعمر وتقلبات الحياة، همس: أفضل ما في الزمن أنه لا يميز بين الطيبين والأشرار! أما الكابتن داود فكتم دهشته، وقرر أن يمضي بخطته إلى نهايتها.

- أحببت أن أراك في المكتب القديم الذي التقيتك فيه أولَ مرّة.

وجد سلامة أن أفضل ردّ، غير محرج له، لا يكشف ضعف سمْعه، أنّ يهزّ رأسه، كأنه سمع ما قيل.

أشار الكابتن داود إلى كرسي على يسار الطاولة، يدعوه للجلوس، ولم يكن صعبًا عليه أن يفهم الإشارة، هو الذي اعتبر نفسه لبيبًا طوال حياته، لكنه جلس على الكرسي الموجود على يمين الطاولة، لأن أذنه اليسرى، التي لا تعاني من ضعف شبه كامل كأختها، ستكون أقرب إلى فم الكابتن داود، الفم الذي يفصله عرض الطاولة عن أذنه.

لم يغضب الكابتن داود بسبب حركة التمرّد الصغيرة التي بدرت عن سلامة.

- مكتبي سيكون في الدّور العلوي، بعد اليوم سأراك هناك.

وثانية هزّ سلامة رأسه، سلامة الذي لم يعترف لأحد، باستثناء كاترين، بأن قوة سمْعه تهاوت. وللحظة، أحس أن عدم اعترافه للحاكم العسكري بضعف سمْعه، صمود، ومعركة أخرى سيخوضها، وينتصر فيها. كان متأثرا، بعاطفة جياشة، بتلك الجرأة التي يمتلكها الشباب والأطفال وهم يواجهون جنود الاحتلال، بل إنه غادر تحفّظه، وخوفه من أن يُسجَّل كلامه عليه، حين قال:

- لو كنا مثل هؤلاء الأطفال قبل ضياع فلسطين، لما احتلوا بلادنا.

الحاضرون قدّروا اعتراف سلامة، ورأوا فيه أول تواضع يبديه، بعد أن كان يُصرِّح المرة تلو الأخرى: لو صدَمتْ كلُّ سيارة فلسطينية وكلُّ سيارة من سيارات جيوش الإنقاذ، سيارةً صهيونية أو إنجليزية، كما فعلتُ، لحُسِمت المعركة لصالحنا، ولما كانت النكبة.

- أظن أننا بحاجة إليك اليوم، أكثر من الماضي، قال الكابتن داود.

هزّ سلامة رأسه، لكنها لم تكن هزّة الموافقة بقدر ما كانت هزّة من يفكّر ويطلب مزيدًا من التوضيح. هذه التقنيةَ تعلّمها من تجاربه في الحديث مع جيرانه ومعارفه. أما الكابتن داود، الذي كان يتوقّع شيئا آخر، غير هذه الليونة في السماع، والموافقة على ما يقول، فأيقن أن قيادة الأركان بالغت في استنادها إلى معلوماتها الاستخبارية حول ما تخبئه بيت ساحور من مكائد لدولة إسرائيل، وبخاصة بعد أن رأى ما رأى يوم أمس.

- أتحبّ أن تشرب الشاي؟

- يا خواجا أنا مش (جاي) أحكي، جاي اسمع منك.

كانت لهجة سلامة تحمل الكثير من الجرأة التي لم يتوقّعها الكابتن داود.

- هذا يختصر وقتي، لأنني لا أريد أن أسمعك تتكلّم، بل أراك تعمل، ولكن ليس كما عملتَ في السابق، فالأخبار التي وصلتْنا تقول إن هناك حقائق تخفونها.

- الحرائق يا خواجا في كل مكان هذه الأيام، ولسنا نحن الذين أشعلناها.

تأكّدت ظنون الكابتن داود، لقد تغيّر سلامة فعلا، ويملك الجرأة لكي يلمّح إلى أن دولة إسرائيل هي السبب في هذه الحرائق المتّقدة في كل مكان في الضفة وغزة، لكنه لم يرغب في إقفال باب الحديث، فعلى الرغم من كل شيء، باستطاعته أن يتحدّث، بصراحة، مع أحد سكان المدينة، ويستنتج من كلامه الطريقة التي يفكِّر فيها الناس.

- يا سلامة، سأعترف لك بأنني أريد إعطاءك فرصة جديدة لتنجح، بعد فشلك الذريع في أتفه مهمة طُلب من عميل تنفيذها. وبالمناسبة ما هي أخباره، بشارة؟

- يا خواجة، سأعترف لك بأن اليأس من هذا الوضع قد احتل قلوب الجميع، وصمت، لأنه يعرف أن أيّ كلام زائد عن حدّه سيجعل الكابتن داود يكتشف علّته.

- هل يمكن أن تقول المزيد؟

- يا خواجة، المشكلة دائما في الحديد، نعم في الحديد.

- تقصد القوة العسكرية الزّائدة؟ ولكن كيف يمكن أن لا يكون الأمر كذلك وأنتم تسموننا قوات احتلال. هذه أسوأ شتيمة وجِّهَتْ إلينا منذ ألفي عام؟

- يا خواجا الكابتن داود، الحمام لا يستطيع أن يصل إلى السلام لأنه لم يعد يطير بسبب هذا الحديد.

- لا تقل لي إنك أصبحت داعية سلام فجأة، لدينا منكم الكثير هذه الأيام. السلام الوحيد الذي يمكن أن يجمعنا هو ما قاله الجنرال موشيه ديان قبل عشرين عاما، بعد حرب حزيران، ولم تفهموه حتى اليوم: إذا أراد العرب أن نتفق معهم على شيء، فسنعطيهم السلام مقابل السلام، هذا كل ما لدينا.

كان ما قاله الكابتن داود كثيرًا، لم يستطع سلامة التقاط طيف كلمة يستند إليها في إجابته، فلم يجد من جملة يقولها سوى:

- إن كنت ترى ذلك، فاسمح لي أن أعود إلى بيتي، مستعينًا بنزق العجائز حين يضيقون بالأماكن المحشورين فيها، لكن الكابتن داود رأى في نهوضه وقاحة لا تحتمل، ولولا أن يقال إنه بدأ مهمته في بيت ساحور بقتل العجائز، بعد أن فشل في ترويض الشباب في جنين، لأطلق النار عليه فورًا.

أشار الكابتن داود بيده إلى الباب، ففهم سلامة أن عليه أن يخرج.

بخطى ثقيلة سار نحو الخارج، وقلبه ممتلئ بغبطة فريدة، لم يحس بمثلها منذ سنوات، فها هو يخوض حوارًا مع الحاكم العسكري نفسه، دون أن يكتشف الحاكم أن قوة سمعه ضعيفة، وها هو الحوار على درجة عالية من الصراحة، بحيث لم ينتبه الكابتن داود إلى شاربه الذي تضاعف حجمه، وإن كان تضاعف شيْبه، لكن ذلك دفع سلامة إلى أن يفكر: لقد ذهب الكابتن داود محققا قويّا ولكنه عاد حاكمًا عسكريًّا ضعيفًا! وإذا كانت الدولة، بكل استخباراتها، لا تعرف معلومة بسيطة، تتعلّق بضعف سمْعي، فإن هزيمتها باتت على الأبواب!

كان أكثر ما يقلقه أن تتحرّك سيارة عسكرية وتقف أمامه طالبة منه الصعود لإعادته إلى المنزل، لكن ذلك لم يحدث، في الوقت الذي كان فيه الكابتن داود يتحسّس تميمة حظّه، ويراوده

الشك، لأول مرّة، في قوة تأثيرها.

الخليفة!

أكثر ما فتن زيدان، ذلك العِلْم الذي بدأ نجمه يسطع: عِلْم الحاسوب، لم يكن يعرف إن كان هذا المساق قد أصبح جزءًا من مناهج الجامعات في الضفة أم لا، لكنه كان يعرف أن دراسة هذا الاختصاص في الخارج أصبحت ممكنة.

سلامة الذي كان يلاطفه، ويحرص على توجيهه، كلما لاحت له فرصة لفعل ذلك، سأله عن خططه بشأن الدراسة بعد الثانوية العامة، وكان ردّ زيدان:

- الحاسوب.

- شو؟

- الحاسوب.

هزّ سلامة رأسه بإعجاب شديد، وكأنه وجد فيه خليفتَه، وللحظة عبرتْه فكرة أن هذا الفتى هو ابنه، ابنه بصورة ما. قال له:

- طبعا حاسوب، من شابه أباه ما ظلم.

- ولكن اهتمامات أبي بعيدة عن العِلم.

وأوشك أن يسأل ثانية: شو؟ ولكنه علّق: من شابه عمّه سلامة ما ظلم، فمنذ أن كنتَ صغيرًا وأنتَ تسمعني أتحدّث عن العلوم، وهذا بالتأكيد أثّر في وعيك ولاوعيك أيضًا كما يقول علماء النفس.

- هل تعتقد أنه اختيار سليم؟

كان على سلامة أن يبث طاقة مضاعفة خمس مرات في أذنيه، واستطاع، على عادة أولئك الذين يعانون من ضعف في السمع، ولا تعرف متى يسمعون ومتى لا يسمعون:

- سليم؟! ليس هناك اختيار أفضل منه، فعلاماتك المدرسية الممتازة اختارتْ تخصّصَك قبل أن تختاره أنت، أقول ذلك عن معرفة طويلة بالعلم ومستقبله. اسأل جدك إسكندر، ألم أخبره قبل أقلّ من عام على وصول الإنسان للقمر، بأن ذلك سيحدث، وأنني أراه؟ فإذا كنت رأيت شيئًا، أي استشرفته، قبل عام وهو يتعلّق بالقمر، فما بالك في شيء سيغدو بعد سنوات أمرًا واقعًا على الأرض. من الآن، أراهنك أن عدد الحواسيب سيفوق عدد التلفزيونات والراديوهات التي في بيوتنا.

- معقول؟

- طبعا معقول. فمَن كان يتخيّل أن التلفون سيصبح لاسلكي، والتلغراف جهاز فاكس، والمذياع تلفزيونا، والتلفزيون بالألوان، والكاميرات التي لم يكن باستطاعة حمار أن يحملها باتت توضع في الجيب، أما إذا أردت أن تسمع من عمّك سلامة عن الوليد، بل الجنين الذي سيغير العالم، فاسألني؟

- ما هو الجنين الذي سيغير العالم؟

- الريموت كونترول؟ وحياتك يا زيدان، وأنا لا أحلف بحياتك إلا لأنها الأغلى لدي، إن اليوم الذي ستختفي فيه الأسلاك، وتحلّ مكانها الموجات، أو سمّها ما شئت، ستتغير فيه حياتنا كلّها، رغم أنهم تأخروا في استلهام هذا الجهاز الصغير الذي اخترعه العالم يوجين بولي عام 1955.

في ذلك المساء، استفاض سلامة، حتى أنه أخذهم إلى الكواكب البعيدة وأعادهم، وبخاصة حين سألهم:

- هل تعرفون ما حجم الشمس؟ وحاول أن يشير إليها، فاكتشف أنها خلف الجبل الذي وراءهم، على وشك أن تغيب.

- يساوي حجم 109 كواكب بحجم الأرض. قال زيدان.

- فعلا اختيارك دراسة الحاسوب، يا زيدان، ضربة معلم، مع أنك ما زلتَ تلميذاً! وضحك.

- يا سيدي، لو افترضنا أن حجم درْب التبانة وحده، بحجم قارة أمريكا، فإن حجم الشمس يساوي خلية واحدة من خلايا جسم الإنسان مقارنة بحجم أمريكا، وعليكم أن تتصوروا أن في جسم الإنسان 100 ترليون خلية، وأرجو أن لا تطلبوا مني تفسير هذا الرقم، لأن رأسي سينفجر عندها!

كان بشارة يستمع إليه، وإسكندر، كاترين، وماري، وزهيرة وإدوارد، أبو خليل، راضين بالدّور الذي يقوم به سلامة ومبهورين به.

- المهم في الأمر أنك تؤيد زيدان في اختياره، سأل بشارة.

- أؤيده؟! أؤيده وأباركه أيضًا، ولو لم يختره بنفسه لأجبرته أن يختاره، وضحك، قبل أن يضيف: طبعًا أمزح، لأنني مع حرية الفتيان والفتيات في اختيار ما يحبون تعلّمه. وبالمناسبة، هل اختارت عزيزتنا ميس تخصصًا محددًا؟

خفق قلب زيدان بشدة، قبل أن يسمع أبو خليل يقول:

- الصحيح لا أعرف، ولكن إذا كانت تعرف مصلحتها جيدًا ستختار ما سيدرسه زيدان، وأكّد أخونا سلامة أهميته.

احمرَّ وجه زيدان.

* * *

في ذلك المساء، خارج البيت، مال بشارة نحو سلامة وقال بصوت مرتفع: أريد أن أعتذر لك عن شيء قديم لن تتذكّره.

- لماذا تصرخ هكذا؟! ما هو؟

- لقد أخبرتك بأنك لن تتذكّره، لذا لا ضرورة لأن أخبرك به، ولكنني أحبّ أن أقول لك: إنني سعيد بحبك لزيدان.

* * *

زيدان الذي لم ينسَ ما حدث له في حقل البطيخ، وما حدث له في ذلك المعسكر، تغيّر، تغيّر كثيرًا. ساهم في اختراع وسائل لا يمكن تخيلها لإزعاج الجنود، أيّ جنود. أما شاؤول، بطل واقعة الصفع، فبات المسؤول الميداني عن منطقة بيت ساحور وما جاورها. ذلك الجندي الذي نقل خبرة الجيش الأمريكي، في فيتنام، إلى بيت لحم وضواحيها، بل طوّر بعضها، ففي حين كان جنود أمريكيون يكتبون على خوذهم (وُلِدتُ لأقتُل)، وهم محقون في ذلك برأيه، لأنهم يقتُلون في كل مكان، فقد طوّرها شاؤول، بتخصيصها، فأصبحت (وُلدت لأقتُل الفلسطينيين). أما مراهنات الصفع التي أصبحت رائجة بين الجنود، فأصبحت رائجة في غرف التحقيق أيضا، وإن كان بعض المحققين رأوا أن الإمساك بجسد المعتقل من ثيابه، من منطقة الصَّدر، وهزّه مئات المرات بسرعة، يعطي نتائج لا تقلّ عن نتائج الصفع، لأن الارتجاج المتواصل للدماغ يُفقد الكائن عقله.

في نهايات ربيع عام 1987، عبرت سيارة عسكرية شوارع بيت ساحور، كان الجنود فيها ينظرون إلى الناس مستغربين، الناس الذين يكتمون ضحكاتهم بصورة لافته. وصلت بمحاذاة بيت بشارة، لمح شاؤول زيدان، الذي بات وجهه مألوفا لفرط ما صفعوه، يقرأ في الشرفة العالية لبيت جده إسكندر. طلب شاؤول من السائق أن يوقف العربة، بعد أن كانت تجاوزت البيت، كانت مطالع شهر أيار حارة في ذلك العام؛ احترق الربيع قبل بدايته. عادت العربة إلى الخلف، أصبح باستطاعة شاؤول أن يرى زيدان بوضوح، أشار له أن ينزل. ترجل شاؤول بدوْره. خوف ما سكن قلوب الناس، تلاشت ضحكاتهم المكتومة تمامًا.

بعد قليل كان زيدان يقف أمام شاؤول.

- ما الذي تفعله؟

- أَدرُس.

- نسيت أن أسألك في آخر مرة رأيتك فيها، في أي صف أنت؟

- السنة، توجيهي.

- يعني امتحان الثانوية العامة؟

هزّ زيدان رأسه مؤكدًا.

- لم أسمعك، قال له شاؤول.

- صحيح، ثانوية عامة.

- عليك أن تدرس جيدًا، هل تعدني بذلك؟

صمت زيدان.

- لم أسمعك.

هز زيدان رأسه ثانية.

- أيضا لم أسمعك.

- سأدرس جيدًا.

- أنت تعرف، إن لم تفعل ذلك يعني أنك مشغول بأشياء أخرى تخلّ بالأمن. أحذّرك، لا أظن أنك نسيت الدّروس التي لقنتك إياها في الصيف الماضي، سأحرص على أن أرى علامات امتحاناتك قبل أن تراها، وإذا كانت منخفضة، فذلك يعني أنك تقدّم الدّليل ضد نفسك على قيامك بأعمال تخريبية ضد الدولة، وعندها سأسجنك.

استدار شاؤول، عاد وتوقّف، حدّق في وجه زيدان.

- أنا لا أمزح!

لم يكن شاؤول قد خطا خطوتين، عندما رأى ما لا يتمنّى عسكري أن يراه، كان العلم الفلسطيني يرفّ في أعلى اللاقط الطويل للاسلكي العربة؛ علم صغير ولكنه يكفي ليجعل شاؤول يحسّ بالهزيمة.

بجنون قفز واقتلع العلم من مكانه، وداسه.

نظر خلفه لم يكن زيدان هناك، لم يكن هناك أحد في الشارع.

* * *

قبل يوم من موعد الامتحانات، توقّفت عربة عسكرية أمام بيت بشارة، هبط منها خمسة جنود، سألوا عن زيدان، خرج. كان يحمل كتابًا في يده، أمسك أحد الجنود بالكتاب وألقى به بعيدًا، طرحوا زيدان أرضًا، حتى قبل أن يعرف أحد ما يدور، كبّلوه، وألقوا به في صندوق العربة التي انطلقت مسرعة.

* * *

وامسى المسا واحبابنا غيّابِ

بدري بيجوا والّا نرد البابِ

وامسى المسا واحبابنا مش عنّا

وعا عتبتي قلبي قعد يستنّا

وأمسى المسا وما في خبر يجيني

من هاللي غايب وهوِّ ساكن عيني

غنّت ماري بقلب مجروح.

* * *

في مساء اليوم الذي انتهت فيه الامتحانات، طلب شاؤول أن يُحضِروا زيدان، أحضروه. جملة واحدة قالها له، قبل أن يطلب منه المغادرة:

ـ أعدك، ما دمتُ هنا، لن تدخل الجامعة أبدًا.

عشرة أيام

دخل زيدان البيت، تفقدوه بأعينهم الدّامعة باحثين عن آثار تعذيب على جسده، عندما لم يروْها، تقدمّوا نحوه يعانقونه بشدّة: عمته زهيرة، جده إسكندر، بشارة. سار نحو جدته مرتا التي لم تكن، بعدُ، قادرة على مغادرة السرير بيسر، قبّلها، فأضاء وجهها. تحاملت على نفسها واعتدلت دون مساعدة من أحد. حرصت ماري، أمّه، أن تكون الأخيرة، مؤجّلة إطفاء النار التي تحصد كل ما في صدرها من شرايين وأوردة وقلب ورئتين ودم وهواء؛ كانت بحاجة لعناق طويل، عناق أمّ لطفل أولَ تلده الآن. سار نحوها، أشرعت ذراعيها كأنها تعانق الحياة، احتضنته. خُيّل إليها أن الشمس غربت وأشرقت، وغربت عشرة أيام، وهي لم تزل تحتضنه، عشرة أيام هي كل الأيام التي غاب فيها عن عينيها. كان لا بدّ من أن تتركه، بعد أن تأكدتْ تمامًا من أنه عاد، وقد كان أكثر ما يخيفها أن يعيدوه كالمرة الأولى، شبه ميت، أو ميتا تماما.

هزيلا كان، لاحظتْ مرتا أيّ نحول ذلك الذي أحال ذراعي حفيدها إلى عودَي حطب جافين، هي التي تعرف يديه، أصابعه، أكثر مما تعرف أي شيء فيه، فقد راقبت تلكما اليدين تحاولان العزف على البيانو، ثم راقبتهما تعزفان، وهي تعلّمه، ثم رأتهما بخيالها تتحرّكان بخفّة، وهي مغمضة عينيها، تتابع عزْفه، في غيابه.

لا تعرف مرتا إن كان تفكيرها في الموسيقى هو الذي قاد حفيدها، في تلك اللحظات، إلى البيانو، ليجلس خلفه، قبل أن يستريح على أي كرسي من كراسي البيت، قبل أن يشرب كأس ماء، قبل أن يأكل لقمة.

فتح غطاء مفاتيح البيانو، نظر إليهم، كان بحاجة إلى أغنية ما، موسيقى ما، تغسله. دائما كانت الموسيقى أفضل علاج لروحه كلما هبت عليها رياح حزن، أو باركتْها نسائم فرح.

لم يكن صعبًا عليهم أن يعرفوا أي أغنية تلك التي سيغنيها، بصوته العريض الذي يذكّر بصوت مغنّي ريفٍ لا تنقصه خامة الصوت بقدر ما تنقصه الخبرة.

اسْهار بعد اسْهار

تايحرز المشوار

كتار ها الزوار

وشويْ بيفلوا

وعنّا الحَلى كله

وعنا القمر بالدار

ورد وحكي وأشعار

بس اسْهار.. اسْهار

ولكي يمحو زيدان تلك الدمعة من عيني أمه، دعاها بحركة من رأسه أن تغني المقطع التالي، الذي طالما غنّته له طفلا، تمنّعت.

- عزّا، أنا ظلّ عندي صوت؟!

عاد ودعاها من جديد، وهو يكرّر عزف الفاصل الموسيقي المؤدّي للمقطع التالي مرّة تلو أخرى، وسمعها تتنحنح أخيرًا، فابتسم، ابتسم كما رأته يبتسم دائما؛ أصفى ابتسامة رأتها في العالم، وواصلت:

بيتك بعيد وما بخليك ترجع

أحقّ الناس نحنا فيك

راح فتِّح بوابي

وانده على صحابي

وقلّن قمرنا زار

وتتلج الدنيي اخبار

بس سهار.. اسهار

ما إن أنهت المقطع حتى كان كل من في الغرفة يبكون أكثر الدموع مدعاة للحيرة؛ دموع الفرح بعودته سالما، دموع ضياع جهد سنة كاملة من الدراسة، دموع القلق والخوف التي ذرفوها، فعادت تجري كما لو أنه لم يعد بعد، دموع الأمل لأنه عاد إليهم يغني بدل أن يعود إليهم بقايا إنسان مهشّم.

استعادت مرتا وجه زيدان الطفل ووجوه الأولاد الذين علّمتهم الموسيقى، أولئك الذين جاؤوا إليها من أكثر من قرية محيطة ببيت ساحور، ومن مدينة بيت لحم.

لم تكن تتقاضى أي مبلغ مقابل تعليمهم، كان أكثر ما يفرحها أن ترى حياتهم تتغيّر بالموسيقى، وكيف يصبحون أجمل، وأكبر من أعمارهم، بسبب ذلك الإحساس بالسّمو الذي يتسلل لأرواحهم دون أن ينتبهوا له.

من بين كل الوجوه البعيدة قفز وجه ذلك الطفل الصغير الذي جاء به أبوه من قرية زعْتَرة، المجاورة، وقال لها، أرجوك أن تعلّميه.

قالت، دعني أسمعه يغني أولا أيّ أغنية يحبّها.

خجِل الولد، فقال له أبوه: ولو، هل يخجل ذلك الذي يمضي يومه راشقًا سيارات الجنود ودورياتهم بالحجارة؟!

- ما اسمك؟ سألته مرتا.

- رامي؟

- اسم على مسمى، قال والده، كان عليّ أن أسميه هادي!

- هل يمكن أن تغني لنا أغنية يا رامي؟

كانت جملة والده تدور في رأسه، وقد شكلت تحدّيًا كبيرًا لجرأته، فغنّى:

في الضفة لي أطفال سبعة

أصغرهم يرضع تاريخا

أوسطهم اسمه جيفارا

أكبرهم ثائر في الضفة

يا كل العالم فلتسمع.. يا كل العالم

أطفالي هم رئتي وأنا أصرخ.. أصرخ

فليُمْسي وطني حرًّا وليرحل محتلّي فليرحل..

ابتسمت مرتا، مالت نحوه وقبّلت رأسه، أحس رامي بالحرج، ولكي يخرجه والده من حرجه، قال:

- كما ترين حجارته ليست أقوى من أغنياته!

- سأدّربه، إذا كان هو يريد ذلك.

كان زيدان يراقب المشهد ويشير له أن يوافق، فلسبب ما أحس بأنه يعرف ذلك الولد منذ زمن طويل؛ وافق.

حتى بعد مرور عشر سنوات لم تنسَ مرتا فرحة أطفالها بموافقة ذلك الولد، فقد صفّقوا جميعا حين سمعوه يعيد خلف مرتا:

- أريد ذلك.

في طريقه إلى الخارج همس والد رامي لمرتا:

- أشكرك، أشكرك يا ست مرتا، قلبي يقول لي إن هذا الولد ليس ابن عِيشة! لا تستطيعين أن تتخيّلي كم مرّة نجا بأعجوبة من رصاص الجنود، أعرف أن كل ما نفعله الآن، أننا نحاول تأجيل

موته، بأن يكون بعيدًا عن هذا الموت ساعتين كل يوم، ساعتين على الأكثر وهو يتدّرب عندك! أهذا مطلبٌ كبير، أم أنني أبالغ كأب حين أتمنى ألا يموت ابني على أيدي الجنود؟!

في ذلك اليوم كان هناك منير، سهيل، وكان نجم، أفضل طفل تعلّم على يديها العزف، وسواهم، وكانت ميس، ابنة أم خليل، آخر العنقود، التي لم تظهر عليها أي مؤشرات موهبة لا صوتا ولا عزفًا، ولا في الكورال الذي شكّلته مرتا وغنى في كنائس بيت ساحور كلهّا، مرات كثيرة؛ حتى أن والدها قال يمازحها ذات مرة، لا أعرف إن كانت الملائكة التي تطوف حول سيدنا عيسى المسيح عليه السلام سينسون لكِ هذه الأخطاء في الغناء التي هي ليست أقل من خطايا! لكن ميس أصرّت دائما على أن تكون حيث يوجد زيدان.

بعد سبعة أشهر كان رامي قد تغير، لم يكن أرقّ فقط، ولكنه كان أنضج، وأجمل، وبدت قامته مشدودة دائما مثل قامات فناني الأوبرا العظام. وهذا ما جعل مرتا تعتمد عليه كثيرًا في الحفلات التي تُقام في الجمعيات والمدارس والكنائس، وحفلات التنظيمات التي تحيي أيام انطلاقاتها. كان شعار مرتا الذي يعرفه الجميع: الجمال كالوطن، للجميع، والموسيقى هي أعلى مراتب الجمال، مثلما الإنسان أعلى مخلوقات الله مكانةً.

* * *

لن تنسى مرتا ما عاشت، ذلك الانتظار الصعب، مساء الحادي عشر من كانون أول، ديسمبر، عام 1980 حفل انطلاقة الجبهة الشعبية. تأخّرت الفقرة الغنائية المنتظرة، بعد أن انتهى الخطباء من قول ما يريدون، بدأ الناس يتساءلون عن السبب، ووسط تلك الأصوات المختلِطة، كانوا يسمعون أصوات آلات موسيقية مختلِطة أيضًا، قادمة من خلف الستارة، مقاطع لحن مشتّت ينتظر الجميع في الخارج لحظات توحّده.

انطلق شاب بسيارته شرقًا نحو زعْتَرة، ولكنه لم يعد.

كان لا بدّ أن يبدأ الحفل أخيرًا، قررت مرتا أن تتصرّف، فبحثت عن صوت يسدّ مكان صوت رامي، لم تجد أحدًا يملك جرأة الغناء مثل ميس، رغم أنها تعرف أن تلك الصغيرة ذات الشعر الأسود القصير، ستدمِّر كل المقامات الموسيقية في حفلة واحدة، ولكنها همست لنفسها: في النهاية لسنا في دار أوبرا باريس!

مالت مرتا إلى أذنها، وقالت:

- أريد أن أقدّمكِ الليلة مكان رامي.

- أنا؟ لقْلَق يُغني مكان كناري؟! مستحيل.

- بل ستغنين، قلتِ آه، أو قلتِ لا.

- على مسؤوليتك؟

- على مسؤوليتي.

* * *

تواصلت الحفلة، الحفلة العلنيّة السريّة، فالجميع يعرفون أنها بمناسبة انطلاقة الجبهة الشعبية، لكن، لا شعار أو يافطة تشير إلى ذلك، والجنود الذين يراقبون المكان، من بعيد، يعرفون أنها حفلة مُدبّرة، إلا أن مَن في الحفل يتعاملون معها باعتبارها جاءت مصادفة!

كانت احتفالات أعياد الميلاد على الأبواب، وزينة الاحتفالات تتدلّى من نوافذ البيوت وسطوحها ومن رؤوس الأشجار.

تلك الليلة غنت ميس بطريقة أدهشت الجميع، وتحوّلت إلى نجمة حقيقية وهي تختتم برنامج الاحتفال، بأغنية (في الضفة)، أغنية رامي المفضّلة.

تفرّق الناس عائدين إلى بيوتهم، لكن ميس لم تنم، كانت تبحث عن السبب الذي جعلها تتغير بطريقة أدهشت الجميع، حتى أن والدها، أبو خليل، المحبّ للحكيم، جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبية، وغسان كنفاني كثيرًا، قال لها: أظن أن الله غفر لك كل خطايا غنائك السابق!

* * *

في صبيحة اليوم التالي، كانت كل بيت ساحور حزينة، كان الجميع قد سمعوا بخبر استشهاد رامي.

- كان يتدرب تحضيرًا لحفلة تلك الليلة، قال والده لمراسل إذاعة مونت كارلو، كان يتدرّب من أيام، وكنا خرجْنا من البيت باحثين عن سيارة تحمِلنا، وهو يتدرّب، وأنا أقول له: أرحْ صوتك قليلا، هكذا يفعل المغنّون المشهورون كما سمعتُ وقرأتُ! وكان يردّ: ولكنني مغن غير مشهور! ويواصل غناءه. ومرّت عربة فيها جنود، لم تتوقّف. أصبحتْ خلفنا. وبعد ثوان سمعتُ صوت طلقة يأتي من الخلف، التفتُّ خائفًا، والسيارة تتابع طريقها، وحين مددتُ يدي وأنا أستدير، لأُمسك بيد رامي لم أجده هناك، التفتُّ، وجدْتُه ملقى على الأرض. لقد عبرتِ الرّصاصةُ من ظهره، وخرجت من صدره.. مات.. مات وهو يغني: في الضفة..، وكان الأب يعيد المقطع وكأنه يغنّيه.

* * *

منذ ذلك اليوم توقّفت ميس عن الغناء، ولكنها لم تكفّ عن القدوم إلى بيت إسكندر ومرتا. باتت تجلس على العتبة، لا تتجاوزها ما دامت هناك تدريبات.

تستمع إلى الأولاد، إلى أن ينتهوا، فتدخل.

وهكذا ظلّت تفعل، إلى أن لحِقت برامي!

* * *

بعد أن انتهوا من غناء (اسهار) وتناولوا طعام العشاء، سأل بشارة ابنه:

- صحيح أن الوضع غير مناسب لأن أسألك، بعد أن حرموك من أداء الامتحانات، بماذا تفكر؟

- غير معقول أن يذهب تعبي هباء، فكل تلك الكتب التي قرأتها أصبحت في رأسي.

- تنوي التقدّم للامتحانات في السنة القادمة إذًا؟ سأله جده إسكندر.

- وهل لدينا خيار آخر؟

رياح قديمة

وجهٌ واحد كان لا يغيب، وجه ميس، يَعجَب زيدان حين يسمع أحدهم يقول إنه غير قادر على استحضار وجه حبيبةٍ رحلت أو تزوّجت، وجه صديق لولا صورة مشتركة تجمعهما لما استطاع لملمة ملامحه، وجه أمّ اختطفها الموت، أو أب اختطفته الغربة.

وجهٌ واحد كان لا يغيب عن ذاكرته، وجه ميس.

أمضى زيدان من الوقت خلال السنوات العشر الأولى من حياته في بيت ميس، الابنة الأصغر، الوحيدة بين أربعة أولاد ذكور، لعائلة أبو خليل، أكثر مما أمضى في بيته.

كان شقيقها سالم يكبره بأربع سنوات، وكان زيدان أكبر من ميس بأربعة أشهر. أكثر ما كان يفتنه أن يعيد تكرار جملته المفضلة: نحن جيران، وتفصل بيتنا عن بيتكم أربعة بيوت، وتفصل يوم مولدي عن يوم مولدكِ أربعة أشهر، ثم يسأل السؤال الذي لا بدّ أن يسأله: هل تعتقدين أن ذلك صدفة؟!

لم يعرف زيدان سرّ افتتانه بجملته وسؤاله، ولكنه كان على الدوام سعيدًا بهما.

لسبب غامض لا يعرفه، كان زيدان مستعدًا لأن يفعل أي شيء من أجل إرضاء عمه أبو خليل، هكذا كان يدعوه دائما، حين يخاطبه مباشرة، وحين يأتي ذكره على لسانه في أي مكان يكون زيدان فيه.

العم أبو خليل أيضا، كان يعتبر زيدان واحدا من أبنائه.

في الثاني من حزيران، عام 1980، كان قد مرّ ثلاثة عشر عامًا، إلا ثلاثة أيام، على احتلال الضفة الغربية. أبو خليل كان الأكثر تشاؤما من هذا الرقم، إذ لم يتخيل أن الاحتلال سيستمرّ إلى ذلك الحدّ، لا لأن الجيوش العربية التي كانت في خط الدفاع الثاني تأخرت في استعادة خط الدفاع الأول، بل لأن عدد مبادرات السلام التي كانت تتساقط على رؤوس الناس، كانت تذكّره كل يوم، بأن ذلك البيت الذي هجّروه منه، في مدينة اللد، يغدو، مع كل مبادرة، أبعد فأبعد.

في ذلك اليوم، كان زيدان في بيت عمّه أبو خليل حين سمعوا تلك الصيحات التي ترجّ بيت ساحور، كما لو أن القيامة قامت.

العم أبو خليل، تفاءل، ارتجف قلبه، وعبرتْه فكرة مجنونة، أن يكون العرب قد قرروا تحرير الضفة الغربية والجولان وسيناء في الشهر نفسه الذي فقدوا فيه هذه الأراضي! وربما استعادة ما أحتُّل عام النكبة أيضًا، ولذا، وجد نفسه يخرج إلى الشارع حافيًا، وصارخًا، كما فعلت الممثلة محسنة توفيق في فيلم العصفور، وهي تهتف عبر الشوارع: ح نحارب، ح نحارب، رافضة استقالة جمال عبد الناصر، ومعلنة أنها لن تستسلم!

العم أبو خليل خرج وليس في باله شيء غير تلك الكلمة- الصرخة: ح نحارب.

وما إن بلغ الباب حتى صاح: وراي يا ولاد.

عندما وصلوا ساحة كنيسة الآباء الأجداد للروم الأرثوذكس، رأوا ما لم تره عين، كان الناس كلهم يصيحون غضبًا. أدرك أبو خليل أن صياحًا كهذا لا علاقة له بالانتصارات. أحسّ بقلبه يسقط، كما لو أن الاحتلال يعيد احتلال البلاد ثانية! كل تلك الأيام المُرَّة التي عاشها قبل ثلاثة عشر عاما هوت فوق قلبه دفعة واحدة: أيكون اليهود قد احتلّوا عمان ودمشق والقاهرة أيضا، وما يراه مظاهرة احتجاج؟!

ضاقت فرحة الأولاد الراكضين خلفه، انكمشت ابتساماتهم، وحين التفت أبو خليل خلْفه ورأوا أي ملامح أصبحت ملامحه، أدركوا أن هناك مصيبة كبيرة حدثت.

توقفوا مكانهم يغمرهم رعب غامض.

واصل أبو خليل طريقه إلى أن وصل طرف المظاهرة المقابل لمبنى البلدية.

كانت الناس تبكي وتهتف ضد الاحتلال:

يا كريم ويا بسّام   ما راح نخضع للإجرام

يا بسام ويا طويل   القدس بتصرخ والجليل

بيغن يا راس الإرهاب   إحنا شعب ما بيهاب

- ما الذي يحدث. سأل أبو خليل بشارة الذي كان يصيح بأعلى صوته مرددًا الهتافات كما لم يره من قبل.

- بسام الشكعة، وكريم خلف، وإبراهيم الطويل. ردّ وهو يلهث.

- ماذا حدث لهم؟

- انفجرت عبوة ناسفة في سيارة الشكعة وبُترت قدماه، وعبوة في سيارة خلف وبُترت قدمه، بينما نجا الطويل من الحادث بسبب اكتشاف العبوة قبل صعوده إلى السيارة[17].

* * *

مكسورًا عاد أبو خليل، وغاضبًا إلى البيت، مرّ بميس وسالم وزيدان كأنه لا يراهم، ولأن الصغار أحسوا أن شيئا كبيرًا حدث، فقد أخلوا له الشارع ملتصقين بالحيطان. لم يكن يبكي كما كانت تبكي بعض النساء: ماري وكاترين وأم خليل، ومرتا، لكنه بدا أكثر حزنا من شخص ميت.

* * *

لم يخفَ على أحد أن ميس، تلك البنت البيضاء مثل قرص الجبن، صاحبة الملامح الدقيقة كطائر كناري، البنت صاحبة الشعر الكستنائي، لم يخفَ على أحد أنها متعلّقة بزيدان، كما هو متعلّق بها.

حين بلغا العاشرة، أدرك الجميع أنه خُلق من أجلها كما خُلقت من أجله، لكن لم يحدث أن تحدّث أحد من الناس إلا مع نفسه في هذا الأمر. فميس مسلمة، وزيدان مسيحي؛ صحيح أن ليس هناك أي اعتبار لهذا الأمر في حياتهم اليومية، حتى أن الناس لا يتذكرونه إذا ما كانوا في طريقهم إلى الكنيسة، أو في طريقهم إلى مسجد عمر المجاور لكنيسة الآباء الأجداد للروم الأرثوذكس.

كان زيدان يُمضي أيام رمضان في بيت ميس، يصوم معهم ويفطر معهم، وبعد المساء يطوف مع الأولاد والبنات حاملين الفوانيس يطرقون الأبواب، مهنئين الجيران بشهر الصيام.

بعد العشاء يعود زيدان إلى بيته، وفي موعد السحور يقطع المائة متر التي تفصله عن باب بيت ميس، ويطرقه.

لم يحدث أن استيقظوا إلا على تلك الطرقات لتناول طعام السحور.

أبو خليل أحب زيدان، وبدا متعلّقا به كثيرًا، وكأنه شقيق أبنائه.

ذات يوم بعد أن تناولوا طعام الإفطار، وبلا أي مقدمات، راح أبو خليل يتحدّث عن حرب الخامس من حزيران. لم يكن زيدان وحده هناك، كانت ماري وبشارة. أكثر ما كان يرهق أبو خليل، أن الفلسطينيين يدخلون كل مرحلة أكثر إنهاكا من تلك التي قبلها: في عام 1917، دخل الإنجليز فوجدونا منهكين بسبب الحكم العثماني، وحين بدأت الهجرة اليهودية كنا منهكين بسبب الاستعمار البريطاني، وبعد النكبة كنا منهكين باحتلال مدننا وقرانا من العصابات الصهيونية، وعام النكسة كنا منهكين بهزيمة الجيوش العربية. وسأل سؤاله الصعب: هل يعرف أحد منكم نهاية لهذا الطريق؟

لم يجب أحد، لكن زيدان الذي يعرف مدى حب عمّه أبو خليل لشجر الدرّاق، تسلل إلى بستان جده إسكندر، وأحضر شتلة دراق، وفي غياب أبو خليل، زرعها في الحوش بمساعدة ميس.

* * *

لم يكن صعبا على الجدّ اسكندر، أن يكتشف اختفاء تلك الشتلة الصغيرة، فقد كان أكثر حرصًا على بستانه والسلالة النادرة من أشجار الدّراق، أكثر من حرصه على أي شيء آخر؛ حتى أنه في صباحات الأحد، وقبل أن يذهب إلى الكنيسة، يرتدي قمبازه وحطته، ويتّجه إلى بستانه، يرعاه، ثم يذهب بعد ذلك للصلاة، وإذا كانت الأشجار بحاجة إليه، فإنه لا يذهب للصلاة في ذلك اليوم.

هذا الإخلاص لبستانه، أطلق بعض ألسِنة الناس: إنه يعتني بأرضه أكثر مما يعتني بصلاته! وتجاوز بعضهم ذلك، حين قال: يعتني بدنياه أكثر مما يعتني بآخرته!

الجدّ إسكندر سمع فتات الكلام، وكلما علت الأصوات أكثر، أصبحت عنايته ببستانه أكبر.

* * *

بعد انتهاء القداس، ذات أحد، خرج من الكنيسة، ووقف أمام بابها طالبًا من الناس الانتظار، لأن لديه شيئا مهما يقوله لهم. حين تأكد من أنهم خرجوا جميعا، قال: لديَّ بعض الكلام الذي لا بدّ أن يقال. لقد سمعتُ من يقول إن إسكندر يعتني بأرضه أكثر مما يعتني بصلاته، ويعتني بدنياه أكثر مما يعتني بآخرته. أحبّ أن أقول لكم إن هذا صحيح بالطريقة التي أفهمه فيها، لا بالطريقة التي يفهمها أي شخص لا عمل له غير الثرثرة.

كان الأمر مفاجأة للكثيرين. صمتوا..

ثم اندفع طارحًا عليهم سلسلة لا تنتهي من الأسئلة: وهل تعتقدون أن الأرض أقلّ منزلة من السماء، وقد خلقهما إله واحد؟ وهل يستطيع أي منكم أن يعيش دون أن يقوم بشيء غير الصلاة؟ مَن منكم يظن أن كلام الله الذي ملأ به قلوبنا أكثر قداسة من تلك الأشجار التي خلقها وملأ بها عيوننا؟ هل يمكن لأيّ واحد منكم أن يقول إن المشقة التي يعاني منها في صلاته أكثر من تلك المشقة التي يعاني منها فلاحٌ يحرث أرضه، يزرعها ويحصدها، حتى تستمر الحياة على هذه الأرض؟ هل من بينكم من يظن أن ذلك الفلاح أو العامل أو الأمّ التي تربي أو الأستاذ الذي يُعلِّم أو الجندي الذي يحمي أو الطبيب الذي يعالج، أقلّ قدسية من راعي هذه الكنيسة أو تلك؟

توقعوا أن يجيب إسكندر على بعض تلك الأسئلة، ولو بكلمات قليلة، لكنه لم يفعل.

في ذلك اليوم، رفع حطته التي كانت تتأرجح في يده صاعدة هابطة مع كلِّ سؤال يطرحه، وضعها على رأسه، وقال: أنا ذاهب للأرض لأُقدِّس صلاتي!

* * *

اكتشف إسكندر أن شتلاته نقصت شتلة. ولم يكن ذلك صعبًا عليه، وقد رتّبها في خطوط مستقيمة، عرْضية وطولية، بحيث يشمل كلُّ حوضٍ مربع على أربع وستين شتلة.

لم يبع إسكندر أيًّا من شتلات ذلك البستان، ولكن، كلما ماتت شجرة، أو مرضت، كان يزرع واحدة جديدة مكانها. وفي كثير من الأحيان يصبح لديه فائض أشتال، لكن ذلك أفاده كثيرًا حين غزا مرض غامض البستانَ بعد النكبة بثلاثة أعوام، وغدت الشجرات ضعيفة تتساقط أغصانها حول جذوعها كدمعات يابسة.

في ذلك العام، نقل كل ما في بستانه من شتلات إلى البيت، ورعاها، وبعد عامين، حرث البستان من جديد، وكان حريصًا على أن تنال كل ذرّة من التراب حصةً كاملة من الهواء، لكي تُبعث الحياة فيها من جديد. بعد ذلك، زرع نصف ما لديه من أشتال، وانتظر النتيجة، وحين تأكد من أن الأمور تسير على ما يرام، زرع النصف الآخر.

* * *

زيدان، اعتبر شجرة الدّراق مَهْر ميس! وقد سمع أكثر من مرة عن ذلك الشرط الذي وضعته جدته لكي تتزوج جده إسكندر، الشرط الذي بدا غريبا على أهل بيت ساحور!

* * *

كما لو أنه يعاني من ضعف خلْقي في قدرته على الإبصار! تصرف الجدّ اسكندر كأنه لم يفقد أيا من شتلات درّاقه الغالية!

مساء، اعترض زيدان طريق جده، أمسك بيده الكبيرة، فأحس بملمس التراب عليها، وقبل أن يصلوا البيت في ذلك الغروب، قال زيدان: لقد زرتُ البستان اليوم!

ردّ الجد إسكندر: متى، فأنا لم أرك!

- كنتَ في الكنيسة؟

- لهذا لم أرك!

- لقد أخذتُ شتلة درّاق.

- لمن أهديتها؟

- كيف عرفت بأنني أخذتها لأهديها لأحد؟

- لأنك لست بحاجة لأن تهدي نفسك شتلة ما دام البستان لك!

- أهديتها لعمّي أبو خليل، فمنذ أن كنت صغيرًا أسمعه يتحدث عن بستانك وحبّه لأشجارك.

- لا بأس إذًا، المهم أن الشجرة ستنمو في بيت يحبّها صاحبه. ولكن هل تعتقد أن زوجته وأولاده وابنته سيحبّونها؟

- ميس قالت لي إنها أحبّت الهدية.

- آه! ميس، وهل أحبّتها لأنها هدية منك أم أحبّتها لأنها شجرة نادرة في ظنّك؟

- لا أعرف، ولكنني سأسألها.

- ستسألها؟! لا، لا أظن أن ذلك لائق، لا ينبغي على الإنسان أن يواصل توجيه السؤال إلى من أهداهم شيئًا ما: هل أحببتم الهدية؟ هل أحببتم الهدية؟

- وماذا يفعل لكي يتأكّد من أنهم أحبّوها؟

- يرى إلى أي حدّ سيعتنون بها.

- أنا متأكد من أنهم سيعتنون بها.

- وأنا أيضًا.

كان ظلّاهما يطولان، ويطولان، ولو نظرا خلفهما لرأيا ظليهما قد تجاوزا حقل الرعوات. أما الشمس، فلم تكن تغيب في ذلك اليوم، إذ أحسّا بأنها تُشرق.

* * *

فوجئ أبو خليل بشجيرة الدرّاق، سأل: من أحضرها؟

- زيدان.

- من بستان جدّه؟!

وقبل أن يجيب أحد، انحنى، أبعد التراب برفق عن الشجيرة، حملها، وخرج، تاركًا زوجته وأولاده ولميس، يتساءلون في أنفسهم: ماذا حصل؟

* * *

قبل أن يصل إلى بيت اسكندر، رآه صاعدًا الطريق. فوجئ أبو خليل بظليهما الطويلين وظلّه أيضا، بحيث نسي السبب الذي أخرجه من البيت. امتدت يداه بالشجيرة نحو الجدّ إسكندر.

- ما هذا؟ سأل الجدّ.

- شجيرة الدرّاق؟

- ولماذا تعيدها إليّ؟ أليست هدية زيدان لكم؟!

- نعم هديته.

- ولكنني أعرف أنك لم تُعطِ أحدًا شتلة من بستانك منذ ستين سنة.

- أتعرف لماذا؟

- لا، لا أعرف.

- لأنه لم يكن لي حفيد.

- ولكن..

- أظن أنها ستكبر في بيتك أفضل مما ستكبر في بستاني، ستعتني بها أكثر مما أعتني بأشجاري كلها! كما أنك ستحبها بالمقدار الذي أحب فيه أشجاري كلها، فمن أحقّ بها منك؟! أم أنك تريد أن تظلم هذه الشجرة بحيث لا يكون لها سوى حصة قليلة من العناية والحب عندي؟!

والتفت الجدّ إسكندر إلى حفيده، وقال:

- احمل الشتلة عن عمّك أبو خليل، وأوصلها إلى بيته، سأذهب وإياه لنشرب الشاي معًا.

* * *

انطلق زيدان نحو بيت عمه أبو خليل فرحًا، كما لو أنه سيرى ميس التي طالما سمع عنها، للمرة الأولى، ميس البيضاء كقرص الجبن، ذات الشعر الكستنائي.

بدايات مُربِكة

أفكار كثيرة خطرت لناحوم خلال الأيام الخمسة التي أمضاها في مقرّه الجديد، من بينها، هل سيعود لاستخدام لقبه القديم: داود؟ أم اسمه الحقيقي: ناحوم؟ في النهاية توصل، وبعض حرقة تكوي قلبه، أن الكابتن داود لم يحسم معاركه القديمة مع المدينة، ولذا سيستخدمه، واعدًا نفسه بأنه سيتخلى عن هذا الاسم تماما، ما إن ينتصر على المكان الذي أبت الأقدار إلا أن تعيده إليه ثانية.

خلال الأيام الخمسة قرر أن يعرف أولئك الذين يخوض المعركة معهم. التقارير كانت كثيرة، وعن كل شيء في المدينة، الحزبيين، النشطاء، المؤازرين، المؤهلين للمشاركة..

كان عدد سجناء المدينة جيدًا بالنسبة إليه، فكثير من الأشخاص الذين يتذكّر بعضهم، كانوا قد اعتُقلوا ورُحِّلوا إلى سجن النقب الصحراوي الذي أنشئ لاستيعاب الأعداد الكبيرة من معتقلي الانتفاضة. ما أزعجه، أكثر من أي شيء، أن بشارة كان في السجن، وكم كان يتمنّى أن يجده في القبر. وفكّر، سأوصيهم أن يتعاملوا معه هناك بصورة خاصة؛ وخطرت بباله فكرة جهنمية، أن يُصدر أمرًا باعتقال كل سكان المدينة، صغارا وكبارا، رجالا ونساء، ويزجّهم في السجن دفعة واحدة. في السجن تستطيع أن تراهم، أن يكونوا تحت عينيك طوال الوقت. تخيل نفسه يسير في شوارع بيت ساحور وحيدًا، كل ما حوله هادئ: الشوارع، أجراس الكنائس، صوت الأذان الحبيس في مكبرات الصوت، العصافير، القطط، الكلاب، الماعز، الأغنام، البقر، نشرات الأخبار في التلفزيونات والإذاعات، الأغاني، كل شيء.

* * *

في اليوم السادس خرج، بدا العالم مختلفًا في محيط القيادة. غريب ذلك المدى الذي يتراءى لنا فيه كم سيكون العالم مختلفًا، إذا انقطعنا عنه، حتى، خمسة أيام. لكن الأمر لم يطل، فقد سمع

أصوات طلقات وانفجارات قريبة، وسمع ظلال هتافات يعرفها من إيقاعها، لا من حروفها الغامضة البعيدة. كانت المظاهرات أقرب مما يتصوّر.

انطلق في الاتجاه المعاكس، إلى بيت ساحور، وصل إلى مفترق الطرق المؤدي للبلدة القديمة فيها، كان باستطاعته أن يسمع الهدوء الذي تمنّاه. لم يدُم طويلا. قبل أن يرى مبنى البلدية، اخترقت الصمتَ رشقاتٌ من الحجارة، أحسّ بها قبل أن ترتطم بعربته العسكرية والعربات الثلاث المرافقة له.

ضاعف السرعة. لم يحلّ المشكلة. عكس تيار العاصفة الحجرية كان يحاول الاندفاع. طلب من السائق أن يتوقف فورًا، توقّف، فأوشكت العربات الثلاث خلفه الارتطام الواحدة بالأخرى، والارتطام به.

بسرعة نزل الجنود مُشهرين أسلحتهم، مُطلقين النار على أهداف غير مرئية. عمّ الصمت، كأن الحجارة لم تتساقط عليهم، ولولا تناثرها على الأرض، وتلك الدماء التي غطت وجه أحد الجنود، ويد آخر، لأقسم الكابتن داود أنه يعيش كابوسا لا أكثر.

قبل أن يصعدوا إلى عرباتهم من جديد، بزغت امرأة من الشارع المحاذي للبلدية، الشارع المؤدي إلى البلدة القديمة، توجّهت نحوها فوهات البنادق كلها، كانت ترتدي ثوبا فلسطينيا تقليديا، وغطاء رأس أبيض. غادرت ظلّ البيوت التي على يسارها، تباعدت غيمتان رماديتان في السماء، سطعت الشمس، سقطت أشعتها الصباحية على صدر المرأة، شع ضوء صليب ذهبي أضاء وجهها، وسنوات عمرها التي تجاوزت السبعين. وصلت باب البلدية، ظهرت نساء أخريات، ورجال وأطفال. ضج الشارع بالحركة، لم يكن ينقصه سوى دقات أجراس الكنائس التي راحت تدقّ فعلا.

أعطى الكابتن داود الإشارة لجنوده لكي يصعدوا إلى العربات، صعدوا. كانت حركة الناس حولهم في ازدياد، لكن ما حيّر الجنود أن أحدًا لم يكن ينظر إليهم، بحيث شكّ بعضهم بوجوده في المكان.

انطلقت العربات وسط الشوارع، بحذر أكبر، الأصابع على أزنُد البنادق متحفِّزة لإطلاق النار، والأعين تدور تحت الخوذات في حركات دائرية تحاول الإحاطة بالمكان.

في الشارع المطلّ على وادي أبو سعدى، دوّى رعد في السماء، تساقطت الحجارة ثانية، أوشكت إحدى العربات أن تنحرف باتجاه الوادي، لكن الجنود كانوا يعرفون أن الحجارة تأتيهم هذه المرة من جهة واحدة، يمين الشارع، أسرعوا. قبل أن يلتقط الجنود أنفاسهم، جاءت موجة أخرى من الحجارة من بين الأشجار المزروعة على السفح المقابل.

بجنون أطلق الجنود النار صوب أشجار الزيتون والفاكهة، في وقت كان فيه الكابتن داود مُشهرًا مسدسه، يراقب أرض المعركة، مفكِّرا في حفلة الاستقبال، تلك، التي أعدَّت له بكل دهاء، وكيف سيردّ عليها.

همَّ بعض الجنود بملاحقة أولئك الذين لا يرونهم، بين الأشجار، وقبل أن يبتعدوا، نظر إلى الأرض، كانت موحلة، أعطى الكابتن داود الأمر بالعودة.

استدارت العربات وعادت.

كانوا يتوقّعون أن تعود الحجارة للتّساقط عليهم من البيوت التي غدت على يسارهم، لكن ذلك لم يحدث، ارتفعت العربات وهبطت، كأن هنالك من يرجمها من الأسفل، من جهة الأرض التي تحتها. حاذت مبنى البلدية، فوجئ الكابتن داود، لأن الحجارة التي انهالت عليهم واستقرّت في الشارع، لم تكن هناك، كان الشارع نظيفًا إلى حدّ لا يصدق، والناس يعبرون، يتحدّثون، يشترون ويبيعون، كأن الجنود ليسوا هناك.

وأرعدت ثانية، نظر الجنود إلى الأعلى، متوقّعين سقوط الحجارة مرة أخرى.

لم تسقط.

.. فجأة، وجد الكابتن داود نفسه وجهًا لوجه مع بشارة، عرفه، لم يستطع بشارة الذي فوجئ به أيضًا، إلا أن ينظر إليه، وكم سَرّ الكابتن داود ذلك: ها هو شخص في النهاية يعترف بأنه يرانا، وفكّر: لو لم أفعل به ما فعلت، لكان مثل البقية. لكن بشارة كان يفكر في شيء آخر: كم تغيّر هذا الداود!

قبل أن تصل السيارة إلى بشارة توقّفت، توقّف بشارة.

لحظات صمت طويلة مرّت، لكن أكثر ما حيّر بشارة، أن يجد الكابتن داود أمامه في اليوم الأول لخروجه من السجن. بسرعة مرّ شريط طويل في خياله، ومرّ شريط آخر في الجهة الأخرى في خيال الكابتن داود.

كان الكابتن داود يهمّ بالترجّل من العربة، عندما لمح سلامة يسير بخطوات مُنهكة نحو بشارة، ويعانقه، قبل أن يهتف بفرح، بدا للكابتن داود أنه تحدّ، مهنئًا بشارة.

- متى خرجت من السجن؟!

- الآن، ردّ بشارة وقد عاد يتصرّف كالبقية: لا يرى الجنود.

- الحمد لله على السلامة كرّر سلامة، الذي لم يكن يسمع محركات الجنود تهدر خلْفه.

وضع الكابتن داود بسطاره العسكري على الأرض، دون أن يرفع نظره عن بشارة، خائفا أن يختفي، لو فعل ذلك.

عشر خطوات كانت تفصله عن بشارة، قطع نصفها، وتوقف.

كان على سلامة الذي عانق بشارة، أن يلتفت خلفه وهو يرى السجين المحرَّر ينظر من فوق كتفيه بعيدًا، التفت سلامة خلفه، وراعه أن يكون الكابتن داود هناك، ليس هذا فقط، بل يضبطه متلبّسا بعناق أكثر الأشخاص الذين يكرههم.

نصف خطوة لا أكثر، تلك التي سارها سلامة، مستخدمًا كل قواه التي تبقّت له عقب المفاجأة الصاعقة. وقف بجانب بشارة محاذرًا أن يتلامس جسداهما.

- غريب! قال الكابتن داود، موجِّهًا حديثه لبشارة وكأن سلامة غير موجود، لماذا أنت خارج السجن؟!

أخذ بشارة نفَسًا عميقًا، وقال وهو ينظر صوب سلامة المتجمّد إلى يمينه:

- لقد فتحتُ البابَ وخرجتُ وحدي! لكنه أدرك أنه يبالغ في تحدّي الكابتن داود، فاستدرك، أنتم من أخرجني من السجن.

- ونحن الذين نستطيع أن نعيدك إليه ثانية متى شئنا.

كانت مجموعة من الصغار تراقب المشهد من بين أجساد الكبار الذين تجمّعوا، بينهم الصغير نمر، ومجموعة من أصدقائه، تابعوا ما يدور وهم يحاولون تنظيف أيديهم من آثار الحجارة، بملابسهم، كي لا يكونوا على قائمة الاعتقال لو حدث أن ضُبطوا وعلامات رشقهم للعربات العسكرية على أيديهم. لاحظ نمر أن آثار الحجارة لا تزول، فتراجع خطوتين، طالبا من أصدقائه أن يتبعوه. ابتعدوا. أما الكابتن داود فكان يتأمّل بشارة صامتا، ويعترف لنفسه، أنه، بغبائه، منح بشارة عشرين سنة إضافية ليعيشها على حسابه!

- غدا، أريدك في الثامنة صباحًا أمام مكتبي.

هزّ بشارة رأسه، لم يفهم سلامة معنى تلك الحركة، فاشتعل قلبه بخوف لم يعرفه من قبل.

- لن آتي إلى مكتبك دون إخطار رسمي، فقرار الإفراج عني لم يزل في جيبي.

- أهذا مطلبك الوحيد؟! تريد إخطارًا؟!

أشار الكابتن داود لأحد الجنود خلفه، تقدّم، همس في أذنه عدة كلمات، تراجع الجندي، ودون أن يكون مضطرًّا لفتح باب العربة، دسّ يده في جيبها، أخرج دفترًا، ناوله لقائده، الذي فتحه، قبل أن يضعه على غطاء المحرّك. انحنى وكتب الإخطار، وناوله، للجندي الذي أمسك به ليسلِّمه لبشارة، وقبل أن يبتعد الجندي، أمره: لحظة. وانحنى ثانية وكتب إخطارًا آخر باسم سلامة، ناوله للجندي، دون أن يخفي الكابتن داود شماتته بسلامة الذي أطار النوم من عينيه بعد لقائه الأخير به، وهمس لنفسه الجملة التي يحبها: لو لم يكن مذنبًا، يستحقّ العقاب، لما أرسله القدر إليّ لانتقم منه.

سقط قلب سلامة عندما امتدت يد الجندي نحوه، عندما قرأ قرار الاستدعاء. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول: وما ذنبي أنا؟

- هذا لأنك تعانق مُخرِّبًا، صاحب سوابق، عدوًّا للدولة.

أوشك سلامة أن يفتح فمه، ليردّ على كلام لم يسمعه جيدًا، اكتشف أنه تسرع حين فتحه أول مرة، وقال ما قاله، كأنه يتبرأ من بشارة، وسط السوق، أمام شهود لا عدد لهم.

شدّ بشارة على يد سلامة، ما إن ابتعدت العربات، وقال: ولا يهمّك، السجن للرجال!

- ماذا؟

- السجن للرجال. صرخ في أذن سلامة، الذي ردّ:

- ولماذا تصرخ هكذا في أذني؟ ومال نحو بشارة، وهو يتصفح وجوه الناس المتحلّقين، ولما تأكد من عدم وجود أي مشتبه فيه بالتعامل مع الإسرائيليين، همس:

- فاهمك، يسقط الاحتلال!

* * *

وصلت مجموعة من الصغار، يقودهم نمر، إلى بيت إسكندر راكضين. مطر خفيف يتساقط. طرقوا الباب وكأن الجيش الإسرائيلي كلّه يلاحقهم، فتح قلب مرتا الباب قبل أن تفتحه يدها، فموعد الإفراج عن بشارة كان متوقعًا في أي لحظة، رغم تمديده أكثر من مرة لأسباب لا وجود لها.

ارتبك الصغار حين وجدوا أنفسهم أمامها. يعرفون أنها تعاني من أكثر من مرض.

- عمي إسكندر في البيت؟ سأل أحد الصغار، وهو يحاول التقاط أنفاسه.

- نحكيله مين؟!

- احكيلوا نمر وأصحابه.

- يا أهلا بالنمر، لا تؤاخذني ما عرفتك.

- مش مشكله يا خالتي مرتا، ما أنا كبرت!

- الله يلعن أبو المرض إللي حرمْني من إني أشوفك وانت بتكبر!

قدّر نمر، الذي ينادونه بزيادة أل التعريف إلى اسمه، أن الخبر الذي يحمله، لا يحتمله قلب مرتا.

نادت مرتا: إسكندر، وأعادت ثانية، لا لأنه لم يسمع نداءها، بل لتسمع صوتها الذي أصبح غريبا عليها طوال فترة مرضها، ولتسمع اسمه يتردد على لسانها، بعد أن مر زمان طويل لم يصل فيه ذلك الاسم إلى شفتيها.

وصل إسكندر، فطلب منه النّمر أن ينحني ليهمس في أذنه الخبر السيئ، الخبر الذي لا بدّ لأب ينتظر ابنه السجين أن يعرفه: اعتقال بشارة ثانية قبل وصوله إلى عتبة البيت. لم يكن النمر قد فتح فمه، سمع صوتا خلفه، صوتا فرحًا:

- أرجو أن لا يكون النمر قد أعلمكم بخبر إطلاق سراحي وأفسد المفاجأة!

رفع إسكندر رأسه الذي كان بجوار فم النمر، وفتح ذراعيه على وسعهما.

لم تكن مفاجأة بشارة، الذي رأى عودة الشباب إلى وجه أبيه، أقل من مفاجأة أبيه بعودته، ومفاجأة أمه.

ومن البيت المجاور أبصرت الصغيرة رولا بشارة، ركضت إليه، قفزت في الهواء وعانقته.

انسلّ الصغار مبتعدين، بإشارة من قائدهم، تفرّقوا.

* * *

تابعت رولا النمرَ، من فوق كتفي بشارة، مبتعدًا. كان مهمومًا. انزلقت بخفة، وهي تقول:

- أظن أن عليّ الذهاب لإنجاز مهمة ضرورية.

- أي مهمة؟ سألها بشارة.

- أعترف لك بأنني أجهلها!

لحقت بالنمر، سألته:

- ماذا حلّ بك؟ وكان هذا السؤال واحدًا من الأسئلة المحببة إليها.

أخبرها بالخطأ الذي أوشك أن يرتكبه، وأضاف:

- أظن أننا تسرّعنا.

- كان يجب عليكم أن تتأكدوا من الخبر الذي تحملونه؛ لو وصَفَكم أحد الكبار بأنكم كنتم متهوّرين لصدّقته دون جدال!

سارا صامتين.

لم يكونا قد ابتعدا كثيرًا، حينما وجدا نفسيهما أمام دورية إسرائيلية.

سأل أحد الجنود النمر:

- إنتو شوا بتعملوا هون؟

- السؤال، شو إللي إنتو بتعملوه هون؟ هذه بلادنا، ردّ النمر.

- إنتو مسلمين والّا مسيحيين؟

التفت النمر إلى رولا وسألها: إحنا شو؟

- قلْ له نحن فلسطينيون.

مولِد كاتبة!

من بين كل أفراد عائلة إسكندر وأقاربه، كان إدوارد زوج زهيرة هو الأكثر حزنًا بعد تدهور حالة مرتا. كان يعذبه إحساس واحد: لقد أمضى العمر ليكون قريبا منها، وفعل الكثير كي لا يعرف أحد بأن وجوده في هذه الحياة لم يكن إلا من أجلها، وها هي حاضرة غائبة، مريضة، يمضي أيامه متشبثا بإحدى يديها، في وقت يتشبث الموت بيدها الأخرى، بعد أن أمسك الموت بيدي زهيرة ومضى بها إلى عالمه.

لكن الحياة بُعثت في إدوارد من جديد، بقدر ما بُعثت فيها، ما إن تحسّنت صحتها.

لم يكن أحد في بيت ساحور يتذكر أن إدوارد من القدس، فمعظم من ولدوا، وجدوه أمامهم أطفالا، وعرفوه شبابا، وودّع بعضهم إلى مقابرهم، لكن ما لم ينسه إدوارد أبدًا، هو ذلك السبب الذي جعله يعيش هنا.

برحيل زهيرة، كان أكثر ما يخيفه أن يتذكّر أحد، بعد موتها، أنه ليس من بيت ساحور، رغم وجود بناته وأزواجهنّ، لكن ذلك لم يحدث. كان التعاطف معه يزداد، ومحبتهم له أيضا. وكان يُسرّي عنه ذلك الحنان الشديد الذي تغمره به حفيداته وأحفاده، من بناته الثلاث، وبخاصة تلك الحفيدة الصغيرة التي تعلّق قلبه بها: رولا.

لم يكن إدوارد أعمى في ذلك الزمان البعيد، حين تقدم لطلب يد زهيرة، ولم يكن أعمى حين عاش معها تحت سقف واحد، إلى أن استيقظ ذات صباح ووجدها نائمة، على غير عادتها، هزّها مرّة، اثنتين، ثلاثا، قبل أن يدرك أنها ماتت أثناء نومها.

ما كان يحير إدوارد هو ذلك السؤال الذي ظلّ يسأله لنفسه: إذا كانت ماتت وهي نائمة، هل تعرف أنها ماتت، أم أنها تواصل حياتها كما كانت دائما؟ هل ما زالت تحلم؟ هل اكتشفت أن شيئا غريبا حدث لها، وأن كل ما تحتاجه هو أن يوقظوها، لأنها غير قادرة على أن تفعل ذلك بنفسها؟

حاول إدوارد كثيرا أن يوقظها، لكنها لم تنتبه!

* * *

كان إدوارد يعرف أن زهيرة لم تصدّق أنه تزوّجها؛ فمن ذلك المجنون الذي يمكن أن يتزوج زهيرة؟! لم تصدّق، حتى بعد أن أنجبت بناتها الثلاث، ولأنهن كنَّ أجمل مما تتخيل، انتابها حسّ بأنهن بنات امرأة أخرى تزوّجها إدوارد، وكلما أنجب من تلك المرأة، التي لا بدّ أنها جميلة جدا، بنتا، حملها خلسة، ووضعها بجانب زهيرة ليلا، وفي الصباح هنأها على إنجابها مولودة جديدة!

إدوارد الذي كان جسده ينام بجوارها، وقلبه ينام في البيت المجاور، كان يتمنّى أن تستيقظ زهيرة ذات يوم، وتجده بجانبها، وتصدّق أنه زوجها، لأنها بعد خمسين عاما، تقريبا، من الزواج، لم تكن امرأة عابرة، لكن زهيرة نامت، ولم تصحُ لتصدِّق أنها زوجته.

يستطيع إدوارد أن يكثّف حياته في ثلاثة أمور عاشها راضيًا: قربه من مرتا وإحساسه بأنه لم يوجد في هذا العالم إلا لرعايتها، وإنجابه لبناته الثلاث، وقدرته على أن يقنع القريب والبعيد، أنه سعيد بزواجه؛ فباستثناء الفترة الأولى من الزواج التي كان يتشاجر فيها إدوارد مع كل شيء، حتى الموسيقى، تغيّر. هو نفسه لا يصدّق نفسه، أنه تغير، لكنه يعرف: حينما تتغير الحياة كلها حولك، لا يمكن إلا أن تغيّرك معها.

بعد أن كبرت بناته، أصبحن مصدر فخر له، هنّ اللواتي تحوّلن إلى معجزة جمالية طافت بفتنتها بيت لحم وقراها، ووصلت إلى القدس. وأصبح القول الذي يتردد في المدينة، القول الذي تحوّل إلى مَثَل: بنات شهر العسل ما بكونن إلّا عسل!

الغريب، الذي لم يخطط له إدوارد، أن بناته الثلاث رفضن الزواج من كل شاب تقدّم إليهن من خارج بيت ساحور.

لم يكن يتدّخل، لم يسألهن لماذا؟ كان يخشى أن تقول له أي منهن أنها لا تريد الابتعاد عنه.

لم يسأل، ولم يجبرهن على الزواج مع تدفق العرسان إلى بيته قبل أن تتم الواحدة منهن السادسة عشرة من عمرها. إدوارد كان يعرف أن أفضل هدية يمكن أن يقدمها لبناته، أن يترك قلوبهن تنام في البيت الذي يعشن تحت سقفه، لا كما حدث له.

* * *

في اليوم الذي لم تستيقظ فيه زهيرة، كانت رولا أول شخص يعبر عتبة البيت، وطوال أربعين يوما، رفضت الصغيرة أن تترك جدّها وحده، كانت تنام في بيته، تستيقظ، توقظه، تصرّ على أن تلبسه حفايته بنفسها، وتناوله المنشفة بعد أن يغسل يديه ووجهه، تمسكه من يده وتجلسه على الكرسي، وتمشّط له شعره، وتراقب أظافر يديه ورجليه، فتقلمها في الوقت المناسب، تطعمه، تتأكد من أن شيئا لا ينقصه، تُقبِّله، وتذهب إلى مدرستها.

كانت رولا، التي ولدت في الثامن من آب، أغسطس، قبل أحد عشر عاما، ابنة ابنته الصغرى، وهو يميل إلى القول إنها أجمل جميلات العائلة. ومع أن بناته كنّ الأجمل في بيت ساحور، حسب رأيه على الأقل! إلا أنه كان على يقين من أن الحفيدة ستكون أجمل من أمها وخالتيها! هل كان صيف ذلك العام الأشبه بربيع، الصيف الذي وِلدت فيه، ما رسخ فيه ذلك؟ أم يوم ميلادها الذي لا يتذكر يوما بجماله وصفائه ورقة هوائه ورحمة شمسه، من بين كل أيام شهر آب، أغسطس، التي عاشها؟

كان إدوارد يعرف أن ابنته الحامل كانت تتمنّى أن تنجب ولدًا، لكنه كان يحلم ببنت، وهو يشكر الرّب لأنه لم يجعل أفكار الناس مسموعة ككلامهم! كان يؤرقه على الدوام أنه لم يعش طفولة صغيراته، وهو يتنقّل بين القدس وبيت ساحور، ومن حرب إلى حرب، وإن النسمة القادمة ستكون أجمل هدية من السماء، له، منذ ذلك اليوم الذي حَرم فيه نفسه من مرتا، بعناده.

* * *

بعد زواجه من زهيرة، ولمدة ثلاثين سنة على الأقل، كان إدوارد لا يجرؤ على الذهاب إلى البيت المجاور، بيت إسكندر، إلا إذا رافقته زهيرة، لكن ذلك تغيّر تدريجيا، كما تغيّر هو، وخفتت تلك الشعلة المتقدة التي أحرقتْه بلهيبها طويلا، وتحوّلتْ إلى إحساس عميق بالسلام والسعادة كلما وجد نفسه في المكان الذي توجد فيه مرتا.

تغيرت أحاسيسه، كما تتغير الشمس، تشرق، تسطع، تغيب، ولكنها في حالاتها كلها تظلّ شمسا، أو مثل اليوم الذي قسّمه العرب قديما، قبل أن يعرفوا الساعة، إلى أربعة وعشرين قسما، وظلّ يسمى النهار نهارًا رغم تعدد أسماء أقسامه: الشروق، البكور، الغدوة، الضّحى، الهاجرة، الظهيرة، الرَّواح، العصر، القصْر، الأصيل، العَشيّ، الغروب؛ والليل الذي قسّموا ساعاته: الشّفق، الغسق، العتمة، السُّدفة، الفحمة، الزلة، الزُّلفة، البُهرة، السَّحر، الفجر، الصبح، الصباح.

يتذكّر إدوارد حكمة اسكندر، وكيف كان يردّدها، دون أن يجرؤ هو على الاعتراض: في السنوات العشر الأولى من حياته، يحب الإنسان بنتا، وفي العشرين يحب بنتا، وفي الثلاثين يحب بنتا حتى يبلغ الستين، وحين يصلها، فإنه إذا ما أحب واحدة سيحبها طوال حياته...

لكن حكاية مرتا كانت مختلفة، ظلّ اسم مرتا ومرتا لصيقين، ظلّت تلك الفتاة التي اشترطت ذات يوم وجود بيانو في جهاز عرسها، ورفض لأن عناده كان أكبر من حبّه، فعاش حبّه في كل يوم من ذلك العمر، ليثبت أنه أقوى من عناده.

* * *

ما لم يلحظه أحد، أن كل تدهور في صحة مرتا، كان يشهد تدهورًا في صحة إدوارد، في البيت المجاور، حتى أنهما اقتسما الدواء الذي يوصف لأي منهما، في حالات كثيرة، وعندما بدأت أمراض الشيخوخة تتسلل إلى جسديهما، أصابتْهما بالترتيب نفسه: الكولسترول، الضغط، مشاكل الركبتين، ضعف البصر، وصولا إلى السكري، الذي كان لحسن حظهما من ذلك النوع الذي يمكن السيطرة عليه.

ولذا، كانت مرتا تستقبل رولا الصغيرة عدة أيام في الشهر، في مهمات طبية، لأن إدوارد بحاجة إلى حبة دواء، أو حبتين، أما عندما كانت مرتا تحتاج، فكانت تقف في شرفتها وتنادي: رولا، وقبل أن تستدير لتدخل، تجد رولا أمامها، حاملة حبات من الدواء الذي طلبته.

مرتا حاولت أن تعلّم الصغيرة العزف، الغناء، لكن الصغيرة كانت تقول لها: لا أظن أن لديّ أملًا في أن أكونَ مُغنيةً أو عازفةً، موهبتي لا تساعدني!

ـ ولماذا لا تساعدك؟! تسألها مرتا.

- لأنني خُلقتُ لكي أكونَ كاتبةً!

مرتا لم تكن تشكّ أبدًا في أن تلك الصغيرة ستصبح كاتبة، لأنها كانت كلما استعارت كتابا من المدرسة أو من بيت أحد، تُنهيه قبل أن تصل إلى البيت. هكذا، أصبحوا كلما افتقدوها، قالوا: ليذهب أحدكم ليحضر رولا، لا بدّ أنها نسيت نفسها وهي تقرأ كتابا جديدًا استعارتْه.

ذات مرة غابت الشمس، افتقدوها، ذهبوا للبحث عنها، وجدوها جالسة على درج مبنى البلدية في العتمة.

- ماذا تفعلين هنا حتى هذا الوقت؟

- أقرأ.

- تقرئين؟! في العتمة؟!

نظرت حولها، وقالت لأختها:

- فعلا، إنها العتمةُ! ولكنني لم أنتبه!

كانت تفضّل الحديث بالعربية الفصحى، إلا إذا اضطرّت أن تفعل غير ذلك، وعندما كانت تقود مظاهرة، كانت تحرص على أن تكون الهتافات بالفصحى.

يهتف أحد الأولاد، أو البنات.

يا محتل ارحل من عنّا

هذي بلدنا وهيّ إلنا

تهتف معهم، لكنها حين تعود إلى البيت تُمضي الليل ساهرة في كتابة الهتاف بالفصحى:

أيها المحتل ارحلْ من هنا

هذه كانت وتبقى أرضنا

تعرض على مرتا كل هتاف تجهّزه لمظاهرة الغد، فتقول لها مرتا:

- صدقيني أنت موسيقية أكثر مني.

- هل يمكن أن توضّحي قليلًا لأتمكَّنَ من أن أفهم ما تقولينه؟

- هذه الشعارات كلّها موسيقى، لم أرك تخطئين في الأوزان الشعرية أبدًا، والأوزان موسيقى، موسيقى صافية مثل المقامات، هل فهمتِ؟

- طبعًا فهمتُ الآن، بعد أن أوضحتِ لي، لكنني كما قلتُ لكِ، لقد خُلقتُ لأكونَ كاتبةً.

عودة السَّمْع!

لم يعد سلامة إلى البيت مباشرة، وقد أصبح إخطار مراجعة الحاكم العسكري في يده، مثله مثل السجين الخارج للتوّ من السجن، بشارة!

في البداية، حين رأى بشارة يطوي إخطاره الذي تسلّمه، ويضعه في جيب سترته الداخليّ، تحرّكت يدا سلامة لتفعلا الشيء ذاته، لكن شيئًا ما أوقفه، شيئًا غريزيًّا ربما، غامضًا، لا تفسير له. خطا مبتعدًا، والعيون تتابعه، شدّ قامته، رفع رأسه إلى السماء الغائمة، لمعت في رأسه الفكرة، فأدرك سبب عدم طيّه للإخطار.

إلى أقرب محلٍّ لتأطير الصّور مضى. الإخطار في يده على وشك الاحتراق تحت شمسين، شمس انفعاله بسبب استدعائه، وشمس وثيقة الشرف التي في يده؛ شمس نَيْله أول اعتراف بوطنيته منذ النكبة، لا من أصدقائه ومعارفه، بل من أعدائه أنفسهم.

تأمل صاحب المحلّ الإخطار، وسأل:

ـ هل أنت متأكد من أنك تريد تأطيره؟ وكان يبتسم، وأضاف: لو فعل هذا كل من يتسلّم إخطارًا في بيت ساحور لأصبحت أغنى أغنياء البلد!

اكتفى سلامة بمنحه نصف ابتسامة، لم تكن كافية. ثمة ثمن يجب أن يُدفع، وإن بدا أن سلامة لم يكن يهمّه حجم المبلغ. لكن صاحب المحلّ الخبير بسلامة وسواه، كان يؤمن تمامًا بتلك القاعدة الفلسطينية الشعبية: إللي أوَّله شرطْ آخره رِضا.

ـ ثلاثة دنانير، ثمن الإطار، ثلاثة دنانير.

- أجل، هذا جزء من ضريبة التحرير.

- لا اعتراض لديك إذًا؟

- ماذا؟ لقد أخطأ سلامة ونسي أن (ماذا) لا يقولها إلّا لزوجته، فتدارك: كما قلت لك، لن أعيد ما قلته قبل لحظات.

- تستطيع أن تذهب وتقضي حوائجك ثم تعود بعد ساعة؛ سيكون جاهزًا.

سحب سلامة كرسيًّا كان بجانب الباب، وجلس، ففهم صاحب المحلّ أن سلامة لم يعجبه الكلام، وأنه يريد منه أن يُتمَّ العمل بسرعة. على مضض بدأ يعمل، أما سلامة فقد وجدها فرصة لمراقبة حركة الناس، الناس الذين بدوا له مختلفين، أقلّ توترًا وأكثر طيبة، كما لم يرهم من قبل؛ وهذه ملاحظة، سمعها من كثيرين، من إسكندر نفسه، ورآها فيه، رغم أن ولده كان في السجن. قال له إسكندر:

- رغم كل هذا الموت الذي نراه، إلا أن ما بتّ متأكّدًا منه يا سلامة أننا كفلسطينيين، أصبحنا أفضل، منذ أن حمل أولادنا الحجارة، وعلّمونا كيف نرشق الجنود.

- ماذا؟

- كأن كاترين اليوم طابخة ملوخية؟

- ماذا؟

- كأن كاترين اليوم طابخة ملوخية؟ سأله بصوت مرتفع.

- صحيح، كيف عرفت؟!

- من الملوخية العالقة بأذنيك!

مسح سلامة أذنيه بسرعة، فظهرت على أصابعه آثار الطبخة فعلا!

- ولكن ليس هذا الذي كنت تريد أن تقوله؟ أليس كذلك؟

- صحيح، قلت لك: رغم كل هذا الموت الذي نراه، إلا أن ما بتّ متأكدًا منه يا سلامة أننا كفلسطينيين، أصبحنا أفضل، منذ أن حمل أولادنا الحجارة، وعلّمونا كيف نرشق الجنود.

سلامة سمع، بتأثر، الكثير مما قاله إسكندر في ذلك اليوم، كعادة كل من يعانون من ضعف السمع ولا يسمعون إلا ما يريدون. فعلّق وهو يهز رأسه:

- كنت أتمنى أن يكون لي ولد يعلّمني رشق الحجارة، ولو في عمري هذا. ما جعل الدّمع ينفلت من عينيه. ربّتَ إسكندر على ظهره برفق، في وقت ابتعدت عيناه، لئلا يُحرجَه أكثر.

- في هذه الانتفاضة، كلنا أبناء أولادنا يا سلامة، ليس أولادنا الذين أنجبناهم فقط، بل كلّ الأبناء الذين أنجبهم سوانا، وهذا يشمل المتزوجين وغير المتزوجين، ممن أعمارهم تبدأ من العشرين حتى عمري، وحاول أن يضحك.

لم يسمع سلامة هذه المرّة ما قاله إسكندر، لم يرَ سوى طيف ابتسامة حزينة، فقد رحل بعيدًا مستعرضًا كل محاولاته وزوجته لإنجاب طفل، وحين أكدت له الفحوصات، عندما تجرّأ وذهب للطبيب بعد أكثر من عشرين سنة، أن ليس هنالك من سبب يمنعه من أن يُنجب، لأن وضعه (تمام التّمام) حسب تعبير الطبيب، توقّع أن يضيف: ولكن المشكلة لدى زوجتك؛ إلا أن الطبيب فاجأه وقال: والغريب أن زوجتك لا تعاني من أي مشكلة تمنعها من الإنجاب!

لم يفهم سلامة تلك الأحجية، لكنه كان مضطرًّا للتعايش معها.

الأحاديث التي انتشرت بعد ذلك، والهمسات التي تفوقها عددًا وجرأة، وصلت إلى كاترين كما وصلته، وكان أوضحها: لم لا تحلّان الأمر بالطلاق، فهناك حالات كثيرة أنجبت المرأة حين تزوّجت من آخر، وأنجب الرجل حين تزوج من أخرى.

بدت كاترين، في داخلها سعيدة بأفضل حلّ يمكن أن يُسهِّل مسألة طلاقها من سلامة؛ الأمنية التي طالما تمنّتها منذ عام النكبة، مرورًا بعام النكسة، إلا أن شيئا ما انقبض في صدرها، ولم يكن غير قلبها، إذ لم تتخيّل نفسها بين أحضان رجل آخر سواه. حاولت التفكير في سبب لذلك. تساءلت، إن كانت تحبه فعلا، دون أن تعلم؟ أم بسبب غضبها عليه لأنها كانت تتمنّى دائما أن يكون أفضل؟ أم

أنها العادة؟ وهي تعرف أنها ألدّ أعداء البشر، العادة التي تتحكّم فيهم وتقودهم عكس تيار رغباتهم وإرادتهم فينصاعون لها كما لو أنها العقل الوحيد فيهم، وهم مجرد أناس طائشين؟!

أما سلامة، فبدأ يدرك، أنها احتملتْه أكثر مما يجب، احتملتْ بخله، ورعونته، واستعداده الدائم للتذلّل لمن هم أقوى منه. تذكّرت كيف غضبت عليه، وكانت ستسحقه حين أحسّت بتجسسه على رحم ماري، ولكنها حين رأته يحمل إلى بيت بشارة كل تلك الهدايا عقب مولد زيدان، فهمت أنه كان يقدّم أغلى القرابين وأكثرها قربًا من قلبه: ماله. وعند ذلك، وكما قالت له بعد خروجهم من بيت بشارة: الآن أستطيع أن أقول إنني صدقتُك!

منذ ذلك اليوم، لم يجرحها سلامة بأيّ تذلل؛ ولذا، لم تفكر بطلب الطلاق مع انطلاق الانتفاضة، الانتفاضة التي رأتها أول نصر فعليّ يتحقق، ولو كان والدها على قيد الحياة، وقالت له: الآن أريد الطلاق من سلامة! لما قال لها: ألا تكفي النكبة، ثم النكسة وضياع فلسطين؟! هل تريدين أن تطلّقيه لتحلَّ ببيتنا نكبة أخرى؟!

كانت كاترين مثل كل الناس في الشوارع تشعر بأنها حرّة، ومنتصرة، رغم أن آثار النكبة باقية، والاحتلال لم يزل فوق صدور الناس باقيا، والانتفاضة لم تحرّر فلسطين بعد.

* * *

عندما تأكد لسلامة استحالة فرصة إنجاب طفل من صُلبه، بدأ ينظر إلى زيدان باعتباره ذلك الابن، الابن الذي قاوم قبل أن يولد كل محاولات قتْله، وقاوم بعد أن ولِد كل محاولات قتْله أيضًا، مرات ومرات.

* * *

كل تلك الذكريات بحلْوها ومرِّها، الذّكريات التي حملتْه بعيدًا، أعادته ثانية إلى حيث يجلس، على ذلك الكرسيّ الخشبيّ، في ذلك المحلّ، دون أن يغادر مكانه. وفكَّر، مستندًا إلى اهتماماته العلمية، بأن الذكريات هي أفضل وأسرع مركبة امتلكها الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض، وأنها ستظل أسرع من أي طائرة، بسرعة الصوت، أو تفوق سرعته، بل وأسرع من كل صاروخ يحمل البشر إلى الفضاء، حتى لو قُدِّر لسلالتهم أن تستقرّ في نهاية الأمر في الفضاء.

* * *

عندما وضع صاحب المحلّ ذلك الإطار الناجز أمام عيني سلامة مباشرة، تذكّر سبب وجوده في المكان.

مدّ سلامة يده إلى جيبه، أخرج خمسة دنانير، ناولها، راضيا، له. فاجأه الرجل بإعادة دينارين.

حمل الإطار، وخرج.

لسبب ما، كان فرحه بالإطار قد تضاءل، رغم حرصه على أن يكون وجه الإطار متاحًا للمشاهدة من قِبل كلّ عابر للطريق، ولكلّ مَن سيوقفه، لا بدّ، في هذه المدينة الصغيرة الأشبه بأسرة كبيرة، ليسأله عن أحواله، وهو يسترق النّظر ليرى ما خلف الزجاج.

* * *

قبل أن يصل إلى البيت كان عشرات الناس قد رأوا الإخطار المؤطّر، لكن ازدياد عدد من رأوه لم يترك سوى المزيد من الغصّة في قلب سلامة؛ شيء عميق فيه كان غير راضٍ، فاستعاد ما قاله إسكندر ذات يوم وهو ينظر إلى حفيده زيدان، على سرير الموت، لا الشفاء، السرير الذي كان السبب في ما حدث لمرتا بعد ذلك، قال إسكندر:

- كل الناس يتمنّون أن يكونوا من فئة الأبطال، ولكن كثيرين منهم يخافون من أن يكونوا. بعضهم يملكون الجرأة على هزيمة خوفهم، بعضهم تجبرهم الظروف عكس ذلك، بعضهم يخافون، فيختارون الحياد، وبعضهم يخافون قليلا فيختارون الهرب، وبعضهم يخافون كثيرا فيختارون الرّضوخ، وبعضهم يخافون أكثر فيختارون الخيانة.

كانت كلمات إسكندر بمثابة ألف مطرقة سقطت على جمجمة سلامة، وكانت أفضل الأسئلة تلك التي سألها لنفسه بعد تفكير طويل:

- لماذا أخاف أكثر؟ لماذا خفتُ أكثر؟ ما الذي جعلني أخاف أكثر؟!

* * *

أمسكت كاترين بالإطار، قرأت ذلك الإخطار الذي بات في عُرْف زوجها، مذ تمّ تأطيره، من فئة رُخص العمل، وشهادات التقدير والشهادات الجامعية، والآيات المباركة، وصور العائلة،

الأحياء منهم والأموات، واللوحات الفنية، ومرايا الصالونات والحمامات. وقبل أن تقول أيّ كلمة، نظرت نحو زوجها، التقت أعينهما، وقبل أن يرى الإطار يهوي، كان قد سمع صوت تهشّمه على الأرض بوضوح أدهشه.

انحنت كاترين، أمسكت بطرف الإخطار، أزاحت قطع الزجاج عنه، نفضته، ومدّت يدها نحو سلامة تناوله إياه.

- أنت بحاجه إليه غدًا، أم ستحمله إلى مقر الحاكم العسكري وهو في الإطار؟

استغرب سلامة أنه نسي أمرًا كهذا!

بصمت أمسك الإخطار، طواه كما فعل بشارة تمامًا، وزجّه في جيب سُترته الداخلي.

- لست بحاجة لشهادة تثبتُ وطنيّتك، فالشيء الوحيد الذي أعرفه أنك لم تؤذِ أحدًا في حياتك، وأنك افتخرتَ دائما أمام الناس، بعكس ذلك الذي فكّرتَ فيه ومنعك ضميرك من أن تنفّذه، ولولا هذا لكنتُ تركتكَ من زمن طويل.

كان سلامة يستمع إليها ويهزّ رأسه، متأثرًا. لقد سمع كل كلمة قالتها، كما لو أن الصوت العالي لتكسُّر زجاج الإطار فتّح قناتَي السّمع المقفلتين في رأسه.

الجنة والصحراء

راحت الحياة تخضرّ في روح مرتا وجسدها أكثر فأكثر، منذ أن بدأت تتابع أخبار الانتفاضة في غزة والضفة. قوة ما تسللت إلى قلبها، ما لبثت أن توزّعت في جسدها. اندفع دم ورديّ إلى خدّيها ماحيًا شحوب بشرتها المصفرّة. لاحظ إسكندر ذلك، لاحظ إدوارد، وبشارة قبل اعتقاله، لكنها تعاملت مع الأمر كما لو أنها لا تصدّق نفسها، لا تصدّق وجهها. في أحيان كثيرة كانت تعتقد أنها تحلم.

عندما تمّ اعتقال بشارة، استجمعت روحها أكثر، في وقت توقّع فيه إسكندر نهايتها. جمّعت قوّتها، همست لنفسها: إذا تخليتِ عنه يا مرتا الآن، فمن سيقف إلى جانبه؟

كعادة كلّ الأمهات، نسيتْ مرتا كلَّ من يقفون مع ابنها في محنته، لم ترَ غير نفسها.

قبل أسبوع، ومع اقتراب موعدٍ آخرَ لإطلاق سراحه، نظرت إلى يديها، انتابها حسّ أنهما غصنان متيبّسان. على وشك البكاء كانت، لكن ماري لم ترَ في وجه مرتا ما تراه مرتا في يديها، نهضتْ ماري، بحثت عن مرآة، دخلت الحمام، خرجت ممسكة بمرآة كبيرة في إطار خشبيّ مذهّب، تتخلّله عروق فضية ناعمة، تضيق وتتسع. حدّقت مرتا في المرآة، خيّل إليها أنها تنظر إلى صورة لها معلقة على الحائط.

كان الدم هناك، يجري في وجهها فعلا. لم تكن مرتا تتخيّل!

* * *

في منتصف ذلك النهار، تحت شمس تظهر حينا وتختفي حينا، كان إسكندر عائدا من البستان إلى البيت، نعاسٌ شديد يؤرجحه، كمن لم ينم منذ عام. لم يكن من الصعب عليه، عندما

اقترب من بيته، أن يعرف أن بيانو مرتا قد أنهى زمن صمته. أما الشيء الذي لم يخطر بباله، فهو أن تكون مرتا هي العازفة.

أمام البيت وقف طويلا يستمع إلى العزف. بهدوء فتح الباب الخارجي، محاذرًا أن يَصدر عنه أيّ صرير. وصل منتصف الحوش، عَبَر الباب الداخلي، أبصر مرتا جالسة خلف البيانو، تعزف. أحسّت بوجود شخص ما يراقبها، اتّسعت ابتسامتها؛ ليس ثمة في العالم نظرات غير نظرات إسكندر يمكن أن تخترق جسدها بكل تلك النعومة.

واصلت العزف دون أن تلتفت إليه، إلى أن انتهت. وفي البيت المجاور كانت حياة أخرى تنبعث في جسد إدوارد، أنصتَ، كأنه يسمع الموسيقى لأول مرّة في حياته.

استدارت مرتا بكامل جسدها، رأت إسكندر يتأمّلها كمن يقع في الحب للمرة الأولى. راح يصفّق.

ما ظلّ يحيّر إسكندر، هو الذي بات على مشارف التسعين، كيف أن لحظة جميلة ما، قادرة على محو سنوات من الشقاء والحزن، وغسل القلب والروح، كما لو أن الأحزان لم تمزقهما وتوقدهما حطبًا في الليالي الطويلة القاسية.

* * *

من أعالي الظهيرة، حتى غروب الشمس، لم يستطع إسكندر أن يبعد عينيه عن زوجته. غابت الشمس، نام، نام كما لم ينم، إلا في تلك الأيام التي أعقبت عودته إلى بيت ساحور سيرًا على الأقدام، قاطعًا خاصرة آسيا على قدميه، وبين يديه شتلة درّاق.

استيقظ صباح اليوم التالي، بدا إسكندر لكل من رآه من أهل البيت أنه في نصف عمره الحقيقي. قالوا له ذلك، لم يصدّق. ذهب إلى الحمام. رفع رأسه ببطء ونظر إلى المرآة، لم ير سوى ملامحه التي رآها في مساء الحادي والعشرين من شهر آذار من عام 1968، المساء الذي انتشرت فيه أخبار انتصار الفدائيين ووحدات الجيش الأردني التي تمرّدت بقيادة الفريق الركن مشهور حديثة، على الإسرائيليين، في معركة الكرامة.

لم يعد لديه مانع أن يصدّقهم.

خرج من الحمام، غير ما دخل، كانوا كلّهم أمامه، ماري وزيدان، وعينا مرتا المغسولتان بضوء عذب قادم من أبعد الكواكب.

بفرح مكتوم تناول فطوره. كانت مرتا تجلس لأول مرة، بعد عام ونصف العام أمضتها في السرير.

خرج، وجد إدوارد أمامه، تأمّل الواحد منهما الآخر، وكل منهما يحاول أن يتذكّر أين رأى وجه صاحبه! أين رأى هذا الوجه النّضر؟

لم يكن وجه إدوارد أقلّ تفتّحًا من وجه إسكندر.

- ما الذي يحدث، كأنه يوم عودة عجائز بيت ساحور إلى شبابهم!

- ما الذي فعلته لتعود شابًّا هكذا؟

- بل ما الذي فعلته أنت لتعود شابًّا؟

افترقا، وكل منهما يستدير بين حين وآخر لينظر خلفه، ليتأكد من أنه رأى ما رآه.

* * *

في كل طريق سلكه إسكندر، أربك كل معارفه الذين ألقى عليهم التحيّة. كانوا يتوقّفون، لينظروا خلفهم، ليتأكّدوا من أن ما رأوه، رأوه حقًّا، كما فعل هو نفسه مع إدوارد، وفعل إدوارد معه، لكن ما حيّره أن من بين كل العجائز الذين رآهم، لم يكن هناك بينهم عجوز آخر ثالث عاد إلى صباه!

* * *

في بيت ساحور لم يكن هنالك بيت يخلو من الحديث عن عودة إسكندر وإدوارد إلى شبابيْهما، ولولا أنهم جميعًا يعيشون زمن الانتفاضة، ويعرفون أن قوات الاحتلال لا تسمح لأحد بمغادرة الضفّة الغربية، لقالوا إنهما سافرا إلى عمّان، وأجريا عمليتَي تجميل أعادتهما إلى الصِّبا.

في الأيام التالية، كانوا ينظرون إليهما، ويرون كيف اختفت التجاعيد العميقة التي كانوا يحفظونها، كيف تمّ محوها. لم يبق منها سوى خطوط صغيرة. وهذا ما جعل الخوري أحمد لابورتا

يفرك عينيه ويشرعهما ويفتحمها خمس مرات ليتأكد مما يراه عندما رأى إسكندر:

- لا ينقصك في هذا اليوم سوى أن نجعل عرس الانتفاضة عرسين.

رد إسكندر:

- كيف؟

- بأن نقيم لك حفل زواج جديدًا أنت ومرتا. أجاب لابورتا.

ذلك الانطباع، جعل وجه إسكندر يتورّد أكثر، فهو يحبّ الأب لابورتا، الذي أحب فلسطين كما أحب إيطاليا، وكان أكثر ما يعجبه فيه جرأته؛ كان إسكندر يقول له:

- أظنك لو وجِدتَ في زمن جيفارا، لالتحقت به مقاتلا في الغابات.

وكان لابورتا يردّ:

- ومن قال لك إنني لم ألتحق به هنا، رغم أنهم يقتلون الغابات في هذه البلاد كما يقتلون البشر.

- أتعرف يا أب أحمد، كل ما تقوله صحيح. لقد بنى هذا العدوّ أسطورة احتلاله لفلسطين بأنها كانت صحراء، وسيحوّلها إلى جنة! ولكن فلسطين كانت دائما جنّة، وكل ما يفعله الاحتلال هو تحويلها إلى صحراء. لم أرَ أحدًا في هذا العالم يعادي الأشجار، مثل هؤلاء الإسرائيليين وجيشهم.

أرض الخوف الموحِلة

أمسك الكابتن داود بالكتاب الذي يقرأه بشارة، قلّبه قليلا، ثم مزّقه وألقاه عبر بوابة الغرفة في الممرّ.

تابعت الكتابَ عيونُ أولئك الذين تمّ استدعاؤهم بإخطارات، لأسباب مختلفة، تلتقي كلّها في هدف واحد وضعه الكابتن داود أمام عينيه: إذلالهم.

كانوا جميعهم خاضعين للاعتقال النّهاري، من الثامنة صباحًا حتى الثامنة مساء، محرومين من الماء والطعام والذهاب إلى الحمّام.

قال سلامة، دون أن ينتظر سماع ما سيقوله الكابتن داود:

ـ هل يمكن أن تقول لنا ما الذي فعلناه لتتمّ معاقبتنا بهذه الطريقة؟

ـ أنت بالذات ستبقى اليوم حتى العاشرة لأنك جئت متأخرًا، قال الكابتن داود وخرج.

نظر سلامة نحو بشارة بعينين دهشتين، متسائلتين.

ـ قال إنك لن تغادر إلا بعدنا بساعتين.

ـ ماذا؟

كان سلامة منفعلا بحيث نسيَ وقال مرة أخرى: لماذا؟

أشار له بشارة، كما لو أنه يتحدّث لغة الصمّ، ناشرًا ثمانية أصابع أمام عينيّ سلامة وهو يشير إلى الساعة، وإلى نفسه والبقية، ثم عشرة أصابع وهو يشير إليه وإلى الساعة.

حاول سلامة أن يفتح فمه، إلا أن بشارة راح يربّت على ظهره شادًّا من عزيمته.

* * *

في الصباح، توقّع سلامة أن يكون أول الواصلين، لكنه فوجئ بأن كثيرا من أهالي بيت لحم وبيت ساحور يسبقونه، فبعد ربع ساعة من وصولهم، كان يناول أحد الجنود أمام البوابة إخطار اعتقاله المؤقت.

فتّشه الجنود جيدًا، دفعه أحدهم، كاد يسقط أرضًا، لولا أنه تمكن من الإمساك بحاجز البوابة في اللحظة الأخيرة.

ـ أهلا بسيد المتمرّدين، قال بشارة، لم يسمعه سلامة، اكتفى بتصفّح وجوه الموجودين، باحثًا عن ملامح يعرفها. لم يجد سوى بشارة. بحث له عن مكان بينهم، وقبل أن يهتدي لذلك، كان بشارة يمهّد المكان له، جارًّا جسده على الكرسي يمينًا، فتبعه من هم إلى يمينه.

وجد سلامة نفسه مستريحًا فوق مساحة تتّسع لاثنين.

* * *

كان الحديث الذي دار ليلة أمس، بين بشارة وأبيه وأمه، عن الإخطار الذي تسلّمه سلامة بسبب ذلك العناق، مناسبة لكي يذكِّر فيها إسكندر ابنه بما يعانيه سلامة من ضعف سمع. طلب منه أن يرعاه، فهو في النهاية رجل عجوز، وربما يتسبب له ضعف سمعه بمشاكل لا يمكن توقّعها في أي مكان خارج بيته.

* * *

أحد الرجال الجالسين أمام الباب تحرّك وتناول الكتاب الممزّق وأعاده إلى بشارة، عندما تبين له أن لا أحد من الجنود الذين مرّوا أمام الباب يكترث بتلك الأوراق الممزقة.

ـ لقد قلت لي شيئا، ولكنني لم أسمعه جيدًا، قال سلامة.

أخرج بشارة قلم حبر جاف وكتب على الورقة البيضاء الأخيرة من الكتاب: (قلت لك: أهلا بسيد المتمرِّدين)، ووضع الورقة التي كانت على وشك الانفصال عن الغلاف الأخير أمام عينَي سلامة.

هزّ سلامة رأسه برضا واضح، وفخر، وهو يتصفّح وجوه من في الغرفة وكأنهم جميعًا قرأوا ما كان مكتوبًا فيها. اقتطع الورقة، تأمّلها قليلا، برضا أكبر، طواها بعناية ووضعها في جيبه.

- هذه شهادة بطل مُحرَّر وزميلِ سجن أعتزُّ بها.

ابتسم بشارة الذي لم يتوقع أن جملة بسيطة ستكون مصدر سعادة لذلك العجوز المُتعب.

بصمت مرّ اليوم الأول، فكل مَن في تلك الغرفة تعامل معه، باعتباره يوما ثقيلا يجب أن يمرّ بأي طريقة، ولم يكن هنالك، بالنسبة إليهم، أفضل من الصمت لقتل الوقت، هم الذين توقعوا أن أي حديث أو جملة تقال ستكون سببا في مُضاعفة عقاب لا يعرفون نهايته، أو تحويل الاعتقال المؤقت إلى اعتقال دائم.

قبل الثامنة مساء، كانت الرّغبة في الوصول إلى أول حمام لقضاء الحاجة، تفوق أيّ رغبة أخرى. وقف جندي أمام الباب، قال وهو ينظر إلى ساعته:

- ستعودون إلى بيوتكم بعد عشر دقائق؛ وغدًا في الثامنة، ستكونون هنا، وكلّ من يتأخّر، كما فعل هذا، وأشار إلى سلامة، سنمدّد اعتقاله ساعتين، وإذا تكرر الأمر سنمدّده أربع ساعات، وهكذا..

مال بشارة نحو سلامة ليهمس له بكلمات مشجِّعة، لكنه تذكّر أنه لن يستطيع سماعها، فقبّل رأسه، وشدَّ على كتفيه.

* * *

مع بلوغ الساعة تمام العاشرة، أدرك سلامة أنه يعيش أقسى ساعات حياته. وحيدًا كان، كأن لم تلده أمّ! نهض، سار في الاتجاه الذي أشارت سبابة اليد اليمنى لذلك الجندي إليه، دون أن يحتجّ أو يتشبّث بمقعده، أو يطلب العفو، وهو يرى غابة الغموض تنتظره في الخارج متربّصة.

وقف، نشر أمام عينيه خارطة العودة إلى البيت، الخارطة التي في رأسه، متتبّعًا مسارات المنطقة الممتدة من البصّة حتى بيت ساحور. ولأول مرّة أحس أنه ضعيف حقًّا، فقدماه لن تساعداه على الهرب إن وجد نفسه في موقف يحتاج فيه لأن يهرب، وسمْعه لن يساعده على التقاط أيّ أمر عسكري يدعوه للتوقّف، وفي ذلك هلاكه.

مترنحًا سار، مخوِّضًا في أرض الخوف الموحلة، لم يكن ينقصه إلا أن يتساقط المطر، لم يكن غزيرًا، لكنه جعل الليل أكثر حلكة. تمنّى لو باستطاعته سماع خطوات قدميه، قدميه فقط، لأن سماع خطوات أيّ جنود، حتى في النهار، كان من المستحيلات.

لاحتْ أمامه أشباح، تخيّلها. توقّف، اختفتْ، عاد يسير، حريصًا على أن يظلّ جانبه الأيمن ملتصقًا بالجدران.

فكّر أن يطرُق أحد أبواب البيوت، طالبًا من أصحابه إيواءه حتى الصباح. فكر في كاترين، سيقتلها بنفسه خوفًا عليه، لو فعل ذلك.

سلامة كان يعرف أن كاترين عاشت تتمنّى الانفصال عنه، ولم تستطع. لم تأتِ تلك اللحظة التي تحرّرها منه، فقررت في النهاية أن تغير وجهة نظرها فيه، لتحتمله. احتملتْه. هو يعرف أنه مدين لها بأشياء كثيرة، أشياء لا يعرفها أحد غيرها، لكنها تستّرت عليها، أخفتْها بعيدًا. كم كانت حكيمة، تحبه، عندما كسرت إطار الإخطار وقالت له ما قالته، واستمع إليها كما على طالبٍ نجيبٍ أن يستمع، لوصايا المعلم، أو وصايا الوالِدة.

أبرقت السماء، أضاءت الشارع، ورآهم هناك أمامه، أربعة جنود، خمسة، لم يكن متأكدًا.

صاحوا به، لم يسمعْهم، التصق بالجدار، خائفًا من برق آخر يفضح مكانه، ومرّت لحظات صمتٍ لا تتيح للمرء أن يملأ رئتيه بالهواء. أبرقت السماء، ودوّى رعدٌ شديد، كما لو أنه يتعرّض للقصف! وعاد الصمت للحظات قليلة، وفجأة رأى نهرا من البرق يخرج من الشارع نفسه، خاطفًا، يندفع باتجاهه، ويعبره. ترنّح، كان بودّه أن يسمع الصوت على الأقل، صوت الرّصاص الذي يقتله، ليقول للناس بعد ذلك: لقد قتلوا سلامة بالرّصاص، أربعة أو خمسة جنود، على الأقل، أطلقوا النار في اللحظة نفسها، كي يقتلوه! لم يتخيّل سلامة أنه سيموت، كان متأكدًا من أنه سيخرج حيًّا، ويصل البيت، وتكون له حكاية أخرى لا تقلّ قوّة وتأثيرًا عن حكاية صدم سيارة المندوب السامي.

* * *

لم يستطع بشارة الذهاب إلى الجنازة، لكن زيدان الملثّم، كان هناك، جدّه إسكندر، نصف سكان المدينة على الأقل، تتقدّمهم سيارة سلامة، سيارته التي عاشت معه أهمّ لحظة في حياته، اللحظة التي بات يعرفها الجميع، ولا يشكّون فيها لفرط ما ردّدها سلامة، وفي داخل تلك السيارة،

كان جسد سلامة في الكرسي الخلفي، ينظر إلى الناس، كأنه يودعهم، سلامة الذي كان قد أوصى كاترين: إذا متُّ قبلكِ، لا تسمحي لهم أن يضعوني في التابوت، إلّا عندما أصل إلى حافة القبر، هذه وصيتي، أريد أن تجلسوني في المقعد الخلفي للسيارة وكأنني مسافر إلى مكان بعيد أحبّه، لا إلى المقبرة.

حكايات النـهار والليل!

في المساحات الضَّيّقة تتّسع الذاكرة، وتصبح الحكايات أفضل وسيلة للتغلّب على لزوجة الوقت الطويل.

كانوا يتجمّعون هناك، في غرفة الاعتقال النهاري، تتزايد أعدادهم، وكلما جاء شخص جديد، وراح يروي حكايته، أعادوا حكاياتهم نفسها، كنوع من الاحترام، والتأكيد له، بأنه أصبح منهم وفيهم.

سبع مرّات على الأقل سمعوا قصة بشارة مع الكابتن داود، وكيف أصدر قرارًا بسجنه، وهو الخارج من السجن، قبل أن يصل بيته.

استعادوا حكايات سلامة، لمن لم يلتقِ به من المعتقلين، وهم يترحّمون عليه، سلامة الذي لم يكن لديه أعظم من حكاية صدمه لسيارة المندوب السامي. كان بشارة يحكيها بنفسه، بأسى بالغ. يتذكّرون كيف كانوا يسألون سلامة حكاية أخرى، وكان يرد: ما هو كلّه احتلال في احتلال! وعندما كان يصل إلى عناقه لبشارة وسط الشارع، كان يصبح ساخرًا: أصارحكم لم أخشَ الاعتقال أبدًا، ولكن أكثر ما خشيته أن يجبروني على دفع ضريبة عناق سجين!

وكانوا يضحكون، قبل أن يصمتوا طويلا، كأن لحظات صمتهم هي لحظات الوقوف تحية لروحه.

* * *

.. وتطفر أكثر من دمعة، في كل مرّة يعيد فيها سلمان حكايته؛ وهو رجل في منتصف الخمسينات: فعلنا المستحيلات حتى رَزقنا الله بولد، وحين بدأ يمشي فوجئنا بأنه مريض، قالوا لنا:

علاجه غير متوافر في الضفة، علاجه في حيفا. طلبنا تصريحًا لنصِل إلى حيفا، نشّفوا ريقنا قبل أن يعطونا إياه، ذهبتُ أنا وأمه فقالوا لنا: هناك تصريح لكَ وحدك. لا نستطيع أن نُعطي أمّه تصريحًا آخر. بكى الولد لأنه يريد أن يكون مع أمّه: أنتَ والولد! قالوها بصورة قاطعة. في حيفا فحصوا الصغير، قالوا: يلزمه عملية، وحدّدوا موعدًا لإجرائها بعد عشرة أيام.

رجوتهم أن يُجروا العملية فورًا. رفضوا. عدتُ مع الولد. لم أكن قد جلستُ بعد وصولي إلى البيت، اتّصل بي مسؤول التصاريح، قال إنه يريد أن يطمئنَّ على صحة الصغير! شرحتُ له الوضع، فقال: اطمئن، غدًا يكون التصريح في انتظارك. ذهبتُ، سألني وكأنه لا يعرف حكايتي: لماذا أنت هنا؟! قلت له: من أجل التصريح، فسأل: أيّ تصريح؟! أجبته: تصريح الذهاب إلى حيفا لإجراء عملية لابني.

- لا تؤاخذني، نسيت! هل تعرف عدد الأشخاص الذين يطلبون تصاريح علاج كلَّ يوم؟!

- لا أعرف، ولكن أُقدِّر أن العدد كبير.

- أتعرف، ما يُريحني فيهم، رغم كثرتهم، إنهم يعرفون قيمة هذه الورقة. ولوّح بها أمام وجهي. وأضاف: على أي حال تصريحك جاهز، ولكنني بحاجة لبعض المساعدة منك لكي أساعدك.

فهمت الأمر، يريد أن يحوّلني إلى عميل، اعتذرتُ، وخرجتُ، فقال لي: لو كنتُ مكانك لما رفضت، لأن قرارك سيكون السبب في أن تتعذّب طوال حياتك عندما يموت طفلك.

عدتُ إلى البيت، أخبرتُ زوجتي بما حدث. لم تقل شيئا، ظلّت تبكي، ويتزايد بكاؤها كلما اقترب موعد العملية، وتتزايد قوة احتضانها للصغير، كأنها تريد أن تمنع الموت من أن يستلّه من حضنها. في اليوم الأخير، يوم موعد إجراء العملية، جُنّتْ تمامًا، كانت تنتظر موته في أي لحظة. غربت شمس ذلك اليوم، توقفتْ عن البكاء، لأن الولد لم يمت، لأن الولد عاش، ومرّ الأسبوع وراء أسبوع، وصحة الولد تتحسّن!

استدعاني مسؤول التصاريح، وسألني عن وضع الصغير، فقلت له:

- إنه بخير.

- لم تزل أمامك الفرصة لأن تأخذه إلى حيفا وتتأكّد من أنه بخير.

رفضتُ.

- على راحتك، انصرف، إلى الجحيم، أنتَ ومن سيساعدك في المرّة القادمة.

وصلتُ البيت، وجدت قرار الاعتقال النهاري في انتظاري، وبعد أربعة أيام من الاعتقال، دهَمَ الجيشُ المخيم، عدتُ ليلا، فوجدت الولد قد أستشهد بسبب تنشّقه للغاز. أجبروني أن أدفنه في الليل، قلت لهم: أرجوكم، اسمحوا لي أن أدفنه في الصباح. ردّ أحدهم:

- هل نسيت أنكَ مُعتقل نهاريّ؟

دفنته في الليل.

صمتوا طويلا، إلى أن سمعوا صوتَ جمال يأتيهم من بين كفيه اللتين تحتضنان رأسه، كأنه يهذي: طيب وأنا ليش هان؟ المستوطنين هاجموا كروم الزيتون، قتلوا فارس، يا دوب صار عمره 19 سنة، حملناه للمستشفى، مات في الطريق، خفنا يعرفوا إنه مات! لأنه عادتهم يسرقوا جثث الشّهدا، حتى يخبوا آثار الجريمة. بعد الظُّهر هاجم الجيش الجنازة، بحِجّة شو؟ بحِجّة إنه إحنا قتْلنا بنت من المستوطنة إللي جنبنا، سألهم واحد من الرجال: وين قتلناها؟ فضربوه حتى شلّوه، وفي المسا أعلنوا في الإذاعة رسميًّا إنه البنت ماتت برصاصة من بارودة مستوطن. قلنا، الحمد لله، نُص مصيبة! شو قلنا؟! رد أكثر من معتقل: نُص مصيبة!

لكن يا عمّي إحنا نسينا إنه المصايب في ها البلاد ما بتيجينا إلا كاملة، مش عارف كيف نسينا وقلنا نُص مصيبة! يا ريت ما قلنا. قبل ما تطلع شمس ثاني يوم، صحينا، لقينا الجيش مطوّق القرية، معاه أمر بهدم عشرين بيت عقابا إلنا! لأنّا قتلْنا البنت إللي من المستوطنة!

المختار قالهم: يا عمّي إحنا سمعنا بذنينا تقرير الطبّ الشرعي الرَّسمي الإسرائيلي، مش الفلسطيني! وإنتو أعلنتوا إنه إللي قتلها مستوطن، هوِّ في إشي أصدق من التقرير الشّرعي؟! الضابط قاله: آه، في شيء أصدق من تقرير الطب الشرعي، هذا الأمر العسكري!

هدموا بيتي، وتسعتعشر بيت من بينها بيت الرجَّال إللي انشلّ، صرخت: وإحنا وين نروح؟ وين نلاقي مكان يُسترنا.

- ما تقلق، إنت بالذات ما تقلق، راخ ألاقيلك مكان يسترك، وناولني قرار اعتقال نهاري، ومن شهرين، الصّبح باجي، وفي الليل بروِّح! قلت لهم من شان الله إسجنوني أهْوَن عليّ. قال لي الحاكم العسكري نفسه: إخنا ما بنظلم خدا، ختى لو هو طلب منا نظلُمه!

* * *

- يا إخواني، أنا أعترف، أنا ظلمت نفسي، قال جورج، وهو شاب في الثالثة والثلاثين من عمره، جاء إلى بيت ساحور من أمريكا، قبل الانتفاضة بأسبوع، لأنه يريد أن يتزوج من فتاة فلسطينية، تحت قوة رغبة دفينة لم يستطع كبحها. رأى فتاتين، قبل أن يرى الفتاة التي كان يعرف أنها ستعجبه! رفضت الفتاة، التي يعرف أنها ستعجبه، الزواجَ به، كانت لديها حجّتان: أنها لم تكمل الدراسة بسبب إغلاق الجامعة، وتلك كانت الحجّة اللطيفة التي لا تجرح، ثم إنها لا تريد الذهاب إلى أمريكا، وتلك كانت الحجّة الواضحة.

لم يخبرهم أنها كانت طالبة فنون في جامعة بير زيت، رسم، في الثانية والعشرين من عمرها، خشية أن يعرفها أحد من معتقلي بيت ساحور.

قاطع صوت عريض حكايته، وهذا ما يحدث في كلّ مرّة يرويها:

- يا حبيبي يا جورج، لماذا عليها أن تذهب لأمريكا؟ ألا يكفيك هذا الوطن ويكفيها؟!

- أي وطن؟ وهل بقي لنا وطن؟ لقد احتلّوه. قاطعه معتقل آخر، كما يحدث في كل مرة يسمعه وهو يتدخّل.

- يا حبيبي، الدبابة لم يكن لها وطن في يوم من الأيام، ولن يكون.

- ولكن هناك جنود في داخلها.

- يا حبيبي، الجنود يأتون في دبابات ويعيشون في دبابات ويرحلون عندما تتحرّر الأرض في دبابات.

ـ اتركوا الشّاب يكمل حكايته، قال جمال، صاحب البيت الذي هُدِم، يا عمّي، قول، شو صار بعد هيك؟

ـ المشكلة الكبيرة أنني رفضتُ أن أرى أي فتاة بعد تلك الفتاة التي أحببتها، قلت: إما هي وإما فلا.

ـ المهم، شو إللي جابك لهون؟ يعني للمعتَقَل.

ـ الحب من طرف واحد طبعًا!

ضحكوا، فأضاف:

ـ أردت أن أُثير إعجابها، بعد أن نصحني ابن عمتي قائلا، هذه البنت ثورجية، لن يعجبها شاب مستوْرَد من أمريكا لا تعرف عنه شيئا. فانتظرتُ، ليس بعيدًا عن بيتها، مرّت دورية، فبدأتُ أهتف ضد الاحتلال:

يا شارون ارحل من هون

يا شارون ارحل من هون

نزل الجنود من السيارة ليمسكوا بي، فهربتُ نحو بيتها، ولحسن الحظ لم يعتقلوني داخله، وإلا لاتّهموها بأنها تؤوي مخرِّبًا. لكنها خرجت بسبب سماعها للضجيج، ومحاولات النساء أن يوفّرن لي فرصة للهرب من الجنود، وكلّهن يصِحن في وجوه الجنود: أتركوا ابني، عشرون امرأة على الأقل، كل منهنّ تصرخ في وجه الجنود بغضب: أتركوا ابني! عندما سمعتهن، بدأت أبكي، فصرختْ بي الرسامة: لماذا تبكي، الرجال لا يبكون هنا! فقلت لها: سأقول لك لماذا يبكي الرجال أحيانًا، إذا ما التقينا مرّة أخرى.

اكتفوا باعتقالي نهاريًّا، بسبب مظاهرتي الخاصة تلك، وربما بسبب جواز سفري الأمريكي، وعرضوا عليّ أن أغادر بصمت، فقلت لهم، بعد أن أصبحتُ مناضلا: ولماذا عليَّ أن أترك فلسطين؟ ففي النهاية هنا بيتي. قال المحقّق: أولا هذه الأرض اسمها أرض إسرائيل، وبسبب جهلك

هذا سأمدّد اعتقالك النهاري ثلاثة أسابيع، وأسحب عرضي بشأن سفرك. أما السبب الثاني الذي يجعلني أبقيك هنا، فلكي أمنعك من أن تكون بطلا، لتذهب وتدّعي أننا أبعدناك بالقوة.

بعد أسبوع صادفتُ الفتاة في الشارع مساء، لم ترني بوضوح بسبب العتمة. عادت واقتربت مني، وهي تحدّق إلى وجهي: ألستَ البطل الذي بكى؟

- بل الرّجل الذي بكى فقط.

- أولا، أحبّ أن أقول لك إنهم أخبروني أنك هتفت ضد شارون. كان عليك أن تهتف ضد رابين لأنه هو وزير الحرب، وليس شارون! وثانيًا، هل تستطيع أن تقول لي، لماذا يبكي الرجال أحيانًا؟

- قلت لها، أولا، كلّهم شارون، فبدت مقتنعة بوجهة نظري! وثانيًا، ربما تعتقدين أن الأمر يشبه فيلما هنديًّا، ولكنني سأغامر وأقول لكِ: منذ أن ماتت أمي قبل عشرين سنة، لم أسمع امرأة تقول لي (ابني)، وفجأة، وجدتُ عشرين امرأة يقُلْنها مرةً واحدة، وقد تستغربين ما سأقوله، لقد كانت وجوههن جميعها في تلك اللحظة نسخًا دقيقة من وجه أمّي. لهذا بكيت.

- وماذا قالت؟ أي أنا الرجل صاحب الشوارب صرت مدمِّع ثلاث مرات وأنا بسمع قصتك.

- لم تقل سوى: تصبح على خير.

- معنى ذلك أن الأمل موجود بأن تقْبل بك عريسا لها. يا عمّي، الأمل دائما موجود، والفلسطينيين مستحيل يفقدوه! قال أحد الرجال الجالسين في نهاية المكان.

* * *

- وأنت يا أنطون، منذ ثلاثة أيام لم ترو لنا حكايتك، هناك معتقلون جُدد يحبون سماعها. قال سلمان.

يتململ أنطون صاحب محل التُّحف الخشبية، المصنوعة من خشب الزيتون، ويبدأ كلامه كالعادة، بدعاء: يحميك الرَّب! ماذا أقول؟ جاءتني مجموعة من المستوطنين، وقفوا بباب المحل

يحدّقون في تماثيل العذراء، ويسوع المسيح مصلوبًا. كانوا على وشك أن يحطموا الواجهة، لكن قائدهم طلب منهم أن يهدأوا، دخل، سألني: تماثيل مَن هذه؟

- هذه تماثيل العذراء، ويسوع المسيح.

- ولماذا هو مصلوب في كلّ التماثيل التي أراها؟

- لأنه مات على الصليب.

- أنت إذًا واحد من أولئك الذين يتّهموننا بأننا قتلناه؟

- أنا لا أتّهم أحدًا.

- سنتركك اليوم، ولكن إذا عدنا ووجدناه على الصليب ثانية، فهذا يعني أنك مُصرّ على اتهامك لنا، وعندها سترى ما سنفعله بك وبمحلّك.

لم يأت المستوطنون في اليوم التالي، وبقيتُ أتأمل يسوع المسيح على الصليب، وأنا أتساءل: كيف يمكنني أن أنزله عن الصليب؟! تمنّيت لو أن بمقدوري أن أفعل!

بعد أربعة أيام عادوا. كان يسوع المسيح لم يزل على الصليب، حطّموا المحلّ، واتهموني بأنني شتمتهم.

بين صورة محلّي المحطم، وتهمة قيامي بشتم المستوطنين الذين حطّموه، وجد الجيش أن أفضل عقوبة لي هي الاعتقال النهاري، وها أنا، يحميكم الرَّب، هنا، معكم.

* * *

في الساعة الثامنة جاء صوت جندي من أمام الباب: هل تريدون أن تناموا اليوم هنا؟

بصمت خرجوا.

الأمهات الغامضات!

سيرى جورج، فيما بعد، كثيرًا من النساء اللواتي أنقذنه، لكنه لن يعرفهن، لن يستطيع استعادة وجه إحداهنّ، لأنهنَّ كنَّ أمّه في تلك اللحظات. تجمّعن حوله، يحمينه، وأيدي الجنود تمتدّ وتمتدّ، وأعينهم تتّسع.

لم يتركنه يتحول إلى فريسة سهلة. لم يبتعدن، وتعِب الجنود، رحلوا. لكن واحدة، لا يعرف إن كانت منهنّ، ظلت تمسك بيده وتسير، إلى أن أوصلتْه إلى بيته، كان وجهها لم يزل وجه أمّه، أوصلتْه إلى بيت عمته، طرقت الباب، خرجت العمّة، أسلمتْها يد جورج، اطمأنت أنه في أمان، استدارت مبتعدة.

لم يفهم جورج لماذا ابتعدت أمّه، لماذا لم تدخل البيت بعد أن أوصلتْه.

كان يهذي، ولكنه هذيان من نوع مختلف، ممتلئ بالبهجة، كما هو ممتلئ بالذّهول.

وسأل عمَّته: لماذا لم تدخل أمي؟ وهو يشير إلى المرأة التي تبتعد، وارتبكت عمَّته أكثر، بكتْ.

- تلك كاترين.

* * *

منذ انطلاق الانتفاضة، أصبحت كاترين من تلك القوة الرَّحيمة، أو قوات التدخل السريع، كما بات يُطلق على النساء، القوة التي لا يعرف أحد من أين تبزغ قلوبها وصرخاتها وأيديها، كلّما وجد أحد الأطفال أو الشباب أو الفتيات نفسه محاصرًا ووحيدًا بين الجنود.

كان سلامة يسألها:

- إلى أين؟

ودائما كانت تجيب، لكنه لم يكن يسمعها، فيقول لها:

- بس ما تتأخّري!

تخرج كاترين، كاترين التي هدّها العمر، منهكة تدور في الشوارع، على وشك السقوط. لكنها فجأة تتغيّر، وتصبح كاترين الشّابة، ما إن ترى جنودًا يلاحقون واحدًا من شباب المدينة، تنبعث فيها قوة جبّارة لا تعرف من أين بزغت، وتُغيْر على الجنود، الجنود الذين يربكهم تقدّم عجوز نحوهم بلا خوف كعاصفة؛ حين يرونها ويسمعونها تصرخ: إبني، إبني. هي التي كان من الطبيعي أن تصرخ: حفيدي، حفيدي.

غالبا ما كانت تنجح في انتزاع صبيّ أو شاب أو فتاة من بين أيديهم.

في الأيام التي كانت تفشل فيها، كانت تعود حزينة إلى البيت، وفي الليل يسمع سلامة صرخاتها العالية: إبني، إبني.

يحزن سلامة لأن الحياة لم تمنَّ عليهما ولو بولد واحد أو بنت. ويعتقد أن كاترين ستموت قبله لا بدّ، لأنها تريد الذهاب إلى ذلك الولد الذي لم تلده؛ لكنها تنهض في الصباح، قوية، ترتدي ملابسها وتخرج، ويسألها:

- إلى أين؟

وتجيب، لكنه لا يسمعها، فيقول لها:

- بس ما تتأخّري!

* * *

مرّات كثيرة كانت كاترين تعود والكدمات تغطي مساحات من وجهها، أو يديها، ومرّة أمضت أسبوعًا في الفراش غير قادرة على أن تتحرّك.

الطبيب الذي عالجها، طمأنها أن الأمر ليس أكثر من تمزّق شديد في العضلات، بلا أيّ كسور.

تضيق الحياة عليها، ويتصاعد الضِّيق كلما سمعتْ هتافات في الشوارع، وأصوات رصاص.

انتظرت أن ينتهي الأسبوع، الأسبوع الطويل. وفي اليوم الأخير، كانت تحسّ أن ساقها تعافت بصورة لن تخذلها. سمعت الهتافات، خرجت، سألها سلامة السؤال نفسه، وأجابت الإجابة نفسها.

لم تكن كاترين على يقين إذا كان ضعف سمع سلامة نقمة أم نعمة، في زمن ليس فيه سوى الموت والقهر.

تذهب، تدور في الشوارع، تمرّ ببيت عمة جورج، تسألها عنه، وتتابع أخبار خطبته، وما إذا كانت العمّة بحاجة إلى مساعدة في العثور على عروس.

كاترين تأثرت كثيرًا عندما علمت أن جورج فقد أمّه طفلا. لم تكن تكذب إذًا في ذلك اليوم وهي تصرخ في وجوه الجنود: إبني، إبني.

هندسة النجاة

في الساعة السابعة وخمسين دقيقة، وقف جنديّ بباب صالة الاعتقال، وأخبرهم: ستغادرون بعد عشر دقائق، وهو ينظر إلى ساعته، كأنهم لا يعرفون الوقت، هم من يحدّقون في ساعاتهم منذ غروب الشمس!

تململ كثيرون منهم، مجهِّزين أقدامهم المتيبِّسة للسير.

- كان هذا هو الخبر الجيد الذي حرصتُ على أن أقوله لكم في البداية. أما الخبر الذي أجّلته كحلوى للنهاية، فهو أن حظر التجوال سيعلن الليلة بعد عشر دقائق من الآن، في تمام الثامنة.

أدركوا أنهم هالِكُون.

- ماذا؟! قالها أكثر من شخص وكأنهم أصيبوا جميعًا فجأة بتدنٍّ خطير في مستوى قوّة سمعهم، غير قادرين على استبعاد صورة سلامة الأخيرة.

استدار الجندي، واختفى، في وقت كانت الجملة الوحيدة التي تتكرّر: هذه أفضل وصْفة لقتْلِنا.

استقرّت عيون الرجال على ساعات معاصمهم، الساعات التي بدا لهم أن أصوات دقّاتها الخافتة، التي لا تكاد تُسمع عادة، قد اتّحدتْ، وتجمّعتْ في دقاتٍ تفوق قوتها سلسلة انفجارات عدد لا يُحصى من القنابل في مخزن للذخيرة، وعندما وصل عقرب الدقائق مُعلنًا الثامنة تمامًا، كانت دقته ظلام النهايات.

- من لم يمُت من قبل، سنمهّد له الليلةَ طريق موته، همس الكابتن داود لنفسه وهو ينظر إلى ساعته.

* * *

- ليس هناك سوى حلّ واحد، أن نخرج جميعًا ونسير معًا، وليكن ما يكون. قال أحد الشباب.

- هذا سيسهّل عليهم قتْلنا دفعة واحدة.

- أقترح ألّا نغادر المقرّ، وليفعلوا ما يريدون. قال رجل في الخمسين، وما إن أتمّ جملته حتى ظهر الجندي ثانية، وقال: مغادرتكم هذا المقرّ أمرٌ، كما كان قدومك إليه أمرًا.

- أظن أن أفضل ما نفعله هو أن نعرف موقع بيت كلّ واحد منا؛ ومن يسكن بعيدًا، يمكن أن يلجأ لأقرب بيت من بيوتنا؛ ومن تكون بيوتهم في حارة واحدة، أو حارتين متجاورتين يذهبون، معًا إليها.

- لا أظن أن أحدًا منا لا يعرف كل الطرق المؤدية إلى بيته، ليختار أكثرها أمْنًا، قال آخر.

خرجوا.

* * *

في ذلك الليل، وقف الرجال أمام الباب الخارجي لمقر الحاكم العسكري عاجزين عن توقّع ما ينتظرهم في اللحظة التالية، وقفوا بأعين أكثر اتساعًا وآذان قادرة على التقاط أصواتٍ لم ينتبهوا لوجودها طوال حياتهم. أمرهم الجنود بالتحرّك، وما إن أصبحوا على بعد عشرين مترًا، حتى انطلق الرّصاص مدويًّا.

خلف مكتبه، جلس الكابتن داود يستمع لصوت الرصاص مبتسمًا.

تعامل كل منهم مع نفسه كقتيل، ولم يكتشف الواحد منهم أنه حيّ، إلا عندما وصل إلى البيت بعد ساعات أمضوها متسللين، بثقل، من شارع إلى زقاق ومن عتمة إلى عتمة.

* * *

في الثامنة من صباح اليوم التالي كان بشارة وجميل وجورج، ومنير الحلاق، الذين وصلوا مبكرين، يهنئون كلّ من يصل بالسلامة، إلى أن اكتشفوا أن أحدًا منهم لم يُصب بأذى، وأنهم نجوا جميعًا. عندها أدركوا أن نجاتهم لم تكن مجرد حظّ، وفي الظهيرة كانوا على يقين من أن حظر التجوال كان وهميًّا.

* * *

في الليلة التالية عادوا إلى بيوتهم. لم يسألوا إن كان هناك حظر تجوال، ولم يخبرهم الجنود بذلك. في الخارج كانت الشوارع خالية، لكنه الفراغ الذي يعرفونه، منذ انطلاق الانتفاضة؛ فخروج الناس ليلا إلى الشوارع لا يكون إلّا لضرورات قصوى، وما بين مغيب الشمس ومشرقها تُركت المدن والقرى للجان الشعبية، ولكلّ اجتماع يخشى الناسُ أن يفضحه النهار، بعد أن تصاعدت العقوبات على أعضاء اللجان الشعبية، وأعتبرت السلطات العسكرية أعضاءها خارجين على القانون، وفرضت عقوبة السجن 10 سنوات على كلّ من يثبت انتماؤه إليها، وعلى أي شخص تُضبط لديه بياناتها أو منشوراتها.

بحذر ساروا عائدين إلى منازلهم، سلمان، جمال، جورج إلى بيت عمته، بشارة، وأحد عشر رجلا من سكان بيت ساحور كانوا خاضعين للاعتقال النّهاري، من بينهم صيدلاني، طبيب، كاتب، ثلاثة مدرّسين، وأنطون صاحب محلّ التّحف الخشبية، ومنير الحلاق الذي تبين أن الحاكم العسكري أرسله إلى المقرّ مقيّدًا ما إن رآه.

كان منير في الحادية والعشرين من عمره، مارسوا الضغط عليه كثيرًا ليتعاون مع الجيش الإسرائيلي، رفض. كانت حجّتهم أنه أفضل من باستطاعته معرفة ما يدور في رؤوس زبائنه، وبخاصة الشباب، وكان يردّ: يا عمّي، حلاقين بلادنا غير حلاقينكم، لأن الحلاقين عندنا يتكلّمون أكثر مما يحلِقون، مع أننا نعرف أن لا أحد يسمعنا! إذا أردت أن تعرف رأيي في أي قضية، فباستطاعتك أن ترسل أيّ عميل صغير لأحلقَ له، وصدِّقني سيعرف كلّ شيء أعرفه، دون أن تكون مضطرًّا لاستخدام القوة ضدي.

هكذا وجد منير نفسه أسير الاعتقال النهاريّ، لكن ذلك لم يكن يهمّه. كان مختلفًا عن الجميع، ففي وقت ينفعل كثير من المعتقلين، وقد ضاقت أرواحهم عليهم وأجسادهم بسبب الحجز اليوميّ،

كان منير يفرّج عنهم بنكت كثيرة، يقولها هامسًا كي لا تتحوّل إلى أدلّة ضده:

فلسطيني راجع للضفة من عمّان، معه 12 ولد، أولاده! سأله الضابط الإسرائيلي: كل هذول أولادك؟! قاله الفلسطيني: آه، وعلى إيش مستكثرهم؟! ما هوِّ خمسة منهم رايحين اتطّخُّوهم، وخمسة رايحين تعتقلوهم، وواحد بتدعسه سيارة، ما بيظل إلي غير واحد!

ضحكوا كثيرا، لكنهم صمتوا بعد لحظات، وقد تحوّلت النكتة في أعين بعضهم إلى دموع.

أما حكمة منير التي اكتشفها خلال التعذيب؛ الحكمة التي لا يكفّ عن تكرارها في كل مناسبة: أكثر واحد انسجن، طِلع، وأكثر واحد انطخ، مات!

* * *

أثبتَ منير أنه يعرف كل حجر في بيت ساحور، ولذلك لم يكن من الصعب عليه أن يقودهم عبر أكثر الأماكن أمْنًا. بشارة سأله هامسًا: ولماذا تعتقد أن هذه الأماكن هي الأكثر أمنًا؟

ضحك منير، وهمس بدوره: بسيطة، لأنها أكثر الأماكن التي يخشى الجنود المرور فيها!

كان أنطون أكبرهم عمرًا، ولذا كان يردّد اعتذاره لهم كلّما توقفوا ليستطلعوا مكانا:

- سأكون السبب في موتكم، اتركوني هنا، أؤكد لكم أنني أعرف الطريق وحدي.

- اطمئن يا عمّ أنطون، لولا وجودك لما استطعت أن أتعمق أكثر في هندسة النجاة! كما أن كلّ مَن معنا بحاجة لأن يتعلّموها، وها أنا أُعلّم وأنا أتعلّم، ولكنني أقولها بصراحة لكم، لا تعتمدوا عليّ كثيرًا فيما بعد، لأنني لن أعيش لكم العمر كلّه!

لم يكن أنطون يستظرف كلامه، ولكنه كان يدعو له، وكانت دعوته هي أفضل تعليق على نبوءات منير السوداء: يحميك الرَّب.

* * *

من أكثر الناس قربًا لزيدان أصبح منير، منذ أن بدأت اللجان الشعبية تتشكل، لكن تلك العلاقة كانت سرّ الأسرار. حين علِم زيدان بأن منير التحق بمجموعة المعتقلين النّهاريين، قال له: أوصيك باختْياري.

- جدك إسكندر؟

- بل أبي، بشارة.

- حرام عليك يا رجل، أبوك ما وصّل الأربعين.

- أبوي عمره أربعة وأربعين سنة، إذا حابب تعرف بالضبط.

كان منير يضحك ويقول:

- فعلا ختْيار! اعتبره أمانة في عنقي.

* * *

الشهور الأولى من الانتفاضة كانت قد قلبت معايير القيادة رأسًا على عقب، وغدا الشباب هم أولياء الأمور، والمحرِّكين لكل حدث، والمتحكِّمين في كل كبيرة وصغيرة؛ كان ذلك في كثير من الحالات طوْق نجاة للتحرّر من سطوة رياح الآباء والأمهات العاصفة، الرياح التي تتحكّم في الأشرعة الصغيرة لحياة أبنائهم؛ أحسّ أولئك، بأنهم يتمرّدون وينتصرون ويقومون بما لم يستطع آباؤهم القيام به، لكن حدّة ذلك التمرّد راحت تخفتُ، عندما تأمل الشباب أولئك الكبار حولهم، وتذكّروا أن الكثيرين منهم سُجنوا، وأصيبوا، وأُبعِدوا، وعُذِّبوا، وبعضهم ما زالوا في السّجون.

كانت أجمل حكمة سمعها زيدان من جده إسكندر: أنا لا أستطيع أن أهزم جورج فورمان في الملاكمة، ولكنني أستطيع أن أغلبه في لعبة الشطرنج.

طويلا فكّر زيدان في تلك الحكمة، وكان فخورًا بها، وبجدّه، حين قالها على مسامع أعضاء فرع اللجنة الشعبية التي انضمّ إليها. ولكي لا يترك للآخرين فرصة مناقشة تلك الحكمة، قال: بالطبع نحن لا نلعب مع الاحتلال لعبة شطرنج، ولن تتحرّر بلادنا بلعبة شطرنج، لكنّ ما نحتاجه هو ذكاء لاعب الشطرنج في كلّ عمل نقوم به، وفي كل خطوة نخطوها!

* * *

في مساء اليوم العاشر للاعتقال النهاري، كان باستطاعة كل منهم أن يعود إلى بيته دون أيّ مساعدة من منير؛ كلّهم عرفوا الطرُق الآمنة، والطرُق البديلة، وإن بقيت هناك طرُق من الصعب

عبورها لأن أعمارَ الكثيرين منهم لا تساعد على المضيّ فيها. هذه الطرق ظلّت سرّيّة.

* * *

بعد أن أوصَل أنطون، توجّه بشارة إلى بيته. وجد ابنه زيدان وبقية الأسرة في انتظاره.

- تأخرتَ اليوم، قلقنا عليك، قالت ماري.

- تعرفون، الظلام غدّار، فما بالكم حينما يكون محشوًّا بالجنود!

- كنت أفكر أن أنتظركم على أطراف بيت ساحور، لأساعدكم. قال زيدان.

- اطمئن، معنا عدد من الشباب الذي يعرفون الطرُق في الليل، أوضح بشارة.

- هل تعرف أسماء أحد منهم؟

- أنا؟! طبعا لأ! مليح إللي أنا متذكِّر أساميكم! قال ضاحكًا.

ابتسم زيدان.

- بتبتسم؟

- طبعا ببتسم، لأني أول مرّة بشوف واحد بيتعامل مع حاله ختْيار بلا ذاكرة وهو مبسوط!

مولد الحكمة!

قبل ثلاثة أشهر من الانتفاضة، أمام أحد الحواجز الإسرائيلية الطائرة، أوقف الجنود سيارة فيات 128 كحلية، موديل 1970. كانت سيارة جميلة، رغم مرور سنوات طويلة على صناعتها، ولها مكانة خاصة عند صاحبها، باعتبارها أول سيارة دفْع أمامي، ولأنها فازت في عام صُنْعها بلقب سيارة العام. في داخلها كان منير، أمّه، وابن خالته الذي يسكن في قرية بيْتا؛ ابن خالته الذي أصرّ على أن يوصلهم حتى باب بيتهم في بيت ساحور، فرِحًا بالسيارة التي اشتراها قبل وصولهم بأيام.

طلب الجنود الهويات. أعادوا الهوية لابن خالته، وأبقوا هوية منير معهم. حملها جندي، مضى نحو سيارة الجيب، تحدّث طويلا، عاد، سأل منير:

- هل تمّ اعتقالك في السابق؟

- لماذا تسأل؟

- لأسمع جوابك!

- لا، لم أُعتقَل.

- ولكن المعلومات التي لدينا تقول إنك كنت مُعتَقَلا.

- أنا؟! لا أتذكر أبدًا.

- عليك أن تعترف.

- أعترف بماذا؟ ماذا تريد مني؟ هل لديك تهمة توجّهها إليَّ الآن؟ إن لم تكن هناك تهمة، أعِد لي هويتي.

- سأفتش السيارة.

- اتركه يفتش السيارة، قالت أمّ منير.

ترجّل ابن الخالة من السيارة، ترجّلت الأمّ، وبقي منير فيها.

- برضاي عليك انزل، لا نريد أي مشاكل معهم. رجتْه أمه.

ترجّل على مضض.

أمضوا ساعتين في تفتيش السيارة، لم يتركوا شيئا في داخلها إلّا وألقوه خارجها: الكراسي، الواجهة الأمامية، كل ما في صندوقها، عجلاتها التي احتلت مكانها حجارة كبيرة، كل ما يمكن أن يسهُل تفكيكه من محرّكها.

لم يجدوا شيئًا.

- خذ سيارتك وانصرف قالوا لابن عمته.

- آخذها إلى أين؟ هذه ليست سيارتي!

- أتركها هنا إذن وانصرف، سنطلب سيارة لتقْطرها، وعلى حسابك أيضا، وستدفع غرامة وقوفها في مكان عام يعيق حركة المرور ويشكل خطرًا أمنيًّا على الجنود.

أم منير، هزّت رأسها، وأشارت لابن أختها أن يبدأ العمل، فالشمس تكاد تغرب، وبإشارة من عينيها طلبت من منير أن يساعده. حين همّ بذلك، منعه الجنود.

- سيقوم بما عليه القيام به وحده. أما أنتَ فقف هناك.

سار منير إلى حيث أشار الجندي ووقف.

بدأ ابن خالته بإعادة تركيب ما يسهل تركيبه، بدءًا بالعجلات، ليُنهي الأمر بسرعة ويبتعد.

غابت الشمس، ولمّا يزل يعمل. كان شابا في الخامسة والعشرين، ذلك العمر الذي يثير في الجنود الإسرائيليين شهية التّنكيل.

زجّ ما تبقى من أجزاء يمكن أن يتمّ تركيبها لاحقًا في السيارة، ووقف ينظر إلى الجندي منتظرًا إشارة السّماح له بالمغادرة.

- ماذا تنتظر؟ انصرف، أمره الجندي.

أشارت الأم لمنير أن يصعد إلى السيارة، لكن الجندي قال له:

- أنتَ بِظَل هون، بروح معانا.

في تلك اللحظة ثارت الأم:

- شو إللي بدكم إياه أكثر من إللي عملتوه؟ السيارة، وخرّبتوها، واحنا ذلّيتونا، كمان بدكم تعتقلوا الولد هيك، وحجتكم إنه كان معتقل، أي هو في ظَلْ حد في البلد ما اعتقلتوه؟ ما إحنا كلنا عندكم معتقلين، شو إللي بدكم إياه أكثر؟!

صوّب أحد الجنود بندقيته إلى صدر منير، وهو يأمرها بأن تسلِّم هويتها.

- بدَّك تعتقلني؟ بدَّك هويتي، حاضر! أخرجت الهوية من جيب صدر ثوبها الفلاحي المطرّز بالحرير، وقالت: تفضّل، وألقت بها على الأرض وداستها.

لم يتقدّم أي من الجنود لالتقاط الهويّة.

سار الجندي الذي أشهر بندقيته نحو منير، قاده أمامه، غاصت البندقية في ظهره، أمرهم أحد الجنود:

- انصرفا، قلت لكما.

- إلى أي مركز أمني تأخذونه؟ سألت الأم.

- هذا الأمر لا يعنيكِ، يعنينا فقط.

وقبل أن يصعد منير إلى صندوق العربة، وجَّه إليه الجندي ضربة قاسية من منتصف ظهره، جعلت نصفه الأعلى يطير إلى جوف العربة، ويرتطم بكرسي الحديد الطويل على يسار صندوقها.

انتبه منير لدم يسيل من جبهته، لكنه لم يستدر، خشيَ أن تشاهد أمّه ذلك الجرح النازف؛ كانت أضواء سيارة ابن خالته مسلّطة عليه.

* * *

في الطريق قال له أحد الجنود:

ـ لماذا كذبت علينا؟ لقد كنتَ سجينًا.

ـ قلت لك لم أكن سجينًا.

حاول أن يرجع بذاكرته للوراء، فلم يجد سوى تلك الحادثة التي كلّفت والديه دفْع كفالة الإفراج عنه:

كان منير قد صعد إلى أعلى شجرة سرْو، جوار بيته، وعلّق العلم الفلسطيني. حضر الجنود، طرقوا بابهم، خرج والد منير، الذي يعاني من آثار إصابة بالرصاص أفقدتْه نصف أمعائه. سأله أحد الجنود:

ـ من رَفَع العلَم هناك؟

نظر والد منير إلى الأعلى، وفوجئ بالعلَم.

ضحك، وقال:

ـ تقصد هذا العلم. هذا العلم لم يُعلْقه أحد.

ـ هل يمكن أن تشرح لي كيف وصل إلى هناك إذًا؟!

ـ هذا العلم وضعه أحد الأولاد على الشجرة حين كانت صغيرة، وأشار بيده اليمنى إلى مستوى ركبتيه، وحين كبرت صعدتْ قمّتُها بالعلم إلى هناك كما ترى.

كانت الضربة التي تلقاها أسوأ من طعنة؛ ضربة أحدثت فتحة بين ضلعين في الجانب الأيمن لصدره. حاول التقاط أنفاسه، لم يستطع. خرج منير، وسأل، مثل رجل كبير:

- شو في؟!

- أنت الذي رفع العلَم إذًا.

- أيّ علَم؟!

أشار الجندي إلى العلَم في أعلى السروة.

- لا لم أرفعه.

- أبوك إذًا هو من رفعه، وأشار للأب أن يصعد ويُنزل العلم.

- إذا أعطيتني خمسة شواكل سأصعد وأنزله! قال منير للجندي.

- ماذا؟

- لو كنتَ أنا من رفعه لأنزلته بلا مقابل، ولكنني لا أتحمل مسؤولية أعمال غيري!

تأمله الجندي ورغبة عارمة تضطرم في داخله بإطلاق النار عليه.

- اصعد وانزله.

- بخمسة شواكل؟

- قلت لك اصعد وأنزله.

صعد منير بتثاقل من لم يتسلق شجرة في حياته. نزل، طوى العلَم، قبّله ومدّ يده ليناوله للجندي.

تلقى ضربة من قدم الجندي، أسقطته أرضًا. لكن مشهد إنزال العلم، وتقبيله، سيغدو مشهدًا مألوفًا إذا اضطرّ الصغار للقيام به في أماكن كثيرة.

- سأكون غبيًّا لو لم تكن أنت من وضع العلَم هناك! أبقِ العلَم معك، لأننا لن نأخذه وحده، وصمت قليلا قبل أن يضيف: سنأخذك معه.

بعد أن دفعت أمّه الغرامة في مركز الحاكم العسكري عصرًا، لأن والده لم يكن قادرًا على الحركة بعد تهتّك صدره، أفرجوا عن منير.

كان ذلك هو الاعتقال الوحيد، إذا ما تجاوز الاعتقالات السريعة التي كانت تتمّ، بعد رشق العربات العسكرية بالحجارة، حين يأتي الجنود ويجمعون تلاميذ مدرسته كلّهم في ساحتها، يعتقلونهم لساعات، قبل أن ينهالوا عليهم ضربًا ويطاردونهم بأعقاب بنادقهم.

* * *

اختفت أخبار منير، وبعد ثلاثة أيام من البحث عَثر عليه راعي أغنام في وادي النار.

كان شبه ميت.

حينما فتح عينيه، وجد سؤالا واحدًا ينطلق في لحظة واحدة من عدة أفواه:

- شو إللي صار معك؟

أجاب:

- أكثر واحد انسجن، طلع، وأكثر واحد انطخ، مات!

وفقَدَ وعْيَه من جديد.

حساء الحجارة!

كان للشريط الذي بثته قناة (سي. بي. أس) الأمريكية وقْع كبير، ويظهر فيه جنود إسرائيليون يُكسِّرون أيدي الشّابين الفلسطينيين، عودة وائل وأسامة جودة، من قرية عراق تايه شرقي مدينة نابلس، إذ لم يسبق أن بثت قناة أمريكية أو أجنبية شريطًا بجرأته يتعلّق بمعاناة الفلسطينيين. لنصف ساعة ظلّ الجنود يعملون على تكسير عظام الشابين بالحجارة، تنفيذًا لأوامر اسحق رابين، وزير "الدفاع الإسرائيلي"، ومع اختفاء أي أخبار للشابين بعد ذلك، أصبح العالم كلّه على يقين من أنهما قُتِلا.

لم تبق قرية أو مدينة في الضفة الغربية وقطاع غزة إلا واشتعلت بالمظاهرات. لكن أفضل النتائج لذلك الفصل المرعب، أن الانتفاضة اتّسعت، ولم تعُد وحيدة مع ازدياد التعاطف معها.

* * *

في الاجتماع السريّ للجنة الإعلامية في بيت ساحور، كان رأي أبو خليل، والد ميس، أن تتمّ زراعة بيت ساحور بالكاميرات، بالمناصرين، بالصحفيين الذي يستطيعون الوصول إليها حتى الآن، لأن الأمور تسير إلى التصعيد أكثر فأكثر مع بداية تنظيم الناس لأنفسهم، في ظلِّ غياب أي مؤسسة يمكن أن يعودوا إليها في أي قضية.

اختلفت الآراء، إذ رأى البعض أن وجود مناصرين وصحفيين وكاميرات، أشبه ما يكون بفتح الباب أمام العملاء، لكي ينفّذوا مهامّهم بصورة أسهل.

ثلاث ساعات استمر ذلك الاجتماع، لكن النتيجة التي اتفقوا عليها في النهاية: ما دامت هنالك قوة إسرائيلية جبارة لا نستطيع صدّها، أو هزيمتها مباشرة بما نملك من وسائل مقاومة بسيطة، في

وقت لا حماية لنا فيه، فلنستعن بأبسط وسائل الحماية، فضْح الاحتلال، الذي باتت ترعبه الكاميرات أكثر من أي شيء آخر، بعد بثّ شريط تكسير الأيدي في كل أنحاء العالم.

ـ واحتمالات اندساس عملاء؟

ـ سنشكل لجنة أمنية من أناس لا يمكن الشكّ فيهم لمراقبة كلّ شيء.

* * *

كل من يعرف مدينة بيت ساحور، لم يكن صعبًا عليه أن يرى أن المدينة تغيرت، لكن أحدًا لم يكن يتخيّل كم ستتغير، سوى أولئك الذي ينظّمون أيامها القادمة في الخفاء.

كان شتاء آذار مختلفًا، أمطار لا تتوقف؛ كل من زرع شيئا كان فرحًا بذلك المطر، وكل من ينتظر أن تتوقّف الأمطار ليبدأ بزراعة فناء بيته وأحواض شرفاته وسطح داره، كان يعرف أن الماء هو الأرض الأكثر خصبًا.

إسكندر، الذي كان يراقب ما يراه بعينين خبيرتين، واظب على الذهاب إلى أشجار درّاقه، التي باتت مزروعات كثيرة، زرعت حول جذوعها، تنافسها. كان يعرف أن الأمور ليست مطمئنة تماما، رغم كل استعدادات المدينة لما هو أسوأ؛ ثمة شيء ناقص، لا يعرف ما هو، يجب أن يكون موجودًا. نوم إسكندر أصبح أقلّ، وعيناه اتسعتا أكثر وهو يراقب كل ما حوله، باحثا عن ذلك الشيء المفقود.

بكاء طفل صغير، سمعه في أحد الشوارع شرقي دير اللاتين، كان كافيًا ليذكّره بشيء ما، ولكن إسكندر الذي نسي تربية الأطفال منذ زمن بعيد، لم ينس أن الطفل يبكي عندما يتألم أو يجوع! ولذا، قفزت إلى عقله حكاية عمر بن الخطاب، مع تلك المرأة التي كانت تطبخ الحجارة لأولادها إلى أن يناموا، لأنها لا تملك شيئا تطعمهم إياه. همس لنفسه: لن نجد، بعد شهور، سوى الحجارة التي نلقيها على الجيش نهارًا طعامًا لأطفالنا ليلًا.

بسرعة غريبة مرّ خياله كطائر فوق بيت ساحور، من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، فتأكد أن ثمة شيئًا مفقودًا فعلا. توقّف للحظات، دار حول نفسه لكي تتأكد عيناه مما رآه

خياله، وقال: بقرات، يلزمنا بقرات، ولولا أن يقال إن إسكندر فقد عقله، لراح يصرخ في الشارع، كما لو أنه، وحده، مظاهرة: يلزمنا بقرات، يلزمنا بقرات.

لم يعد إلى البيت. أحسّ أن اجتماعًا يضم العدد الضروري من الناس لمناقشة أمر كهذا يجب أن ينعقد فورًا.

دار على البيوت التي استحضر وجوه أصحابها، طارقًا أبوابها.

* * *

كان الموضوع مفاجئا للجميع.

صمتوا. لم يسمع إسكندر اقتراحات، أيّ اقتراحات تؤيّده، بل سلسلة من الأسئلة الاستنكارية.

- من لديه خبرة في تربية الأبقار؟!

صمتٌ.

- من يعرف أفضل وسائل تغذيتها؟!

صمتٌ.

- من يعرف طرُق السيطرة عليها؟!

صمتٌ.

- هل سبق لأحدكم أن حلب بقرة؟!

صمتٌ.

- ......؟

تنحنح إسكندر، وقال، كل تلك المشكلات خطرت ببالي، ولكن سؤالا واحدا تمنيت أن أسمعه، ولم أسمعه.

وصمتَ، صمتَ طويلا وهو يتصفّح وجوههم، إلى أن سأله أحدهم:

ـ ما السؤال؟

ـ هل تريدون أن تُقنعوا أنفسكم أن أطفالنا الرُّضع، وأطفالنا الذين يرشقون جنود الاحتلال بالحجارة، سيكون عليهم كل صباح، أو في آخر كل نهار أن ينتظروا سيارات شركة تنوفا الإسرائيلية لكي تزوّدهم بالحليب؟ كيف سنستطيع أن نرجمهم وننتظر حليبهم؟ من زرع حوش بيته أو حاكورته الصغيرة أو قطعة أرضه التي يملكها، زرعها لكي لا يمدّ يده لمنتوجات الاحتلال، وليأكل من ثمرات أرضه، فكيف سيقنعني أنه اكتفى فعلا، في وقت ينتظر فيه عبوات شركة تنوفا ليهزم جوع أطفاله؟!

ـ ولكن بقرات؟! ألا يمكن أن نجلب أغنامًا وماعزًا؟

ـ أولا، لأن البقرة الأم، ومنذ أن تلِد، يمكن أن تستمر بإدرار الحليب 300 يوم، وبكميات كبيرة، وباستطاعتنا أن نحلبها مرتين إلى ثلاث مرات يوميًا. وثانيا، أحبّ أن أذكركم أن انتفاضة بيت ساحور لم تبدأ بعد. نحن نناوش الاحتلال حتى الآن، نحن نقول إننا سنواجهه، ولكن شيئا واحدًا سيغفر لنا تأخّرنا في المشاركة الكبرى بأحداث الانتفاضة حتى الآن، هو أن نعوّض عن كل تلك الفترة السابقة، بابتكار شيء جديد لم تعرفه الانتفاضة حتى الآن، تسألونني ما هو؟ سأقول لكم لا أعرف، فهناك أولادنا اليوم، وأحفادنا، وهم سيجدون الاسم المناسب لذلك الذي سنحقّقه، وعجوز مثلي على مشارف التسعين من عمره، ليس لديه سوى حكمة واحدة: لقد حقق الآباء والأجداد في كل زمان قفزة ما، نصرًا ما، أو هزيمة ما! لكن الذين يغيّرون الواقع نحو المستقبل دائما هم من يأتون بعدهم. هذا الأمر بدأ منذ أن حمل الإنسان عظمةَ حيوان ميت وطارد بها حيوانا حيًّا، ومنذ النّبتة التي تذوقها خائفًا، أول مرة، بعد أن رأى حيوانا يأكلها، إلى أن زرع تلك النبتة وروّض ذلك الحيوان، وأنشأ بستانا للنّبتة وحظيرة للحيوان، حتى وصولنا إلى هذا الزمن الذي أصبحنا نحن البشر فيه داخل الحظيرة والوحوش تقود العربات والدبابات وتحاصرنا داخلها!

صمتوا طويلا.

ـ والحلّ؟ سأل أحدهم دون أن يرفع رأسه، أو يلتفتوا هم نحوه ليعرفوه.

ـ هذه المدينة لا ينقصها المتعلّمون، كما أثبتت أنه لا ينقصها الحزبيون الواعون، المنظَّمون، قال إسكندر.

- هل لدينا مهندسون زراعيون؟

وأجاب:

- أكيد.

- أطباء بيطريون؟

- أكيد.

- مزارعون؟

- أكيد.

- رعاة؟

- أكيد.

- ولكن ينقصنا أن تجيبنا على سؤال مهم؟ كم بقرة تلزمنا لنقفل الباب في وجه شركة تنوفا؟

- لنقل 15 بقرة، 20 بقرة، 25 بقرة، هذا ما نحتاجه في ظنّي، أجاب إسكندر.

- ومن يملك ثمن 25 بقرة في بيت ساحور ليشتريها؟!

- نحن، نحن نملك ثمنها.

- ما الذي تعنيه يا أبو بشارة.

- كم دينارًا في جيبك؟ سأله إسكندر.

- أنا؟ لماذا؟

- فقط قل لي.

مدّ السائل يده إلى جيبه وقال، وهو يضحك: ليس في الجيب غير هذين الدينارين.

- نعمة كريم! هل تستطيع أن تستغني عن واحد منهما لنشتري 25 بقرة به!

- إذا استطعت أن تشتري به بقرة واحدة، وليس 25، فها هو الدينار، ومدّ يده نحو إسكندر، فتناوله منه.

- اعتبروا أننا اشتريناها، قال وهو يمدّ يده إلى جيبه، ويخرج دينارًا، ويضعه فوق الدينار الأول أمامه على الأرض، ويسألهم من جديد: وهل يمكن أن أعرف ما في جيوبكم؟

في تلك اللحظة، فهم الجميع ما يفكر فيه إسكندر،فراحوا يخرجون ما في جيوبهم من نقود، في حين كان إسكندر يردد: دينار فقط، لا أكثر!

كان الجميع قد وضعوا ما في جيوبهم، ومن لم يكن معه ذلك الدينار، استدانه من أقرب شخص يجلس إلى جانبه.

- الآن يمكنني القول، إن لكل واحد منكم سهما في شركة (حليب الانتفاضة!)، وباستطاعته أن يشتري العدد الذي يريد من أسهم، والتي بدونها لن نستطيع تنفيذ مشروعنا.

كانت الفكرة واضحة تمامًا، شركة حليب فلسطينية، صحيح أن هدفها ليس الرّبح، لكن هدفها كان أكبر.

- أظن أن لدي مستودعًا فارغًا يصلح كحظيرة، يمكن أن نستغله ليكون مكانا لتربية البقرات التي سنشتريها. قال أحد الحاضرين.

* * *

قبل أن يدخل بيته، طرق إسكندر باب شقيقته الراحلة، زهيرة. طرح الفكرة على إدوارد، وحدّثه عن الدنانير التي أخرجها مَن حضروا الاجتماع من جيوبهم، وصمت.

قال له إدوارد:

- أكمل!

- لقد قلت كلّ ما عندي، ردَّ إسكندر.

- فهمت، أطمئنك، لن يكون هنالك نقص في المبلغ حين تقرّرون شراءها.

عبث!

خرج ثلاثة معتقلين، لم يُمض كلّ منهم سوى أربعة أيام في المعتقل النهاريّ، الأول كان عجوزًا يعاني من سلَس في البول، والثاني شاعر شاب، معروف لبعضهم، كان يعاني من حالة غريبة لم يسمعوا بمثلها، فكلما وقف جندي بباب الغرفة يبدأ بالتقيؤ؛ عرفوا فيما بعد أن جنود مجموعة منغلة التي شكّلها شاؤول، وتحمل الاسم نفسه لمجموعة عسكرية نازية، أجبروه على أكل أرنب حيّ، بفرْوه ولحمه وأمعائه، وأطلقوا النار على ساقي شقيقه لأنه رفض أن يأكل قطةً حيّة. أما الشخص الثالث، فكان رجلا في منتصف العمر، يصرخ بين حين وحين: بس نفسي أعرف شو الحكمة من وجود الشَّرّ؟

هذا، الأخير، ضربوه كثيرًا، وطردوه، لأن إطلاق السّراح لم يكن وصفًا دقيقًا للتخلّص منه.

عندما وصل الباب الخارجي، صرخ: بس نفسي أعرف شو الحكمة من وجود الشَّرّ؟

ضربه الجنود الذين يحرسون بوابة المقرّ، وأعادوه، فضربه الجنود الذين ضربوه في البداية، وألقوا به هذه المرة خارج البوابة، نصفَ محطّم.

قال جميل، صاحب البيت المهدّم لبشارة عندما وصل أحد المعتقلين الجدد، وكان عجوزًا بعمر الزمان:

ـ لماذا لا نُفرِّج عن جدّنا المعتقل همّه بأن نُسمعه قصصنا، قبل أن نسمع قصة الجدّ؟ أظنّ أن على بشارة أن يبدأ، فهناك خمسة على الأقل لم يسمعوا حكاية اعتقاله.

كانوا يفرّجون عن همومهم مستندين إلى ذلك القول الشائع: إللي بشوف مصيبة غيره، بتهون عليه مصيبته! مع أن أحد الكتاب أثبتَ في رواية له أن هذه النظرية الشّعبية غير صحيحة!

كان بشارة على وشك أن يبدأ، لكن العجوز أبو متري، بدأ يسرد حكايته، فأدركوا أنه لم يسمع اقتراحهم، أو أنه لا يستطيع الانتظار أكثر مما انتظر، كي لا ينفجر.

كان الجنود قد اعتقلوا أبو متري في بيت جالا، حينما كانوا يطاردون شباب الانتفاضة وأطفالها الذين التجأوا إلى باحة منزله فعلا؛ تسلّقوا السّور، طرقوا الباب الداخلي، لم يفتح أحد، قفزوا إلى باحة البيت التالي. اقتحم الجنود بيت العجوز، طرقوا بابه لم يفتح، حطموا الباب، فوجدوه جالسًا يتابع نشرة الأخبار في التلفزيون، وقد أغلق الصوت.

كان يمكن أن يكون صوت التلفزيون حجّة كافية، ليقول إنني لم أسمع الطرَقات على الباب، لكن الصوت كان مكتومًا.

فتّشوا البيت، لم يجدوا سواه فيه، اعتقلوه.

كان يتأمل الحياة وهو يسرد حكايته، ويلعن الدنيا بين حين وآخر، كفاصلة بين مقطع وآخر، فيتنهّد ويقول: طز في هيك عيشة! حين كنت شابًّا رفضتُ دفْع الخاوة والضريبة للأتراك، فحبسوني، وفي عام 35 اقتلع الإنجليز 429 شجرة من أشجاري المثمرة؛ زيتون، ليمون، أجاص، عنب، بتهمة انتمائي لفرق الحراسة الليلية لبيت جالا، مع أنني، والله، كنت في اللجنة الاجتماعية الاقتصادية! أيْ طز في هيك عيشة! وفي عام النكبة ألقى اليهود القبض عليّ، وكنت في حيفا، وأخذوني إلى معسكرات السُّخرة[18]، لكنني استطعت الهرب مع اثنين آخرين، وفي عام 55 اعتقلني الأردنيون لأنني وقّعتُ على وثيقة موجّهة لمجلس النواب ضد الأحلاف العسكرية، وفي عام 56، بعد أن أطلقوا سراحي، اعتقلوني مرّة أخرى، لأنني شاركت في مظاهرة ضد العدوان الثلاثي. أيْ طز في هيك عيشة! وفي عام 76، تذكرون أكبر مظاهرة شهدتها بيت ساحور، وشارك فيها ثلاثة آلاف إنسان، احتجاجًا على مجزرة تل الزعتر. كنت فيها، واعتُقلت. وحينما شاركتُ في مظاهرات ضد زيارة السادات لإسرائيل واتفاقيات كامب ديفيد اعتقلني الإسرائيليون مرّة أخرى، وقبل الانتفاضة.. وفي الانتفاضة! طيب وبعدين؟ هل أطال الله عمري إلى هذا الحدّ لأظلّ أتنقّل من زنزانة إلى زنزانة؟! أيْ طز في هيك عيشة!

وصمت العجوز، كانوا مطْرِقين، يستعيدون مسار الحكاية من بدايتها حتى الكراسي المعدنية التي يجلسون عليها. لم يستطع سلمان، والد الطفل الوحيد، الذي أستشهد اختناقا بقنبلة غاز، أن يمنع نفسه من أن يصيح: بس نفسي أعرف شو الحكمة من وجود الشَّرّ؟ فرفع كلّ من في صالة الاعتقال رؤوسهم في الوقت نفسه، معتقدين أن ذلك الرجل، صاحب السؤال، قد عاد. تصفّحوا الوجوه بحثًا عنه، سرّهم أنه غير موجود. وظهر جنديان بالباب، سمعوا السؤال أيضًا، لكنهما ابتعدا، انتابهما حسّ بأنهما تخيّلا سماع السؤال، لا أكثر، عندما لم يعثرا على صاحبه في الداخل!

عاد الصمت إلى الغرفة، قبل أن يقول أحد المعتقلين: أنا وليد، الوحيد بينكم الذي لا يعاني إلّا من إصابة عمل، وضحك كثيرًا، فضحكوا. رُبع شعبنا على الأقل يعاني من إصابات يمكن أن أسميها: وطنيّة، أما أنا فلا أعاني إلا من إصابة عمل، أظن أن باستطاعتكم أن تسدّوا آذانكم لكي لا تسمعوا ما سأقول، فمن هو المجنون الذي يستمع لواحد، مثلي، مصاب إصابة عمل في وطن واقع تحت الاحتلال؟!

وأحب أن أشجعكم أكثر على ألّا تسمعوني، لأنني لم آتِ إلى هنا لأنني رميتُ حجرًا أو سواه، أو شاركت في مظاهرة، أو شتمتُ جنديًّا أو جنرالا أو رأس دولة الاحتلال.

صمتَ قليلا، وهو ينظر إلى وجوههم، فوجدهم يتابعونه، فقال، عجيب، لو قلت لكم اسمعوني لما سمعني نصفكم، على الأقل!

- أظن أنك شوَّقتنا أكثر، قال جورج العاشق.

- كلّنا آذان صاغية، قال بشارة، وتبين له أنه أخطأ في ذلك، لأن أذُنَي الختيار أبو متري غير مؤهّلتين لسماع الحكايات.

تنحنح وليد، وقال: لقد أصرّوا على تفتيش ما أحمله، ولم أُعارض، فهذا زمان الجنون. أنزلتُ ما أحمله، وأنا أتحدّث مع نفسي: ولكن كيف يمكن لشيء كالذي أحمله أن يكون عرضة للتفتيش؟! أحد الجنود طلب مني أن أُغلق فمي، فأغلقتُه، إلى حين طبعًا! وكنت أخشى أن ينتبهوا إلى إصابة العمل التي في ذراعي وأن يتعاملوا معها كإصابة حرب، أو مظاهرة أو اعتقال. أنزلتُ كُمّ قميصي وأخفيتها. الحمد لله، لم يروها.

فتشوا ما كنتُ أحمله، ولم يجدوا شيئا، ثم اتّفقوا على أن هناك مكانا سريًّا فيه، فكسروه لكي يعثروا على ما أخبئه. عندها، لم أتمالك نفسي، وصرخت: أفهم أنني تحت سلطة الاحتلال، لكن هذا جنون.

ضربوني، ثم أحضروني إلى هنا.

- وما الذي كنت تحمله، وكسروه؟

- لوح زجاج، وغير ملون.

- لوح زجاج، وغير ملّون؟!

- لوح زجاج، ولو كان ملونا، لقلتُ هناك وجهة نظر! فهم لا يستطيعون أن يروا بوضوح ما خلفه، فيه، لكنّه شفاف، فاهمين شو معنى شفاف؟!

وصمت قليلا قبل أن يختتم كلامه: غريب أمركم، من هو المجنون الذي يتعِب نفسه بالاستماع لواحد مثلي مصاب إصابة عمل، في وطن واقع تحت الاحتلال؟

- واضح أننا جُننا كلّنا، أجاب بشارة.

- وأولكم أنا، قال جورج العاشق.

مَهمّة مفاجئة!

كل من ظنّ في لحظة ما، أن ما قامت به بيت ساحور من خطوات تمهيدًا للوصول إلي يومها الكبير، يوم العصيان، كان صدفة، اكتشف فيما بعد، أن لا شيء حدث مصادفة، أو أن حُسن الحظّ يقف وراء ذلك. لكن كثيرًا من الأمور ما كان لها أن تبلغ مداها لو لم تقع تلك الحوادث الكبرى في مدن وقرى أخرى.

لم يكن المجلس الفلسطيني للتقارب بين الشعوب، الذي تأسّس في المدينة، يتوقّع أن تكون الاستجابة لدعوته التي وجهها للعالم، لمناصرة بيت ساحور، مفاجئة إلى ذلك الحدّ.

في مساء يوم الجمعة الذي أُعلِن موعدًا لاستقبال المناصرين الأجانب، كان الأمر متواضعًا، إذ لم يحضر سوى عدد قليل. بعض أعضاء لجان المجلس بدأوا يشككون في إمكانية النجاح، ومن لم يقل ذلك جهرًا، كان يحاسب نفسه بقسوة، ويعيد محاكمة آرائه من جديد، بصمت، في وقت أعاد فيه البعض سبب قلّة عدد المشاركين إلى أن العمل على تعميم الدّعوة كان بحاجة لجهد أكبر ووسائل أفضل.

المناصرون الذين أتوا، كانوا يتأمّلون بدورهم أنفسهم، ويتأملون المستقبِلين لهم خجلين، لا من أنفسهم، بل من أولئك الذين لم يحضروا. بعضهم لم يستطع أن يُبعد الخوف عن قلبه، وهو يرى أن عددًا ضئيلا من المناصِرين، سيسهِّل على الجيش عملية سحْقِهم في لحظات. سيجمعهم في صندوق شاحنة واحدة ويُلقي بهم بعيدًا، إلى أي مكان، ليعودوا على أقدامهم من حيث أتوا، بعد أن يُكسِّر عظامهم أيضًا.

لكن الأمر لم يستمر على النحو الذي بدأ فيه، إذ بدأت أعداد أخرى بالتّوافد، وكلما لمح الذين وصلوا مبكرين مجموعة قادمة من جهة مفرق الطريق الصاعد إلى بيت لحم، أحسّوا بفرح أكبر، وبقوة خفية تتسلل إلى عمق أرواحهم.

قبل أن تغرب الشمس، كان عدد الذين تجمّعوا في الساحة الصغيرة أمام باب البلدية، أكثر من أربعمائة مناصر.

مع وصول العدد إلى ذلك الحدّ، بدأت مشكلة أخرى لم يحسب لها المجلس حسابا، فكيف يمكن توفير الأماكن التي ستستوعب كلّ هؤلاء؟! كيف يُمكن أن يقوموا بإطعامهم وإيوائهم، والمحافظة على سلامتهم؟

كانت أعدادهم تفوق قدرة البلد على استيعابهم.

شريط تكسير عظام الشّابين كان قد ترك أثره في كلّ من رآه. كانت دموع بعض القادمين تتفجّر، حين يسأله أعضاء اللجنة عن سبب قدومه وهو يجيب: لأنني لا أريد أن أرى عظام أيٍّ من أطفالكم تتكسّر وأنا جالس في بيتي أتابع نشرات الأخبار.

على البيوت الأكثر عرضة للمداهمة، تمّ توزيع المناصِرين، تليها البيوت التي لا شيء فيها يمكن أن يكون سريًّا، بيوت كبار السنّ الوحيدين، الذين كانوا بحاجة أصلا للرعاية، أما المدارس، فقد أغلقتها قوات الاحتلال مبكرا، في محاولة منها لوقف امتداد واستمرار الانتفاضة، كما أغلقتِ الجامعات، التي غدا الوصول إليها مستحيلا، أصلًا، بسبب إغلاق الطرقات بينها وبين القرى والمدن والمخيمات.

هدأت الأمور بمجرد أن توزّع المناصرون في البيوت، أصبح عدد دوريات الجيش أقلّ، وكذلك الاقتحامات النهارية والليلية. عند ذلك، طلب إسكندر عقد اجتماع طارئ، أعلَم فيه الحاضرين أن المبلغ اللازم لشراء الأبقار قد تمّ جمعه.

- ومتى سنشتريها؟ سأل صاحب المستودع.

- الليلة، فمنذ شهور لم تعش بيت ساحور هدوءًا كهذا، بفضل وجود المناصرين الأجانب والصحفيين، والمصورين.

- الليلة؟! تصاعدت الأصوات.

- الليلة، لأننا ببساطة سنتحرّك جميعنا، الآن، لجلب البقرات.

- الآن؟!

- الآن، وليس مسموحًا لأيّ منّا أن يعتذر عن الذهاب، أيًا كان، ومن سيعتذر سيبقى هنا، في هذه الغرفة لا يغادرها، إلى أن نضع البقرات في المستودع.

كان التحذير واضحًا وقاطعًا. كل من هناك أحسّ بأنه سيضع نفسه موضع شكّ، إذا رفض الذهاب.

- هل هنالك من لا يريد الذهاب؟ سأل إسكندر.

لم يسمع صوتًا.

- إذن سننطلق الآن، فعسى أن نستطيع العودة بها قبل غروب الشمس.

حين خرجوا من البيت وجدوا شاحنتين عملاقتين في الخارج، محرّكاهما يهدران، وسائقاهما ينتظران الأمر بالتّحرك، وقبل أن يصعدوا إليهما، تغير الطقس فجأة، وبدأ مطر غزير بالتدفّق.

- أظن أن علينا تأجيل الموعد. مع طقس كهذا لن نستطيع القيام بأي شيء.

- إذا لم نفعلها اليوم فلن نستطيع غدًا، قال إسكندر.

وبدأت قنوات من المياه تتشكل هابطة من السفح باتجاه سهل الرّعوات.

كان هنالك المهندس والطبيب البيطري، مزارعون، أستاذ جامعة، نجّار، وصاحب محلّ للتّحف الخشبية، لحّام، صيدلاني، أساتذة مدارس ومطهّر أولاد لم يعرف الحكمة من وجوده، ما داموا يريدون شراء قطيع من الأبقار ليس فيه ثور واحد!

أصرّ إسكندر على أن تكون جميع البقرات حوامل، وفي رأسه هدفان: عُجول جديدة، وحليب أكثر. لكن مفاجآت اللحظة الأخيرة التي يخشاها كانت في انتظاره؛ فأصحاب مزرعة البقرات اليهود، في ذلك الكيبوتس، أبدوا تراجعًا عن البيع!

ـ لقد اكتشفنا أن السّعر الذي طلبناه أقل بكثير من الثمن الحقيقي للبقرات، وبخاصة أننا لا نبيعكم ثماني عشرة بقرة، بل على الأغلب ستًا وثلاثين بقرة، ففي كل بقرة، بقرة أخرى ستولد بعد حين. قال مسؤول المزرعة.

هزّ إسكندر رأسه وهو يستمع إليه بهدوء شديد، ثم سأل:

ـ وهل هنالك أسباب أخرى، تجعلكم تتراجعون عمّا اتّفقنا عليه؟

ـ هناك سبب هو الأهم، لأننا نظنّ أن ما نقوم به ضد سياسة الدولة، في الوقت الذي تخوض فيه الدولة معركة مع رماة الحجارة والمولوتوف.

ـ في ظنّي أن هذا السبب أكثر إقناعًا لي من السبب الأول! مع أننا اشترطنا منذ البداية أن تكون البقرات حوامل؟ والتفتَ إلى من جاؤوا معه، وقال: علينا أن نتحرّك فورًا، قبل مغيب الشمس، إلى الخيار الثاني، بعد فشل خيارنا الأول!

التقط المرافقون له الإشارة، فاستداروا بصمت نحو الشّاحنتين اللتين لم يهدأ محركاهما عن الدّوران.

ـ انتظر لحظة؟ سمعوا صوت مسؤول المزرعة يصيح، بسبب ارتفاع صوت المحرِّكين.

توقّف بعضهم، لكن إسكندر واصل طريقه كما لو أنه لم يسمع.

ومرة ثانية جاءه الصوت، أخذ نفسًا، ثم استدار:

ـ هل لديك شيء جديد تقوله لنا؟

ـ أظن أن مبلغًا إضافيًّا يمكن أن يحلَّ المشكلة التي بيننا.

ـ المسألة مسألة مبدأ، فقد اتفقنا، ولم نأتِ إلى هنا إلا لأننا متفقون.

ـ ألفا شيكل إضافيان سيحلّان المشكلة.

ـ ولماذا علينا أن ندفع ثمن مشكلة خلقتموها أنتم؟! سأله إسكندر.

- لنقتسم المشكلة بيننا إذًا، عليكم النصف وعلينا النصف.

- لا أستغرب اقتراحك، فقد ساقنا قدرنا دائما لأن نحتمل مشاكلكم كلّها! ردّ إسكندر.

- هل أقول مبروك إذًا؟!

مطاردات ليلية!

- إذا أردت أن تُسيطر على أيّ بقرة وتتحكّم بها، فإن عليك أن تُمسِك بذيلها وتلويه، عند ذلك ستصبح أضعف من دجاجة!

في تلك العتمة، تحت مطر آذار الغزير توقّفت الشاحنتان بجانب ذلك المستودع الذي تحوّل إلى حظيرة، حظيرة جُهّزت بما اعتقدوا أنه كان لازمًا لكي تعيش الأبقار فيه بسعادة، دون أن ينقصها شيء؛ وبالغوا في كمية الأعشاب التي أحضروها لها كغذاء بحيث كانت علامات الكرم فائضة عن الحدّ. ربيع آذار المبكر كان يانعًا وكثيفًا. أرض خضراء على مدّ البصر، وفي الأزقة والشوارع.

حفنة تراب واحدة كانت تكفي لتعلو النباتات البرية بين شقوق الصخر، وأسفل جدران البيوت والأسوار، وتفوح روائحها الأخاذة، ما دفع كاترين لأن تقول قبل أيام وهي تتأمل الأعشاب النظيفة النّضرة: والله نفس الواحد يصير غنمة!

* * *

أبرقت، قبل أن ينفجر رعد مجنون جعل البقرات تتدافع باحثة عن ملجأ يحميها.

لم يكن الطبيب البيطري سوى طالب سنة أولى في الجامعة، لكن التّعامل معه كطبيب، كان يعطيه الكثير من الثقة، كما يعطي الآخرين الأمل في أنّ البقرات ستكون في أيد أمينة؛ وإن كان سيتبين لهم بعد لحظات، أنه إن كان درس شيئا في سنته الجامعية الأولى، قبل إغلاق الجامعات، فإنه لم يتجاوز مرحلة العناية بالصيصان، لا أكثر!

لم يكن دفْع البقرات للصعود إلى الشاحنتين صعبًا، فهناك ممرّ سيقتْ إليه، وعوارض خشبية قوية وضِعتْ بين الأرض والصندوق، فصعدت البقرات كما لو أنها تخرج من حظيرة وتدخل أخرى قبل أن تنتبه لما يدور. لكن خروجها من الصندوقين ودخولها في الحظيرة كان أمرًا صعبًا، حتى، قبل أن يبدأوا بتنفيذه.

الطبيب البيطري لم يؤكد إن كانت مسألة التحكّم بالبقرة من خلال ليِّ ذيلها خرافة أم حقيقة، واعترف ببساطة أنها المرة الأولى التي يتعامل فيها مع كائنات ضخمة بهذا الحجم! وتدارك: أعني أنها أكبر من أبقارنا، فهذه أبقار هولندية عملاقة، وكل ما نعرفه عنها أننا لم نرَ، من قبل، غير وجوهها، على مثلثات جبنة البقرة الضاحكة التي تملأ الأسواق!

لم يكن الليل والمطر يتيحان لأي واحد منهم التأكّد مما قاله الطبيب، فالبقرات خائفات من توالي نوبات البرق والرّعد واشتداد المطر، وإن أتيح لأحدهم أن يشاهد وجهَ بقرة خطفًا، فقد أحسّ بأنها بقرة لا علاقة لها بالضحك، فملامحها حزينة، خائفة، أو غاضبة.

لم تكن هنالك أي بقرة تبتسم. هذا ما تأكّد منه الجميع، وبخاصة حين فُتح باب صندوق الشاحنة الأولى، وتمّ تثبيت العوارض الخشبية بين الأرض والحافة العالية، وأمسك بعض الرجال بأذنابها.

بسرعة اندفعت البقرات. كان يمكن أن تسحقَ بعض أولئك الذين ينتظرونها على الأرض ملوّحين بأيديهم مثل شرطة المرور، أو العمال، الذين يقفون ملوِّحين، أمام تحويلات الطرق، وهم يشيرون لها أن تتوجّه نحو باب الحظيرة. لم ترهم البقرات، شقّت طريقها كأنهم ليسوا هناك. وأرعدت مرة أخرى، فتفرّقت، كأن قنبلة صوتية، ألقتها دوريّة، سقطت وسطها.

إسكندر الذي كان يرتدي بدلة رمادية وعباءة سوداء، لدواعي الظهور بمظهر الخبير، المحترم، في ذلك الكيبوتس، وجد نفسه يُلقي بالعباءة، ويخوض في الطين، متحسسًا في العتمة ذنبًا أسود لبقرة سوداء بحجم شاحنة صغيرة. عثرت أصابعه على الذَّنَب، أمسك به، تسارعت خطواته ليمسك به بصورة أفضل، نجح. لم يكن ذلك أمرا يعني البقرة حتى تلك اللحظة، البقرة المندفعة المطمئنة لقوّتها، لكنه ما إن لوى الذَّنب حتى توقفتْ فجأة فارتطم بها، دون أن يترك ما في يديه. لم يكن صعبًا على إسكندر أن يعرف أنه أغضب البقرة بحركته تلك. وقفت البقرة للحظة، لكنها اللحظة

المشحونة بكل الاحتمالات، وببطء أدارت رأسها لترى من ذلك الذي علِق بذنبها، فوجدت ظلّ رجل ضخم. بسرعة استدارت، بكامل جسدها وواجهته. في تلك اللحظة أدرك إسكندر أنه هالِك. وقبل أن تتقدّم نحوه، كان الطبيب البيطري يقوم بأول تجربة له في مجال تربية الأبقار، إذ أمسك بذيلها الذي أفلته إسكندر، ولواه، أخذت البقرة نفسًا عميقًا، وكأنها تتساءل: أيّ ليلة سوداء هذه؟! بسرعة استدارت نحوه، وبدل أن تتأمّله كما تأمّلت إسكندر، اندفعت نحوه، فأمسكها من أذنيها، متحلِّيا بكل رعونة الشباب، وما هي إلا لحظة حتى رأوا الطبيب البيطري يطير في الهواء ويسقط في بحيرة من الطين.

اكتفت البقرة بذلك، لم تتبعه لتدوسه، بل تصرّفت كبقرة ناضجة، تعرف أن هدفها هو إيجاد مخرَج من تلك الورطة التي وجدت نفسها فيها.

في البرّ راحت تعدو، وخلْفها تعدو الأبقار الأخرى، بعد أن فشلوا في إنزال الأبقار، بسلام، من الشاحنة الثانية أيضًا. في وقت تسلّم فيه مُطهر الأولاد، دقّة القيادة، كما خُيّل إليه، هو الذي أصبح فجأة، في طريق العودة، خبيرًا في حيوانات البرّ والحيوانات الدّاجنة على السواء؛ مُعلنا أن فرص الإمساك بها، تكون أفضل، في الظلام!

ركضوا وراءها، ولم يكن صعبًا على أيّ منهم أن يتحسّس، بجلده، ذلك الطين الذي يغطي ملابسه، ووجهه ويديه.

وبدأ الثلج بالتساقط.

في لحظة ما، اعتقدوا أن البقرات تعبت، عندما رأوا واحدة تتوقّف، وبعد قليل توقّفت بقرة أخرى إلى أن توقّفت جميعها.

تفاءلوا خيرًا.

.. ورأوها تستدير.

قالوا، ها هي تعود من تلقاء نفسها إلى الحظيرة، مستسلِمة، بعد أن خارت قواها.

سارت نحوهم بهدوء، ثم تسارع سيرها، تحوّل إلى اندفاع، فأيقنوا أن البقرات قد حدّدت هدفها أخيرًا: أن تسحقهم. تفرّقوا باحثين عن أرض تتسع لخطواتهم أو شجرة يحتمون خلْفها، صخرة أو سنسلة.

عندما توقفوا، كانت البقرات الثماني عشرة قد اختفت تمامًا، لا البرق يكشفها مهما أضاء ولا أعينهم تراها مهما اتّسعت.

* * *

كان لا بدّ من طلب النجدة، فانطلق الشباب منهم إلى القرى المجاورة، باحثين عمّن هو مستعدّ للمساعدة، في ليلة لو تمّ فيها تحريم المساعدة، لكان الأمر منطقيًّا، بسبب البرد والثلج الذي تكاثر، والطين السّميك الذي يقبض على أحذيتهم بقوة، مُعيقًّا خطواتهم ومُقصِّرًا مداها؛ بعضهم يتزحلق، آخر يتعثر، وأخر لا يعرف الجهة التي عليه أن يركض صوبها.

بعد ليلة طويلة، لا شمس في نهايتها، طلع النهار، وبعد خمس عشرة ساعة من المطاردة، وصلتْ أولى البقرات إلى باب الحظيرة.

* * *

لم يكن من السَّهل إبقاء أمر البقرات سرًّا، البقرات التي راحت تتجمّع واحدة بعد الأخرى في الحظيرة، وخلفها أناس منهكون لفرط ما طاردوها. وقبل أن تدخل البقرة الثامنة عشرة، كان خبر الحظيرة، وما تُضمِره من نوايا غير خفيّة، قد وصل إلى مكتب ناحوم نوردو، الشهير باسم الكابتن داود.

آخر خطر كان يمكن أن يتحرّك ناحوم ليزيل آثاره، هو عدد من البقرات! رغم أن عمر كراهيته للأبقار أتمّ الأربعين عامًا في تلك السنة.

ليلة في بيت الأعداء!

وجهًا لوجه وجدتْ مريم، أم جاسر، نفسها معه، أدركت أنه سمع صوت أقدامها؛ كان يحاول الهرب، ولأن نوافذ الحظيرة عالية، لم يجد أمامه غير الباب.

كان يرتجف، بدا لها في السابعة عشرة، دار حول نفسه عدّة دورات باحثًا عن مخرج يعرف أنه غير موجود. هي تعرف أن باستطاعته دفْعَها جانبًا، أو إلقاءها أرضًا، والخروج، حتى قبل أن تصيح! لكنه لم يفعل، كان أشبه بطائر علِقتْ قدماه وجناحاه في طين سميك.

أشارت له أن يهدأ. هدأ جسده، عيناه كانتا تدوران بفزع في محجريهما. أغلقتْ باب الحظيرة، انتشرت العتمة، عصف الخوف بكل خليّة فيه.

ستقتله، فكّر في ذلك، ستقتله امرأة! امرأة عربية، أحسّ بعار شديد، وعلى الرّغم من أنه كان يدرك أن أحدًا لن يعرف أن امرأة عربية قتلتْه، إلّا أن ذلك لم يوقف موجة العار التي غمرته. سيعيش موته في العار، في قبر من عار، في جحيم من عار!

امتدّت يد مريم نحوه. تراجع.

ستعذِّبه، ستظلّ تعذّبه في هذه الحظيرة إلى أن يموت، سيصرخ دون أن يسمعه أحد، سيبكي، سيتألم، ولن يواسيه أحد؛ فكّر ناحوم.[19]

* * *

المعركة التي حدثت ليلة أمس كانت ضارية. انسحبتْ الكتائب الصهيونية نحو الغرب، اكتشف أنه عالق في الشرق. أن يتبعهم فهذا يعني أن يُقتَل، في وقت كانت فيه القرى الفلسطينية، في

المنطقة، كلها مستيقظة، سواء تلك التي خاضت المعركة أو تلك التي تابعتها عن بعد.

أيّ مكان يمكن أن يختبئ فيه كان نعمة لا يستطيع التنازل عنها.

سار عبر كروم الزيتون، تجاوز سناسل حجريّة، صعد وهبط، غابت الشمس، فرح لذلك، لكن غيابها كان يُشرع أبواب الاحتمالات كلّها، كأن يجد نفسه وجهًا لوجه مع رجال مسلحين في الظلام.

إنه وحيد، ولا يستطيع مجابهتهم، لن يستطيع مجابهة حتى رجل واحد، فالمجابهة تعني أن يُطلق النار، وذلك يعني: أن يسمع أهل القرى صوت الرصاص وينطلقوا نحو مصدره.

بندقيته التي في يده تحوّلت إلى ورطة، ورطة كبيرة. توقّف، دار حول نفسه، لا شيء سوى ظلال الأشجار الغامضة، ظلال لا يستطيع أن يعرف ما تُضمِر، فهو غريب تماما عن المكان، ولولا أنه رأى الشمس تغيب خلفه، لما عرف أنه عالق في الشرق.

تحسّس الأرض بيديه، بدأ يحفر. غصن ناشف اخترق راحة يده اليمنى، كان أشبه بطعنة، صاح، لكن يده اليسرى كانت أسرع من صرخته، يده التي أطبقتْ على فمه، وكأن اليد تسأله: ما الذي تفعله أيها الغبي؟!

كتم صرخته.

لم يكن بمقدوره أن يستخدم يده اليمنى ثانية. ألمٌ، ولا شيء سوى الألم. بقدميه، دفع التراب فوق البندقية التي استلقت عديمة الجدوى أسفل السنسلة، محاذرًا أن يخترق قدمه ذلك الغصن الغامض.

فكّر: سيضع عليها الحجارة أيضًا. أمسك بحجر من السنسلة، لم يكن باستطاعته حمْله مع وجود يد مصابة نازفة.

تذكّر الدم، سيفضح الدّم المخبأ.

وضع يده المصابة في جيب بنطاله. دفعها إلى أقصى حدٍّ يمكن أن تبلغه، وهناك، لامستْ أصابعه تلك الرّصاصة التي في قعر الجيب. كانت رصاصة حظّه، الرصاصة التي أطلقها على أول

فلسطيني قتله. صحيح أن رفاقه في المجموعة قدّموا له ذلك الفلسطيني كهدية، ليستطيع بعدها أن يقول إنه قَتَلَ، لكنهم طلبوا منه أن يُخرج الرصاصة من ذلك الجسد القتيل. تردّد، قالوا له: هل تريدنا أن نعتبرك وقحًا إلى ذلك الحدِّ الذي ترفض فيه هديتنا؟!

- ولكنني قبلتُ الهدية، وقتلتُه!

- هذا صحيح، لكنك ترفض أن تفتحَ الهدية، وهذه هي الوقاحة.

بطرف خنجره وأصابعه المرتعشة حفر كثيرًا إلى أن أخرجها.

- هل تعرف ما الهدية التي قدمناها لك الآن؟

- أجل، هذا العربي، لأقتله.

- إجابة خاطئة، لقد قدّمنا لك رصاصة الحظّ.

- رصاصة الحظّ؟!

- هذا صحيح، وعليك أن تحرص عليها جيدًا منذ الآن.

* * *

بيده اليسرى، بدأ برفع الحجارة الصغيرة؛ وضعها فوق البندقية، دون أن تتوقف قدماه عن إزاحة التراب فوقها وفوق الحجارة.

كان عليه أن يتحرّك، فالوقت خطر كبندقية لا يستطيع صاحبها استخدامها؛ حدّق ما استطاع، محاولا أن يرى آثار دم، لم يرَ شيئًا.

اعتلى السنسلة، وقبل أن يهبط شاهد ضوءًا خافتًا، لم يملك إلا أن يسير نحوه وهو يستعيد حكمة أبيه الأثيرة: إن أفضل مكان يمكن أن تختبئ فيه هو بيوت أعدائك؛ فهي الأكثر أمانا من غيرها! أما أفضل حياة يمكن أن تعيشها، فهي الحياة التي تعيشها في تلك البيوت بعد أن تتخلّص من أولئك الأعداء!

* * *

كان هنالك بيت، وهنالك حظيرة على بعد سبعين مترًا منه. سمع خوار بقرة ونهيق حمار، وثغاء ماعز.

لم يكن موعد نوم الحيوانات قد حان!

بحذر سار نحو الحظيرة. تجاوز سنسلة منخفضة، جرى نحو جدار الحظيرة المواجه له، وصله، توقّف؛ هيئ له أن الحيوانات صمتت فجأة. كانت قد صمتت فعلا. أراحه هذا.

مشى على قائمتيه المطويّتين تحته، حتى بلغ نهاية الجدار، أخرج رأسه من بين كتفيه، نظر باتجاه البيت.

لا أحد.

بسرعة انطلق، فتح باب الحظيرة وأغلقه خلفه.

أدرك أنه ارتكب خطأ كبيرًا، ماذا لو كان هناك من يُطعِم الحيوانات في الداخل؟

كتم أنفاسه. توقّف قلبه.

لا أحد..

عاد الهواء إلى صدره، عادت الحياة تدب في قلبه، وقبل أن يفرح بذلك، اختلطت أصوات الحيوانات التي فوجئتْ بوجوده، تعالت أصواتها. تراجع خطوتين، سمع صوت أقدام من الخارج، وامرأة تحدّث شخصًا ما:

- أظن أن أصوات الرصاص التي أفزعتْها عصرًا لم تزل تئزُّ في آذانها!

وثانية دار حوْل نفسه، وقبل أن يُشرَعَ الباب، اندسّ في كومة من القشّ.

- وبعدين معاكن؟! لا نايمات ولا مخلْياتْنا ننّام! خلاص، كل شي انتهى، استريحن وريْحنّا!

وعمّ الصمت طويلا، قبل أن يسمع ذلك الذي في كومة القشّ البابَ يُغلق والأقدام تبتعد.

* * *

قرّر ألا يتحرّك؛ أن يتحرّك فذلك يعني احتمال عودة الفوضى للحظيرة من جديد، وعودة صاحب الحظيرة هذه المرّة.

أخرج أنفه من بين القشّ.

لم تصدر عنه حركة حتى الصباح.

لم ينم. كان أكثر ما يقلقه أن يُطلّ الصباح وهو مكانه، ويقلقه، أن يخرج قبل شروق الشمس؛ سيضيع. كان لا بدّ من الشمس ليعرف ذلك الغرب الذي سيمضي إليه. يُقلقه أن قرى هوجمت عصر اليوم الفائت، لن ينام رجالها تحسُّبا لأي هجوم آخر.

لم يجد حلًّا غير أن يبقى في مكانه، فهو المكان الوحيد الآمن.

* * *

دبّت الحياة في الخارج، أصوات متقاطعة، لم يستطع تمييزها. فُتح باب الحظيرة.

كان قد غير مكانه؛ فعلى الرغم من أن الربيع يملأ الأرض بالخضرة في الخارج، إلا أن ذلك لا يعني أنهم لن يُقدِّموا العلف لحيوان ما، لسبب ما، أو لعلهم سيأتون لحلْب أبقارهم.

تجمّد في مكانه إلى أن هدأت الأصوات تمامًا.

كانت الحيوانات تبتعد، والصمت يهبّ من كل الجهات، لولا تلك الأصوات التي تصدر عن إحدى الأبقار؛ البقرة التي أدارت رأسها في كل الجهات تتشمَّمُها، ثم سارت نحوه كما لو أنها هي التي وضعتْه في كومة القشّ!

لم تأكل، نثرت القش برأسها، فإذا به أمامها. عيناها تحدّقان إلى عينيه، ورائحة أنفاسها الحارة الثقيلة تلفح وجهه. تجمّد.

رفعت البقرة البيضاء ذات الجلد المرقّط بالبقع السّود رأسها وأطلقت صوتا غريبا لم يسمعْه من قبل.

ستأتي البقرات، سيأتي الثور، ستدوسه قبل أن يتحرّك.

تعالت أصوات الأبقار وفوضاها، لكنها لم تأت. رفعت البقرة قدمها اليمنى وضربت القش بقوة، مرتين.

تناثر القشّ. دفعتْ رأسه برأسها، سال لعاب ساخن على وجهه.

قرّر ألا يتحرّك.

فجأة، رفعت قائمتيها الأماميتين في الهواء، كما يفعل حصان، وهوت بكل ثقلها نحوه. قبل أن تتمكّن من سحقه، ابتعد بسرعة، التصق بالحائط. حاولت البقرة صعود كومة القش التي تفصلها عنه، لم تستطع، دارت في المكان باحثة عن طريق إليه، دون أن ترفع عينيها عنه. قرّر أن يختبئ خلف البرميل الذي اختبأ خلفه قبل ذلك. ظهْره إلى الحائط، وسائرا بشكل جانبي، مضى يتقدّم نحو البرميل، وصله، اختفى كما لو أنه سقط في بئر.

وقفت البقرة طويلا محدّقة في الفراغ الذي تركه، حرّكتْ رأسها بغضب يَسْرة ويَمْنة، أعلى وأسفل، ثم استدارت مبتعدة.

اطمأن إلى أنها لن تعود.. أخرج رأسه من خلف البرميل. لم تكن هناك.

تلك كانت اللحظة الأفضل لكي يبتعد.

تقدّم نحو الباب، سمع صوت أقدام، كان الوقت قد فات على أيّ تراجع.

وجهًا لوجه وجد نفسه مع مريم؛ امرأة في منتصف الثلاثينيات من عمرها، طويلة، لكنه لم يستطع رؤية وجهها بسبب الضوء الذي يخترق باب الحظيرة خلْفها.

أخافه هذا أكثر.

القامات الطويلة تخيف دائما، حين لا يرى المرء وجوه أصحابها.

أغلقتِ الباب، تراجع، تلاشى غموض وجهها، اكتست ملامحها صرامة غير عادية، والتمعتْ عيناها بالوعيد. رأى ذلك الوعاء المعدني في يدها اليمنى، تراجع خطوتين، تعثّر، سقط. وضع راحتيه فوق رأسه متوقِّعًا ضربة تسحق دماغه. تذكّر يده المصابة التي لم يُخرجها من جيبه منذ ليل أمس، ستفضحه بما جفَّ عليها من دم. الدّم يجفّ لكنه يعود دمًا جاريا ما إن تقع عليه العين.

امتدت يدها نحو كتفه اليُمنى، أطبقت أصابعها عليها بقوة.

ستقتله، فكّر في ذلك، ستقتله امرأة! امرأة عربية، وأحسّ بعار شديد.

فم المصيدة!

- يريدون مزيدًا من الحيوانات؟ إذن فلندعْهم يعيشوا مع ما أرادوا! قال الكابتن داود تلك الجملة للضابط الذي أوصل المعلومة إليه.

- ليس من الخطأ أن تقابل عميلنا، يمكن أن ندبِّر وصوله إلى هنا دون أن يلاحظ أحد، وأظنّ أن لديه وجهة نظر تستحقّ أن نسمعها منه.

- إذا كان العميل صادقًا فيما قاله لك، فليس هناك ما يدعونا لأن نخشى وجود عدة بقرات إضافية في بيت ساحور، ثم إن الأيام ستكشف لنا نوايا من أحضروها، ما دامت البقرات ستبقى هنا، لأنها لحسن الحظ لا تملك أجنحة، وباستطاعتنا أن نصادرها متى شئنا.

لم يكن الضابط الذي حمل الخبر راضيًا عن تقييم رئيسه، لمسألةٍ، كان على يقين من أنها، خطيرة. اتّصل بالعميل، العميل الذي كان ينتظر مكافأة على سرعة أدائه لمهماته، وقال له: راقب الوضع عن قرب.

- ولكنهم أحضروا 18 بقرة، ماذا تريدون أن تعرفوا أكثر من ذلك؟!

- يريدون مزيدًا من الحيوانات؟ إذن دعْهم يعيشون مع ما أرادوا! لكننا لن نتحرّك قبل أن نعرف أهدافهم من إحضارها.

بعد خمسة أيام اتصل العميل ثانية، وقال للضابط:

- أظن أن عدد البقرات 36 بقرة، وليس ثماني عشرة.

- ما الذي يريدونه من كل هذا العدد؟ متى أحضروا البقية؟

- أحضروها في الوقت نفسه الذي أحضروا فيه الأبقار الأولى.

- وهل كنت لا تتقن العدّ في ذلك اليوم، والآن تعلَّمته؟

- لقد تبين أن الأبقار كلّها إناث، وكلّها حوامل، ولهذا السبب لم أستطع معرفة العدد الحقيقي، إلى أن خاطرتُ، واقتربتُ أكثر.

- عليك أن تقترب أكثر مما اقتربتَ إذًا.

- أقترب أكثر من هذا؟!

* * *

كان الكابتن داود لا يكفّ عن توجيه الأسئلة عن أولئك الذين أخضعهم للاعتقال النهاري، ولم تكن هنالك إجابة تريحه أكثر من: إنهم يعانون، على وشك الجنون.

كان يبتسم، وينسى مسألة الأبقار.

ذات ظهيرة مرّ من أمام غرفة الاعتقال، كانت الأعداد قد تزايدت، لكن الغرفة كانت أشبه بسوق لا بمكان توقيف. مدّ قامته مستطلعًا الأمر، كان هنالك من يقرأ وهنالك من يشرب الشاي، وهنالك من يأكل، ولم يكن ينقصهم سوى وجود مذياع ومحطات تبثّ الموسيقى والأغاني الراقصة، ليرقصوا!

- ما هذا؟ صرخ بأعلى صوته، رفع جميع من في الغرفة رؤوسهم، فوجد بشارة نفسه وجهًا لوجه مع الكابتن داود. وقبل أن يخطو الكابتن داود ليرى كل ما يحدث هناك بصورة أوضح، كان الجنود قد أصبحوا حوله.

- عليكم مصادرة أي شيء بحوزة هؤلاء، وإذا كان أحدهم يلبس أكثر من قطعتَي ملابس فصادروا القطع الأخرى.

* * *

بعد أقل من عشر دقائق كانت الأشياء التي صودرت قد تكوّمت في الممرّ، أمام الباب، روايات وكتب علمية، وكتب مدرسية، نسخ من الإنجيل والقرآن، ملابس، أباريق شاي وقهوة حافظة للحرارة، أكواب بلاستيكية، حطّات حُمر وسود وبيض.. وكما لو أن الشتاء حلّ فجأة أحس كل من في الغرفة بذلك البرد الذي راحت شدّته تزداد.

* * *

بعد نصف ساعة طرق مدير مكتب الكابتن داود بابه وطمأنه بأن كل شيء سار على ما يرام: لقد صادرنا كل ما لا يجب أن يكون في تلك الغرفة.

سأل الكابتن داود عن سير الأمور في الخارج، وإذا ما كانت هناك حوادث كبيرة.

- لا شيء سوى ما بات معتادًا، مظاهرات، رشق بالحجارة، أما البقرات..

لم يتركه الكابتن داود يكمل:

- وبعد؟! ماذا عن البقرات؟

- البقرات منذ ثلاثة أيام تقوم بإعادة شاحنات شركة تنوفا إلى المصانع التي أتت منها، دون أن يشتري أحد حليبنا.

- هل تعني..؟

- تماما!

- يبدو أننا لم..

بقي مدير مكتبه صامتًا.

- منذ ثلاثة أيام وهم يجبرون شاحناتنا على العودة بحمولتها كاملة؟!

- دون أن يكونوا مضطرين لإلقاء حجر واحد عليها، أضاف الضابط وكأنه يكمل كلام رئيسه.

- أظن أن عليهم أن يتذكروا منذ الآن أننا لم نكن نحن البادئين.

نظر الكابتن داود إلى ساعته، كانت تشير إلى الرابعة والربع مساء، وأعطى الأمر.

- سنبدأ اليوم بتطبيق حظر التجوال من الساعة الثامنة مساء حتى الثامنة من صباح اليوم التالي.

- الليلة فقط، أم كل ليلة؟

- سأفكّر في الأمر.

وقبل أن يصل مدير مكتبه إلى الباب، طلب منه العودة.

كان الكابتن داود مستغرقًا في التفكير، فتركه مدير مكتبه يفكّر دون مقاطعة، إلى أن رفع رأسه وقال:

- ربما كانوا يريدوننا أن نحدد مدّة حظر التجوال، لكننا إن فعلنا ذلك سنساعدهم، فلنتركهم غير قادرين على معرفة ما نخبئه لهم، غير قادرين على معرفة ما يلزمهم من طعام، من حاجيات، فليعيشوا حياتهم، منذ الآن، يومًا بيوم، قلقين.

- وهل تريدنا أن نعلن عن حظر التجوال الآن؟ سأله مدير مكتبه وهو ينظر إلى ساعته التي كانت تشير إلى الواحدة والنصف ظهرًا.

- قبل نصف ساعة من سريان الحظر، تبدأ عرباتنا بإعلان ذلك بواسطة مكبرات الصوت.

- ولكنها مدة غير كافية، في ظنّي، لكي نعمِّم الخبر على السكان.

- هذا ما أريده بالضبط، يريدون اللعب بالنار، لهم ذلك.

- وهل هنالك أوامر محددة لجنودنا أثناء حظر التجوال.

- مُطلَق الحرية في التصرّف حسب الحاجة.

* * *

في السابعة من مساء ذلك اليوم، كان صوت الريح مدوّيا في الخارج، السماء منذرة بالمطر، ولم يكن ذلك أمرًا يسرّ الكابتن داود الذي كان يراقب المشهد المظلم عبر نافذة مكتبه.

طرق مدير مكتبه الباب، دعاه للدخول.

- أظن أن المطر سيُفسد كل شيء، قال الكابتن داود بينما خطوات مدير مكتبه تقترب منه.

- تعني أن أحدًا لن يخرج من بيته أصلا ما دام الطقس سيئًا؟

- ليس هذا فقط، ففي أجواء كهذه سيتعذر على جنودنا أن يروا بصورة جيدة.

- هل أطلب من العربات المزوّدة بمكبرات الصوت البقاء هنا؟

- أترك بعضها تقوم بجولة. أما جنودنا، فليبقوا هذه الليلة في مواقعهم الآمنة، المعتادة، لا أريد دوريات راجلة، لا أريد أن يتعرّض أحدهم لأيّ خطر.

استدار مدير مكتبه ليخرج، وقبل أن يصل باب المكتب، توقّف وسأل:

- وهؤلاء الخاضعون للاعتقال النهاري، هل أتركهم يغادرون الآن كي يتمكّنوا من الوصول إلى بيوتهم.

- ليس الآن، دعهم قليلا هنا.

في تمام الساعة السابعة والنصف، وسط ظلام ثقيل رطب، خرجت اثنتا عشرة سيارة مزوَّدة بمكبرات الصوت من ساحة مقر الحاكم العسكري، وكلما غادرت واحدة منها البوابة بدأت مكبّرات الصوت فيها العمل.

لم يكن صعبًا على أولئك المعتقلين في الداخل أن يكونوا أول من يعرف بخبر فرض حظر التجوال، التفتوا إلى ساعاتهم، أحسّوا بالخطر.

بعد ربع ساعة اتصل مدير المكتب بالكابتن داود، وسأله: هل أترك المعتقلين النهاريين يغادرون الآن؟

- دعهم قليلا هنا.

بدأت المخاوف تتصاعد داخل غرفة الاعتقال، ولكن أي احتجاج كان سيضاعِف سوء الحالة التي هم فيها. بعض المعتقلين، وقفوا وراحوا يسيرون في الغرفة ما استطاعوا، وآذانهم تعمل على

رصد أي صوت لخطى تقترب من الباب.

في الثامنة إلا خمس دقائق سمعوا صوتا من بينهم يقول:

- أظن أن خروجنا الآن لا يعني سوى شيء واحد: موتنا.

في الوقت الذي كان مدير مكتب الكابتن داود يسأل:

- هل نتركهم يغادرون؟

- دعهم قليلا هنا.

- لم يتبق سوى خمس دقائق!

- لا تخف عليهم، هؤلاء شياطين، ويستطيعون الوصول إلى بيوتهم خلال ثوان.

في الثامنة، عمَّ الصمت.

- سنرفض المغادرة.

- خروجنا بمثابة توقيعنا على وثائق إعدامنا.

ولم يتّصل مدير مكتب الكابتن داود برئيسه، فهِمَ أخيرًا ما يدور في رأسه.

أما المعتقلون، فكان الشيء الوحيد الذي يمنحهم الطمأنينة أنهم ما زالوا بعد مُعتقلين.

في التاسعة، توقّف المطر، هدأت الريح، اتصل الكابتن داود بمدير مكتبه، وقال له: باستطاعتهم الآن أن يعودوا إلى بيوتهم.

رفضوا، وبعد دقائق كان عدد من الجنود يقتحمون الغرفة وينهالون بالضرب على كلّ من فيها، وما هي إلا دقائق حتى كان الجميع في الخارج، في البرد، بنصف ملابسهم.

كانت ليلة مظلمة، لم ينتبه أحد بأن خلف الغيوم هنالك قمر، حتى الكابتن داود لم يخطر بباله أن هنالك قمرًا، إلّا حين تباعدت غيمتان وشع نوره. قمر كامل.

هكذا تحوّلت تلك الليلة إلى ليلة من ليالي الصيادين.

ليلة الموت

لم يكن هناك سوى الموت في العتمة، تحت الشعاع الأبيض لقمر ليلة الإعدام. كل خطوة في ذلك الظلام تحوّلت إلى رحلةٍ لا عودة منها.

تفرّق المعتقلون..

منير قالها همسًا في آذانهم: فليذهب كلّ واحد منكم إلى أقرب بيت يعرفه، أقارب فيه أو أصدقاء.

وقفوا للحظات يتأمّلون الجهات، باحثين عن تلك البيوت؛ بيوت لم يدخلوا بعضها منذ أشهر، وبعضها منذ سنوات، بيوت لم يكن لهم خيار غيرها.

كان ذلك أفضل اقتراح، فالجنود يعرفون عدد الذين سيتوجّهون إلى بيت ساحور، عدد الذين سيتوجّهون إلى بيت جالا، مخيم عايدة، الدهيشة، زعترة، الشواورة.... ومع أن كل واحد منهم خطرت بباله فكرة أن ما يعيشونه ليس أكثر من ليلة رعب كاذبة، أُعدت لهم، مثل تلك التي عاشوها من قبل، ولم يصبْهم فيها أيّ مكروه. رغم أن الفكرة خطرت ببال كل واحد منهم، إلا أن أحدًا منهم لم يُصرِّح بها.

مع وجود بندقية في يد الجندي الذي يحتلّ أرضك، أنت دائما مشروع شهيد.

أمسك بشارة بيده صاحب محلّ التّحف الخشبية، كانت يد أنطون ترتجف كطائر ذبيح. جمال، صاحب البيت الذي هُدم، أمسك بيد أبو متري، الختيار الذي لا يسمع، كان بيت الختيار أقرب، لكن الطريق إليه كان أخطر.

لم تعد معرفتهم الدّقيقة بالأماكن كافية لكي يشعروا ولو بقليل من الأمان، كان الوحيد الذي لا يعرف بيتا يتّجه إليه هو جورج العاشق.

تحرّكوا، وظلّ واقفًا مكانه.

ـ لن يقتلوني هنا، فأنا أحمل جواز سفر أمريكيّا.

ـ أنت هنا، في هذا الليل، فلسطيني، فلسطيني فقط. قال له بشارة، ألا تعرف بيتًا قريبًا هنا لواحد من معارفك.

ـ أعرف صاحب أقدم بيتين هنا، الكنيسة والمسجد!

أمسك منير بيده، وقال له:

ـ ستذهب معي؟

ـ إلى أين.

ـ إلى حفل زواجك، اطمئن ستعيش حتى أرقص في عرسك.

تفرّقوا.

* * *

سمع الكابتن داود طلقات نار، حاول أن يعرف الجهة التي أتى منها الصوت، لم يستطع.

جلس خلف مكتبه، وبعد قليل راحت أصوات الرّصاص تتصاعد من كلّ الجهات.

رنّ جرس التلفون في مكتبه، أمسك بالسماعة:

ـ هنالك أكثر من مكان يجري فيه خرقٌ لحظر التجوال.

ـ تعاملوا مع الأمر، كما يقتضي الموقف. لا نريد مزيدًا من المعتقلين، ردّ الكابتن داود.

* * *

سار جمال وأبو متري مائة متر، ملتصقين بالجدران، في الشارع المنحدر المؤدي إلى بيت جالا. كان الختيار مطمئنًا، لأنه الوحيد الذي لم يسمع بأمر حظر التجوال. صحيح أن عدم معرفته سهّلت مسألة انقياده، لكنها جعلت خوف جمال مضاعفًا، فها هو يحمل مسؤولية حياة شخص آخر.

لم يكن جمال مطمئنًّا لذلك الصمت، الصمت الذي كلّما تضاعف أصبح أخطر. غيّر الاتجاه، قطع الشارع، توجّه إلى الجهة الجنوبية الغربية. سمع صفيرًا خافتًا، أدرك أن لجان الحراسة الليلية اكتشفت وجودهما؛ كان الصفير تحذيرًا من أن هناك غرباء. لم يستطع جمال أن يصرخ ليُطمئن الذين رأوه، أن لا يخافوا. لا أحد يستطيع القول إنه لا يخاف من الليل وما يخبئه في ساعات حظر التجوال. صمتَ جمال؛ قد يسمعه الجنود، ويكون بذلك قدّم لهم خدمة قتْلهم له وللختيار بدم بارد.

حركة الختيار البطيئة، كانت مصدر طمأنينة، ما، لمن أطلق الصفير، فلم يرشقهما أحد بحجر. من أطلق الصفير بدأ يحسّ بالخوف من اقترابهما أكثر، وقبل أن يُطلق صفيره مرّة أخرى، انبثق في الظلام وميض طلقات، وتحوّل المكان إلى ساحة معركة ليس فيها سوى جيش واحد. رفع الذي أطلق الصفير رأسه في النهاية، عندما هدأ كلّ شيء، وتحت وميض عدة رصاصات أخرى أطلقت عن قرب، وقمر خلف غيمة، رأي جسدين على الأرض، فلم يستطع أن يؤكد فيما بعد، هل شاهد فعلا وجهَي الشهيدين أم لا.

* * *

إلى الشرق توجّه بشارة وأنطون، نحو شارع الفرير، كانت تلك بالنسبة إليه أقصر الطرق إلى بيت ساحور، ولكن أخطرها، ففي تلك المنطقة بالذات قتلوا سلامة.

كانت عينا بشارة تتنقّل بين الشارع، والسماء، لا يعرف إن كان القمر على وشك الظهور من بين الغيوم، أم أنه بحاجة إلى ثوانٍ أخرى. كان يفزعه أن يظهر الجنود والقمر في لحظة واحدة، كان ذلك يعني الموت، الموت فورًا.

وظهر القمر، التصق بفراغ أمام باب حديدي خلفه، جرَّ أنطون إلى جانبه. يده اليمنى التي لامست الباب، لم تقل له إن عليك أن تطرقه، هو يعرف أن أصحاب البيت لن يجرؤوا على فتح الباب لأحد. سيتصرفون كما لو أنهم ليسوا في الداخل. يده التي تحسّست الجدار قالت له إنه جدار حجري. ارتفعت اليد، كان الجدار منخفضًا، وجد الحلّ.

إذا ما تصرّف بسرعة، سينجوان.

قفز إلى الأعلى مدفوعًا بقوة الخوف التي رفعته بيسر لم يكن يتوقّعه. كان فوق سطح، لا على حافة، وقبل أن يطلب من أنطون أن يمسك بيديه ليصعد، أمسك أنطون بهما، وثانية لم يستطع بشارة أن يعرف كيف تمكّن من سحبه بتلك السهولة. بعد قليل تذكّر أن هذا الرّجل الذي يعرفه منذ زمن بعيد، ليس نفسه الرّجل القديم، فقد ضمر جسمه بفعل العمر، وأصبح أنحف.

ظهر القمر فجأة، مباغتًا، التصقا بالسطح، وهمس أنطون: ما الذي نفعله؟

وضع بشارة يده على فم أنطون، فلم يفتحه ثانية.

على يسارهما كانت هناك ساحة، وكانت أصوات تتسلل من نافذة مسدلة ستائرُها السميكة بإحكام.

انزلق بشارة، مدّ يده إلى أنطون الذي أنزل قدميه خائفا، لم يكن هنالك من شيء يمسك به في الأعلى.

فجأة انزلق، لكن بشارة استطاع الإمساك به في اللحظة الأخيرة، فلم يلمس جسد أنطون الأرض، إلّا بعد أن أنزله بشارة برفق.

طرق بشارة الباب. لحظات، وعمّ الصمت، تلاشت أصوات التلفزيون. طرَقه مرّة أخرى، وفكّر أولئك الذين في الداخل: الجنود لا يطرقون البيوت بلطف حين يأتون في الليل، إنهم يقتلعونها.

نهض شاب ليفتح، دفعتْه أمّه بعيدًا، وتوجّهت إلى الباب، همستْ:

- مين؟

- إخوتك، أرجوكِ أن تفتحي الباب بسرعة، قال بشارة.

سمع المفتاح يدور في القفل. كانت على وشك أن تفتح الباب، لكن صوت جنود في الخارج، جعله يهمس لها:

- انتظري قليلا. لا تفتحي هناك جنود.

وابتعدت أصوات الجنود.

- افتحي الآن بسرعة.

فتحت الباب، لم يروا شيئًا أمامهم، لم يروا سوى العتمة.

- ما الذي جعلكم تخرجون في ليل كهذا، ألم تسمعوا بحظر التجوال.

- سمعنا به قبل غيرنا، ولكنهم أمسكوا بنا وألقونا في قلبه.

* * *

وليد، صاحب لوح الزّجاج، الذي لم يحمل جسده إلا آثار إصابة عمل، استطاع تجاوز كل كمائن الجنود، كما لو أنه رجل شفّاف، يرون عبره، ويبقى خفيًّا.

من زقاق مقابل، كان يستطيع أن يرى بوابة بيته، راقب السماء طويلا، كانت عتمة الزقاق الضيق تحجبه، لكن الشارع أمامه كان خطرًا، فأشعة القمر كانت تضيئه، وفي الأعالي تأخّر التحام الغيم. انتظر وليد، لم يغامر، وما إن بدأت غيمتان تقتربان الواحدة من الأخرى، حتى راح قلبه يخفق، وقوّة سرّية تتحرّك في قدميه. اختفى القمر، قفز بسرعة من مكانه، كان على يقين بأنه لم يصدر أي صوت، هو نفسه لم يسمع خطواته! وصل الباب. كان المفتاح على وشك ملامسة فتحة القفل. انطلقت أصوات الرصاص. التصق بالباب.

في الثامنة من صباح اليوم التالي، أصبح باستطاعة الناس أن يحرّكوا جثة وليد، دون أن يطلق الجنود النار مرّة أخرى.

* * *

سلمان الذي كان يتنقّل من زاوية إلى أخرى، وليس في رأسه سوى صورة وحيدِهِ الذي نجا من الموت دون أن يكون مضطرًّا لإجراء عملية، وأستشهد بقنبلة غاز، كان ينظر إلى كل شيء يراه وكأنه يودّعه. مفتاح دكان أخيه عبد الله كان في جيبه، دائما كان في جيبه، للضّرورات، ولم يكن هناك أفضل من سلمان يمكن أن يستلم الدّكان في غيابه. قرر أن يختبئ فيها، فهي أقرب من البيت بثلاثمائة متر؛ ثلاثمائة متر في ليل حظر التجوال أكثر وحشة من ساحة حرب ليس فيها سوى الموت والغربان.

وجهًا لوجه، فاجأه الجنود في أحد المنعطفات. ارتبكوا، كما ارتبك، لكنهم اكتشفوا أنه غير مسلح وأن البنادق في أيديهم.

ورنّ جرس الهاتف فوق طاولة الكابتن داود، وأجاب:

- لا أريد معتقلين.

* * *

أربعة عشر رجلا قتلوا في تلك الليلة قبل أن يصلوا.

في صبيحة اليوم التالي، لم يعد إلى غرفة الاعتقال النهاري سوى ثلاثة معتقلين: أنطون، وجورج العاشق، ورجل صامت سُجن ستة أشهر بسبب ثرثرة بريئة لم تكن تنقصها السذاجة.

وقف الكابتن داود أمام غرفة الاعتقال، وأجرى حسابات سريعة، خرجوا من هنا وكانوا اثنين وعشرين، قُتل أربعة عشر معتقلا، عاد ثلاثة، هناك خمسةُ مفقودين.

همس لنفسه: أربعة عشر عربيا! لو لم يكونوا مذنبين، يستحقون العقاب، لما أرسلهم القدر إليّ لانتقم منهم.

طرد الذين أتوا، واعتبر الغائبين مُطاردين.

حوار صحفي

في ستِّ بلدات ومخيمين للاجئين حول بيت لحم، وفيها، كانت جنازات الشهداء الذي قُتلوا ليلا قد تحوّلت إلى مظاهرات، ولم يكن صعبًا على الكابتن داود أن يسمع هتافات المتظاهرين من مكتبه، قادمة من عدة جهات.

هادئًا كان، وهو يجري مقابلة صحفيّة مع مراسلة ديرشبيغل الألمانية، بعد ثلاثة أيام من ليلة القتل.

- في البداية أحب أن أسألك، هل أخاطبك باسم ناحوم، أم الكابتن داود؟

- يمكنك أن تختاري ما تشائين.

- اسمك ولقبك متصالحان إذًا؟

- بالتأكيد؟

- مع أن لقبك لم توجِده إلّا ضرورات الاحتلال!

قبل أن يجيب، قاطعته:

- سؤالي: كابتن ناحوم، بعض النّاجين يقولون إنهم أُجبروا على مغادرة هذا المكان، بعد ساعة من فرض حظر التّجوال، هل لديك تفسير لذلك؟

- إذا ما أتيتِ إليَّ بواحد منهم، هنا، سأُصدِّق ما سيقوله. كلّهم غادروا المكان مبكرًا في ذلك اليوم، قبل أن نعلن حظر التجوال، وكان لديهم عدة ساعات للوصول إلى بيوتهم، لا ساعة، ولا

اثنتان.

- ولكن قدوم من سيشهد، ضدّ هذه الرواية إلى هنا، أمرٌ مستحيل.

- بالعكس، لقد جاء ثلاثة منهم بعد تلك الليلة الحزينة، وأعدتهم إلى بيوتهم لأنني لا أريد سوى الهدوء!

- وبماذا تفسّر، كابتن داود، مقتل أربعة عشر معتقلا؟

- لا أظنّ أن الأمر بحاجة لتفسير، فما حدث يؤكد أن اعتقالنا النهاريّ لهم لم يكن عشوائيًّا، أطلقْنا سراحهم قبل مغيب الشمس، ولكنهم خرجوا بعد غيابها للقيام بأعمالهم التخريبية.

- هل تشير إلى أنك نادم، كابتن ناحوم، لأنك لم تعتقلهم، دعنا نقُل، اعتقالا دائما؟

- أولا، لا أستطيع أن أتجاوز القانون وأضاعف العقوبة التي يستحقّها أيّ شخص؛ كان الاعتقال النهاريّ عقوبة عادلة على ما قاموا به من أعمال مزعجة لنا.

- وثانيا؟

- وثانيا، أنني نادم فعلا لأنني لم أفعل ذلك، أعني أن أسجنهم ليلا نهارا، لأنني لو فعلت، لكنتُ أنقذتُ أرواحهم. هذا ما يزعجني الآن، ويمكنني القول، يقلق ضميري. ولهذا السبب بالذات، أطلقت سراح الذين عادوا.

- كابتن داود..

- كفّي عن مخاطبتي بالاسمين هكذا.

- ولكنكَ قلتَ لي إنك متصالح معهما!

- أعيدي سؤالك الأخير عن المعتقلين.

- كنت أريد أن أسأل: والذين لم يعودوا إلى المعتقل بعد تلك الليلة، يا كابتن؟

- لقد خالفوا شروط الاعتقال، وعلينا أن نُلقي القبض عليهم.

- ولكن كيف تفسر تحويلهم إلى مطاردين، والآخرين، الذين عادوا إلى هنا أبرياء، يا كابتن، وليس هناك قرار محكمة تستند إليه، لا حول هؤلاء ولا أولئك؟

- كل ما في الأمر أنني أتحرّك ضمن الصلاحيات المتاحة لي، وحين يتمّ القبض على الفارِّين، فإنهم في الحقيقة يكونون من اختاروا المحكمة للفصل في قضيتهم، لأنهم قرروا أن يتجاوزوا القرارات المخففة المتاحة لي، للذهاب إلى مستوى آخر، أعلى، وهو المحكمة، وبذلك حوّلوا أنفسهم من مشاغبين كانوا بحاجة لقليل من التأديب، إلى مخربين ضد الدولة، تنتظرهم، في ظنّي، أحكام قاسية.

- لنفترض، يا كابتن، أنكم استطعتم الوصول إلى مكان أحدهم، هل هناك حدود لأي عمل يمكن أن تقوموا به لغرض الإمساك به؟

- هذا سؤال تجيب عليه الحقائق على الأرض، فقد يكون أحدهم مسلحًا مثلا. وصيّتي الدائمة لجنودي، لحماية أرواحهم وأرواح الآخرين، هي: تصرفوا في ضوء الحقائق الموجودة على الأرض، ولكن، بأقل عنف ممكن.

- ولكن هناك من يقول، إن القاعدة التي كانت سائدة ليلة الموت، هي: لا نريد معتقلين، يا كابتن.

- تعرفين أن هذا أسخف كلام يمكن أن يُقال، (لا نريد معتقلين!) أنت تعرفين أن هناك آلافًا من المعتقلين منذ بداية أعمال الشغب، فدائما كنا حريصين على أن نوسّع السّجون كي لا نوسّع المقابر.

- ولكن هناك المئات من الأطفال والنساء والشباب الذين قُتلوا في الشوارع، وهناك الآلاف من الجرحى، يا كابتن!

- أنت لا تستطيعين أن تُرسلي الجندي إلى شوارع غزة أو نابلس أو رام الله وتقولي له، أنا أرسلك إلى هناك لكي تموت. أنا أرسله إلى هناك ليُخمد أعمال الشغب؟

- بأن يقتل، يا كابتن؟

- إذا تعرّضت حياته للخطر فهو مضطرّ للدفاع عن نفسه، للدفاع عن حياته.

- ببندقية رشاشة مقابل الحجارة؟! هل تعتبر الحجر سلاحًا يا كابتن؟

- كلّ ما يجعل الدم يسيل سلاح، وكفّي عن ترديد كلمة كابتن.

- هل تفضل أن أخاطبك ناحوم، أم الكابتن داود؟ أليس الاسم واللقب هما الكابتن الذي أحدثه؟

- سؤالك التالي!

- حتى شفرة حلاقة ذقنك، يمكن أن تجرح، هل تعتبرها سلاحًا أيضًا؟

- في ظنّي أنني أجبتُ على أسئلتكِ المهمّة كلها.

- بقي سؤال واحد، أخير.

- تفضلي.

- متى تتوقّع أن تنتهي ما تُسميها (أعمال الشغب) هذه؟

- ما دمنا نعمل بجدية فلن تستمرّ.

- كأن تكرروا ما قمتم به تلك الليلة؟ أم بإصراركم على مواصلة الاحتلال يا كابتن؟

- لقد طلبتِ مني أن أجيب عن سؤال أخير، واستجبتُ لطلبك، ولكن سؤالك هذا هو ما بعد الأخير!

العهد!

في المنطقة المحاذية لبناية قديمة مهجورة يسمونها القصر، تعود للخوري أندريا بنورة، يمتدّ سفح الجبل الهابط. وقد أصبحت البناية معلما شهيرًا لأنها واحدة من أفضل المواقع التي يمكن رفع العلَم عليها، ليُرى من أمكنة بعيدة. تلك البناية كانت أفضل موقع لرشق الجنود الذين يهبطون إلى وادي السواحرة، من الطلعة المقابلة، ويصِلون بير الواد، ويصعدون السفح لاهثين نحو البناية كلما رأوا العلم مرفرفًا.

لم يكن يثير غضب الجنود أكثر من علَم مرفوع.

منير، مخترع اصطلاح هندسة النجاة، لم ينجُ تمامًا، في ليلة الموت. كانت خطته أن يتسلل بجوار البناية عائدًا إلى بيته، إلا أن البناية كانت موقعًا لكمين.

انفتح جحيم النار. صعود التلّ ثانية غدا مستحيلا، وكان الركض يعني الموت. تدحرج، لكن إطلاق الرصاص عن قرب شكّل شبكة من الصعب الإفلات منها.

لم يعرف أن كان أصيب أو نجا. ارتطام جسده بجذوعٍ وحجارةٍ وغصون، وأزيز الرّصاص من حوله، أعاده إلى يوم اعتقاله على الحاجز، وإلقائه ممزقًا في البريّة.

انتشر الجنود، حريصين على أن لا تفصلهم مسافات طويلة؛ لا أحد منهم يعرف من أين يمكن أن يبزغ الخطر فجأة، ما داموا داخل الليل.

بين جنديين كان منير، لا يفصل الواحد منهما عن الآخر أكثر من عشرين مترًا، ملقى يغمره الطين، ملتفًّا حول جذع زيتونة، كأنه استكمال له.

سائل ما كان يتدفّق بغزارة منه، لم يعرف إن كان عرقه أم دمه. حين ابتعدوا، تذوقه، كان هناك طعم التراب.

إطلاق النار في السفح، نبّه الناس إلى أن الجنود يطاردون واحدًا أو أكثر من أهل المدينة، خرجوا، وتعالت هتافات متقطّعة في ليل منع التجوال، وبعد دقائق ظهر ضوء فوق أحد البيوت، وما هي إلا دقائق حتى بدأت الأضواء تتكاثر، شعلات نار وفوانيس ولامبات بأسلاك كهرباء طويلة، كان الناس يرسلون رسالة واحدة لكل من يواجه الموت في العتمة: أنت لست وحيدًا.

منير الذي سمع الهتافات ورأى بيت ساحور من السفح، حيث يختبئ، وقد تحوّلت إلى حديقة من نور، لم يعرف إن كان يرى ما يراه حقًا، أم أنه يحلم.

أمّا الجنود، فوجدوا أنفسهم يتراجعون، وهم يحسّون أن المدينة كلّها تزحف نحوهم.

* * *

كما وصل إلى البيت، في المرّة الأولى، أشلاء، وصل إليه في المرة الثانية، لكن الأمر كان أكثر تعقيدًا. لأنه منذ الغد سيغدو مطلوبًا أيضًا.

كان الاعتقال النهاريّ يعني شيئًا واحدًا بالنسبة له: لم يستطيعوا قتلك الليلة، سيقتلونك في الليلة القادمة.

ساعات طويلة مرّت، قبل أن يفقد الجنود الأمل في تلك العتمة.

وجود مكان آمن، بعد أن عالجه أحد الأطباء سرًّا، كان هو المشكلة.

سألته أمّه:

- أين يمكن أن أخفيك؟ لا تقل لي إنك لست من اللجان الشعبية، فأنا أعرف ذلك، لأن البيان الذي كان عليك أن توزّعه أمس، ذهبتُ ووزعته.

- ذهبتِ ووزعتِه؟

- لأن مهلة منح العملاء فرصة ليتوبوا، تنتهي غدًا! وإذا لم أوزْعه لن تكون له أي أهمية.

ابتسم رغما عنه، هبّ الألم من أكثر من جهة، لم يعرف أيّ عضو أوجَعَهُ أكثر.

- هل هنالك أحد تثق به يمكن أن أطلب منه إخفاءك؟ إن بقيتَ هنا سيعتقلونك.

- من أثق بهم سيأتون بأنفسهم إلى البيت ويأخذونني، ولن تعرفيهم؟

- لن أعرفهم؟!

- لن تعرفيهم، هذا أفضل لكِ، ولهم، ولي؟

- من يسمعكَ تقول هذا سيعتقد أنني سأسلّمكم للجيش بعد أول كفّ!

- هذه المرّة كلّ شيء مختلف؛ القاعدة: إذا كنت تعرف شيئًا، فاحرص على أن تظلّ الشخص الوحيد الذي يعرفه. احمدي الله أنكِ عرفتِ أنني مصاب، ولولا خوفي من أن تظنّي أنني استشهدت، لما كنت هنا.

- كأنكَ نسيت أنني أمّكَ! قالت بانفعال شديد، هل يعقل أن لا أعرف من سيحميك؟!

- أحد شباب اللجان أصيب، أنقذه رجل، وبعد أن عالجه، ذهب ليسأل عنه في اليوم التالي، طرَق الباب، خرجت أمّ الشاب، سألها الرجل: طمئنيني، كيف أصبح جرحه الآن؟ أتعرفين ماذا قالت أمّه؟

- لو كنتُ هناك لعرفتُ، ماذا قالت؟

- قالت للرجل، أنت تسأل عن ابني؟! ابني بخير، زي الفُلّ، ربما تقصد شابا آخر؟ هل تعرفين ما الذي يعنيه هذا؟

- طبعا أعرف، حتى أمّه لم تعرف بأمر إصابته.

- عليك أن تُقدّري إذًا أنكِ على علْم بما أصابني.

سمعوا طرْقًا على الباب، ارتعبت أمّه.

- اطمئني، وصلوا، ولكن إياكِ أن تسأليهم أين سأكون.

- خلاص، فهمت؛ ولكنّ لي شرطًا واحدًا.

- افتحي الباب وأدخليهم أولا.

انطلقت أم منير بسرعة نحو الباب.

- مين؟

- اطمئني يا خالتي إحنا منير!

دمعتْ عيناها، وهبط عليها سلام غمر روحها. كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها كلاما جميلا من هذا النوع، هي التي توقّعت أن يكون الردّ: إحنا أصحاب منير!

فتحت الباب بسرعة، وهي على يقين من أنها أنجبت ثلاثة أبناء كبار، دفعة واحدة، في تلك اللحظة! احتضنتهم واحدًا واحدًا وهي تبكي:

- الآن اطمأن قلبي، الآن اطمأن قلبي.

دخلوا.

- كيفك؟

- حاسس حالي كأني خارج من مفرمة لحم، كُفْتَة، يعني.

- ولكنك تستطيع أن تتحرّك؟!

- أكيد!

- وأنا أقول إنه لا يستطيع، ولن يتحرّك من هنا، إلّا بشرط، قالت أمه.

- يا خالتي، هذا ليس وقت الشروط.

- أنا أصرّ، إذا لم تلبّوا شَرْطي سيبقى هنا، حتى لو اعتقلوه!

- أُشْرُطي، وسنوافق!

- عهد؟!

- عهد.

- كل مهمّة ستقومون بها منذ اليوم، وكان منير سيقوم بها معكم، سأنّفذها أنا، إلى أن يشفى؛ لا أريد أن يُقال إنه أمضى وقت الحصار في الفِراش، ليتهرب من مهماته.

- لكن..!

- لا لكن ولا غيرها، ثم إن هذه أفضل طريقة لكي يشفى بسرعة، لأنه لن يقبل على نفسه أن يكون نائمًا وأمّه تقوم بما عليه القيام به.

- في هذه أقنعتينا، نعِدك.

- احلفوا!

- وحياة أمهاتنا وشرف بلدنا وشهدائنا وأسْرانا.

- يكفي، لا تكملوا، خذوه!

أحزان دفينة

وجد منير نفسه في منزل وكنيسة الخوري أحمد لابورتا، الخوري الذي طالما وقف معه، منذ استشهاد أبيه، وأصرّ على أن يلتحق بالمدرسة التابعة للكنيسة دون مقابل.

لا ينسى الخوري ذلك اليوم الذي جرت فيه عمليات اغتيال رؤساء البلديات، لا ينسى أبدًا، عندما كان يجلس مهمومًا على درج المدرسة الدّاخلي؛ اقترب منه منير الذي كان طفلا في تلك الأيام، وسأله:

- لماذا أنت مهموم يا أبونا؟ إحنا كُلْنا رجالك!

ما قاله منير كان أفضل ما سمعه الخوري أحمد من كلمات عزاء في حياته.

* * *

في الليلة الخامسة لالتجائه إلى بيت الخوري، سأله منير: ما الذي جعلك تأتي إلى هذه البلاد؟ هل هناك من يترك إيطاليا الجميلة، ويأتي إلى هنا، إلى فلسطين وما فيها من عذاب.

- لا أعرف كيف يمكن لمسيحي مثلي أن يحبّ دينه ولا يحبّ فلسطين؛ ويسوع المسيح، فلسطيني. ولذا تستطيع أن تقول إنني أدافع عن المسيحية وأدافع عن يسوع المسيح؛ مع أنني ضد كل أنواع الثارات بالغة القِدَم، بين الأديان وبين الشعوب، لأنني حتى اليوم أحسّ أن كثيرًا من الحروب سببها تلك الثارات القديمة. لكنني أصارحك، المسألة أعمق من الدين بكثير، وقد تستغرب هذا القول من خوري.

- لم أفهم.

- سأقول لك حكاية أثّرت بي كثيرًا، وبسببها ذهبتُ إلى أماكن أخرى في هذا العالم، قبل أن أكتشف أن أفضل مكان يجب أن أكون فيه هو هذه البلاد، بلادكم. لقد عاش أخي الوحيد، أنطونيو، معذّبا بحكاية كبيرة، فحين ذهب أبي ليقاتل ضد الفاشية في سنوات الحرب العالمية الثانية، كان يزورنا متخفّيًا بين فترة وأخرى. كان أنطونيو مولعًا بالأوسمة التي يراها تلمع على صدور الجنود، أكثر من ولعه ببنادقهم. ذات يوم سأله أبي إن كان يحتاج شيئًا ما، أيّ شيء، ليحضره له في المرّة القادمة، فأجاب أنطونيو بلا تردّد: أريد أن تُحضر لي وسامًا يشبه الأوسمة التي على صدور الجنود!

ضحك أبي، وقال له: ولكنني لست من أولئك الذين يمضون إلى الحرب للحصول على أوسمة، بل للدفاع عن حياة الناس، وعن العدالة.

لم يقتنع أخي، أو، لم يفهم ذلك الكلام الكبير، وعندما غادر أبي البيت طلب منه ثانية وسامًا، ثم غيّر رأيه: عدّة أوسمة، هذا أفضل.

لا أريد أن أطيل عليك، لقد قُتل أبي على يد الفاشيين في واحدة من المعارك، وعاد إلى بيتنا جثة، كنّا مضطرين لدفنها ليلا، كما تفعلون هنا. وبعد سنوات، بعد النصر، قرّروا تكريم أبي، فمنحوه وسامًا، استلمتْه أمي، وناولتْه لأخي، وهي تبكي: لم ينسكَ أبوك حتى بعد موته، ها هو يُحضر لك الوسام الذي طلبته!

في تلك اللحظة هرب أخي دون أن يأخذ الوسام. في المساء عاد، وجد الوسام على طاولة صغيرة تتوسّط غرفة الجلوس. ومنذ ذلك اليوم والوسام هناك، ولا أحد منّا يلمسه.

وصمت الأب أحمد طويلا، كابحًا دموعًا على وشك السقوط، قبل أن يقول: لماذا لا تسألني عن سبب إسماعك هذه الحكاية الحزينة؟

- لماذا تُسمعني هذه الحكاية الحزينة؟

- لأقول لك، إن أخي عاش حياته بعد ذلك معاديًا للحروب، وأظنه لم ينتبه أنه يرتكب خطأ بهذا!

- ومن يمكن أن يكون مع الحروب؟

ـ أنا؟

ـ أنت يا أبونا؟!

ـ نعم أنا، أن تكون ضد الحرب، في ذلك شيء من الطيبة المبالغ فيها، بل يمكنني القول السذاجة! فإذا كنت تريد أن تكون حقًا ضد الحرب، فإن عليك أن تكون ضد من يشنّ الحرب، ضدّ المعتدي، ضدّ الظالم، ضدّ المغتصب، لأنهم الحروب نفسها، التي نريد أن نوقفها، ولذلك أنا اليوم هنا، هل فهمتني؟!

* * *

لم ينم منير تلك الليلة، كان يتنقّل بين كلام الأب أحمد، وقلقه على معتَقلي النهار الذين أُعدت لهم الكمائن في الليل. كان قلقًا على العم بشارة، كما يدعوه، والمكان الآمن الذي يمكن أن يختبئ فيه، بعد أن علم أنه لم يكن بين شهداء ليلة الدم. يعرف منير أن الكابتن داود أكثر الناس فرحًا بتحوّل بشارة إلى مُطارد، فحكاية الكابتن داود مع بيت ساحور معروفة للجميع، وتعذيبه لبشارة قبل عشرين عاما، فصل طويل مرعب لم ينسه أحد.

أكثر ما كان يحزن منير، تكاثر عدد الأيتام. كان يعرف معنى أن يعيش الإنسان يتيما، حتى لو كان والده بطلا، شهيدًا. حكاية الخوري أحمد أكّدتْ له إحساسه، فرغم مرور كل تلك السنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية، لم تندمل جراح الأب أحمد، وتساءل: متى يمكن أن يُشفى هذا النوع من الجراح؟

كان منير يتمنّى لو أنه سمع أيضًا حكاية أنطونيو وما الذي حلّ به، ولكنه شعر بأن تلك الليلة لا تحتمل أحزانا أكثر. ابتلع سؤاله، وهو يستعيد حكاية والده هو:

لا يعرف منير إن كان هو السبب في استشهاد والده، مع أنه لم يطلب منه وسامًا؟ أم لأنه علّق الوسام بيديه الصغيرتين على صدر ذلك الأب بسبب اندفاعه؟

المرات التي استُدعي فيها الأب لإدارة الحكم العسكري، لدفع غرامة، لا يتذكّر منير عددها، فكلما شارك بمظاهرة ورمى الحجارة، وتمكّن الجنود من الإمساك به، كان على أبيه الذّهاب مضطرًّا إلى هناك لدفع غرامة إطلاق سراحه.

منير لم يكن دائما هو الرّامي، ففي أحيان كثيرة يعتقل الجنود أيّ ولد يركض أمامهم، وهل هنالك خيار آخر غير الركض إذا ما لاحقكَ الجنود، أنت الطفل؟

والد منير، لم يكن يؤنّب ابنه، كان يعود معه صامتا، وعندما يصلان بوابة البيت، قبل أن يعبرا العتبة، يُربّت الأب على ظهر ابنه ويقول له: ولا يهمّك.

ازدياد عدد اعتقالات الابن أغضبت كثيرًا، ذلك الأب الذي لا يشارك في المظاهرات، لا بسبب الخوف، بل بسبب انطوائيته وخجله.

ذات يوم، خرج منير مُسرعًا، قبل أن يصل الباب، سأله والده: إلى أين؟

- إلى المظاهرة، على وين يعني؟

- طيب استنّى، خذني معك، يبدو أن هناك ضريبة علينا أن ندفعها، جلسنا في البيت، أم ذهبنا للمواجهة!

في تلك المظاهرة استشهد الأب.

الغارة

أرادها الكابتن داود غارة بلا مقدّمات، فما إن هدأت رياح الصحافة حول ليلة الأربعة عشر، حتى وصله تقرير آخر يؤكّد أن عدد الأبقار سيتضاعف فعلا.

لم يكن الكابتن داود غافلًا عن خطورة وجود البقرات، لكنه كان يرى أن ذهابه إلى هناك هو أكبر عقاب يُنزله بنفسه. ولم يحسم الأمر إلا تلك الرسالة التي وصلته من وزارة الاقتصاد، عبر وزارة الدفاع، عن الأضرار التي باتت تَلحق بشركة تنوفا للألبان، ثم ذلك الشرح في أسفل الرسالة بخط إسحاق رابين نفسه، عليك القضاء على بؤرة التخريب هذه، قبل أن يتمَّ تعميمها.

سبع عربات عسكرية طوَّقت المزرعة التي فوجئ الكابتن داود بأنها أصبحت تحمل اسما: (مزرعة بيت ساحور الحديثة).

بعنف لا يختلف عن عنف تفريق مظاهرة، بدأ الجنود بضرب كلّ من هو موجود هناك من العاملين، ثم جمّعوهم، مصلوبين -تحت اليافطة التي تحمل ذلك الاسم الممتلئ تفاؤلا بالمستقبل- أيديهم فوق رؤوسهم، وضربات تنهال على ظهورهم وأرجلهم بأعقاب البنادق.

- المزرعة نظيفة، قال أحد الضباط، وكأنها ساحة معركة أصبحت خالية من الأعداء.

سار جندي أمام الكابتن داود، وكان الضابط الذي أعلن السيطرة على المزرعة يقف بالباب.

لم تكن هناك سوى البقرات فعلا، بقرات بأحجام رهيبة، حتى أن الكابتن داود سخر من نفسه لأنه خاف ذات يوم من بقرات بنصف حجمها عام 1947. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتساءل: أي كارثة كانت ستلحق بي لو أنني حينها كنتُ محاصرًا ببقرات من هذا الحجم؟

معادية كانت نظراتها، فالجنود فاجأوها أيضًا كما فاجأوا من يقومون على رعايتها؛ وفي الآن نفسه، كانت تنظر إلى ذلك الظلّ الذي يقف بالباب، الظلّ الذي لا ملامح له، لأنه وهو يحجبُ الضوءَ، كان الضوءُ يحجبُ ملامحه أيضًا. كانت أعينها واضحة لصاحب الظلّ، متّسعة، لامتلائها بالترقّب.

تراجع الكابتن داود، في الوقت الذي توقّعت فيه البقرات أن يقترب. عاد الضوء وتسلل إلى الداخل من جديد، وعادت بعض البقرات لتناول الأعشاب التي أُحضرت لها كطعام.

- مَن صاحب فكرة إحضار البقرات إلى هنا؟ سأل الكابتن داود عمال المزرعة الثلاثة، ولأنهم تردّدوا في الإجابة، تلقّوا عدة ضربات من الخلف، فسقطوا أرضًا.

طلب منهم الضابط الأعلى رتبة بين جنود الكابتن داود أن يقفوا.

بصعوبة استطاعوا.

أعاد الكابتن داود السؤال ثانية، ولكنه لم يمهلهم مرة أخرى، إذ أشار بعينيه لجنوده فضربوهم بعنف أشدّ.

سقطوا.

وبصعوبة، مرة أخرى، استطاعوا تنفيذ أمر الوقوف من جديد.

- إسكندر، الطبيب البيطري، مُطهِّر الأولاد. اعترف أحد العاملين، ونجح في التستُّر على اثنين آخرين، لا بدّ منهما لاستمرار المشروع، أو إنشاء غيره إن انتهى. ضحّى بانكشاف إسكندر، لأن شيخوخته، ربما، ستحميه.

استدار الكابتن داود، عاد إلى بوابة المزرعة من جديد.

أعتم الداخل، سقطت بعض الأعشاب التي أمسكتها البقرات بأفواهها، رغما عنها، وتوقّفت أخرى عن المضغ.

- أريد مِلفًا كاملا لكلّ بقرة، وصورة لها، أمرَ الكابتن داود.

- كيف يمكننا أن نفعل ذلك؟

- أعطوا لكل بقرة رقمًا، بحيث يظهر في الصورة الملتقطة لها.

- ولكنها متشابهة.

- ولهذا السبب أريد أن تكون لها أرقام، ردّ الكابتن داود.

غاب أحد الجنود، وعاد حاملا ورقًا أبيض مقوّى، وبأقلام عريضة بدأوا الكتابة. حملوا الأوراق، وتبعوا مصوّر جيش الاحتلال إلى الدّاخل.

أمسك أحد الجنود بالورقة التي تحمل رقم واحد، وأراد تثبيتها على جبين البقرة الأولى، لم يرُق لها الأمر، تراجعت ونظرات غضب تملأ عينيها. لكنها كانت محاصرة، لا تستطيع التراجع أكثر، فتجرأ الجندي ومدّ يده، وألصق الرّقم على جبينها.

نفضت البقرة رأسها فسقط الرّقم، تأمّلته قليلا، ثم أخفضت رأسها والتهمتْه.

أدرك الكابتن داود أن المسألة غير سهلة، فطلب من جنوده أن يثقبوا الورقات التي تحمل الأرقام، وأن يضعوا فيها خيوطًا سميكة، لتتحوّل إلى قلائد.

بعد دقائق عاد الجنود، وبدأوا بتعليق الأرقام في أعناقها. لم يكن الأمر سهلا، ولكنهم نجحوا.

شعّ ضوء الكاميرا، بينما كان المصوّر يلتقط الصورة الأولى للبقرة الأولى، البقرة التي كانت تحاول أكل الرّقم المعلَّق في رقبتها دون جدوى؛ تراجعت مذعورة بسبب الضوء، ولعل ذلك ذكّرها بليلة وصولها وأنهار البرق التي تدفّقت من السماء. استجمعتْ غضبها، فلم تكن بحاجة لاستجماع قوتها، ووزنها أضعاف أضعاف من يقف حاملا الكاميرا أمامها. أغارت على المصوِّر، المصوِّر الذي التصق بالجدار خلفه. أحس بأنها ستسحقه، وتراجع الكابتن داود، فليس ثمة طريق للبقرة، إن نوت الخروج، إلا إذا داسته وداست من معه في طريقها إلى الباب.

لم يتواصل اندفاع البقرة، توقفت على بعد نصف متر من صدر المصور، حدّقت إليه، وتراجعت.

وحسنًا فعلت، لأنها لو قتلتْه، لشهد المكان مجزرة من نوع آخر، ولم يكن الكابتن داود بحاجة لأسباب كثيرة كي يفعل ذلك.

- لا ضرورة لاستخدام ضوء الكاميرا، افتحوا النوافذ، قال الكابتن داود.

في تلك اللحظ بالذات أصبح على يقين من أنه يقوم بأحقر مهمة كُلّف بها حاكم عسكري منذ قيام الدّولة.

* * *

لم يكن من السهل تصوير البقرات، فكلما ضغط إصبع المصور على النابض لالتقاط صورة، تحركت البقرة في اللحظة الأخيرة؛ ولا يدرك أحد مثل المصورين حقيقة أن الصورة غير الناجحة، أو المضبّبة، أو التي تؤخذ من زاوية غير صحيحة، هي أسوأ الصّور على الإطلاق، وتتضاعف المأساة إذا كانت مُلتقطة لأسباب أمنية أو عسكرية، إذ تغدو عديمة الفائدة.

بعد ساعة من المعاناة، انتهت المهمة داخل المزرعة. تجمّع الجنود في الخارج، مضوا نحو العربات. سار الكابتن داود باتجاه عربته، ثم توقّف، حكّ رأسه، نظر إلى الخلف، تأمل المزرعة من جديد، أشار إلى جنديين أن يعودا، طالبًا منهما إنزال اليافطة التي تحمل اسم المزرعة.

بدأ العمل. وعبر أحد الشبابيك رأى أحد الجنديين البقرات منشغلات، كلّ واحدة منها بأكل الرّقم المعلّق في رقبة البقرة التي إلى جانبها. فتح فمه ليقدم تقريرًا ميدانيًّا عما يشاهده، لكنه أقفله في اللحظة الأخيرة، إذ خشي أن ذلك سيجعلهم يعودون لكتابة الأرقام من جديد والوصول إلى حلّ يضمن بقاء الأرقام حيث يضعونها.

72 ساعة!

ثلاث دوريات عسكرية أطبقت على بيوت إسكندر، الطبيب البيطري، مُطهّر الأولاد، واقتادتهم إلى مقر الحاكم العسكري.

- كنت أعتقد أنك اعتقلتني لشيء أكبر وأهمّ من هذا، قال إسكندر للكابتن داود.

- لا شيء أهم من هذا الآن.

- حتى مقتل أربعة عشر إنسانًا بريئًا في ليلة واحدة؟! في الحقيقة كنت أتوقّع أن تسألني عن مكان الذين تطاردهم.

- لن أسألك سؤالا غبيًّا كهذا بالتأكيد، فأولئك قدّموا بهروبهم الفرصة الأفضل لنا للتخلّص منهم بضمير مرتاح.

- لا تقل لي إن ضميرك ليس مرتاحًا حتى الآن، بعد كل ما حدث في ليلة القتل! علّق إسكندر.

- ما حدث في تلك الليلة له علاقة بالتمرّد، برفض القبول بحظر التجوال، بعصيان أمر عسكريّ.

- ولكننا لسنا جنودك لتسري علينا أوامر الاحتلال.

- كل قرار سأصدره في هذه المنطقة سيتمّ احترامه، وأولها القرار الذي استدعيتك بسببه إلى هنا.

ربّت الكابتن داود على سجلات البقرات، وفتح واحدًا، فظهرت صورةٌ لبقرة عُلّقت في رقبتها قلادة تحمل الرقم 1.

- سأمنحك فرصة لأن تكون قائد هذا المشروع حتى نهايته، كما كنت قائده وصاحب فكرته منذ بدايته، سأترك البيطري ومطهرِ الأولاد يعودان إلى بيتيهما دون أن أستجوبهما.

- أظن أن هذا أفضل شيء فعلته حتى الآن، لأنني أفهم تمامًا طبيعة الأسئلة التي يمكن أن توجّه للطبيب البيطري، فالبقرات ضمن اختصاصه، ولكنني لا أستطيع أن أتخيّل أي أسئلة تلك التي يمكن أن توجّهها لمطهِّر الأولاد! وصمت إسكندر قليلا قبل أن يضيف: ولكن ما المطلوب منّي مقابل هذا المنصب الرّفيع؟

- أنت تعرف أنني أحتفظ بك ليوم أهمّ من هذا الذي نتحدّث فيه حول عدّة بقرات، أدّخرك ليوم تأتي فيه لتتعرف إلى جثة بشارة، قال الكابتن داود وكأنه ينتقم منه بسبب تعليقه الذي بدا له مبالغًا في جرأته ووقاحته، وواصل: ما أريده الآن أن تتخلّص من البقرات خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. وإلا فإنني سأهدم المزرعة على رؤوس ما فيها.

حاول إسكندر أن يقول شيئًا، أسكته الكابتن داود.

- منذ الآن عليك أن تنفّذ، وهذا أمرٌ عسكري.

- وما الذي أستطيع أن أفعله للتخلّص من 18 بقرة؟

- لن تواجه متاعب أكثر من تلك التي واجهتها وأنت تحضرها إلى هنا.

- هل أخرجهن من المزرعة وأضعهن على باب كنيسة، وأقول إنهن منفيّات، وليس هنالك من مكان لهن سوى عتبة كنيسة؟

ضرب الكابتن داود السِّجلات بيده فطار ملف البقرة التي تحمل رقم 1 وسقط يمين الطاولة.

- سأمنحكم اثنتين وسبعين ساعة للتخلّص منها، كأقصى حدّ، وبعدها، أعدك، سأهدّم المزرعة على ما فيها. هل فهمت؟

- بالتأكيد، فكلامك واضح تمامًا.

التفتَ الكابتن داود إلى ساعته، وقال:

- المهلة بدأت الآن، وأشار لإسكندر برأسه أن يخرج.

تابعه الكابتن داود بعينيه، إلى أن خرج، أخذ نفسًا عميقًا. وقف ليغادر مكتبه، سار خطوتين، تعثر بملف البقرة التي تحمل الرّقم 1، الملقى على الأرض، التقتْ نظراته بنظراتها في الصورة، ركل الملف بقوة، أحس بالبقرة تطير في الهواء وتلتصق بالحائط، وتسقط..

الكابوس

على عجل، دعا إسكندر اللجنة المشرفة على المزرعة. ولأنهم يخشون قيام الكابتن داود بنصب فخّ لإلقاء القبض عليهم كلّهم، التجأوا إلى الحيلة البسيطة، أن يزوروا بيتَ قريبٍ أو قريبةٍ لهم، ويتسللوا من الجهة الأخرى، ويسلكوا الطرُق السريّة التي يسلكها شباب الانتفاضة، الطرق التي يصعب على الجيش الوصول إليها دون أن يفضحه وجوده في المكان.

في واحد من بيوت البلدة القديمة التقوا. كثيرون منهم كانوا خائفين، وبخاصة أولئك الذين اضطرّوا للمراوغة للمرّة الأولى، لتضليل شخص يمكن أن يتبعهم.

أخبار الإطباق على المزرعة بقوة عسكرية يقودها الحاكم العسكري نفسه، وتصوير البقرات، واستدعاء إسكندر والطبيب البيطري ومطهِّر الأولاد، كانت رسائل واضحة لهم، تقول إن من يربي بقرة ليس أقلّ خطورة من ذلك الذي يُلقي الحجارة على دورية عسكرية.

إسكندر أحسّ بمخاوف الذين حضروا، ولذا، ما إن جلسوا، وسألوه عمّا دار في التحقيق معه، حتى أشار إلى مطهِّر الأولاد، وقال: إن معظم الأسئلة كانت عنه!

- أنت لم تخبرني بهذا حين خرجنا من مقرّ الحاكم العسكري! قال مطهّر الأولاد وقد بدا كطفل صغير يحاول استجماع شجاعته قبل لحظات من ختانه، لا لشيء؛ إلا لأن الجميع يشيدون بشجاعته، ويؤكّدون له أنه، بختانه، سيغدو رجلا بعد لحظات.

- كان من الصعب أن أخبركَ بما حدث، لأنني أحسست بأن الكابتن داود قد وضعكَ في رأسه، وبخاصة حينما سأل ذلك السؤال الغريب بمنتهى الجديّة..

وصمت إسكندر، حتى بدا لهم بأنه نسيَ سؤال الكابتن داود.

من أكثر من جهة جاءت الأصوات:

- وماذا كان سؤاله؟

تنهّد إسكندر، ولكن وجهه كان يتموّج بضوء ضحكة مكتومة:

- سألني ما الذي يفعله مُطهِّر الأولاد بقلفات الأعضاء التناسلية بعد كلّ ختان؟

انفجر الضحك عاليًا، بحيث أحسّوا أن الكابتن داود سمعه خلف مكتبه.

وتنهّد إسكندر:

- الشيء الذي لا بدّ من أن أقوله اليوم، والانتفاضة تتصاعد، وبيت ساحور تفاجئ نفسها قبل أن تفاجئ من معها ومن ضدها، الشيء الذي لا بدّ من أن أقوله، الاحتلال قبيح دائما، ليس عندنا فقط، بل في كلّ مكان، ولكنَّ في وجوده دائما شيئًا عميقًا من جوهر سخريات القدر، وإذا أراد الإنسان أن يواصل القتال دون أن ييأس، فليس هنالك وسيلة أفضل من أن يرى أيّ محتل باعتباره خطأ مطبعيًّا فاحشًا في كتاب الزمن؛ وإذا أراد أن ينتصر على الاحتلال فإن عليه أن يتعامل معه باعتباره من سخريات القدر، كما قلت، لا باعتباره كابوسًا.

- ستبقى بطلنا وقدوتنا يا عم اسكندر، قال الطبيب البيطري.

- كنا في الماضي أبطالا لأن البطولات كانت حولنا فردية، الآن، في الانتفاضة، نحن نعيش ثورة، وكل الناس حولنا صاروا أبطالا، لذا تحوّلنا إلى أناس عاديين، وهذا أفضل ما حدث، لأن البطولة أصبحت بسيطة مثل الصباح والشمس والرعد والبرق والمطر.

تبادل أكثر من شخص النظرات، وعلّق أحد الحضور:

- كان عليك أن تطلب، مني على الأقلّ، أن أُحضر واحدًا أو واحدةً من أولادي المتعلّمين، ليشرح لي ما تقوله، لأنك، بهذا الكلام، طيّرت نكتة أخينا المطهِّر من رؤوسنا.

ـ حقك عليّ، قال إسكندر، أردت القول إننا حوّلنا الكابتن داود إلى مسخرة، فبعد أن كان يطارد شبابنا ويُنشئ لهم الملفات، أصبح يطارد بقراتنا وينشئ لها الملفات، وأظن أنه بعد مدّة سيكون مضطرًّا لفتح ملف لكل ديك ودجاجة وحمامة في بيت ساحور، بس مش الحمامات التي في ذهن أخينا المُطهِّر!

ضحكوا مرّة أخرى.

* * *

لسبب ما، خفي، كان إسكندر على ثقة بأن الكابتن داود سيتراجع عن مهلة الساعات الاثنتين والسبعين، لأن المهلة لا يمكن أن تكون إجراء فاعلا، إذا ما سئِل عن إجراءاته التي اتخذها لفتح الطريق لسيارات شركة تنوفا للعودة إلى بيت ساحور؛ فمنذ اليوم الثاني لوصول البقرات، استطاعت لجنة المزرعة الحصول على قائمة بأصحاب البيوت الذين يحتاجون الحليب، لتزوّدهم به، وكانت دعوة الناس للامتناع عن شراء الحليب الإسرائيلي، قد تمّ تعميمها قبل أن يعرف بها أصحاب المحلات التجارية. كانت لجان المدينة تريد أن يُفاجأ التّجار بأن أحدًا لم يعد يشتري الحليب الإسرائيلي، وحين تعود الشاحنات المبرّدة لتسليم عبوات جديدة من الحليب، تجد الحقيقة التي لا يستطيع، لا التاجر، تفسيرها، ولا الموزّعون: لم يعد هنالك من يشتري حليب تنوفا!

وهذا ما جرى، ولم يكن أقلّ جدّية من سخرية ملفات البقرات.

ـ ما الذي حدث؟ هل أصبحت بيت ساحور خالية من المواليد الجدد والأطفال؟ سأل أحد الموزعين تاجرًا.

ـ لا أظن ذلك، اليوم رأيت عشرة أطفال على الأقل في طريقي إلى هنا، كما أن عشرة آخرين على الأقل جاؤوا واشتروا مني أشياء مختلفة.

ـ والكبار، هل أصبحوا يكرهون الحليب فجأة؟

ـ لا أظن ذلك، فأنا شربتُ هذا الصباح حليبا من منتجات تنوفا، وأضافت زوجتي كمية لا بأس بها منه إلى قهوتها!

باستثناء علب قليلة بيعت، كانت الكميات تعود وقد انتهت مدة صلاحيتها، إلى أن اكتشفت الشركة أن الأمر أكثر خطورة، ولن تستطيع تفسيره إلا وزارة الاقتصاد مستعينة بوزارة الدفاع!

* * *

شيء ما كان يمنع عيني الكابتن داود من الانغلاق، راح يتقلّب في سريره. في الثالثة فجرًا دهَمَهُ تعب شديد، نام، وتقلّب ثانية، دعَكَ وجهه، أحسّ بلزوجة ما تغطيه، فتح عينيه فوجد ثماني عشرة بقرة حول سريره، تحدّق إليه، وتلعق وجهه بألسِنة عريضة طويلة، وتحت كل بقرة منها كان هنالك عِجْل أو عِجْلة ترضع.

صرخ.

استيقظ فعلا.

لم يكن صعبًا عليه أن يعرف أنه ارتكب خطأ شنيعًا بمنحه كل تلك المهلة لهم للتصرف في البقرات.

- لقد منحتهم الفرصة لأن يخدعوني أكثر.

بسرعة، ارتدى ملابسه، تفقّد سلاحه، وضغط على زر كهربائي، فدوّى صوت شديد، يشبه ذلك الذي ينطلق محذِرًا من غارة جوية.

بعد اثنتي عشرة دقيقة كانت مزرعة الأبقار محاصرة، وكان الكابتن داود هناك، إلّا أن الأبقار لم تكن..

نبع الحليب!

اختفاء البقرات أصبح لغزًا، لغزًا لم يستطع حلَّه أحد مع تزايد الحليب في المدينة، وتحوّله إلى جزء من الأغذية التي توزّعها اللجان الشعبية على البيوت يوميًّا.

في مدينة صغيرة بحجم بيت ساحور، كان الأمر يزداد غموضًا، بالنسبة للكابتن داود، وجنوده، وعيون العملاء التي تستطيع رؤية الكثير.

العميل الذي رفع تقريرًا في البداية عن وصول البقرات، أكّد أن من المستحيل إخفاء كائنات بحجمها في المدينة دون أن يراها، وإلا سيكون أعمى وابن أعمى.

الكابتن داود صرخ في وجهه:

- هل سمعتَ بوجود نبع من الحليب؟

- لا لم أسمع؟

- إذا لم تجد البقرات، فسيكون عليك أن تكتشف نبع الحليب الذي يشربون منه! وإلا فإنني سأنشر تقاريرك التي أرسلتها إليَّ بخط يدك في شوارع بيت ساحور، وبيت لحم، وكل مكان، وأتركهم يأكلونك.

ارتعب العميل، الذي يحمل اسما مخترعًا هو: نبيل.

- أعدك، سأعثر عليها، ولو في آخر يوم من عمري.

- لا أريدك أن تعثر عليها في آخر يوم من عمرك، بل الآن. صرخ الكابتن داود.

خرج نبيل، وهو شاب في السادسة والعشرين، يجرّ قدميه، فلم يكن صعبًا على الكابتن داود أن يرى في ضياع خطوات العميل ووهنِها ذلك التّيه الذي يتخبّط فيه، ولم يكن ينقصه إلا وقوف العميل أمام الباب الخارجي للمقرّ، متلفّتًا يمنة ويسرة. سار عدة خطوات إلى اليسار، ثم توقّف، وعاد وسار نحو اليمين، وتوقّف، وبعد دقيقتين، نهرَهُ أحد الجنود فسار إلى الأمام، فكادت سيارة مسرعة أن تسحقه.

كان يمكن أن يُشفق الكابتن داود عليه، لو لم تكن القضية متعلّقة بهذا الجنس من المخلوقات؛ فالجيش كلّه بحث عن البقرات، ولم يترك بيتًا أو خرابة أو مغارة أو كنيسة أو مسجدًا إلّا وفتّشها جيدًا.

ذاك جعل الكابتن داود يهمس لنفسه: ربما تصرّفوا في البقرات فعلا وذبحوها ووزّعوا لحمها، كما قالوا.

* * *

كانت اللجان الشعبية قد عمّمت، باقتراح من لجنة المزرعة الحديثة، التي لم تعد قائمة، عمّمت على كل بيت أن عليهم القيام بشواء اللحم في كل شرفة وساحة وعِلّية. استغرب الناس ذلك، وبخاصة الذين يدّخرون دجاجاتهم للأيام الصعبة القادمة. لكن اللجان الشعبية أخبرت الجميع، هذا أمرٌ، وفيه فائدة لا يستطيع أحدٌ أن يتخيّلها.

بعض الناس، الذي يملكون حسًّا فكاهيًّا أعلى في الأزمنة الضيّقة، قالوا: يبدو أن الوضع سيشتعل في اليومين القادمين، ويريدون أن تكون صحتنا أفضل في المواجهات، حتى لا نستشهد جوْعى!

آخر قال: أظنهم يريدوننا أن نذبح الدّجاج والأرانب، لأنهم لا يريدون أن يكون هناك أيّ جبان بيننا في الغد، حتى لو كان دجاجة أو أرنبًا!

في ذلك المساء الذي أعقب اختفاء البقرات، كانت رائحة المشاوي تملأ الأجواء، بحيث أقسم سكان زعترة وحرملة وبيت تعمر وأرطاس أن رائحة اللحم المشوي ملأت فضاء قراهم من بعد ظهيرة ذلك اليوم، وستبقى عالقة في الهواء أسبوعًا على الأقل!

* * *

رائحة الشواء، الرائحة النفّاذة، ومشاهد الناس في الشرفات، يشوون ويشربون ويضحكون، أثارت جنون الجنود، وحوّلتهم إلى لصوص للدواجن والحمام، اندفعوا خلف كل دجاجة خرقت حظر التّجوال. بعض الدجاجات تمّ إطلاق النار عليها قبل أن تصل إلى ثغرة في سور أصحابها، أو عتبة بابهم. أما تلك التي استطاعت الإفلات منهم في الشارع فتابعوها إلى داخل البيوت؛ وجنّوا أكثر، حين لم يسمعوا احتجاجات الناس، ولا بكاء الأطفال الذين فوجئ كثير منهم بالجنود يجتاحون ساحات بيوتهم، ويحطّمون ما بين أيديهم وما حولهم، ويركلون المواقد وما عليها من طعام. لم يسمعوا صراخ الأمهات والآباء. صعد بعض الجنود إلى السطوح، مداهمين تلك الغرف الصغيرة فوقها، المُعدّة لتربية الحمام. أصوات الطلقات جعلت كثيرًا من الحمام يطير مبتعدًا، لكن الهرب لم يكن وسيلة للنجاة دائمًا. توجّهت البنادق نحو الرّفوف التي تحوم في السماء، تساقطت بعض الطيور قبل أن يدفعها الخوف للابتعاد أكثر فأكثر، كل حمامة في اتجاه. لكن الحمام لم يكن قادرًا على الابتعاد كثيرًا، كان يعود، فيفاجأ ثانية بالرصاص، فيبتعد، إلى أن اهتدى للطيران على مسافة لا تتيح للرصاص أن يصله، في ذلك البعد، بدا وكأن الحمام توقّف، في السماء، دون أن يكون توقّفه سببًا في سقوطه!

عندما بدأ الجنود بمغادرة البيوت، التي دخلوها ناقمين، وغادروها جائعين بصورة أكثر، كانوا يسحقون ببساطيرهم كل حوض مزروع بالخيار أو البندورة أو الفجل، أو الخس أو الفول أو الورود، بعد أن رأوا شاؤول، قائدهم، يفعل ذلك.

في بيت مُطهّر الأولاد الذي فوجئ بالجنود يدخلون بيته وكأنه وعائلته غير موجودين فيه، سحق شاؤول بنفسه أحواض النباتات، وعندما وصل الباب، نظر خلفه، فشاهد نبتة ريحان واحدة لم تزل منتصبة، عاد، سحقها، وخرج.

* * *

عند المساء، بدأت سُحب دخان تعلو من داخل المعسكر شرقي المدينة، خلف الحواجز ونقاط الحصار المنتشرة غربا وشمالا وجنوبا، وفي الوقت الذي بدأ فيه دخان الشواء يتلاشى تدريجيّا من شرفات البيوت وسطوحها، بدأت رائحة شواء الطيور المسروقة تتصاعد. لكن تلك الساعات التي

حفلت بسخرية الجنود من بعضهم لنجاح كثير من الدجاج في الإفلات من زملائهم، أو وقوع بعضهم أرضًا وهم يلاحقونها، لم يكن فيها شيء من عمق ذلك الفرح الذي لم يزل مُحلّقا فوق بيوت الناس.

* * *

لم يقتنع الكابتن داود أن تلك الرّائحة هي رائحة شواء لحوم الأبقار، وإن كان تشمّمها، وحاول تحليلها مستعينا بأقصى طاقات حاسّة الشمّ لديه. في تلك الليلة، حلم أنه في الإسطبل الذي كان فيه قبل أربعين عامًا، محاصرًا، ولكن ما أفزعه أكثر أن بقرات بيت ساحور هي التي كانت تحاصره، لا سواها.

استيقظ، صرخ:

- سحقًا للزمان الذي تبدو لنا فيه حادثة مرّ عليها أربعون عامًا، كأننا عشناها أمس، وكلّ غد ننتظره بلهفة كأن بيننا وبينه عشرين عامًا!

* * *

استدعي إسكندر مرّة أخرى ومعه استدعي الطبيب البيطري ومطهِّر الأولاد. طالبهم داود بأن يثبِتوا أنهم ذبحوا البقرات، وأعلن أنه سيكتفي بأن يحضروا له جلودها، جلودها على الأقل.

أخبره إسكندر أنه تأخّر في طلبه، ولو كان أخبرهم مسبقًا لأحضروا له جلودها، ورؤوسها أيضًا، حتى يقارنها بالصّور، ويتأكد من أنها هي نفسها.

طردهم، تاركًا كل آماله معلّقة بأوهى قوة يعتمد عليها في ذلك الأمر: أقدام العميل نبيل.. الحائرة.

* * *

مع انتشار قصّة اللقاء بالكابتن داود، وما دار فيه، وانتقالها من بيت إلى بيت بسرعة البرق، ظهرت مجموعة من رسومات الأولاد على الحيطان، رسومات لبقرات بملامح تحمل عددًا من التعابير، فبقرة حزينة، وأخرى ضاحكة، وبقرة عابسة، وأخرى غاضبة، وبقرة تُخرج لسانها ساخرة.

كانت تلك الرسومات كافية لأن تملأ قلوب الناس بالفرح، لكن الأمر لم يُعجب الجنود، ولم يعجب الكابتن داود، فانتشرت دوريات الجيش في الشوارع، وكلما أبصرت رجلا أو طفلا أو شيخًا أو فتاة بجانب أحد الرسومات أجبرته على محوه.

أحد الأطفال الذي أمرهم الكابتن داود بنفسه أن يمحو رسم بقرة ضاحكة، قال له:

- لماذا تريدني أن أمحوها، الأولاد رسموها لمساعدتكم في العثور عليها!

أحد الجنود وجّه ركلة للطفل، الذي كان يُنقّل نظره بين الكابتن داود ورسْم البقرة، التصق رأسه بالحائط، ونفر دم من جمجمته، وتناثر فوق الرّسم.

أشار الكابتن داود إلى الصغيرة رولا:

- أنت، تعالي.

اقتربت منه خائفة.

- أين بيتك؟

- هذا؟ وأشارت إليه، كانت الرسومات على حائطه.

- أنت رسمتها؟

- إذا أردتَ الصحيحَ، لا!

- من رسمها؟

- لا أعرف، لأنهم رسموها في الليل وأنا نائمة.

في تلك اللحظة خرج والدها:

- أنا والدها، ماذا يحدث؟

أمره الكابتن داود أن يُسلّم هويته بصمت.

دسّ يده في جيبه، أخرجها، تناولها أحد الجنود، واقترب آخر من الكابتن داود وقال له بصوت منخفض:

ـ هذا الرجل سبق وأن احتجزناه أسبوعًا، واعتنينا به كثيرًا، كثيرًا!

ـ ماذا فعل.

ـ سلّمناه علبة دهان ليمسح الشعارات عن حائطه، وحين عدنا وجدنا أن الشعارات لم تزل موجودة، وأنه دهن باب بيته!

ـ خدعكم إذًا! والتفت إلى الأب وهو يهزّ رأسه.

ـ أجل، لقد خدعنا، ولكننا لا نظنّ أنه سيجرؤ على ذلك مرّة أخرى.

ـ هل تريدين أن نصادر هوية والدكِ، وأن نضربكِ كما ضربنا ذلك الحمار الصغير.

ـ إذا أردتَ الحقيقةَ، لا أريدُ.

ـ هذا أمر جيد، سأواصل الجولة، وحين أعود، لا أريد أن أرى أيًّا من هذه الرسومات، وإلّا سأصادر هوية أبيكِ، وربما أنسف بيتكِ أيضًا، هل سيرضيكِ هذا؟

ـ إذا أردتَ الحقيقةَ، لن يرضيني!

* * *

لم يجد الكابتن داود أثرًا للرسومات بعد عودته مع جنوده، اختفت كلّها.

ـ أنت فتاة جيدة، لست مثل أولئك الحمير. وأشار للجندي أن يُعيد لها هوية أبيها.

بمجرد أن اختفى الكابتن داود وجنوده، صاحت رولا:

ـ هيا إلى العمل!

تدفّق الأولاد من كل الجهات، وبدأوا يمسحون الجدران بالماء، لتعود الرسومات للظهور واضحة كما كانت.

كانت رولا، بمساعدة الأولاد، قد غطّوا الرسومات بدهان من الماء والطّحين.

* * *

لم يغفر الكابتن داود لنفسه أن ثمانية عشر إرهابيا كانوا بين يديه وأضاعهم! لم يغفر لنفسه أنه منحهم فرصة للاختفاء، الاختفاء الذي لا يمكن أن يكون في بطون أهل المدينة، لأن حاجتها من الحليب تبدو فائضة، ولم يكن هناك دليل قاهر أكثر من الدّليل الذي رآه بأم عينيه، عندما رأى امرأة تدلق الحليب في إناء بلاستيكي لسبع قطط، وهي تقول للقطط: صحتين وعافية!

* * *

لم ييأس الكابتن داود، واصل البحث عن البقرات، ومع تصاعد عصيان المدينة، قرّر شن حملة واسعة للوصول إليها، أيّا كان الثمن.

لم يصل الجنود إلى شيء، فأصبح على يقين من أن البقرات خارج المدينة، في واحدة من القرى المجاورة، وأن الحليب يُهرَّبُ بطريقة من الطرُق، كما يتمّ تهريب أشياء أخرى.

لم تُسفر الحملة عن شيء، باستثناء إلقائه القبض على كلّ من يمكن أن توحي ملامحه بأنه يعرف، أو يسخَر.

* * *

لا يذكر الكابتن داود هاجسًا، ما، سكنه، وسيطر عليه، كما سيطرت عليه أشباح البقرات؛ في واحدة من الليالي التي هبت فيها رياح شديدة غير مسبوقة، تجاوزت بيت لحم والقرى العالية حولها، وهبطت إلى بيت ساحور وما حولها من قرى؛ في تلك الليلة، كان يجمّع قوة هائلة من الجيش في حقل الرّعوات، ويعطي الأمر بقصف المدينة.

نام بقية ليله هادئًا، وذلك لم يحدث منذ زمن طويل.

مضى إلى مكتبه صباحًا، كان فرحًا يدندن بأغنية يحفظ لحنها لكن كلماتها كانت تفلت من ذاكرته كلما وصل إلى مقطع جديد.

* * *

في سماء بيت ساحور، كانت طائرة مروحيّة تدور، وجنود يمشّطون الشوارع، وعشرات من صور البقرات مُلصقة على الحيطان، أما في داخل ذلك الكهف الصغير الخفيّ، فكانت البقرات تدور حول نفسها. فاحت روائح الأعشاب في الخارج، تدعوها، وتفتّح شوقها لساعة خصب، لكنها لم تجرؤ على الخروج. مرّة واحدة فعلتْها بعد أن وصلت إلى مخبئها، بعد أن رأت المكان ممتلئًا بسكاكين من كل الأحجام، ورأت لحومًا تتدلّى من السّقف، خافت، انتظرت الفرصة، لاحتْ، انتهزتْها، وصلت الباب، رأت الحجارة تسقط من السماء، وسمعتْ أصوات رصاص تئز، وانفجارات قنابل، استدارت عائدة إلى كهفها، وبعد يومين أعادت المحاولة، فلم تر سوى المشهد الأول يتكرّر، ورأت نساء يصِحن، وأولادًا يُجرُّون من أقدامهم ويُحشرون في صناديق العربات العسكرية، خافت أكثر، عادت.

لكن أسابيع طويلة مرّت، ومع مرورها، نسيت ما رأت. قررت الخروج ثانية. في تلك اللحظة كانت دورية عسكرية تعبر الطريق، سمع أحد الجنود صوتًا مريبًا صادرًا من ملحمة على يمينه، تجرأ ودخل، تجاوز صاحب المحل، وأزاح طرف ستارة عريضة تحجب باحة خلفيّة، وفي تلك اللحظة صاح:

- يوريكا، يوريكا، يوريكا![20]

ضربة ثانية!

وقف الكابتن داود بباب اللحام، حوله عدد من الجنود، ووراءه عدة شاحنات عسكرية كبيرة.

خطا باتجاه الباب، كانت قطعة كبيرة من اللحم مُعلَّقة في السّقف، بجنزير ينتهي بكُلّاب، وفي الثلاجة ثلاث قطع أخرى.

لم ير الكابتن داود أي أثر للبقرات، ولم يسمع صوتها، وأكثر ما حيّره أن المحلّ صغير، ولا يتّسع حتى لبقرة.

لاحظ ستارة، أزاحها، فظهر باب يؤدي إلى باحة صغيرة، لم يكن فيها أثر لأي مخلوق.

نظر إلى الوراء وسأل النقيب المرافق له:

- أين البقرات؟

- إنها في الداخل، وتجاوز الكابتن داود.

خلف سور صغير من الطوب، كان يختفي باب واسع، وما إن أشار النقيب إلى عتمة الداخل، حتى تعالت أصوات البقرات، وقد أيقنت أنه تمّ القبض عليها.

- أحضروا لي اللحام؟

أحضروه. لم يكن خائفًا.

- ما هذه؟

- هذه بقراتي؟

- بقراتك أم بقرات الجمعيّة؟

- بل بقراتي، وتستطيع أن تقارنها بالصور التي لديكم.

- ولماذا تحتفظ بها هنا؟

- لأذبح بعضها وأربي بعضها.

- كم عددها؟

- ست وعشرون بقرة.

- لحّام مثلك يستطيع أن يشتري كلّ هذه الأبقار.

- إنني أعمل في هذا المحلّ منذ ثلاثين عامًا، فلماذا لا أستطيع؟

- ولكنك، مع ذلك، تقول لنا إنك غير قادر على دفع الضريبة!

- لأن الظرف صعب.

- سنصادر البقرات.

- ولماذا تصادرونها، إنها لي.

- نصادرها لأنها لك، لأنك ترفض دفْع الضريبة.

كانت الأصوات تتصاعد في الخارج، وبعد قليل، تمكّن عدد من الصحفيين والأجانب المناصرين من الدخول.

كانت الكاميرات جاهزة لتصوير مشهد مصادرة الأبقار.

.. وفكّر الكابتن داود، لو فعلها وصادر البقرات في تلك اللحظة، لاعترف أمام الصحافة وكلّ من تحلّقوا حوله، بأن أهالي بيت ساحور نجحوا في خداعه خلال الأشهر الماضية، وأن

البقرات كانت طوال الوقت أمام عينيه، تحت قدميه، دون أن يراها، وأن مصادرتها الآن هي أفضل اعتراف بهزيمته.

نظر إلى الصحفيين، وقال:

- لقد تبين لنا أن هذه الأبقار غير تلك الأبقار التي تمّ تهريبها، فهي تختلف عنها في الشكل، وتختلف عنها في العدد، سنُعطي اللحام مُهلة للتخلّص منها، ذبْحها، لكي يتمكن من دفع الضريبة، وإن لم يدفع سنصادرها.

فوجئ اللحام بالقرار الذي لم يتوقّعه: أن يخرج الجنود تاركين الأبقار خلْفهم!

لكن الجنود الذين خرجوا من محلّه، لم يخرجوا من الحارة، فأمام باب المحلّ استقرّت دورية مراقبة. أحسّ الجميع أن من المستحيل تهريب البقرات مرة أخرى، أحسّوا أنهم فقدوها إلى الأبد.

بعد مرور خمس ساعات جاءت دورية أخرى، وبدأ الجنود بالتناوب على حراسة المكان.

صبيحة اليوم التالي وصل الكابتن داود، سأل الجنود، ما إن اقترب من باب المحل، هل تشمّون رائحة البقرات؟

- لا، أجابوا.

- غريب، لأنني أشم رائحتها بصورة واضحة.

رفع أكثر من جندي رؤوسهم عاليًا وحرّكوها محاولين اصطياد أي رائحة في الجوّ.

أشار الكابتن داود إلى اللحام أن يحضر.

- هل ذبحتَ أيًّا من البقرات؟

- لا، حتى الآن لا، وربما لا أذبحها، فهناك واحدة منها ولدت عِجْلين في الليلة الماضية، سأكون مجنونًا إن ذبحتها، ثم إن هذا حرام، لأن هناك عُجُولا في بطون البقرات الأخرى على ما يبدو.

- وماذا عن الضريبة؟ هل ستدفعها، ألاحظ أنك بعتَ معظم اللحم الذي كنت تعرضه أمس.

- المال الذي قبضته لا يكفيني لكي أعيش.

أشار الكابتن داود إلى الجنود خلفه، وأشار إلى اللحّام، ففهموا أن لديهم مهمة الآن، هي اعتقاله.

لم يُبدِ اللحام مقاومة، فهو يعرف أنه سيكون الخاسر إن فعل، سيشبعونه ضربًا. وظهرتْ امرأته فجأة، راحت تصيح في وجه الجنود وهي تحاول تحريره من أيديهم. كانت امرأة نحيفة للغاية وذات وجه صغير، جميل. دَفعة صغيرة أسقطتْها.

- سنمنحكم مُهلة اثنتين وسبعين ساعة لدفع ما عليكم من ضريبة، وإذا لم تدفعوا ستتمّ مصادرة البقرات، ونمدّد فترة اعتقال زوجك.

* * *

بعد أقل من ساعة أدرك الكابتن داود أنه يكرر الخطأ السابق، ويمنح اللحّام المهلة نفسها التي منحها للجنة المزرعة التي هرّبت الأبقار، قرر تخفيضها إلى ست وثلاثين ساعة.

في زنزانة الاعتقال كان اللحّام يدور باحثًا عن حلّ، حين دخل إسكندر مخفورًا. دفعه أحد الجنود، لكنه استطاع أن يحافظ على توازنه في اللحظة الأخيرة، قبل أن يسقط.

في زاوية معتمة كان يجلس نبيل.

- شايفك هون، ما الذي فعلته؟! سأل إسكندر اللحّام، وكأنه لم يسمع بما حدث.

- يريدونني أن أدفع ضريبة، وليس لدي أصلا ما أدفعه لشراء أي شيء.

- فهمت، سمعت كثيرين يتحدثون عن شرائك لعدد من الأبقار.

- ما الغريب في الأمر؟! فأنا أبيع واشتري الأبقار والأغنام طوال حياتي.

- ليتك اشتريتَ بقرات الجمعية إذًا، بدل أن نضطرّ لذبحها!

التقط اللحام خيط الحوار:

- كيف أشتريها وأنتم لم تعرضوها عليّ؟!

- على أي حال صار خير، والتفتَ إسكندر إلى نبيل، وسأل: كأني أرى شخصا آخر هنا، لا تؤاخذني يا أخ، العتب على النظر الذي لم يعد كما كان.

- لا، لا تعتذر يا عم إسكندر، فأنا أعرفك، وإن كنت لا تعرفني.

- وما سبب وجودك هنا؟

- الضريبة، أرفض دفع الضريبة، هذه هي تهمتي، ومنذ يومين يساومونني على أن أدفع أقلّ، المهم بالنسبة لهم أن أدفع، ولكنني أرفض!

* * *

- إسكندر، مين إسكندر؟ سأل الجندي الذي فتح باب غرفة الاعتقال.

- أنا إسكندر.

- تعال.

أمام الكابتن داود وجد إسكندر نفسه مرّة أخرى، ودون أن يرفع نظره وينظر إليه، قال الكابتن داود:

- إياك أن تعتقد أنك خدعتني، فأنا أعرف أن تلك الأبقار هي نفسها الأبقار التي أخفيتها، حتى دون أن أنظر إلى ملفاتها هذه، وضرب الملفات برفق، حريصًا على ألا يسقط أيّ منها.

- قلت لك إننا ذبحنا تلك الأبقار، ذبحناها وأكلناها، ولم تعد موجودة في هذا العالم.

- تستطيع أن تكذب كما تشاء، ولكنني هذه المرّة سأصادرها، واللحام وقّع بنفسه على أمر مصادرتها، حينما رفض أن يدفع ما عليه من ضريبة. لقد حُلّت المشكلة بطريقة رائعة لم أكن أتوقّعها، أنتم هُزمتم، وأنا حافظت على نظافة نصري واكتماله، وصمت طويلا قبل أن يضيف: ثم إنني أحبّ أن أطمئنك أن بشارة على وشك أن يدفع ضريبة خداعك لي، وخداعه لي. وعاد إلى صمته، رفع رأسه ونظر مباشرة في عيني إسكندر وسأله: ما الذي تفعله هنا؟ بإمكانك أن تعود إلى بيتك.

* * *

كانت مصادرة البقرات، لو تمّت، أكبر ضربة يمكن أن تُلحق بالمدينة، حتى أن البعض اقترح أن يقوم اللحام بدفع ما عليه من ضريبة، لكي تتمكّن المدينة من الاحتفاظ بالبقرات.

اعترض آخرون، وقالوا إن ذلك سيفتح الباب واسعًا لحجج كثيرة حول ضرورات الدفع.

الشباب الثلاثة، الملثّمون، الذين حضروا الاجتماع، استمعوا لما دار بصمت، وعندما قرروا الخروج، كتب أحدهم ورقة، وناولها لإسكندر: لن يكون الدّفع سببًا كافيًا لمنع مصادرتها، فالبقرات وجِدَتْ لسبب غير هذا، وحكومة إسرائيل تعرف هذا السبب.

أتركونا نفكر.

* * *

استدعى الكابتن داود اللحامَ وأخبره أن المهلة التي منحه إياها انتهت، وعرض عليه أن يدفع رُبع الضريبة، ليُخرجه.

- والبقرات؟

- البقرات تجري مصادرتها الآن، بينما أكلّمك.

- تصادرونها! ولماذا تصادرونها؟ إنها بقراتي!

ضربة قاسية كانت، تلك التي أوقعت اللحام، اللحام الذي لم يكن يعتقد أن هناك أحدًا خلفه.

اتكأ على ذراعيه، كان على وشك الوقوف حين سمع رنين الهاتف فوق طاولة الكابتن داود.

هوى قلب اللحّام أكثر. أمسك الكابتن داود سماعة الهاتف، وألقى تلك النظرة على اللحام، النظرة التي لا يُلقيها سوى شخص قرّر التخلّص من عدوّه إلى الأبد.

راح الكابتن داود يهزّ رأسه ببطء، أشار بالسماعة قبل أن يُغلقها إلى الجندي ليضرب اللحّام.

ضربه بعنف متواصل أشدّ، واللحّام يصيح من ألم يتصاعد من كل مكان في جسمه.

رفع الكابتن داود يده إلى الأعلى، توقّف الضرب. وقف، سار نحو اللحام، وضع حذاءه العسكري على عنقه، ضغط. تلاشى الهواء فجأة، أحسّ اللحام أنه يختنق، يموت.

ـ أين أخفيت البقرات؟! كيف استطعت تهريبها مرّة أخرى؟ صرخ.

وخفف قوة الضغط على عنقه قليلا، دون أن يرفع حذاءه تمامًا، ليمنحه فرصة للإجابة.

لم يكن الهواء كافيا لخروج الكلمات من ذلك الفم المدمّى. ضغط الكابتن داود ثانية، بدأت أطراف اللحام تتخبّط، كما لو أنه معلّق في مشنقة، وقبل أن يفارق الحياة بلحظة، عاد الهواء ثانية إلى صدره.

تركه الكابتن داود على الأرض ملقى، وخرج، فهو يعرف أن ليس باستطاعته أن يوجّه له تهمة تهريب البقرات، ما دام معتقلا منذ يوم أمس في زنزانة على بعد عشرين مترًا من مكتبه.

* * *

.. وانقضى الربيع سريعًا،

هبت رياح حزيران الحارّة، وتفتّح جمر تموز، وليس من دليل على وجود البقرات سوى اختفاء سيارات شركة تنوفا تمامًا من شوارع بيت ساحور.

وصول الغابة!

ضاق كل شيء حول مرتا، أصبح البيانو هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تلجأ إليه، دون أن تخنقها الجدران، وخوفها على بشارة.

كانت تعرف أن قرار قتْله قد اتُّخِذ، رغم أن إسكندر لم يحدثها عما سمعه من تهديدات الكابتن داود خلال اعتقاله؛ أما زيدان فتحوّل إلى طيف، بين حين وحين يظهر، لكن المدّة بين رؤيتهم له وبين اختفائه، كانت من القِصَر إلى درجة أنهم لم يعودوا معها قادرين على أن يجزموا أنهم رأوه فعلا.

في الشوارع أصبح الجنود أكثر شراسة، وابتكر الجيش إجراء جديدًا هو ضرورة الحصول على براءة ذمة، لمن يريد مغادرة حدود المدينة، فلم يعد بإمكان أيّ شخص أن يسافر، أو يحصل على أيّ رخصة، أو يجدّدها، أو يقوم بعمل إلا إذا أثبت أنه دفع الضريبة المستحقة عليه. وغدت مصادرة الهويات، لأوهى الأسباب، ظاهرة. الهويات التي لا يستطيع أحد التحرّك إن لم تكن في جيبه، وإذا قُبض عليه وهي ليست بحوزته فإن السجن في انتظاره.

كل شيء في المدينة كان يسير باتجاه نقطة الانفجار.

في ليل تموز الحارّ، كان العرق يتصبّب من أجساد البشر، ولم تكن النوافذ والأبواب المشرعة كافية لدخول الهواء، الهواء الذي لم يعد موجودًا.

- أشعر بأنهم صادروا الهواء، لا أتذكّر أنني عشت صيفًا كهذا، منذ أن وصلت متعبًا، على وشك الموت، قبل سبعين عامًا، مشارف بلدة تركية اسمها أورفا شمال شرق الأناضول، قال إسكندر.

تأمّلته مرتا؛ رغم كل محاولاته للظهور بمظهر الرجل الذي لم تهزمه السنوات، وتقلبات الزمان، وهو يعبر من إمبراطورية إلى إمبراطورية بخطى واسعة، كما يعبر بين غرفة وغرفة، إلا أن القلق الذي يسكن عينيه لم يعد خافيًا. هو الذي لا شيء يجعله أفضل حالا من وجود تحدّ ما، وهذا ما منحته إياه الحياة منذ أن فتح عينيه على هذه الأرض.

- ألن تُسمعينا شيئًا؟

- سأسمعك.

مع تصاعد الانتفاضة توقّفت عن العزف، كلما عزفت قفز وجه واحد من طلابها الذين استشهدوا أو أصيبوا إلى مخيّلتها، وجلس فوق أصابعها مانعًا إيّاها من التّحرّك.

- اعزفي لهم، قال لها إسكندر، حين حدّثته عما يحدث لها، وفيها، اعزفي لهم، لا أظن أن شيئًا يفرحهم أكثر من أن يسمعوك تعزفين.

وعادت إلى البيانو، جلست، وما إن وضعت أصابعها على مفاتيحه، حتى رأت ابنها نديم بينهم طفلا، إلى جانبهم يجلس، فوق تلك الأصابع.

قالت لإسكندر: أعرف أنك لا تستطيع أن تراهم، ولكنهم عادوا. هل ترى نديم؟

- أراه دائما يا مرتا، لا يغيب لي عن بال، إنه يعود معهم، ليستمع وإياهم إليكِ، لا ليمنعكِ من العزف.

كانت مرتا تريد أن تصدّق زوجها، لأن رغبتها في العزف تفوق أي رغبة أخرى.

بصعوبة رفعت أصابع يدها اليمنى عن البيانو، وكم أدهشها أن الشهيد الصغير رامي، ارتفع بسهولة وكأنه غيمة صغيرة، نزلت أصابعها، تصاعدت عدة نغمات، وتبعتْ يدها اليسرى أختها، فارتفع نديم الذي يجلس عليها، وبعد قليل أصبحت يداها أرجوحتين لهما.

ودون أن تدري وجدت نفسها سابحة في تلك الأغنية التي طالما عزفتها، دون أن تعرف إن كانت تعزفها لهم حقًّا، أم لنفسها:

طيري يا طيارة طيري يا ورق وخيطان

بدي ارجع بنت صغيرة على سطح الجيران

وينساني الزمان.. على سطح الجيران

....

علّي فوق سطوح بعاد ع النسمة الخجولة

أخذوني معهم لولاد وردُّولي الطفولة

ضحكات الصبيان

وغناني زمان

ردّتلي كتبي ومدرستي.. والعمر إللي كان

وينساني الزمان.. على سطح الجيران

في ذلك الليل، رأت مرتا الأطفال يأتون من كل مكان، وتتزايد أعدادهم فوق أصابعها، كلّما تصاعدت الأغنية، أطفال رأت صورهم في الملصقات وفي الصحف، في نشرات الأخبار..

أصبح العزف جزءًا من ليل الحارة، وتدريجيًّا بدأت الأصوات التي يمكن أن تُعكّر صفوه تتلاشى.

في الساعة التي تعزف فيها مرتا، بين الثامنة والتاسعة مساء، يصمت كل شيء.

* * *

في التاسعة والربع ذات مساء، طرقت يد باب منزلهم برفق، كما لو أن من يطرق الباب لا يريد لأحد أن ينتبه لحضوره.

ارتجف قلب إسكندر: أيكون بشارة؟

تسارعت خطواته، وصل الباب غير عابئ بالوهن الذي يسكن قدميه ما إن تغيب الشمس. فتح الباب بسرعة، وجد نفسه أمام عدد من الجنود. تراجع إلى الوراء.

- نعتذر عن إزعاجك، قال أحدهم بلغة مكسّرة، فقط كنا نريد أن نسأل لماذا توقَّف العزف؟

- أنتم تستمعون إلى البيانو؟!

- كل ليلة، كلّما مررنا من هنا.

- تحبونه إذًا؟

- كثيرًا.

- مثلما تحبون احتلال أرضنا؟! أم أكثر؟!

فوجئ الجندي:

- نحن جُدُدٌ هنا؟

- تعني أنكم لم تقتلوا أحدًا بعد؟

- هيا بنا آرون.. هيا بنا، قال جندي للآخر الذي يتحدّث مع إسكندر.

لم ينقطع مرور الجنود أنفسهم، لكن عزف مرتا انقطع. ومن جديد بات الصغار يهبطون، ولكن ليس على رؤوس أصابعها، بل في أحلامها، وكانوا يبكون، ولكنها كانت تخشى أن تعزف لهم في حلمها فيسمعها الجنود، ويحبّوا عزفها.

* * *

أقفر البيت مع صمت البيانو، أقفرت الحارة. طُرق باب إسكندر عشرات المرات، والناس يسألون سؤالا واحدًا لا غير:

- لماذا لم تعد مرتا تعزف؟ نرجو ألا يكون هناك مكروه.

- الجنود سعداء بعزفها، اكتشفنا أننا نرفّه عنهم دون أن ندري، ولذا لم تعد مرتا تعزف.

* * *

رولا الصغيرة، حفيدة إدوارد، سمعت بما حدث، تجاوزت كل عتبة باب صادفتها أمامها في بيت إسكندر كالعاصفة. وقفت أمام مرتا غاضبة، وبلغتها الفصيحة التي تحاول إثبات تطوّرها باستمرار، قالت.

- سمعتُ أنكِ توقفتِ لأنَّ الجنودَ يستمعونَ لعزفكِ.

- بل لأنهم يقتلوننا.

- هذا لا يجوزُ يا خالتي مرتا، بل مُحال!

- لماذا؟

- حين تتوقفينَ عن العزف تحرمينا من هذه السعادةِ الصغيرةِ، تحرمينا كلّنا بسببِ وجود زُمرةِ جنود يستمعون إلى عزفكِ. حتى لو نقلوا المعسكرَ كلّه ووضعوه تحت شباككِ، عليكِ أن تواصلي العزفَ، أتعرفين لماذا؟

- لماذا؟

- حتى يتذكرَ الجنودُ دائمًا، أن كلَّ ما يفعلونه هنا أنهم يقتلونَ أُناسًا يحبون بلادَهم والموسيقيض.

صمتت مرتا، فأضافت رولا:

- يجبُ علينا ألا نكون مثلهم، علينا ألّا ننصاع!

وهدأت رولا الصغيرة كما لو أنها أنزلت حمْلا كبيرًا عن ظهرها، رولا الصغيرة، الجميلة، صاحبة أجمل أنف وعينين وفم رأتها مرتا في حياتها. لم تجد مرتا شيئا تقوله، بعد أن سمعت ما قالته تلك البنت الصغيرة الأشبه بحبة كرز ناضجة. وكم تمنّت أن تتكلّم رولا أكثر، اكتشفت مرتا أن صوت تلك الصغيرة أجمل صوت سمعته في حياتها، فطلبت منها أن تتحدّث أكثر.

- أظن أن ما قلته يكفي، الآن، على البيانو أن يتكلّمَ لتصمتَ رولا.

ابتسمت مرتا.

- أقنعتيني، شو رأيك يا إسكندر؟

- أقنعتْني، وذكَّرتْني بذلك الذي لا يجب علينا أن ننساه أبدًا: أننا الأحياءُ هنا.

- سأجلس هناك، على طرف الشرفةِ، وأراقبُ الشارعَ، وإذا رأيتُ الجنودَ سأطلبُ منكِ أن تعزفي بقوة أكبر، واطمئني، أنتِ في أيدٍ أمينة.

- في أيد أمينة؟! سألتها مرتا وهي تنظر إلى يديها الصغيرتين.

- في أيدٍ أمينة، واقتربت رولا من أذن مرتا اليمنى، وهمست: كنت أريدُ أن أكون في لجان حراسةِ البلد، لكنهم قالوا أنتِ صغيرةٌ، وهذه مسؤوليةُ الشباب! عجيبٌ، صدّقيني أنني أشجعُ منهم كلّهم، كما أنني أسمع بأنفي أيضًا.

- تسمعين بأنفكِ؟!

- بأنفي، أجل، لأنني أشمُّ رائحةَ الخطر عن بُعدٍ، هل اقتنعتِ الآن؟

- أكيد.

* * *

مكتفية بما يصلها من نغمات أغنيات تعرفها، بدأت رولا بمراقبة الشارع متنقِّلة بين حافتَي شرفة مرتا.

* * *

كان الجنود قد فقدوا الأمل في عودة العزف، وفي مساء الليلة السابعة لذلك الصمت، في السابعة مساء، وصلتْ النغمات إلى معسكرهم في شارع اسطيح.

ما إن أطلّوا من طرف الشارع، حتى رأت رولا أشباحهم. ركضت، تجاوزت عتبة الشرفة صائحةً: أعلى.

ارتبك الجنود، تجمّدوا في أماكنهم مستمعين، غير قادرين على التقدّم أكثر، أو الرجوع، وهم يستمعون.

- هل تلاحظون أن صوت الموسيقى أعلى هذه الليلة؟

- ربما.

- هل لذلك معنى في اعتقادكم؟

- ربما.

كانوا مستغرقين في السماع، عندما هبّ ذلك الصوت عاصفًا من خلفهم:

- ما الذي تفعلونه هنا؟

ولم يكن عليهم أن يستديروا ليعرفوا صاحب الصرخة، لأنه شاؤول.

* * *

كانت بيت ساحور بحاجة إلى ليلة مختلفة، ليلة انتصار.

خبر اختفاء البقرات فتح أبوابًا لا حصر لها من التعليقات، ولم يبقَ سوى أن يقول أحدهم إن البقرات طارت بقُدرة قادر، وإن الطائرات المروحيّة التي ظهرت بعد اختفائها كانت تطاردها في السماء، لا تبحث عنها على الأرض.

* * *

في الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي، خرجت عصافير مرتا من بيتها، كان الأطفال يدندنون بأغنية: عصفور طل من الشباك.

بمجرد أن غادروا البيت، وأُقفِل الباب خلفهم، ظهر شاؤول فجأة من خلف زاوية الشارع.

لم يعرف الصغار أنّ كمينا أُعدّ لهم، لم يعرفوا أنهم سقطوا كلّهم في الشِّباك دفعة واحدة. رولا الصغيرة، لم تستطع أن تقطع المسافة القصيرة إلى بيتها وهي تجرّ اثنين من الصغار نحوها.

قطع الجنود الطريق.

كان بودّ الصغار أن يصرخوا، لكن حناجرهم التي كانت ممتلئة بالغناء، لم يكن فيها متّسع لصرخات الخوف.

أشار لهم شاؤول مهدّدًا أن يصمتوا.

في تلك اللحظة أحسّوا أنهم ليسوا المطلوبين، لأن كلَّ ما فعلوه هو الغناء، لكن ذلك الحسّ تبدّد. تقدّم الجنود نحوهم، وساقوهم إلى تلك المساحة الضيقة، تحت شرفة مرتا.

أفلتت صرخة رولا رغما عنها، كانت تريد أن يظهر أيّ إنسان، لينقذها والصغار. تلقّتْ ضربة من شاؤول طرحتْها أرضًا، نصف فاقدة لوعيها.

ركلها، فتحتْ عينيها بصعوبة، أشار لها أن تصمت. لكن صرختها كانت قد وصلت إلى الشرفة واجتازت عتبتها للداخل، وسمعتْها مرتا.

انطلقت مرتا للشرفة بخطى سريعة لا تنتمي لعمرها. أطلّت، لمحت عصافيرها كلّهم هناك، ولمحها شاؤول. أشهر بندقيته وأطلق زخة من الرصاص في الهواء، تراجعت مرتا، سقطت على ظهرها في الشرفة، وأطلَّ أناس آخرون من أبواب، وشرفات، كان الجنود بانتظارهم، زخات متتالية من الرصاص تركت الصغار وحيدين في الشارع يرتجفون.

- أنت، قال شاؤول موجهًا كلامه لآرون، عاشق الموسيقى.

- ماذا؟

- تعال إلى هنا.

تقدم آرون خائفًا وكأنه واحد من الصغار.

- أترى تلك البنت، حطّم أصابعها.

- كيف أُحطِّم أصابعها؟ ما الذي فعلتْه؟!

- قلتُ لك حطّم أصابعها، ببندقيتك، ببسطارك، بحجر، بأي شيء.

تقدّم آرون مرتبكا نحو رولا التي لم تفهم ما قاله بالعبرية. كان على يقين من أن عليه تنفيذ الأمر ما دام صدر.

وضع قدمه على الذراع الأيمن للصغيرة، رفع البندقية وهوى، وقبل أن تصيح رولا، سمعت مرتا في الشرفة تهشُّمَ عظام أصابعها.

لا تعرف مرتا كمّ مرَّ من زمن وهي تسمع الصوت الرهيب ذاته مرّة تلو أخرى، والصرخات تتعالى تحت شرفتها، في ذلك الوقت الضيق الذي كان فيه إسكندر يحاول سحبها للداخل، كما لو أنه يسحب جريحًا في ساحة حرب، لكنها كانت تتمسك ببلاط الأرضية بأظافرها. وانطلقت زخات رصاص أخرى، وتصاعد صوت تهشُّم عظام الأصابع أكثر فأكثر، وحين كانت خطى الجنود تبتعد، تختفي، كان صوت تهشم العظام ما زال مستمرًا، وأصوات الصغار تتقاطع متجاوزة الشارع، الشرفة، السطوح، للسماء.

* * *

في الثامنة وخمس دقائق مساء، وقبل أن تهدأ صرخات الصغار، تحرّكت أكثر من عشرين عربة عسكرية من معسكر شارع اسطيح، عربات مزوّدة بمكبّرات صوت عملاقة، طالما استخدمها الجيش لإعلان حظْر التجوال.

فجأة، انطلقتْ أصوات عالية، صمتت لحظات. وصمتَ كل شيء في المدينة. تكورت رولا الصغيرة على نفسها محاولة خنق الألم المتصاعد من أصابع يديها المضمّدة.

وعادت الضجة تهزّ المدينة من جديد.

طوال تلك الليلة ظلّت عربات الجيش تدور في الشوارع، ومن مكبرات الصوت يتصاعد بلا توقف عواء ذئاب ونباح كلاب ومواء قطط ونقيق ضفادع ونهيق حمير وخوار أبقار.. وسط بكاء الصغار الذين اقتلع الفزعُ النومَ من أعينهم، وفي البعيد، في القرى المجاورة كان الناس على يقين من أن حيوانات الغابات كلّها تنقضُّ على بيت ساحور.

وليلة بعد ليلة تكرّر المشهد..

كلّ الدّروس!

قبيل الفجر جمع الكابتن داود قواته، كان الأمر واضحًا، فالمواجهات الأعنف التي حدثت بعد ليالي مكبرات الصوت، وعدد الإصابات بين أهالي المدينة، سرَّعت في اتخاذ القرار الأكثر تحدّيًا: الامتناع عن دفع الضرائب. انتشرت شعارات غطت جدران المدينة:

لن ندفع ثمن الرصاص الذي يقتلنا، ندفع لدولتنا التي تمثّلنا.

* * *

- سيحدث معكم التالي، قال الكابتن داود مخاطبًا جنوده، وهو يستعيد ما قاله جده ياكوف لأبيه موشيه، عن مراحل السيطرة على هذه البلاد، وصمت قليلا قبل أن يضيف: لقد انضمَّ إلينا عدد من الجنود الجُدد الذين لم يسبق لهم أن خدموا في (المناطق)، وإليهم بشكل خاص سأوجّه كلامي هذا الصباح: في الليلة الأولى، ستكسرُ باب أحد البيوت وتعتقلُ شابًّا، وسترى أمه تصيح وتبكي، ستتأثرُ بهذا، فأنت لا تحبّ أن تؤذي الناس.

في الليلة الثانية، ستكسر بابًا آخر، وتعتقل طفلا رمى دوريتك بحجر. ستبدأ أمّه بالعويل، عندها ستقول لنفسك: يا إلهي، هل بدأ ذلك العويل ثانية؟ ولا تعرف ما الذي عليك أن تفعله.

في الليلة الثالثة، ستبدأ المرأة بالصراخ، وستصرخ في وجهها وأنت تضع بندقيتك في صدرها: اخرسي، ستأمرها بحزم.

في الليلة الرابعة، ستحسّ بأنك أقوى، وأشدّ، وستطلق النار على الشابّ.

بعد ذلك لن يهمّك أيّ شيء؛ ستكون قد نضجتَ كعسكري.

* * *

شاؤول، الجندي الذي خدم في فيتنام، شاؤول الذي عمّم مباريات الصّفع، كان الأكثر فرحًا بالخطاب، فقد أعفى الكابتن داود قادةَ الجنود في المنطقة من مهمّة الحديث، فرادى، مع جنودهم الجدد، كما أن خطابا في أي حشد، يترك أثره النفسي الأعمق من أيّ وصايا جانبية، وهذا ما لمسه بوضوح طوال فترات عمله العسكري.

لكن شاؤول الذي عايش الانتفاضة بشكل يومي، كان يفكّر في شيء آخر، أكثر إثارة، بعيدًا عن تلك العمليات التي قام بها ضد أفراد؛ فالأمر بات منذ ذلك الصباح متعلِّقا بمدينة، وهي ليست أيّ مدينة، إنها الأولى التي تعلن العصيان، وتمتنع عن دفع الضرائب. صحيح أن كثيرًا من العمليات كانت مصدر متعة أيضا للجنود، مثل الصفع وإجبار شاب على أكل التراب والعشب والأرانب الحية، أو إجباره على أن ينبح، أو أن يعضّ كلبا، أو ذنَب قطة، أو أن يصعد عامود كهرباء لإنزال علَم وتحويله إلى هدف أو..، هذه مسألة لم يتنبه لها قادة الجيش، بمن فيهم ناحوم نوردو، الشهير بالكابتن داود، ولم يدركوا الأثر الكبير الذي تحقّقه، فالخدمة العسكرية، في رأي شاؤول، متعة مثلما هي واجب، وهو يعرف: كلما تناقصت المتعة تآكل الحسّ بالواجب.

* * *

من أربع جهات تقدّمت القوات الإسرائيلية. الغبار أقفل المدى، وامتلأ الفضاء بأصوات محرّكات العربات والدبابات وناقلات الجند.

أُغلقت الشوارع بالحواجز، وانتشر الجنود الإسرائيليون بأسلحتهم. كان الجو ينذر بعملية عسكرية كبرى، وفي أقل من نصف ساعة أصبحت مدرسة بيت ساحور الثانوية للبنين، التي خلت من طلابها ومدرّسيها منذ أشهر بسبب إغلاقها، مركزًا لاستجواب رافضي دفع الضريبة، أما مزرعة جورج حنا ومزرعة خليل رشماوي، في حي اسطيح فقد اندفعت إليها جرافات الجيش التي لم تترك شجرة من أشجار الزيتون واللوزيات إلا واقتلعتها، وهي تمهّد الأرض لتوسيع المعسكر الموجود هناك وتحويل الأرض إلى ساحة واسعة، مُغلِقَة الطريق إلى كنيسة حقل الرّعوات.

* * *

وثانية، عادت مكبرات الصوت فوق العربات العسكرية تجوب الشوارع، داعية الناس الذين سحَبَ الجيش رُخصَ مركباتهم ورخص القيادة منهم، لتجميع سياراتهم أمام المدرسة، وانتشر موظفو الضريبة في كل مكان، يرافقهم الجنود وشاحنات كبيرة لمصادرة ممتلكات كل من يرفض دفع الضريبة المستحقة عليه.

أبو خليل، الذي قاتل قبل أكثر من خمسين عامًا في الثورة الفلسطينية الكبرى، صاحب الدكان، في نهاية الشارع الذي يقع فيه بيت إسكندر، أبو خليل، كان يعرف أنه لم يدفع الضريبة، ولن يدفعها. سمع أن الجنود وموظفي الضريبة يقتربون، فلم يجد أمامه سوى حلٍّ وحيد. وقف بباب الدكان وصاح:

- يا أهالي بيت ساحور، يا أهالي بيت ساحور.

بدأ الناس بالتجمّع، صغارًا وكبارًا، وعندما اطمأنّ إلى أن العدد الذي وصل قادر على تنفيذ الفكرة التي في رأسه، قال:

- ها هي الدكان، كلّ ما فيها حلال عليكم، من يحتاج إلى شيء، أمانة الله، فليأخذه، وسأذهب وأقف بعيدًا هناك، وأشار إلى بيت قديم يبعد عشرين مترًا عن الدكان، حتى لا أرى ما يحتاجه أي شخص من أشياء.

تراجع بعض الناس للوراء، بعيدًا عنه، وتبادل آخرون النظرات. عرف أبو خليل بما يدور في رؤوسهم.

- يا أخواني، تعرفون أنني لن أدفع الضريبة مهما حدث، لأن عليهم هم أن يدفعوا ضريبة تشريدنا وقتل أبنائنا وتعذيبهم في المعتقلات وسرقة بيوتنا، وتعرفون أنهم سيصادرون كل ما في الدكان؛ أرجوكم، ساعدوني لكي لا نسمح لهم بذلك، وأمسك بيد رجل من الذين تراجعوا، وسحبه وأدخله الدكان. تركه في داخلها وابتعد.

لم يكن سهلا على أيّ منهم أن يأخذ شيئًا، لكنهم كانوا يعرفون أنهم إن لم يفعلوا سيندمون فيما بعد، لأن البضاعة ستُصادر، ولأنهم بحاجة لها بسبب مقاطعة البضائع الإسرائيلية، ولا يستطيعون الدفع لأن الأعمال توقّفت.

* * *

- لقد علمنا أنك وزّعت البضاعة على الناس، قال له موظف الضريبة.

- هذا أفضل من أن يستولي عليها جيشكم.

- مع أنك امتنعت عن دفع الضريبة.

- صحيح، وإذا كان لديكم حلم بأن أدفع الضريبة فإن حلمكم انتهى الآن، فلا شيء لديّ.

هزّ موظف الضريبة رأسه، فتح ملفًا كان يحمله، قلّب الصفحات، وصل إلى الصفحة التي يريدها، استدار نحو الجنود الذين يرافقونه، همس لهم عدة كلمات، فرآهم أبو خليل يهزّون رؤوسهم أيضًا.

عاد موظف الضريبة، ووقف أمام أبو خليل ثانية:

- سنأخذ الضريبة رغما عنك، أنت تقول أن لا شيء لديك، ولكنني أقول إن لديك الكثير الذي نستطيع أن نأخذه.

- وماذا لديّ؟!

- لديك أربعة أولاد، سنعتقل اثنين منهم بدل ضريبة، ونترك لك الآخرَين، وفي حال إصرارك على عدم الامتثال للقانون، سنصادر الولدَين الآخرين في جولتنا القادمة.

* * *

الذي لم يعرفه أبو خليل أن الكابتن داود اتخذ قرار اعتقال ولديه، قبل وقت طويل من وصول جباة الضرائب، منذ أن رأى أمّهم، ولأنه يعرف أن أفضل عقاب لمدينة تتظاهر ضدك، وتَرجِمكَ، أن تحرمها من أطبائها. اعتقال خليل، الطبيب، وسالم، معلم الرياضيات، في الصفوف السرّية للتدريس، بعد إغلاق المدارس، كان أفضل عقاب، لا لوالديهم فقط، بل لكل أولئك الذين سيحرمهم من أن يستفيدوا من خدماتهما.

* * *

أمام الدكان، جالسًا على كرسي من القش، كان أبو خليل يحتضن رأسه براحتيه، خصلات شعره الأبيض الناعم تطلّ من بين أصابعه، فتغدو ساطعة مع سقوط أشعة الشمس عليها. كان الناس الذين يرقبون المشهد، قد ابتعدوا ما إن غادر موظف الضرائب والجنود المكان، فانتشر صمت ثقيل، إذ لم يكن ثمة كلام يمكن أن يقال. بعد دقائق عادت الحركة، لم يكن صعبًا على أبو خليل أن يسمع أقدامًا كثيرة تتقدّم نحوه، رفع رأسه، كان الناس قادمين لإعادة كل ما أخذوه من الدكان. قبل أن يصلوا، نهض، وأغلق الدكان ووضع المفتاح في جيبه.

- لو كنت أريدُ هذه البضاعة لخبأتها، هذه البضاعة خرجت من هنا ولن تعود ثانية، لأنها لكم، لا للجيش، وإذا لم تأخذوها اليوم سيعود ويأخذها بعد ساعة أو ساعتين، أو غدًا.

كانت كلماته حاسمة بحيث استدار الناس مبتعدين.

إلى كرسي القش عاد وجلس، بعد قليل سمع خطوات ناعمة تتقدّم، لم يرفع رأسه، كان يفكر في حكاية البلاد كلها، متسائلا إلى متى سنظلّ ندفع ضرائب لمن يقتلوننا؟

هزّته يدٌ مضمّدة صغيرة، رفع رأسه، ونظر إلى ذلك الوجه الجميل مثل حبة كرز:

- رولا؟

- خُذْ هذه أيها الجدُّ العزيز!

أبو خليل كان يعرف افتتانها بالفصحى، لم يستطع منع نفسه من الابتسام سعادةً وهو يسمعها.

كانت أصابع يديها المتورمة ترفع نحوه بصعوبة حبة شوكلاته.

- أولا هذه لكِ، وليستْ لي، ألم أضعها في جيبك بنفسي قبل أن أوزِّع ما في الدكان على الناس؟

- هذا صحيحٌ.

- لماذا تعيدينها لجدك أبو خليل إذًا؟

- لأنكَ لا تملكُ الآن شيئًا يمكن أن تبيعَهُ.

- بطمْنك يا رولا، جدك أبو خليل، مش ناوي يبيع شيء، لا من الدكان ولا من غيرها، وخصوصًا نفسه.

لكن الصغيرة واصلت مدّ يديها إليه بحبة الشوكلاته.

تناول الحبة منها، ووضعها في جيب فستانها الأيمن، طالبا منها أن تنتظر. فتح باب الدكان ودخل، وكما توقّع فإن بعض الأشياء الصغيرة بقيت، ومن بينها علبة الشوكلاته، التي وجد موظف الضرائب أنه أكبر من أن يصادرها، ولم يأخذها أيّ من الجيران لمحو مرارة الأيام في فمه وقلبه.

عاد لرولا.

- خلّينا نحسب، عدد إخوتك السجناء وغير السجناء، خمسة، صحيح؟

-صحيح.

- وهذه خمسُ حبات لإخوتك، وحبة أخرى لكِ، أتعرفين لماذا؟

- لماذا؟

- لأنك أجدع وأحلى بنت في بيت ساحور كلّها، بل في فلسطين كلّها.

- ولكنَّ هذا كثيرٌ عليَّ أيها الجدّ العزيز!

- عليكِ مش كثير. مع السلامة.

سارت رولا بخطوات قصيرة متردّدة، وبعد قليل سمعته يصيح:

- رولا، نسيتُ شيئا مهما، تعالي.

عادت الصغيرة، وهي تتمنّى أن يكون قد غيَّر رأيه، أنه سيستعيد ما أعطاها، لكنه قال لها:

- لا تؤاخذيني، نسيت أهم اثنين في عائلتك، هذه الحبّة لأمّكِ وهذه لأبيكِ، ووضعهما في جيبها. وسلّمي عليهم كثيرا.

جرعة ماء

سقطَ قلب أنطون عندما رأى جارته أم خليل تصعد الدرجات مسرعة إلى السطح، كان يعرف أن لديها مشاكل كثيرة في القلب. نادى، لم تلتفت، ونادى بصوت أعلى عندما تذكّر أن الجنود يرابطون فوق أكثر من بناية مرتفعة في المدينة. سمعته، لكنها لم تلتفت.

- يحميكِ الرب.. يحميكِ الرب، راح يردّد.

كانت تلك هي المرة الرابعة التي يُطلق فيها الجنود النارَ على خزانات المياه، لتعطيش أصحاب البيت، كما يفعلون مع كلّ بيت تكون خزانات مياهه في مرمى أسلحتهم.

في المرة السابقة، حمَلَ شباب المدينة الخزانات الجديدة من زعترة، بأيديهم ليلا، بعد أن تعذّر عليهم الحصول على خزانات في المدينة؛ وليلا، استطاعوا رفْعها إلى السطح، مستعينين بالجو الممطر والرياح والغيوم المنخفضة. كانوا يعرفون أن الجنود يمتلكون مناظير ليلية وأن باستطاعتهم قنص من يريدون في العتمة.

نادى أنطون، ومع أن نداءه الأخير كان واهنًا، بسبب النداءين السابقين وخوفه الذي تصاعد، عليها، إلا أنها سمعتْه، وبدل أن تردّ راحت ترقص فوق السطح وتغنّي:

جرعة ها الميّه أغلى من كل المالْ

لكنّه الأغلى زوال الاحتلال

جرعة ها الميّه روحي.. والله يا ناسْ

والأغلى إني ما أَسمع يوم رصاصْ

جرعة ها الميّة أغلى ما في الوجودْ

والأغلى يومٍ يرحل كلِّ الجنودْ

جرعة ها الميّة أغلى منها.. بيظلْ

راسي المرفوع وروحي إللى ما تِنْذلْ

في ذلك اليوم، أدرك أنطون وهو يتأمّل أحوال المدينة، ومحاولاتها المستمرة لأن تبدو أقوى، أن تحت كل ابتسامة هنالك بحيرة صغيرة من الدموع. وأن تحت كل أغنية أو هتاف صرخة مكتومة أعلى منهما تتحدّى الموت وترفضه وهي تعدو بكل قوتها نحوه.

- يحميكِ الرب.. يحميكِ الرب.

يتذكّر أنطون كيف كان يسير في الشارع ذات يوم؛ اعترضتْه عربة عسكرية، سألوه هل تعرف بيت أبو خليل.

- لا، لا أعرفه أجاب.

- انقلع، قال له الجندي.

- لا تغلط عليّ.

- إذا لم تبتلع لسانك سأقتلعه لك بنفسي، هدّده الجندي، وهو يفتح باب السيارة ويضع قدمه على الأرض.

هزّ أنطون رأسه، وصمتَ.

ابتعدتْ الدوريّة، وكلما أبصر الجنود واحدًا سألوه السؤال نفسه، وكانوا يسمعون الجواب نفسه.

أنطون كان يعرف أن الجميع يعرفون، ولكنهم يرفضون التعاون مع الجنود، مجرّد أن يرفع أحدهم يده ويشير إلى البيت الذي يسألونه عنه، سيتحّول في نظر نفسه إلى جاسوس. كان يتساءل، ما الذي يجعل الناس تتحمّل النتائج كلّها، مهما كانت قاسية عليهم؟

أغنية أم خليل فوق السطح أجابت عن كلّ أسئلته التي سألها لنفسه، والتي لم يسألها بعد.

في اللحظة التي وضع فيها أنطون يده على أكرة باب بيته ليدخل، كان الجندي الذي شتمه يخرج من بيت أبو خليل. رآه الجندي، قال بصوت عال:

- أنت كاذب أيها العجوز.

- لا لست كاذبًا، بل أنا لا أعمل لديكم.

في ذلك اليوم قرر الجنود اقتحام بيته، سألوه عن أولاده، بعد أن حشروا ولديه في زاوية.

قال: أحد أولادي عندكم في سجن النقب، ومَن ترونهما.

ضربوهما، حتى سقطا أرضًا والدم يغطيهما.

- إذا كذبتَ علينا مرة أخرى، سنقتلهما.

في ذلك المساء صعد الجنود إلى سطح البيت، كان مرتفعًا نسبيًّا، ويتيح لهم مراقبة الحارة.

في الصباح طلبوا منه أن يصعد عندهم، صعد، كانت رائحة غائطهم تفوح من كل زاوية.

- هل هذه أخلاق الجيش الإسرائيلي التي تتحدّثون عنها؟!

- ابتلع لسانكَ وإلا سأقطعه بنفسي، هل ستنظّفه أم ستطلب من أحد أولادك أن يأتي لينظّفه؟

فكر أنطون، أيّ كلمة احتجاج ستصدر عن ولد من أولاده ستدفع الجنود لقتله.

- سأنّظفه.

سار أبو خليل نحو إحدى الزوايا. قبل أن يصل، التقط قطعة من كرتونة ممزقة، حملها، وقبل أن يصل إلى الزاوية، قال له الجندي:

- لقد غيّرتُ رأيي، أحضرْ أحد أولادك.

- سأنظّفها بنفسي.

- بل سيأتي أحد أولادك وينظّف السّطح كلّه.

* * *

في داخل البيت كان النقاش محتدمًا. حول من ضربوه أكثر من الآخر:

- لن يضربوني أكثر مما فعلوا، ثم إنك رأيت بعينيك، أنني احتملتُ أكثر منك، ولم أمُت!

- بل سأصعد أنا، لأنك أخذتَ الحصة الأكبر!

ونظرا إلى والدهما يريدان منه أن يحسم الأمر. لم يجب، حدّق إلى السقف، ثم التفتَ إليهما:

- الربّ يحميكما، قال.

* * *

فوق السطح كان الجنود ينتظرون، غير قادرين على معرفة أيّ من ولديه سيختار العجوز.

ظهر الابن الأكبر.

فاجأته رائحة الغائط.

دون أن يسألهم أو ينظر إليهم مضى نحو قطعة الكرتون التي سبق لوالده أن أمسك بها، انحنى، حملها، مضى إلى الزاوية الأولى، دفعها تحت الغائط، رفعه، وتوجّه إلى حافة السطح، ليتخلّص منها في قطعة الأرض الترابية خلف البيت.

- إلى أين؟! سأله أحد الجنود.

وقف الشّاب، كان قد قرر أن لا ينطق ولو كلمة واحدة، كي لا يمنحهم فرصة ضربه من جديد.

التفتَ إلى الجندي، فوجده يشير إليه أن يلقيها في المكان الذي لا يمكن أن يخطُر بباله.

- سأساعدك، قال الجندي، وسط ضحكات الجنود الأربعة الذين معه. وخطا عدة خطوات نحو خزان المياه، فتح بابه، وأشار للشاب أن يُلقي الغائط داخله.

لم يتحرّك الشاب.

خمس بنادق في الوقت نفسه صوِّبت إليه.

بخطى صغيرة سار إلى الخزان، ألقى بالغائط داخله بصمت.

استدارت البنادق وأشارت إلى زاوية أخرى، ليُحضِر ما تجمّع فيها.

ذهب، سار نحو الخزان الثاني الذي فتح غطاءه الجندي، وألقى ما يحمله في داخله.

* * *

كان الشابّ على وشك أن ينزل بعد أن بات السطح نظيفًا!

- لا، أنت ستظلّ هنا، نحن نرى كل تلك الأفكار التي تتحرّك في رأسكَ، ستنزل لتحذِّرهم من شرب الماء.

فكّر الشاب أن يصيح، لكنه كان يعرف أن ذلك لن يجدي. جلس على الأرض محتضنًا رأسه، والوقت يمرُّ، ويمرُّ، وفجأة بدأ يتقيأ، كما لو أنه هو من يشرب الماء في تلك اللحظة داخل البيت.

رفع رأسه محاولا التقاط أنفاسه.

لم يكن الجنود هناك.

نهض، سار إلى محابس الخزانات، أغلقها، وقبل أن يهبط، رأى العائلة كلّها حوله. كان منهكًا، سأله والده: ماذا فعلوا بك؟

صرخ، صرخ، صرخ، كانوا على يقين من أن بيت ساحور كلّها سمعته في ذلك الصباح، كانوا على يقين من أن جسده سينفجر.

لقاء مع الماضي

لم يعد سهلا وصول حليب البقرات، كلّ لتر حليب كان يمكن أن يكلّف أحد الشباب حياته، لكن الحليب لم ينقطع. عاهد الشباب أنفسهم أن لا يكون نقص الحليب هو السبب في بكاء أيّ طفل. كالطيور كانوا يتقافزون من سطح إلى سطح في ظلام الليل. وتحوّلت سطوح البيوت المتّصلة، أو المتقاربة التي لا تحتاج إلّا لقفزات، قادرين على القيام بها، تحوّلت تلك السطوح إلى طرقات لهم.

لم يكن صعبًا على الجيش أن يكتشف ذلك، فكما تزايد عدد المشاركين في الانتفاضة، تزايد عدد العملاء.

نبيل الذي أتاح له الكابتن داود أن يكون بطلًا في أكثر من مواجهة، وطارده الجنود دون أن يتمكّنوا من القبض عليه! تمّ تحويله إلى مُطارَد، ووزِّعتْ صورتُه، ورُصدتْ مكافأة لكل من يُدلي بمعلومات عنه، وهكذا أصبح واحدًا من تلك المجموعة التي تضمّ زيدان ومنير، وأربعة آخرين.

أم خليل، الحاجة فاطمة، كانت تتنقّل بين الغرفة الصغيرة في طرف ساحة بيتها، وغرفه الداخلية، بحذر. بين حين وحين، كانت تلك المجموعة تلتجئ للاختباء عندها. حدث ذلك بعد أن جاء مأمورو الضرائب والجيش، مطالِبين أبو خليل بأن يدفع ما عليه من ضرائب في المرّة الثانية. أشرع الدكان وقال: تستطيعون أخذ ما تريدون.

فارغة كانت الرّفوف تمامًا.

اعتقلوا ولديه الآخرَين، وأصبح البيت موحشًا.

* * *

الحجة فاطمة، ذات العينين البنيتين العميقتين، والنظرة الحادّة، الأحنّ من أمّ على أبناء سواها، أمسكت زيدان من يده، وقالت له: أمّك أرسلت لك اليوم شيئًا خاصًا، عليّ أن أسلِّمه لك بنفسي.

تبِعها..

كانت تسمع خطواته خلفها، هامسةً لنفسها للمرة الألف، وهي تجيب عن السؤال الذي لم يطرحه زيدان أبدًا:

- هل كنتِ ستزوجينني ميس، فعلا؟

وأجابت:

- وهل هنالك من هو أغلى على قلبي منك في بيت ساحور، وفلسطين كلّها، لأزوجها له؟!

لا تستطيع أم خليل أن تجزم إن كان هنالك زواج أقوى من زواج ميس وزيدان، الزواج الذي لم يكتمل، ميس التي لم تنتظر أن يطلب يدها، أن ن أن أيُقدِّم مَهرًا لها، فقدّمت أغلى مَهر يمكن أن تقدّمه عروس.

مثل بركان كانت بيت ساحور تغلي، في ذلك اليوم الذي عاد فيه زيدان محطمًا. أم خليل عرفت بعودته، قبل أن تعرف ابنتها. نظرت إلى ميس كانت جميلة على غير عادتها، انقبض قلب أم خليل؛ لم يكن صعبًا عليها أن تدرك أن الجمال يستدرج الموتَ، دائما، في هذه البلاد، أكثر مما يستدرج الحياة.

حين بدأت أصوات المتظاهرين تعلو، انتعلت ميس حذاءها، لكنها قبل أن تصل الباب، اعترضتْها أمها:

- أنا بحاجة إليكِ الآن.

- ما الذي عليّ أن أفعله؟

- أشياء كثيرة أحتاج فيها إلى مساعدتك.

ميس التي كانت تعرف أن أمها التي تقوم بكل أعمال البيت، بحجة أن ليس لديها عمل سواه، لكي لا تتعبها، أمها كانت مختلفة في ذلك اليوم.

لم تجرؤ ميس أن ترفض طلبها. أغلقت عينيها عشر ثوان، كعادتها، ثم فتحتهما.

- أنا جاهزة، من أين نبدأ.

- ما رأيك أن تكنسي ساحة البيت.

ألقت ميس نظرة على الحوش، كان أنظف من صحن سيراميك أبيض. فهمت أن أمها لا تريدها أن تخرج، لكنها سارت حتى المكنسة المستندة إلى الحائط قرب الباب الداخلي، تناولتْها، وبدأت تشتغل بهمّة من ترى الحوش في أسوأ حالاته!

بعد ان انتهت، وقبل أن تعيد المكنسة إلى مكانها، سمعت أمها تناديها، دخلت، كانت الصحون التي رأتها ميس غير نظيفة قبل دقائق، قد وضِعت في حالة مزرية، داخل المجلى.

- يا ريت يا حبيبتي ميس تغسلي ها الصحون كمان!

وثانية أغمضت ميس عينيها عشر ثوان، فتحتْهما، بدأت تعمل دون أن يبدو عليها أي أثر لغضب أو احتجاج. لكنها باتت متأكّدة من أن أمها لا تريد لها أن تخرج.

رتّبت ميس الملابس في الخزانة، نظّفت فرن الغاز، مسحت الغبار عن الطاولات والكراسي والتلفزيون، بعد أن قالت أمها:

- كان علينا أن نغلق الباب وأنت تكنسين الحوش، لأن الغبار غطى كل شيء في الداخل!

اعتمت الدنيا، تلاشت أصوات المتظاهرين، ووجدت ميس نفسها تخلع حذاءها وتندس في السرير، لتنام مبكرة على غير عادتها.

تأمّلتها أم خليل، وهيئ إليها أن البنت باتت أجمل مما كانت عليه قبل المساء.

خافت أكثر.

حين فتحت أم خليل عينيها صباحًا، وألقت نظرة على ذلك الجمْع من الناس الذين اجتازوا ساحة بيتها، لم ترَ سوى وجه ميس الذي كان الدم يغطي نصفه.

كانت ميس قد تسللت خارجة في الصباح، ولم يكن صعبا أن تعرف خبرًا بات يعرفه الجميع: عودة زيدان شبه ميت.

إلى المستشفى مضت، تجاوزت كل شيء في طريقها، حتى وصلت سريره في غرفة العناية المركزة. تجمّدت أمام ذلك الجبين الذي لم يعد جبينه، اليدين اللتين لم تعودا يديه، العينين المغلقتين اللتين لم تعودا عينيه. كانت تودّ أن تلمسه، لكنها أحسّت أن لمسة واحدة قد تكون سببًا في موته لفرط ضعفه.

أغمضت عينيها، واستدارت، ظلت تسير إلى الباب، باب غرفة العناية المركزة، تجاوزت الباب، فتحتهما، كانت إحدى الممرضات تقول لها كلاما غاضبا، لكنها لم تسمعه، وحاولت ماري أن تقول لها شيئا، لكنها لم تسمعه أيضًا.

في الخارج جرفتها المظاهرة، هتفتْ، صرختْ، بكتْ، لكنها لم تعرف ما الذي تقوله، كانت تنفجر، وكان الرصاص يندفع نحوها ولم تكن تسمعه، إلى أن وجدت نفسها شهيدة أمام عيني أمّها.

* * *

- لا أظن هذا الذي اسمه نبيل واحدًا منكم! قالت لزيدان بلا مقدمات.

- واحد مِن مَن؟! سألها.

- من الإسرائيليين.

- مستحيل!

- فكّرتُ طويلا قبل أن أقول لك هذا الكلام، ولكنني أُصدّق قلبي. منذ أن رأيته للمرة الأولى، أحسستُ أن فيه شيئًا مريبًا، ومع أن قلبي لم يخطئ في أيّ يوم من الأيام، إلا أن سوء ظنّي به أرحم بكثير من أن تموتوا على يديه.

- هل قلتِ هذا الكلام لأحد؟

- لكَ وحدك.

- فليكن بيننا.

خرج، ولكنه عاد، وقال:

- أظن أنني بحاجة إلى شيء ما أحمله إليهم لأقول إنه من أمّي.

نظرت حولها:

- ليس هناك سوى طبخة المقلوبة الجاهزة، هي من نصيبكم، ولكن لا تؤاخذوني، ليس فيها أي نوع من اللحوم.

انحنى زيدان وحملها، فصاحت به:

- انتظر.

- لن يقتنعوا أنها من أمّك هم الذين رأوا هذه الطنجرة مرات ومرات.

مرّة أخرى أحسّ بأنها تفوّقت على حسّهِ الأمني، ولكنه أرجع ذلك لانشغاله بالتفكير فيما قالته عن نبيل.

- ولكن هل أنتِ متأكدة؟

- من مسألة نبيل؟ أنتم الذين عليكم أن تتأكّدوا، لا أنا، إلا إذا قبلتم أن أكون في المجموعة!

- تكونين في المجموعة؟! أنت قائدتنا.

ابتسمت، ودَعَتْ:

- الله يرضى عليكم، ويرضى عليه ويكون مش عميل.

مرّت يد زيدان على جذع شجرة الدرّاق التي حملها شتلة صغيرة ذات يوم، هدية لميس، وغدت أطول شجرة دراق في المدينة كلها. استعاد زيدان صورة أم خليل، يوم ظهور نتائج الثانوية، كانت فرحة بعلامات ميس العالية، كأنها ستذهب للجامعة بعد أشهر، ميس الشهيدة. في ذلك اليوم

أصرّت أن توزع الحلوى على كل من تعرفهم، على كل من تراهم في الشارع، وكلما سألها أحدهم: مبروك، خير؟ كانت تجيب: ميس نجحت في التوجيهي، ميس نجحت، وتضحك، وتبكي: ميس نجحت، ميس نجحت.

* * *

في تلك العتمة لم تكن الحاجة أم خليل راضية عن ردّ فعل زيدان بعد أن باحت له بما في صدرها عن نبيل. بدا لها أنه يجاملها أكثر مما يأخذ كلامها بالجدّية التي يحتاجها.

في تلك الليلة لم تستطع النوم، عاد قلبها ليعمل بطاقته القصوى، مثل محرّك طائرة. ارتفع قلبها، حلّق في فضاء الغرفة، تجاوز الباب إلى فضاء الساحة الصغيرة متّجها إلى تلك الغرفة التي تضمّ سبعة شباب غلبهم النوم.

في الثانية صباحًا وجدت نفسها تتبع قلبها، حشرتْ قدميها في حذائها، خرجتْ بثياب نومها غير عابئة بشيء، فتحتْ باب الغرفة، نظرت إليهم، كانوا سبعة، استدارت مبتعدة بعد أن أغلقت الباب بهدوء، وهي تلوم نفسها لأن زيدان سيغدو قلقًا بسبب ما قالته له. بعد خطوات قليلة توقّفت، نظرتْ خلفها، عاد قلبها يشدّها من طرف فستانها كطفل يريد أن تشتري له أمه شيئًا يريده رغمًا عنها.

فتحت الباب، دخلتْ. نظرة متفحّصة مختلفة ألقتها عليهم نائمين، كانت كافية لأن تعرف أن هناك فراشًا مُوّهِ جيدًا لخداع كل من ينظر إليه.

- اصحوا يا شباب، اصحوا. قالت بصوت مرتفع.

- شو في؟

- هناك عميل بينكم.

أضاؤوا الغرفة، حدّق بعضهم إلى وجوه بعض، وسمعوها تقول لهم:

- اهربوا، لأنني لا أعرف متى خرج.

* * *

بعد خمس دقائق من خروجهم، رأت شخصًا يتسلل عائدًا إلى الغرفة.

- إنت مين؟ صرخت به.

- أنا نبيل يا خالتي؟

- وين كنت؟

- ذهبت لأرى أمّي دقائق، اشتقتُ إليها.

- روح كمِّل نومك.

وما إن فتح الباب ودخل، حتى سمعت تلك الأصوات المُنذرة بقدوم الجيش، أصوات محركات العربات العسكرية.

خرج نبيل الذي فوجئ بالغرفة فارغة، تسلّق سورًا يؤدي إلى شارع صغير خلف الغرفة واختفى.

ركضت الحاجة فاطمة تتنقل بين الغرفة والبيت حاملة الفرشات والمخدّات والأغطية، مُبقية على فراشين منها.

عندما طار باب البيت الخارجي في الهواء، كانت تُغلق باب غرفتها، وتأوي إلى فراشها، وكأنها نائمة منذ أيام.

* * *

وقف أبو خليل مقيّدًا أمام الكابتن داود، الكابتن داود الذي راح يتأمّله وهو يحكّ رأسه باحثًا عن شيء ما، في الوجه الذي يراه أمامه:

- عرفتكَ؟ لقد رأيتك مرتين في حياتي قبل هذا اليوم. هل عرفتَني؟

- لقد عرفتك دائما، في بيت ساحور قبل سنين طويلة، وقبل بيت ساحور، كيف لي أن أنساك؟ ردّ أبو خليل.

ـ في المرة الأولى جئتَ وطرقتَ باب بيتي عام 1949، كنتُ أنا، ذلك الشاب الصغير، الذي فتح البابَ لك، قال له الكابتن داود.

ـ طرقتُ باب بيتي لا باب بيتك، ولكنك رجمتني بالحجارة عندما قلتُ لك إن هذا بيتي. كنتُ تسللتُ عائدًا إليه مع زوجتي وولدَي الصغيرين، فوجدتكم قد استوليتم عليه، ثم خرج موشيه، أبوك، مُشهرا السلاح وأمرنا بالابتعاد، وإلا سيقتلنا، فابتعدنا.

ـ لكنك لم تفهم أن البيت لم يعد بيتك، وعدتَ ثانية بعد حرب الأيام الستة، وطرقتَ الباب، فخرجتْ زوجتي، سمعتُ كلاما عربيا، خرجتُ، فوجدتك هناك تقول لزوجتي إن بيتنا كان في الأصل بيتك.

ـ فأشهرتَ مسدسكَ وهدّدتني بالقتل إن لم أبتعد.

ـ ولكنك لم تبتعد، فها أنت تعود وتطرقُ كل أبواب الدولة، دفعة واحدة، وبقوة أشدّ، بإخفائك سبعة مخربين.

ـ هذه المرة يمكنك أن تقول إنني لم أطرق بابك، لأن أحدًا لم يكن هناك ممن تقول إنك تلاحقهم. هذه المرة أنت الذي أتيت وحطّمت بابي. ولكن قل لي، ما هي أخبار أمّك، أمّك التي كانت تضع أخوتك عند زوجتي لترعاهم، وعندما جاءت أيام النكبة أشهرتْ السلاح في وجه زوجتي وطردتْنا لأن البيت، كما قالت، هو بيتكم؟

صمت الكابتن داود، مستعيدًا تلك الأيام، مستعيدًا أسئلة أخيه هِلْمان، الأسئلة التي ظلّت تكبر في رأسه حتى تحوّلت فيما بعد إلى فضيحة للعائلة، بل للدولة بأكملها، بعد نشر مذكراته. تظاهر أنه لم يسمع سؤال أبو خليل الأخير:

ـ تعرف أن التحقيق معك حول مكان سبعة مخربين، سيكون سبعة أضعاف التحقيق في قضية اختفاء مخرب واحد، ولكنني، وأظن ستفاجأ بما سأقوله لك: سأطلق سراحك، تستطيع أن تنصرف.

ـ مقابل سرقتك لبيتي أم لأنك تريد أن يقتلني جنودك في الخارج كما قتلوا أولئك الذين أجبرتهم على الخروج ليلة منْع التجوال؟

- هل لديك خيار آخر؟

- لا أظن أنك ستمنحني خيارًا آخر.

راقبه الكابتن داود حتى غادر بوابة المقرّ، سار نحو عربة عسكرية متوقّفة بجانب الباب، أدار محرِّكها، وانطلق وراء أبو خليل. كان يعرف أن رجلا بعمره لن يستطيع الابتعاد كثيرًا في ذلك الليل، إلا إذا قتلتْه إحدى الدوريات.

أنصتَ الكابتن داود، وكل أمنياته تجمّعت في أمنية واحدة لا غير، أن لا تنطلق رصاصةٌ مُعلنةً مقتل أبو خليل.

لم يسمعها، ورأى شبحه في اللحظة التي اختفى فيها في أحد الشوارع الضيقة، قاد العربة بسرعة، كان يعرف أن الشارع لا يتّسع لمرورها، أوقفها مُغلقًا المدخل تمامًا، وتبِع أبو خليل بسرعة.

- توقفْ، صرخ الكابتن داود.

لم يكن صعبًا على أبو خليل أن يعرف الصوت. توقّف.

اقترب منه الكابتن داود مُشهرًا مسدّسه.

وقفا وجهًا لوجه.

- رصاصة واحدة، لا أكثر، ستضمن لي أنك لن تعود لتطرقَ باب ذلك البيت مرّة أخرى.

دوّى صوت الرّصاصة، قويًا كان، وبعد لحظات تدافع جنود دوريات مُشهرين أسلحتهم من الجهة الأخرى للشارع.

سمعوا صوت الكابتن داود يطمئنهم بأن المشكلة حُلّت.

ألقوا نظرة على الجسد الهامد، طلب منهم أن يدفنوه بحيث يغدو العثور على جثته أمرًا مستحيلا.

خطا عدة خطوات، ثم التفتَ إليهم وقال:

- حتى أنا، لا أريد أن أعرف مكانه أو أستطيع العثور عليه.

غضب

رغم مرور أشهر على معاناة المدينة من الحصار مرّة، ومن حظر التّجوال مرّة أخرى، إلا أن كثيرًا من الأشياء ظلّت تحدث كما لو أنها تحدث للمرّة الأولى.

يدور أعضاء اللجان الشعبية على البيوت، يطلبون من الناس أن يخبروهم عن الأشياء التي تنقصهم، وبخاصة الأغذية، وفي كلّ مرّة يفاجأ أعضاء هذه اللجان بأن الجواب: لا ينقصنا شيء!

زيدان ومنير كانا يدوران في الحارات، ويعودان غير مصدّقين ما يسمعان، إلى أن اكتشفا، واكتشفت اللجان الشعبية، أن سكان المدينة يخجلون.

لم تعد اللجان الشعبية تصدّق الإجابة الوحيدة الملصقة على ألسِنة الجميع؛ أصبحوا يُلحُّون.

كان الجيران يستعيرون من جيرانهم، خبزًا، أو شايًا، أو حتى علبة كبريت، أو بعض عيدانها، أو عودًا واحدًا أحيانًا، وكل ذلك أمر طبيعي، لكن حين تأتي المساعدة من خارج الحارة، فذلك يعني أنهم محتاجون، وأن هناك من يتصدّق عليهم. هذا ما كانوا يرفضونه.

طرَق زيدان بابًا، قالت له امرأة:

- لم ينته ما أخذناه في المرّة السابقة، اطمئنوا، أوضاعنا بخير، ربما يكون جيراننا بحاجة أكثر منّا.

- ولكنني لا أتذكر أنكِ أخذتِ مني شيئًا في المرّة السابقة. يقول زيدان.

ترتبك المرأة، وتجيب:

- ربما أخذتُ من شابٍ غيرك، كلّكم متشابهون هذه الأيام! لو كنّا بحاجة لأخذتُ، ولكن صدّقني، وضعنا أفضل من وضع كل من في الحارة.

يذهب زيدان.

لم يكن لدى كاترين، أرملة سلامة أيّ شيء، ولكنها خشيت أن يعتقدوا أنها بخيلة، حين سألوها عما إذا كان لديها خبز زائد، حتى يتبرعوا به لجاراتها.

كاترين قالت:

- جئتم في وقتكم، اليوم عجنتُ وخبزتُ! دخلتْ، وبعد لحظات عادت تحمل ربطة خبز، ناولتْها لزيدان.

عندما رأته كاترين يطرُق باب جارتها، أغلقتْ بابها واختبأت، مُلصِقة ظَهرها بالباب.

خرجت الجارة، ناولها زيدان ربطة الخبز.كانت تعرف تلك الربطة تمامًا.

- من أين حصلتم عليها؟

- من الحارة الفوقة! ردّ زيدان.

- أحلّفكم، ألم تأخذوها من كاترين؟

- كيف عرفتِ؟

- لأن كاترين من ربع ساعة فقط، جاءت وأخذتها من عندي لأنها بحاجة إليها، ما الذي قالته لكم؟

- قالت إنها عجنتْ وخبزتْ هذا الصباح.

بدأت المرأة تبكي.

- عليك أن تعيدها لها، لا نستطيع أن نأكلها، لا أنا، ولا أولادي.

ممسكا بربطة الخبز، وقف زيدان حائرًا، ولكن، كان لا بدّ من أن يتّخذ قرارًا. قَسَمَ الرّبطة إلى نصفين، أعطى نصفًا للمرأة، وذهب ثانية وطرق باب كاترين.

فتحت الباب. ناولها نصف الربطة.

- قلتُ لكَ اليوم عجنتُ وخبزتُ!

- أعرف، ولكن يبدو أن الجارة وضعها تمام! لم أستطع إلا أن أوزّع نصفها، سأترك هذا النصف عندكِ، فقد يحتاجه أحد من جيرانك في المساء أو صباح الغد!

وابتعد.

* * *

أشرع إسكندر باب البيت صباحًا، وجد كيسًا، فتَحه، كانت هناك خضروات وخبز وعدد من قطع الجبن، حمله وأدخله إلى البيت. بعد منتصف الليل عاد زيدان، كان إسكندر في انتظاره.

قبل أن يردّ التّحية بالتحية، قال لزيدان:

- ما الذي فعلتَه اليوم؟

- أنا؟ لا أظن أنني فعلت شيئًا غير ذلك الذي أفعله كل يوم.

- أنت الذي وضعتَ هذا الكيس أمام بابي؟

- أظنّ.

- تظنّ، أم أنك الذي وضعته؟

- أنا الذي وضعته، فأنا مكلّف بتوزيع الغذاء على أهل هذه المنطقة لأنني أعرفها.

- يبدو أنك لا تعرفها أبدًا يا زيدان، أنت لا تعرف حتى جدّك الذي يسكن فيها.

ارتبك زيدان وقد رأى غضب جدّه كما لم يره من قبل.

- ما الذي تريد أن يقوله الناس عني، عنك؟ ماذا لو رآك واحد من أولئك الذين ليس لديهم عملٌ غير النّميمة يتلهّون بها في أيام حصارنا؟ ما الذي سيقوله؟ زيدان يعطي جدّه قبل أن يعطي الناس؟ أم ربما سيقول لو رأيتم حجم الكيس الذي يضعه أمام بيت إسكندر، إنه بحجم ما يتمّ توزيعه على خمس عائلات! منذ اليوم لا أريدك أن تدخل بيتي وأنت تحمل في يدك أي شيء، حتى لو كان ورقة جريدة قديمة، فهمت؟ نحن عشنا حياتنا كلها ونحن نتذكّر الديون التي علينا، ولا نتذكر الدَّين الذي لنا.

- ولكن هذا حقكم مثلما هو حقّ كل الناس.

- إسكندر ليس لديه حقّ، إسكندر كان لديه دائمًا ما يكفيه.

- حقك عليّ، ولكنك تعرف يا جدّي أن هذا لن يحلّ المشكلة.

- ومن قال إن هناك مشكلة في بيت إسكندر تنتظر أن تُحلَّ بعدة حبات من الكوسا ومثلها من الخيار والبندورة؟

- كما تريد، لن أزعجك مرة أخرى.

- لا أريد أن يزعجني أحد، لا أنتَ ولا غيرك!

تاريخ مشترك!

فوجئ بشارة أنه يعرف صوت الضّابط القادم لاعتقاله، الضابط الذي يحاصر البيت في حيّ تل الزعتر.

كان ينادي: بشارة، لا أريد أن أقتحم البيت، نحن نطوّق المنطقة كلّها، أعدكَ، لن يصيبك أيّ مكروه.

بشارة الذي كان انتعل حذاءه على عجل، بحث حوله عن ثقب ينسلّ منه، طمأن صاحب البيت الذي يختبئ عنده منذ ليلة مجزرة حظْر التجوال.

- لا يستطيع، أبدًا، أن يقول إنه محظوظ ذلك الذي يعتقله الجيش الإسرائيلي، ولكنني الآن على الأقل أعرف أنني لن أُقتَل مباشرة.

كان الضابط يوسي في انتظار بشارة أمام الباب، كأنهما سيذهبان إلى سهرة معًا، فالبنادق لم تصوّب إليه، والجنود لم ينهالوا عليه ضربًا!

- هيا، سِرْ أمامي، إلى عربة القيادة، إنها الثانية من الأمام.

كما طلب منه يوسي، سار بشارة، صعد إلى صندوق العربة. لم يضعوا عصابة على عينيه. وما إن جلسا متقابلين، حتى أخرج يوسي القيد، أرجحه قليلا أمام عيني بشارة، ثم وضعه على الحاجز الصغير الذي يفصلهما.

- إلى متى سأظل أعتقلكَ يا بشارة؟! هل هذه هي المرّة الخامسة أم السادسة؟

ـ إنها الخامسة.

ـ هذا أفضل، كنت أظنّ أنها السادسة!

في الاعتقالات الثلاث الأولى لم يكن يوسي قائد دورية، وفي كل مرّة ألقي فيها القبض على بشارة، كان الجنود يقيّدونه ثم ينهالون عليه بالضرب، وبعد أن ينتهوا يؤرجحونه ويلقون به في صندوق العربة.

في تلك المرات، كان بشارة يرى يوسي، يهرب بعينيه بعيدًا، ويرفض المشاركة بضربه. في المرّة الرابعة، أصبح يوسي هو القائد، واعتقله بالطريقة نفسها التي اعتقله فيها هذه المرة.

كان يوسي من مجموعات السّلام الآن، وغير راض عما تقوم به دولته، ولديه الشجاعة لأن يتحدّث في ذلك مع أسراه الذين يُلقي القبض عليهم بنفسه. وكان بشارة حريصًا على التحدّث معه، لأن ذلك الحديث هو ما سينقذه من حفلات التّعذيب.

ـ ما الذي فعلتَه هذه المرّة يا بشارة؟

ـ صدقني، هذه المرّة كل ما فعلته أنني اختبأت بعد الليلة التي قُتِل فيها المعتقلون الأربعة عشر.

ـ أما كان من الأفضل أن تعود إلى الاعتقال النهاريّ بسلام، بدل أن تتحوّل إلى مُطارد؟

ـ أنت تعرف أنني ذهبت إلى هناك بسلام، أنا والذين قُتلوا، بأرجلنا ذهبنا إلى هناك طوال فترة اعتقالنا، كي لا نكون مُطاردين، ولكنني لم أعُد على يقين من أنني لو عُدت، لن أُقتَل، قلت في نفسي: عدة أيام أعيشها في هذه الحياة القاسية أفضل من أن أهدرها في القبر، لأنه لا شك أقسى.

هزّ يوسي رأسه.

ـ تعرف أنني سأكون مضطرًّا لأن أقيّدك حينما نصل إلى مقرّ القيادة. لكنني أعدك أنك لن تتلقّى أيّ نوع من الضرب من هنا إلى أن نصل! بعد ذلك تنتهي مسؤوليّتي الأخلاقية عنك.

* * *

بعد دقائق توقّفت السيارة أمام بيت آخر، نزل الجنود من العربات، وبقي يوسي في مكانه.

حين خرجوا كانوا يدفعون أمامهم أحد الصيادلة الذين يعرفهم بشارة. صيدلاني رهيف طويل يحرص على أناقته كما لا يحرص عليها أحدٌ في بيت ساحور، ليس خارج البيت فقط، بل في داخله أيضًا.

كان يرتدي بدلة بيضاء، ويسرّح شعره بطريقة تذكِّر بتسريحات الشَّعر في ثلاثينيات القرن، أنيقًا كما لو أنهم اعتقلوه أثناء حضوره لحفل موسيقي كبير في دارٍ للأوبرا.

قال بشارة ليوسي:

- هذا رجل لا يحتمل الضرب، ستؤدي خدمةً كبيرة للإنسانية لو أحضرته إلى هنا، ليكون معك ومعي.

كان الصيدلاني قد تلقّى ضربات لا حصر لها قبل أن يُتمّ بشارة كلامه.

نظر يوسي إلى الصيدلاني، وفكّر قليلا.

- سيموت بين أيديهم إن تأخّر قرارك.

- أحضروه إلى هنا، أمرَ يوسي جنوده.

جلس الصيدلاني يمسح الدّم عن بدلته بعصبية، ناسيًا أن ذلك الدّم يتدفّق من وجهه!

دارت السيارة، وتوقّفت عند حدود بيت ساحور وبيت لحم. وثانية نزل الجنود، اقتحموا بيتًا. خرجوا وبين أيديهم شاب، تلقّى الكثير من الضرب فور القبض عليه، وعندما تجاوزوا عتبة البيت ألقوه أرضًا وانهالوا عليه بساطيرهم.

- سيقتلونه، قال بشارة ليوسي.

كان الجنود يضربونه بشدة وكأنهم يعوّضون عن عدم ضربهم لبشارة والصيدلاني.

وثانية بدأ يوسي يفكّر، فأعاد بشارة:

- كما ترى إنه لا يقاومهم، وليس هناك مبرر لضربه بهذه الطريقة.

ترجّل يوسي من صندوق العربة، سار نحوهم، يتقدّم خطوة ويتراجع خطوة، خائفًا من ردّ فِعل جنوده.

- هذا يكفي! قالها بصوت منخفض. لم يسمعوه.

واستمرّ الضّرب، فأعاد يوسي ما قاله بصوت أعلى، ولم يتوقّف الضرب.

عندما انتهوا منه، التفتَ الجنود إلى يوسي، قال أحدهم:

- لم نسمع ما قلتَ، سيدي.

- قلت: هذا يكفي.

- حاضر!

حملوا المعتقل شبه ميت وألقوا به في صندوق واحدة من العربات.

كان ذلك في الليلة التالية لفرار المطلوبين الذين كانوا يختفون في بيت أم خليل، ويبدو أن بشارة كان آخر من يخطر ببال الكابتن داود، ولذا، لم يعرف بأنه اعتقل إلا بعد أن رحّلوه إلى المسكوبية في القدس، موقوفًا لمدة ثمانية عشرة يومًا.

ذلك التوقيف كان دائما هو الأسوأ، لأنه يعني أن الأيام الثمانية عشرة يمكن أن يتمّ تجديدها إلى ما لا نهاية.

لم تكن هناك زنازين كما صار فيما بعد، كان الضبّاط من الجامعة العبرية يأتون لاستلام المعتقلين، من المسكوبية، ويعبرون بهم، مقيّدين، عبر الشارع إلى مكاتب التحقيق في الجهة الأخرى.

كلّ ضابط مُتدرِّب يعهد إليه بسجين كان يُقيَّدُ معه، ويبقى مفتاح القيد في المسكوبية، في مكتب الضابط المسؤول، إلى أن يصل إلى مكاتب التحقيق على الجهة الأخرى من الشارع، وهناك يتمّ تسليمه للمحقق الموكل بانتزاع معلومات من السجين.

كان الضابط الذي يحقّق مع بشارة مهاجرًا يهوديًّا من براغ، عرف بشارة منه أنه هاجر قبل الانتفاضة بعشر سنوات إلى (إسرائيل). كان يُطلق على نفسه، أسوة ببقية المحقِّقين، اسمًا عربيًّا. كان اسمه أبو نهاد؛ ولم يكن هناك علاقة بين اسمه العربي الذي اختاره، أو اختير له، وملامحه الدقيقة وأنفه الروماني، وشعره الأشقر، الأقرب إلى البياض، وحتى سنوات عمره. كان يبدو في الثامنة والعشرين لا أكثر، لم يتزوج بعد، ولا أطفال لديه.

قُرْبُ المكاتبِ من الشارع العام، ووجود أناس يعبرون الطريق باستمرار، كان يجعل المحققين يكتفون بالأسئلة، وإن لم تكن أسئلة سهلة بالطبع، لأن كل إجابة مراوغة، كاذبة، كانت توضع أمامها إشارة حمراء، ويكون ردّ فعل المحقّق عليها ليلًا، في المسكوبية، المبنى المقابل، في غرف التعذيب.

ما إن قرأ أبو نهاد، في ملف بشارة، بأنه درَس في مدينة براغ، حتى تغيّر تمامًا، بدأ يسأله عنها، وعن ذكرياته فيها، ويسرد بدوره بعض ذكرياته. كان مُتعلّقًا فعلا بالمدينة التي تركها خلفه.

خرج بشارة من جولة التحقيق الأولى سعيدًا، كما خرج سعيدًا من لحظة الاعتقال، لم يتخيّل أن اعتقاله سيكون مناسبة لاستعادة ذكرياته عن المدينة. أصبح على يقين بأنه سيخرج قبل مرور أيام الاعتقال الثمانية عشرة، إلا إذا كان أبو نهاد بحاجة إليه للحديث عن المدينة أكثر!

فكر بشارة، قبل مغيب ذلك اليوم، بأن هذا أفضل اعتقال عاشه حتى الآن!

* * *

في الثامنة مساء، صدر أمرٌ بتجميع السجناء في الإسطبلات.

وكل من يخرج من غرفته كان يتلقّى سيلا من الضربات الذي لا هو، ولا الجندي الذي يضرب، يعرفان على أي جزء من الجسد ستقع.

كان بشارة في غرفة رقم 12 قُرْب الساحة، وما إن وصل الإسطبل حتى كان قد تلقى أربع ضربات قوية على الأقل.

وكان هناك أبو نهاد في انتظاره.

لوهلة أوشك بشارة أن يشكو له سوء معاملة الجنود، ولكنه قبل أن يفعل، تلقى ركلة شديدة بين فخذيه، تمامًا، من أبو نهاد، أوقعتْه أرضًا يتلوّى، شبه فاقد وعيه؛ وفي حمّى تقلّبه واشتعال دماغه بالألم، استعاد خطفًا أساليب التعذيب التي كان يمارسها المحقق داود ضده، ويتركز معظمها على ضرب هذه المنطقة بالذات.

أشرع عينيه، عندما دُلق عليه الماء فجأة، فوجد الكابتن داود هناك!

كان يتوقّع أين ستكون الضربة التالية، ضمّ ساقيه بقوة، وعبْرَ سحابة ألمه استطاع أن يرى ظلال جنود يقيدونه. كان الضوء الذي خلفهم لا يتيح له أن يرى ملامحهم، فتحوّلهم ظلمة وجوههم وغياب تفاصيل قاماتهم إلى أشباح سود عملاقة.

غاب عن الوعي، ثم عاد إلى وعيه، مرات ومرات، قبل أن يجلسوه على كرسي معدني مُعدٍّ للتعذيب. قدماه ويداه مقيدة من الخلف معًا، والضرب لا يتوقّف.

بين دفقات الدم ودفقات الماء، كان همّ بشارة أن يتأكّد من شيء واحد: وجود الكابتن داود.

لم يكن الكابتن داود هناك، لم يكن هناك سوى أبو نهاد، يجلس أمامه ويسأله الأسئلة ذاتها، التي سأله إياها في الصباح، الأسئلة التي لم تجد إجابات مقنعة لها.

.. ويعود بشارة ليجيب عنها مرّة أخرى، مرات، وكلما أعاد الجواب أعاد أبو نهاد السؤال، تلقى ضربًا جديدًا.

في لحظة ما، كان لا بدّ للزمن من أن يختفي، وأن يكون المعتقل مُعلَّقًا في مكان لا يمتُّ للمكان ولا الزمان بصِلة، مكان خارج زمانه، وزمان خارج مكانه، بعدها يكتشف بأنه في الزنزانة، وأنه ينزف، وأنه يعيد الإجابات، الإجابات نفسها، دون أن يكون هناك، في تلك الزنزانة، من يطرح عليه أي سؤال.

* * *

في الصباح، على الجهة الأخرى من الشارع، يأمر أبو نهاد الضابط المتدّرب أن يقترب، يفكّ قيده المشترك مع بشارة، ويدعو بشارة لكي يجلس. يبتسم، ويسأله:

- هل هناك مكان في براغ يمكن أن تقول لي إنه كان الأقرب إلى قلبك، ولم يزل، حتى اليوم؟

وجهًا لوجه

تردّد الذين يطاردونه، فوجئوا بوجود فاتن، طالبة الفنون أمامهم، كما فوجئ نبيل نفسه، ارتبك، تجمّد الجميع في أماكنهم، كان على أحد منهم أن يقوم بشيء ما، يُخرجهم مما هم فيه. ولم يكن ينقصهم إلا شيء واحد ليتعقّد الأمر أكثر: ظهور جورج المفاجئ، جورج الذي كان قادما باتجاه بيت فاتن، ليقوم بمظاهرة وحده، إن اقتضى الأمر، حتى يراها.

حتى الخونة لا يحبون أن يُقتلوا أمام نظر عدد كبير من الناس.

تمنّى الشّباب الملثمون الذين يلاحقونه أن تغرب الشمس فجأة، لكن الشمس كانت بحاجة لنصف ساعة على الأقل كي تغيب.

ازداد الأمر تعقيدًا.

نظرت فاتن إلى نبيل، نظرت إلى جورج، وفهمها الأخير، لم يكن عليها سوى أن تستدير، أن تُبعد عينيها عن نبيل، ومثلها كان على جورج أن يفعل، لكن ذلك لم يكن كافيًا. تحرَّكتْ، وفهِم جورج ما الذي عليه أن يفعله، سار وراءها، ولم يتحرّك نبيل، أحسّ بأنهما حاصراه أكثر حين ابتعدا، وأُقفِلت الجهات أكثر.

* * *

كانت أخبار خيانة نبيل قد انتشرت، وتحوّل الأمر إلى مأساة بقيام الجيش بهدم بيت أبو خليل، مع أنه لم يكتشف ما يدلّ أبدًا على آثار اختفاء أحد فيه. الكابتن داود أمر بذلك. فاجأ الأمر جنوده، أكثر مما فاجأ الناس الذين تحلّقوا حول قوات الجيش يهتفون، والجرافة الضخمة تتقدّم لالتهام البيت:

راح نبني.. إهدم لبيوت

إحنا شعب ما بيموت

شرِّد لِكبار ولِصْغار

ما بترهب شعب الأحرار

رفعت الجرافة ذراعها الطويلة في الهواء، وهبطت على البيت بقبضتها العملاقة، لم تكن تلك الغرفة الصغيرة التي التجأ إليها الشباب هي الهدف الأول لها، بل كان البيت.

وهمس الكابتن داود وكأنه يحدث أبو خليل: تستطيع أن تشكرني لأنني سمحتُ بأن يكون لك قبر في هذه الأرض، أما البيت، فأنت تعرف، إنه مسألة أخرى.

أم خليل كانت تتلفّت حولها، تنتظر ظهور أبو خليل فجأة، لم تفقد الأمل بعودته. خلْفها كان جورج يرى أول عملية هدْم يقوم بها الإسرائيليون في حياته. بكى، بكى البكاء المؤجّل كلّه الذي يدّخره الناس إلى حينٍ يكونون فيه وحدهم، في بيوتهم، ورأته فاتن يبكي، خطتْ نحوه، لتقول له: الرجال لا يبكون هنا، لكنها توقّفتْ، خافت أن تكون إجابته أكثر إيلامًا من إجابته الأولى عندما حوصر أمام باب بيتها. الإجابة التي جعلتها تبكي، وكلّما أعادت سرْد ما حدث له، وما قاله لها، تصبح على وشك البكاء..

لا أحد يستطيع أن يعرف ما في قلب هذا العائد إلى مدينته، من غربته، باحثًا عن عروس له.

* * *

كانت فاتن تتوقّع أن تسمع، في أي لحظة، عرسًا في بيت عمته الذي لم يكن يبعد الكثير عن بيتها، وما كان يمكن أن تضطرّ لأن تسأل: عُرس مَن هذا؟

كانت تعرف أنه سيكون عرس جورج، لكن الأعراس لم تدُسْ عتبة ذلك البيت الذي ظلّ صامتًا، منذ أن خضع للاعتقال النهاري، وبعد أن نجا بأعجوبة من مجزرة ليلة منْع التجوال.

.. لم يكن ينقصها سوى أن تسمع أن جورج لم يعد يبحث عن زوجة!

- سيعود ويتزوَّج في أمريكا؟ سألت فاتن.

- جورج لن يعود إلى أمريكا، لأنه يقول إنه لم يخطر بباله أن له عشرين أُمّا هنا، وأنهن ولدْنه ثانية، فلولاهنّ لما استطاع النجاة ليلة المجزرة. جورج رآهنّ يُشِرن إلى طُرق نجاته في تلك الليلة، ورأى عشرين بابا تُفتح، ليختبئ.

سبب عميق كان يدفع فاتن أن تسير إلى جورج الواقف بجانب أمّ خليل، وفعلتْها وسارت خطوتين، لكنها توقّفت، رأته يرفع يده ويطوّق كتفَي تلك المرأة التي اختفى زوجها كما اختفى أولادها الأربعة، التفتتْ إليه أم خليل، وقالت:

- إنهم يهدمون البيت.

قالت له كما لو أنه لا يرى ما يراه، رغم دموعه التي تملأ عينيه.

ومال الحائط العالي المحاذي للشارع، مال ببطء شديد، فسقط قلب أم خليل، كانت على يقين من أن الحائط سيسحق شجرة الدرّاق. ثوان طويلة مرّت كدهر، والحائط يسقط. سقط أخيرًا، ولكن على بعد نصف متر أو أقل من جذع تلك الشجرة العالية، الحزينة.

التفتت أم خليل نحو جورج، لتقول له شيئا واحدًا لا غير: نجتِ الشجرة، عاشت الشجرة! رأت دموعه، فقالت له، ما فكرتْ أن تقوله فاتن:

- الرجال لا يبكون هنا.

- ومتى على الرجال أن يبكوا، هنا، يا خالتي؟ هل عليهم أن يحبسوا دموعهم إلى الأبد، إنهم يفاجئوننا بالموت، كل مرّة يفاجئوننا، حتى قبل أن نبكي البكاء الذي كان علينا أن نبكيه، لا أريد أن أبكي في القبر أو في الجنة أو في الجحيم، أريد أن أبكي هنا، جورج يريد أن يبكي هنا، ليقول لهم إنه حيّ، وإنهم يؤلمونه، وإنه لن يغفر لهم، أريد أن يخافوا من بكائي، لأن عليهم أن يعرفوا أن عليهم أن يدفعوا ثمن هذا البكاء يا خالتي.

امتدّت يد أم خليل ومسحت دموعه بطرف منديلها:

ـ معك حق يا خالتي، لقد نسيت أن الرجال يبكون أيضًا، نسيت أن كلّ من هم حولنا الآن يبكون، ولكنني لا أرى دموعهم، يبكون في داخلهم، لقد جفّف هؤلاء العساكر دموعنا، من كُثْر ما بكينا، لست قادرة على أن أقول لك سوى شيء واحد: إن شاء الله نتحرّر قبل أن تجف دموعك.

فاتن التي كانت خلْفهما، راحت تبكي، تبكي بحرقة، وكلما كانت تطبق قبضة الجرافة على البيت، مُصدِرة ذلك الصوت الجهنّميّ الذي يبتلع كل ما حوله من أصوات، كانت تنْطلِقُ شهقةٌ ممزِّقةً قلبها.

قبل أن يحس جورج بوجودها خلْفه، انسحبت، وهي على يقين من أنها لن تستطيع أن توجّه له أيّ سؤال، لأنها لن تستطيع احتمال صدمة إجابته.

سارت فاتن مبتعدة، وبعد قليل التفتتْ، رأته خلفها. ظلّا يمشيان إلى أن وصلا بئر السِّيده، مخلِّفَين وراءهما أزقة البلدة القديمة. على حجر جلست. ربّتتْ على فسحة منه، ففهم جورج أنها تدعوه للجلوس، جلس.

نظرت إلى جورج، وجدتْه محدّقًا إلى السماء، لفحتْه نظرتُها، نظر إليها فرأى دموعها:

ـ أنت تبكين؟ قال لها وكأنها لم تكن تعرف أنها تبكي، لماذا؟

ـ لأنه ابن عمّي.

ـ مَن منهم؟

ـ نبيل.

ـ نبيل؟!

الحلقة المفرغة

بمقتل نبيل جُنَّ الكابتن داود، هو الذي لم يستطع القبض على أيّ من الشباب الذين هربوا. لم يكن يعنيه نبيل، ولكنه كان يريد أن يُرسل رسالة يُطمئن فيها كلّ أولئك الذين يعملون مع إدارة الحكم العسكري. كان بحاجة إليهم لأن الجيش مهما توغّل في المدينة، لن يستطيع التوغّل إلى ذلك العُمق الذي تصل إليه عينا عميل؛ ولو كانت مسألة عصيان بيت ساحور حسمت، وتحقّق له النصر، لأصدر بيانًا نعى فيه فقيده، وأشاد بكل الخدمات التي قدّمها للدولة، ومدى إخلاصه لها.

الإثبات الوحيد الذي كان في يد الكابتن داود، تلك الصّور التي التقطها عميل آخر لعملية الإعدام، من بداياتها حتى نهاياتها.

نشر الكابتن داود الصّور فوق سطح مكتبه، لم يتّسع لها المكتب بسبب وجود أشياء كثيرة فوقه، من بينها ملف البقرات. كان على وشك أن يكنسه بعيدًا، ليسقط. في اللحظة الأخيرة توقّفت يده اليسرى، وتحرّكت يده اليمنى باتجاه الملفات الأخرى على جانب الطاولة الآخر، ودون أن يعرف ما فيها، كنسها غاضبًا. تناثرتْ.

في الصّورة الأولى كان ثلاثة ملثّمين يحاصرون نبيل، ثم ظهرت في الصورة التالية فتاة، تنظر إليهم، وكأنها فوجئتْ، ثم ظهر في الصورة الأخرى شاب، لم يكن صعبًا على الكابتن داود أن يعرف أنه الأمريكي! وعادت الصور لتُظهر انسحاب الفتاة والأمريكي من المشهد.

بقيّة الصّور كانت لمراحل إعدام العميل طعنًا.

ـ أريدُ البنتَ والأمريكي بأي ثمن. لا أعرف إن كانوا شركاء في القتل، ولكنني على يقين من أنهما يعرفان شيئا ما، علينا أن نعرفه، وليس من المستبعد أبدًا أن أحدهما، على الأقل، عرف

شخصية واحد أو أكثر من منفذّي العملية. أريدهما.

* * *

قرّر الكابتن داود أن يترك للعميل الذي التقط الصّور مهمّة تحديد اللحظة المناسبة لاعتقالهما، واحدًا بعد الآخر، أو كليهما معًا. العميل الذي التقط الصور بدأ يتصرّف منذ تلك اللحظة كمن يقوم بعملية انتقام لنفسه، قبل غيره، أرعبتْه الصّور كما أرعبه التقاطه لها، أرعبه تحلّقهم حول نبيل. ولعدة ليال سيصحو فزعًا من كابوس يرى فيه نفسه محاصرًا من قِبل الملثّمين الثلاثة، والصرخات العالية تنطلق منه، والخناجر تغوص في لحمه.

المفاجأة التي زلزلت الكابتن داود، حملتْها قصاصة صغيرة وصلتْ مكتبه، في مغلف كُتِبَ عليه: سرّي للغاية.

فتح المغلف، أخرج القصاصة، قرأ: الفتاة المقصودة، ابنة عمّ القتيل! والأمريكي تقدّم لخطبة الفتاة ورفضتْه.

ازداد الأمر تعقيدًا.

لم يعرف الكابتن داود إن كان القبض عليها سيكون انتقامًا منها أم معاقبةً مُضافة لنبيل وأسرته بعد موته.

- أريدها حيّة.

- والأمريكي؟

- لا أظن أنه يعرف الكثير، ولكن إذا كنتم مضطرّين لقتْله، لا بأس.

* * *

استطاع الشباب في لجان الحراسة رصد حركة العربات الصاعدة من المعسكر، شرقي المدينة، صعودًا عبر شارع اسطيح، لكن أحدًا لم يستطع أن يحدّد وجهتها.

دبّت حركة خفيّة، مع تصاعد الصفير وأصوات الطيور المستخدَمة للإنذار. بدأ الشباب المطارَدون بالتّقافز من بيت إلى بيت بعيدًا نحو غرب المدينة، وجنوبها باتجاه وادي أبو سعدى. كل

بيوت الشباب كان يمكن أن تكون هدفًا، فلا أحد يعرف ما إذا كان هذا الشاب أو ذاك من اللجان الشعبية؛ ما يعرفه الجميع أن كل الشباب مطلوبون، ومن ليسوا مطلوبين، لا يعرفون إن كانوا تحوّلوا إلى مطلوبين قبل أن يعرفوا.

المفاجأة، أن العربات العسكرية توقّفت في اللحظة التي توقّع فيها من يراقبونها مواصلتها لطريقها نحو الغرب.

نزل الجنود، أحاطوا ببيت فاتن، اقتلعوا الباب، وبعد لحظات كانت في أيدي الجنود، يدفعونها داخل صندوق واحدة من عرباتهم.

عطشُ الكابتن داود لأي معلومات تُرشده إلى من قتلوا عميْلَه، جعله يترك العميل الذي التقط الصور خلْفه. لم يكن قد قرر القيام بعملية الاعتقال، إلا بعد أن آوى لفراشه. قفزت صورة البقرات، ومسألة اختفائها، إلى مخيلته، فبات على يقين من أنه إذا تأخّر ستتسرّب الفتاة من بين يديه وتختفي أيضًا، ولن يكون بمقدوره العثور عليها ثانية.

* * *

قبل أن تصعد العربات باتجاه مقرّ الحاكم العسكري، فاجأتْ من يراقبونها مرّة أخرى. توقّفتْ أمام البيت الذي ينزل فيه جورج، بيت عمته، اقتَلَعوا الباب، وبعد لحظات شوهِد مُقتادًا تحت وقع ضربات أعقاب البنادق إلى صندوق عربة ثانية.

لم تره فاتن، لم ترَ شيئًا، لكنها لم تكن بحاجة إلى كل ذكائها لتعرف أن المعتقل الثاني هو جورج؛ وما دامت هي المعتقلة الأولى، فإن هناك من رآهما في تلك الساحة الصغيرة قُبيل مقتل نبيل.

* * *

لم تنكر فاتن أنها فوجئت حين رأتهم يحاصرون ابن عمّها، لكنها قالت إنهم أمروها، بالإشارة، أن لا تنطق أيّ كلمة، وأن تبتعد، ولم يكن عليها إلا أن تفعل ذلك، رغم أنها رجتْهم ألا يقتلوه، لأنه قريبها!

اعترافها أربك الكابتن داود الذي أعدّ نفسه، ورتّب أسئلته، والطريقة التي ستسير فيها مراحل الاستجواب، وطُرق التعذيب التي سيستخدمها.

- وهل عرفتِ أحدًا ممن قتلوه؟

- لو عرفتُ واحدًا منهم لقتلته بنفسي، لأن نبيل واحدٌ من أشرف الشباب!

- ماذا تعنين؟! سألها الكابتن داود.

- أنا أتحدّث عن نبيل، هل تريد أن تُسيء إلى سمعته وتقول إنه كان يعمل معكم؟ نبيل لا يمكن أن يفعل هذا!

- أيّ أن الذين يعملون معنا من أسوأ الشباب، هذا ما تقصدينه؟

- قلت لك، أنا لا يعنيني إلا نبيل، وأنا لا أتحدّث إلّا عنه.

- والذين قتلوه؟

- ماذا عنهم؟

- ما رأيكِ فيهم؟

- رأيي أنه لا يجوز لأحد أن يقتل شخصًا شريفًا مثل نبيل، ثم إنه ابن عمّي قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وأظن أنك تعرف مدى قوة العلاقات العائلية عندنا.

ومرّة أخرى وجد الكابتن داود نفسه يدور في دائرة مفرغة، فاعتقالها يعني أنه مهتمّ بالقتيل، بل مهتمّ جدًا، إلى درجة أنه يعتقل ابنة عمّه، والجميع يعرفون أن سياسة الجيش كانت دائمًا: دعْهم يقتلون بعضهم بعضًا، كلما أتيح لهم ذلك، فهذا أمرٌ يريحنا، ليس في مجال السياسة فقط، بل في حياتهم اليومية. الكابتن داود أعطى أوامره أكثر من مرّة للإفراج عن فلسطينيين قتلوا فلسطينيين. بدأ الأمر عندما أمسكت قوات الجيش بسائق فلسطيني دهس طفلا فلسطينيًا، قرب مخيم الدهيشة، ومات الطفل، الكابتن داود قال لهم: وما علاقتنا بالأمر؟! أطلِقوا سراحه، وليذهب ويسلّم نفسه لعرفات.

قرر إطلاق سراحها.

* * *

جورج أنكر في البداية، أوشك الكابتن داود أن يُظهر الدّليل: الصّور، إلا أنه في اللحظة الأخيرة تراجع، فذلك يعني أنه يُقدِّم تقريرًا، ولو غير مباشر، في عميل ما زالت خدماته، للجيش، مستمرة.

ـ لكنك شوهدت في المكان مع فتاة تعرفها جيدًا.

أدرك جورج أن من الصعب عليه أن يواصل إدعاءه:

ـ لا أستطيع أن أقول إنني أعرف أحدًا في المدينة، لأن الشخص الوحيد الذي أردتُ أن أعرفه حقًا، كان بنتًا ذهبتُ لخطبتها، ورغم ذلك رفضت الاقتران بي، ولقائي بها في تلك اللحظة كان بمثابة سوء حظّ مُضاعف، فهي آخر شخص كنت أريد أن أراه.

ـ ولكنك أنكرتَ في البداية أنكَ كنت هناك.

ـ اعترف بهذا، ولكن كيف لي أن أُقدّم تقريرًا عن نفسي؟! أيّ شخص في مكاني سيُنكر، وإذا تبين أن هناك دليلا، فسيعترف، وهذا ما فعلته! ثم إنني منذ فترة طويلة طلبتُ أن تسمحوا لي بمغادرة المدينة، ولكنكم رفضتم طلبي!

فكّر الكابتن داود في إطلاق سراحه أواخر ذلك الليل، كأفضل طريقة للتخلّص منه نهائيًا، لكنه تذكر الضجّة التي أعقبت ليلة منْع التّجوال، وما أثاره تقرير ديرشبيغل.

مقتل مواطن أمريكي، وفي ظروف مشابهة، ربما سيجعله عُرضةً لهجوم الصحف الأمريكية هذه المرّة!

* * *

في الصباح، وجد جورج وفاتن نفسيهما وجهًا لوجه مرّة أخرى في ساحة مقرّ الحاكم العسكري.

ارتبكا، لم يعرفا كيف يتصرّفان. لوهلة كان جورج على وشك أن يقول لها: صباح الخير، لكن فاتن استدارت بوجهها بعيدًا عنه، في حركة مُعادية، ففهم جورج أن عليه أن يتصرّف بغضب

لا يقلّ عن غضبها، ففعل.

انتظرها حتى خرجت من بوابة المقرّ، وعندها تحرّك.

.. وثانية أحسّ الكابتن داود بأن لا معنى لما قام به، فها هو يعتقلهما بعنف، ويُطلق سراحهما بلطف، دون أن يحقِّق أيّ هدف، ويؤكِّد عملَ نبيل معه أكثر مما ينفيه.

- إنني أتخبط! وبّخ الكابتن داود نفسه، تلك أسوأ ظاهرة يمكن أن تحدث، لأنها لا تعني سوى شيء واحد: أن الأمور بدأت تفلت من بين يدَيّ.

- كالبقرات! همس لنفسه، وأكّد:

- كالبقرات.

الحلقة المفرغة تتّسع أكثر!

امتلأت بيت ساحور بالأعراس في ذلك الليل، لم يعرف مدير مكتب الكابتن داود كيف سينقل الخبر إلى رئيسه.

- الناس تغنّي في بيت ساحور؟ فكّر أن يقول له.

- لماذا يغنون؟ سيسأله الكابتن داود.

- لا أعرف! سيردّ مدير مكتبه.

وستزداد الأمور تعقيدًا..

لكنه كان يعرف أن عليه أن يُوصِل الخبر، فهذا في النهاية كل ما لديه، إلى أن تتضّح الصورة.

- الناس تغني في بيت ساحور؟ قال له.

- لماذا يغنّون؟ سأله الكابتن داود.

- لا أعرف، هذا كلّ ما لديّ الآن! ردّ مدير مكتبه.

أشار له الكابتن داود أن يصمت، وصمت، أنصت، فسمع الغناء يأتي من بعيد، مع أن أغنيةً تنطلق في بيت ساحور، لا يمكن أن تُسمع في المقرّ، ولو استعانت بكلّ مكبرات الصوت!

- لعلهم يحتفون بإطلاق سراح فاتن والولد الذي لم تقبل به زوجًا. همس لنفسه، وفكّر، أيكون باعتقاله لهما قد مهّد الطريق لزواجهما، دون أن يدري؟ أتكون الفتاة قبلت به أخيرًا بسببه هو،

الكابتن داود؟ كان عليّ أن أخصيه قبل أن أُطلق سراحه، بدل أن يأتي إلينا بعد حين بأطفال يرشقوننا بالحجارة ويهتفون كلّما رأوا جنديًّا: هذه بلادنا!

بعد مرور ساعة، كانت أغاني الأعراس متواصلة. ظلّت تدور في رأس الكابتن داود.

ـ لم يكن هناك ما هو أسوأ من إطلاق سراحهما إلّا اعتقالهما. تلك كانت النتيجة التي أكّدها لنفسه. اتصل بمدير مكتبه، وأمره: قبل أن ينتصف الليل أريد أن أعرف الأسباب التي أدّت لإقامة عرس بهذا الحجم في مدينة محاصَرة.

* * *

في الحادية عشرة ليلا، وصل الخبر، لكن مدير مكتب الكابتن داود، لم يكن يرغب في أن يصدِّقه، لأنه لا يرغب في حمْل خبر مثله إلى رئيسه.

ـ الأعراس أقيمت لأن إحدى البقرات وضعتْ عِجْلا! قال له العميل.

ـ ماذا؟

ـ إحدى البقرات وضعت عِجْلا.

ـ وهل ما زالت البقرات في بيت ساحور؟

ـ هذا ما لا أعرفه.

ـ كيف تقول لي إذًا إن إحدى البقرات وضعت عجْلا، ما دمتَ غير متأكّد من أن البقرات في بيت ساحور؟

ـ ما أنا متأكد منه، هو أن إحدى البقرات وضعتْ عجلا. متأكّد كما أنا متأكّد من أنني أحدّثك الآن.

بعد عشر دقائق من الاتصال الأول، جاء خبر يؤكّد الأمر.

في الداخل، مع اقتراب منتصف الليل، لم تكن الأعراس وحدها التي تدوّي في رأس الكابتن داود، بل كانت البقرات تدور فيه، مُشكِّلة حلقة جهنّميّة، خلْفها تندفع سحابة طويلة من الفوضى.

كان لا بدّ أن يوصل مدير مكتبه الخبر، لكن خوفه منعه، وهذا ما جعل الأمر يزداد سوءًا، لأن الكابتن داود اتصل به قبل خمس دقائق من منتصف الليل، غاضبًا، وسأل:

- ألم يصل خبرٌ بعد؟

- وصل، الأخبار وصلتْ.

- الأخبار؟

- أجل. ولكنني لا أعرف إن كانت صادقة أم كاذبة.

- وماذا حملت الأخبار؟ سأل بحنق.

- إحدى بقرات بيت ساحور وضعتْ عِجلا.

- إذًا أنت تؤكد الآن أن البقرات لم تزل موجودة في بيت ساحور؟

- هذا ما لا أعرفه، ولكن إحداها وضعتْ عِجلا.

- بالتأكيد وضعته في مكان ما، بيت ما، حظيرة، كهف، أين المكان؟

- لا أحد يعرف.

- ما داموا يغنّون، فإن هناك من يعرف.

* * *

لم تعرف أم خليل التي انتقلت إلى بيت ابنها الكبير، المعتقل مع أخوته الثلاثة، المعنى الحزين لصوت البقرة الذي سمعتْه. نزلتْ إلى الطابق السفلي، نظرتْ إليها، أحسّت بأن البقرة تعاني من ألم سبق وأن عانت منه، نفسها، ذات يوم. لم تصل لنتيجة، زمن طويل مرّ على إنجابها آخر أبنائها.

عادت أم خليل، وصعدت الدرج.

بعد قليل تردّد الصوت من جديد كصرخة في بئر.

أيقظت زوجة ابنها، سألتْها إن كانت تسمع صوتًا غريبًا قادمًا من الطابق السّفلي للبيت. ردّت زوجة الابن، بأنها تسمع صوت بقرة، وطمأنتْها، بأن الصوت لن يصل إلى الشارع، وأنها تأكدتْ من ذلك بنفسها أكثر من مرّة.

ـ لكنني أسمع صوتًا مختلفًا، لا أسألكِ عن صوت البقرة الذي نسمعه كلّ يوم.

لم تفهم زوجة ابنها كلامها، فطلبتْ منها أم خليل أن تُنصت.

ـ إنه صوت البقرة الذي أسمعه كل يوم.

أمسكتها أم خليل من يدها، ونزلت بها إلى الدّور السّفلي. كان البيت آمنًا، وغير موضع شكّ، لا بالنسبة للعملاء، ولا للجيش، بعد اعتقال الابن، واختفاء أبو خليل.

لكن ما لم يعرفْه الكابتن داود، ومدير مكتبه، وأم خليل نفسها، أن صوت البقرة وصل إلى الشارع، وأن هناك من سمِعه، لكنه لسبب غامض أقنع نفسه بأنّه يتخيّل!

كانت البقرة تنظر إلى أم خليل بعينين متوسّلتين، يفيض منهما ألم ودمع. لم تكن تعرف ما المشكلة لتحلّها. حانت منها نظرة إلى بطن زوجة ابنها الحامل، فصفعتْ أم خليل جبينها شبه صارخة:

ـ كيف نسيت؟ البقرة ستلِد، اذهبي واطلبي العون من جيراننا، لن نستطيع مساعدتها وحدنا.

* * *

وقفت النساءُ السبع حائرات، وهن ينظرن إلى البقرة، في وقت بدأ فيه ذلك السائل الدّاكن بالتدفّق منها. وبعد عشر دقائق لم تستطع البقرة مقاومة ألمِها فجلست على الأرض. لحظات قليلة، وبدأت قدمان صغيرتان بالظهور، احتارت النساء أكثر، وتجرأتْ أم خليل وبدأتْ تشدّ قدمَي العِجل، لكنها كانت تعرف أنها بحاجة لأن يظهر الرأس، أولا، لتستطيع مساعدة البقرة دون أن تلحق أيّ ضرر بمولودها.

دقائق طويلة مرّت، والبقرة لا تكفّ عن إطلاق تلك الأصوات المجروحة ونظراتها المتوسّلة وهي تحدّق في أم خليل. تموّج جسدها وتلوّى، ومع صيحة عالية ظهر الرأس، فأطلقت أم خليل

زغرودة رغمًا عنها، زغرودة سمعها ذلك الشخص نفسه الذي سمع صوت البقرة، ومرّة أخرى أقنع نفسه بأنه يتخيّل!

امتدّتْ أيدي النساء الأخريات لمساعدة أم خليل، بعد أن امتلكن الثقة اللازمة لفعل ذلك، وظهر رجُلان، عرفتْهما النساء، لكن أم خليل طردتْهما خارجًا. نسيتْ أن التي تلد بقرة وليست امرأة. تذكّرتْ، لكنها لم تطلب منهما العودة. وما هي إلا دقائق حتى امتلأ الطابق السفلي بنساء تعرفهن، وأخريات لم ترهنّ من قبل.

كان على البقرة أن تقوم بالخطوة الحاسمة؛ جمّعتْ نفسها وبكل قوتها دفعت العِجل إلى الخارج، في الوقت الذي شدّته النساء نحوهنّ.

.. وهدأ كل شيء.

خارج أمّه كان العِجْل، لكن لا أثر للحياة فيه؛ صامت مثل قطعة لحم ضخمة ملوّثة. تحاملت البقرة على نفسها، وقفتْ، اقتربتْ من مولودها ولحستْ وجهه بلسانها العريض الطويل.

لم يتحرّك..

لم تيأس، دفعتْه برأسها، كأنه نائم تريد أن توقظه، وعادت ولحست منطقة أنفه وفمه بلسانها، بقوة أشدّ.

وتوقّف الزمن، كما تجمّدت الدموع في عيون النساء.

نظرت البقرة إليهنّ مستغيثة، أحست بأنها تهدر الوقت، انحنت، وبرأسها قلبتْ وليدها، وعند ذلك، رأى كلّ من كانوا هناك تلك الحركة الخفيفة في الجسد الملقى على الأرض.

تشجّعت البقرة أكثر، هي التي لفحتْها أنفاسه الضعيفة، قلَبتْه مرّة ثانية، تحرّك، ارتفع رأسه، نفض جسده برفق، فانهمرت الدموع من عيني النساء، وقبل أن تصل إلى نهايات خدودهن، انطلقن يزغردن.

دقائق قليلة، وكانت الزغاريد تملأ الحارة، وبعد قليل، كان خبر العِجْل الجديد يتنقّل من مكان إلى مكان، فكلما مرّ ذلك الرجل الذي أقنع نفسه بأنه يتخيّل، من مكان، وسأله أحد عن سرّ الغناء

الذي يسمعونه في ذلك الليل، ردّ: إحدى البقرات وضعتْ عِجلا.

- وهل ما زالت البقرات هنا؟ عشرات المرات تردّد السؤال.

* * *

سمع الرّجل الذي أقنع نفسه بأنه يتخيّل رنين الهاتف، رفع السماعة، عرف صوت مدير مكتب الكابتن داود:

- ما الذي يحدث في بيت ساحور؟

- إحدى البقرات أنجبت عِجْلا، أجاب بثقة.

- وهل ما زالت البقرات في بيت ساحور؟!

- يبدو ذلك.

- أريد أن أعرف مكانها قبل منتصف هذه الليلة.

- سأبدأ العمل الآن.

خرج، كانت حلقات الرّقص في كل مكان، والغناء يزداد ارتفاعًا. أحد الشباب رآه فشدّه إلى منتصف الحلْقة.

الرجل الذي أقنع نفسه بأنه يتخيّل، رقَصَ.

* * *

وقف مدير مكتب الكابتن داود، وأعطى تقريرًا عن حالة لا يمكن تأجيلها حتى الصباح.

سمع الكابتن داود صدى الأعراس في رأسه، ثم سمع البقرات تدور فيه، مُشكِّلة حلقة جهنميّة، خلفها تندفع سحابة طويلة من الفوضى..

هدأت الأعراس، وعاد الرجل الذي أقنع نفسه بأنه يتخيّل إلى بيته. رنّ جرس الهاتف، رفع السماعة:

- هل عرفت مكان البقرات؟

- لا! الأعراس في كل مكان، لو كانت في مكان واحد لأصبح الأمر أسهل.

* * *

- لم أعد أثق بجواسيسنا، قال الكابتن داود لمدير مكتبه بغضب.

- ولكن الذي أوصل لنا الخبر هو الذي التقطَ الصُّور!

- هو الذي التقطَ الصُّور؟! صور مقتل نبيل؟!

- نفسه.

وازداد الأمر تعقيدًا في رأس الكابتن داود.

اليوم الكبير!

عادت مكبّرات الصّوت تدور في المدينة المحاصرة، طالبة من الناس تسليم سياراتهم في ساحة المدرسة التي استولى عليها الجيش.

كان قرار مصادرة كلِّ ما يمكن أن يُصادر قد صدر. ولم يكن جنون الجيش بحاجة إلى شيء، كي يتصاعد، أكثر من حاجته لمقال (الانتفاضة والخيار!) الذي نشرته الصحفية الإسرائيلية عميرة هاس، وجعل قيادة الجيش في المدن المحتلة مصدرًا للسخرية.

كان العنوان مستفزًا لا للكابتن داود، الذي لم يكن قرأه بعد، بل لإسحق رابين[21]، فأن تبلغ السّخرية من الجيش هذا المبلغ، في إيحاء مكشوف، من الصحفيّة للجيش: الخِيار هو الشيء الوحيد الذي ستحصلون عليه!

بوصول المقال إلى الكابتن داود، أعلن بدوره أنه سيجبر المدينة على الوقوف في طابور طويل متوسّلة أن تدفع الضرائب.

كان رفض أصحاب السيارات ترخيص سياراتهم قد أشعل غضب سلطة الاحتلال أكثر، فلم تجد وسيلة عقاب أفضل من مصادرة كل سيارة غير مرخصة.

بدأت السيارات تتجمّع في ساحة المدرسة، لم تعد الساحة تتّسع. أكثر ما أغاظ الجنود عدم مبالاة الناس، يوقفون السيارات، تاركين مفاتيحها فيها، ويصعدون سيرًا على الأقدام، دون أن يلقوا نظرة على الجنود وموظفي الضرائب.

* * *

كاترين، زوجة سلامة تعاملت مع سيارته التاريخية، باعتبارها خارج أوامر المصادرة، فهي سيارة قديمة جدًا، صحيح أنها تلمع، كأنها خارجة من المصنع قبل لحظات، وتسير، لأن سلامة كان يعتني بها أكثر مما يعتني بكاترين نفسها، لكنها سيارة قديمة.

ستخبئها.

قررت، ولكن السيارة شوهدت تحمل سلامة نفسه إلى المقبرة.

- ليته طلب مني أن أدفن السيارة معه، لكان أراحني، حدّثتْ نفسها.

أغلقت باب الكراج عليها.

لم تكن وصلت الصالون، حين سمعت ذلك الطَّرْق القويّ على باب الكراج، عادت ترتجف.

فتحت، كان الشارع ممتلئا بالجنود، وخلفهم شاحنة كبيرة. لم يتحدّثوا مع كاترين، أفسحوا الطريق للشاحنة، توقّفت على بعد أربعة أمتار من باب الكراج، أشار لها جندي، ففهمت أنه يريد المفتاح. تردّدت، رفع بندقيته وهوى بها على السيارة، شهقت كاترين، كأن رأس سلامة هو الذي سيُهشم، لكن الجندي أوقف اندفاعة يده في اللحظة الأخيرة.

دخلت، عادت، ناولته المفتاح، صعد أحد الجنود إلى السيارة، وبعد قليل استقرّت داخل الشاحنة.

جلست كاترين على الأرض تبكي بحرقة، كأن سلامة مات في تلك اللحظة.

* * *

كانت مصادرة السيارات هي العقاب الثاني لمن يرفضون الترخيص، بعد عقاب مصادرة هوياتهم ورخص القيادة.

كل أولئك الذين صودرت هوياتهم كانوا عرضة للاعتقال، وهكذا وجدت المدينة نفسها أمام الخطوة التي لا بدّ منها، إذ لم يعد مقبولا أن يدفع من صودرت هويّاتهم الثمنَ وحدهم، لكن بعض الناس كانوا متردّدين.

في الاجتماع الذي عُقد في بيت إسكندر، طفت على السطح طبقة من ذلك التردّد، فلم يجد إسكندر كلامًا يقوله أفضل من ذلك الذي سمعه ذات يوم بعيد، ولم ينسه أبدًا:

ـ كان والدي يقول: الذي ثمن حصانه أعلى من ثمنه، من العيب أن تحكي معه، من العيب أن يكون صاحبك. هذه مدينة تسند ظهرها إلى مهد المسيح، وتشرب من بئر السِّيده وتأكل لقمتها مما تزرعه في حقل الرّعوات، هذه مدينة لم تولد اليوم.

وجلس.

ومنذ تلك اللحظة انتشر ما قاله في المدينة كلّها، وصار يُعاد، كلّما أحسّوا بأي من حالات التردّد.

* * *

بدأت رائحة العصيان المدني تنتشر أكثر فأكثر، وتتنقّل من بيت إلى بيت، ولم تكن المدينة بعد كل ما دفعته من ثمن، وما أعدّته من سبل للمواجهة، قابلة للتراجع.

أمام بلدية بيت ساحور، بدأ الناس بالتجمّع. أمسك الخوري سابا عوّاد هويته، رفعها إلى أن تأكّد من مشاهدة الجميع لها، ثم ألقاها أرضًا.

تعالت الهتافات في الساحة، وانبثق مطلع أغنية وسط ذلك الصمت الممتلئ تحدّيًا:

احنا إلْ رمينا الهويّة

فردّد الناس خلْفه

احنا إل رمينا الهويّة

وغنى:

في بيت ساحور الأبيّة

ورددوا:

في بيت ساحور الأبيّة

وواصل:

مسلمين ومسيحيّة.. كلنا فلسطينيّة

فتصاعد الغناء:

مسلمين ومسيحيّة.. كلنا فلسطينيّة

وراحت الساحة تهدر كأنها صوت واحد، رجالا ونساء وأطفالا.

كلنا فلسطينيّة

كلنا فلسطينيّة

من كل الجهات تدفّق الناس، حاملين هوياتهم، وكلّ من يصل يرفع هويته في الهواء، ثم يلقيها، وسط غناء لا ينتهي:

احنا إل رمينا الهوية

في بيت ساحور الأبيّة

* * *

أكثر من خمسمائة شخص تجمّعوا في الساحة.

قرارهم الثاني بعد تسليم الهويات كان عدم استفزاز الجيش.

كل أولئك الصغار الذين حضروا مع أمهاتهم وآبائهم وأخوتهم، صمتوا أيضا، لكن الصغيرة رولا التي كانت تراقب المشهد دون أن تستطيع رفع عينيها على الهويات، بدأت تصرخ:

- علي أن أُسلِّم هُويّتي أيضًا! كأنها تملك هويّة وهناك من يمنعها!

فوجئ الحاضرون، لم يعرفوا كيف يمكن أن يتصرّفوا في ذلك الموقف غير المتوقّع.

تصاعد الهمس، ومع إصرارها على تسليم الهوية التي لا تملكها، ظهرت الدموع في أعين الكثيرين تأثرًا.

جدّها إدوارد الذي كان يجلس على درجات باب مبنى البلدية، قرر أن يتدخّل، همس في أذن والدها كلامًا، همسه الوالد في أذن ابنته، إلا أن احتجاجها تصاعد.

وتحوّلت رولا إلى مظاهرة صغيرة.

رأى إسكندر أحد القادمين لتسليم هويته، فتوجّه إليه قبل أن يصل، تحدّث معه، فناوله الرجل هويته، استلمها إسكندر، وسار نحو رولا.

- باستطاعتك أن تُسلّمي الهوية.

قلبت الهوية ونظرت إلى صورة صاحبها، وصرختْ: هذه ليست هويتي، هذه ليست صورتي! عبرت من بينهم كسهم غاضب، وأعادتها لصاحبها.

أحد الشباب الذي كان يراقب المشهد بتأثر، مضى نحو أبيها، همس في أذنه، فرآه الجميع يهزّ رأسه، وقبل أن يبتعدا، همس لها والدها: سنذهب لإحضار هوية لكِ، لتُلقيها.

هدأت، نظرت حولها، كان الجميع يحدِّقون إليها.

ووصلت فاتن، ألقتْ هويتها، وبعد خمس دقائق رأوا جورج قادمًا من الشارع نفسه الذي أتت منه. تصفّح جورج وجوه الجميع، ألقى هويته، وذهب وجلس بجوار فاتن!

تكاثرت أعداد الجنود، وواصل الناس جلوسهم بصمت.

بعد قليل وصلت كاترين، أرملة سلامة، متعَبة كانت. راحت تبحث في جيوبها عن هويتها، أخرجتْها، تقدّمت عدة خطوات، نظرت إلى الجميع، ألقتها. ثم عادت يدها مرّة أخرى إلى جيبها، أخرجت هوية أخرى، هوية سلامة، تأمّلتها، عزّ عليها أن تُلقيها، لأنها تذكِّرها به. رفعتْ يدها، تأكّدتْ من أن الجميع يرونها، قالت: وها هو سلامة أيضا عاد ليُلقي هويته.

ألقتْها.

كان واحدًا من أكثر مشاهد إلقاء الهويات تأثيرًا.

التقتْ عيناها بعيني إسكندر، ذهبت وجلست بجانبه.

* * *

عاد والد رولا، صحبة الشاب الذي مضى معه، ابتسامة الرّضا كانت تضيء وجهه، رأتها رولا، ابتسمت، لكنها لم تصبر حتى يصل، نهضت بسرعة وركضت نحوه كأنها تراه بعد سفر طويل.

مدّ يده إليها بالهوية، رأت صورتها، ابتسمت، وقرأت اسمها فاتّسعت ابتسامتها، رفعت الهوية، رآها الجميع، ألقتها بعنف، وعادت وجلست مكانها.

لم تكن هويتها أكثر من ورقة مقوّاة أُلصقت بها ورقة مطبوعة على آلة كاتبة فيها اسمها ومكان سكنها وتاريخ ميلادها، بطريقة متقنة، ومن صورة جماعية اقتطعوا صورتها وتمّ تثبيتها، وغُلّف ذلك كلّه بقطعة بلاستيك لاصقة، من تلك التي تُستخدم لتجليد الكتب المدرسية، ما أعطى الهوية شكل هوية جديدة صادرة قبل لحظات!

* * *

في الخامسة مساء وصل صوت رتْل من العربات قادم من جهة بيت لحم، تصاعد الصوت، وبعد قليل ظهرت العربات.

ترجّل الكابتن داود، ألقى نظرة على الناس، خطا عدة خطوات وألقى نظرة على الهويات المتناثرة.

- أفضل ما يمكن أن تفعلوه الآن أن يأخذ كلّ واحد منكم هويته ويعود إلى بيته، وإلا فإنني مضطر لاتخاذ خطوات غير مسبوقة.

لم يتحرّك أحد.

- من لا يستعيد هويته الآن، سيكون مضطرًّا للتّوسل للحصول عليها.

ولم يتحرّك أحد.

أشار إلى إسكندر، فارتعب أنطون الجالس قربه، خشية أن يكون هو المقصود، تقدّم جنديان نحوهما، تزايد خفقان قلب أنطون، امتدّت يد أحد الجنود إليه، وأمسكتْه من كتفه، سقط قلب أنطون،

وصاح الكابتن داود، ليس هذا، الذي بجانبه.

وعاد الكابتن داود ليستعرض وجوه المعتصمين في الساحة. رأى وجه فاتن، ثم وجه جورج بجانبها. سقط قلبه، وتأكّدت مخاوفه، ها هو يجمعهما بعد أن كان ذلك مستحيلاً.

قرّر بسرعة.

أشار إلى جورج،

سقط قلب فاتن، التفتتْ إلى جورج، جورج الذي أخرج شيئًا صغيرًا ما من جيبه، ودسّه في راحة فاتن اليمنى وأغلقها.

لم يكن صعبًا عليها أن تعرف ما الذي وضعه. شدّت على ما وضعه في يدها بقوة وكأن الجيش كلّه يحاول انتزاعه.

وصل الجندي، أمسك بجورج من كتفه، ودفعه أمامه.

كانت فاتن على وشك أن تحتجّ، تتمسّك به، لكنها كانت تعرف، أن استفزاز الجيش ممنوع في ذلك المساء باتفاق جميع مَن في الساحة.

بهدوء جلس جورج في صندوق العربة، ينظر إلى الجميع ولا يرى غير وجه واحد، بسطتْ فاتن راحتها، تأملت الخاتم، وضعتْه في بنصرها الأيسر، رفعت يدها وكأنها تتأمّله، لكنها كانت تريد أن تريه لشخص واحد لن يستطيع أن يرى الخاتم في الساحة أحد مثله، ومثلها...

كان يبتعد.

رأى جورج الخاتم.. ابتسم.

ناشيونال جيوجرافيك!

حين كبر، اكتشف ناحوم، الشهير باسم الكابتن داود: لو أن الأيام عادت به إلى الوراء، لعمِل في واحدة من بعثات الاستكشاف في مجال علْم الطبيعة، وبالذات، عالم الحيوان. الأفلام التي كانت تنتجها ناشيونال جيوجرافيك، كانت تفتنه، تفتنه تمامًا، وتثير إعجابه تلك الخطط الدقيقة التي تضعها الذئاب والضباع والنمور وبقية مفترسات الغابة لملاحقة طرائدها. قفزةُ النّمر الأخيرة أو وثبة الذئب، أو اعتراض أسنان الضبع لعنق، أو انقضاضه على ساق حيوان أو مؤخرته، كانت تجعل قلبه يقفز من صدره، ويدور دورتين في الهواء قبل أن يعود إلى مكانه ثانية.

لم تكن هناك دراما مثيرة له أكثر من دراما الصيد، الكُمون، المباغتة، العدْو، المناورة، الانقضاض، الالتهام، وإن كان الجزء الأخير هو الأقل إثارة، لأنه محصّلة كل ما سبقه. كالكرة التي ما إن تستقرّ داخل المرمى وتسقط أرضًا حتى تفقد أهميّتها!

لا يتذكّر ناحوم أنه تعاطف مع الفرائس. راقب عددًا من أفراد أسرته، تأكّد له أنهم مثله، لا يطلقون تلك الصرخة المدوّية، إلا عندما ينجح المُطارِدُ بالإمساك بالطريدة، تمامًا مثل تلك الصرخة التي يطلقونها عندما يحقّق أحد اللاعبين هدفا للفريق الذي يشجعونه في الدّقيقة الأخيرة من المباراة.

هِلْمان، شقيقه، بعد أن كبر، لم يعد يشاهد تلك البرامج، كان يعتبر أن معادلة القوة فيها ظالمة، لأن الفريسة مضطرّة للهرب، والهرب ليس من فئة القوّة، إنه من فئة طلب النجاة.

هِلْمان كان يثور عندما يصفُ إنسانٌ، أمامه، إنسانا آخر بأنه أرنب، أي جبان. هِلْمان كان يقول: وهل الشجاعة في أن يتخلى الأرنب عن سيقانه ويقف منتظرًا وصول نمر أو ضبع أو ذئب، كي تلتهمه؟! هذا غباء. الأرنب ذكيّ لأنه يهرب، ولأنه يستطيع أن يراوغ وهو يهرب، ويستطيع أن

ينجو أحيانًا، بل ينجو كثيرًا، وإلّا لكانت الأرانب انقرضت منذ زمن طويل، وكذلك الغزلان، أمام هذه الكائنات، في المعادلة الظالمة: السيقان تواجه الأنياب والأسنان.

لكن هِلْمان، الذي شاهد، مضطرًّا أحيانًا، الكثير من هذه الأفلام الوثائقية، لأن العائلة تشاهدها، كان يحترم أيضًا الحيوانات التي تدافع عن جريح من بينها، فتتحلّق حوله، وتقاتل من أجله، وقد حوّلت أجسادها إلى سور حيّ يحيط به، ويمنع المفترسات من الاقتراب منه.

هِلْمان، كان يطلق صرخة ألمه عندما تفقد الحيوانات الأمل، وتنفضّ من حول الجريح يائسةً.

حوارات حادّة كثيرة كانت تعقب هذا النوع من المشاهِد، تصل في النهاية إلى إطلاق موشيه، الأب، الجملة الشهيرة:

- باختصار، البقاء للأقوى.

فيرد هِلْمان:

- ومن أعطى الحقّ للقويّ بأن يبيد الآخرين؟

- قوّته، يردّ الأب.

- ها أنت تمنح بنفسك الحق، الآن، لهتلر لكي يقتلكَ إذا ما عاد إلى الحياة ثانية!

- لكننا نتحدّث هنا عن الحيوانات، وليس عنا، فنحن أنبل من أن نكون ضحايا، لأننا شعب الله المختار.

- صدقتَ يا أبي، فنحن نتحدّث عن الحيوانات، وليس البشر. ولكن، وبالمناسبة: هل الضّباع هي حيوانات الله المختارة؟ الذئاب؟ النمور؟ الأفاعي؟ أم الطيور؟ الغزلان؟ الماعز؟!

- النمور، بلا أدنى شكّ، يجيب ناحوم.

- الغزلان؟ تردّ الأم.

- ما رأيك أنت؟ يسأله أبوه.

- تريدون رأيي؟!

- نحبّ أن نسمعه؟

- كلّها، كلّها حيوانات الله المختارة، أولا لأنه خلقَها، فلا عِلْم لديّ إن كان هناك غيره خلق بعضها، وصمت.

- وثانيها؟ سأله ناحوم.

- لأنه خلقها قبلنا. ثمّ إن هناك مسألة أخرى يا ناحوم؛ تخيّل أن أحدًا وضعك في قفص، مع أحد النّمور، فهل ستبقى مؤمنًا بنظرية: البقاء للأقوى؟

- إذا ما منحتَني بندقية، فلعلي لن أمانع.

- لعلك لن تمانع، إذا ما منحتك بندقية؟! يا ناحوم هذه مشكلتنا، منذ أن وُضِعت البندقية في أيدينا: لم نتوقف عن القتل، ونوهِم أنفسنا أننا نقتلهم لأنهم يريدون قتْلنا، مع أننا نحن الذين اصطدناهم ووضعناهم في القفص، ثم حملنا البندقية ودخلنا القفص لنثبت أننا أشجع من النّمر الذي في داخله، أننا الأقوى، الأقوى الذين لهم الحقّ في البقاء. نحن نوجّه بنادقنا إلى أجساد من لم يقتلونا، أسرانا، ونرى فيها أطياف من قتَلونا، نحن لم نتوقّف يومًا عن إطلاق النار منذ أن وضِعَت البنادق في أيدينا. ما الذي نفعله منذ قيام الدولة؟ إننا نقتُل ونقتُل ونقتُل بتخطيط، واعتباطا، والفلسطينيون يخافوننا لأننا قادرون على ممارسة هذا القتْل اعتباطا، ولا يخافوننا للسبب نفسه، فلا أحد منهم يعرف متى سنقتُله، ولذلك ليس أمامه سوى أن يتمرّد، لأنه يعرف أنه إن لم يتمرّد سنقتله أيضًا. هذه دولة مريضة يا ناحوم، تقتل الضحايا وتقسم أنهم قتَلَتُها، هذه دولة تحتاج مصحة أكثر مما تحتاج إلى وزراء وكنيست ورؤساء.

- بل أنت الذي بحاجة للعلاج.

- أعترف أنني بحاجة للعلاج، ولكن من مرض اسمه أنت ومن هُم مثلك، فالمصاب بمرض مثل مرضك لا يستطيع أن يُشفي أحدًا، ولذا فإن العلاج ليس هنا، لأن المستشفى ليس هنا، هنا المرض وحده والذين حوّلوه إلى إيمان. العلاج يا ناحوم هناك، في أي مكان خارج هذا المكان. ستقول لي كما قال أبي: إن الله وعدَ أجدادنا، قبل ألفي عام، بهذه الأرض! ولكنني على يقين من أنه

لم يعذْني بهذا البيت الذي طردْنا منه أصحابه، الناس الذين عمّروه، وربوّا أطفالهم فيه، وبنوا مدارس لهم في الجوار، ومدنًا ومطارات وسكك حديد وموانئ، موانيء وصلنا جميعًا عبرها، ولم نكن نحن الذين أنشأناها، وحين وصلنا، كلّ ما فعلناه أننا انتزعنا صورهم من الإطارات ووضعنا صورَنا، لنثبت للعالم وأنفسنا أننا أصحاب البيت.

* * *

أصدر هِلْمان كتابه في لندن (كنتُ ابنًا للضحية)، ثار ناحوم، كما ثارت العائلة، فابتداء من العنوان، أعلن هِلْمان أنه لم يعد ذلك الابن. حوصر الكتاب، وهوجم بقوة في الصحافة الإسرائيلية، وفي ليلة الخامس من آب، عام 1985، خصصت القناة الأولى في التلفزيون الإسرائيلي حلقة كاملة من برنامج (الصّدمة) لمناقشة الكتاب.

اختفت عائلة موشيه من الشوارع أسبوعين، قبل أن تظهر من جديد، وفكّر ناحوم أن يسافر إلى لندن ليقتل هِلْمان بنفسه. لقد أنهى الكتاب، كما رأى، أسطورةَ العائلة، وفضح المصوِّر الذي استبدل البندقية بالكاميرا، والطريقة التي صَنَعت أمُّه من جارتها الفلسطينية، أم خليل، عدوَّة، لها، لتتمكن من الاستيلاء على بيتها، مع أن تلك الفلسطينية كانت ترعاه وترعى أخوته، كلما ذهبت أمّه لتتدرب على السلاح، وهي تدّعي أنها ذاهبة لتلقّي العلاج، كلّ مرة في مدينة، لأن الأطباء لم يستطيعوا تشخيص مرضها!

تحدّث عن ادعاءات أمه بأن الفلسطينية كانت تضربهم، وهي التي كانت تمنع ولديها من أن يلمسا الطعام قبل أن يبدأ هو بالأكل، تحدّث عن الرحلات الصغيرة التي كانت تنظِّمها للترفيه عنهم، في الجوار، وإلى شاطئ البحر، كلما طال غياب أمّه، والأشياء التي كانت تشتريها لهم، تحدّث عن إصابته بالحصبة، والعناية التي وجدها في ذلك البيت، وخصص فصلا طويلا لعلاقة أبيه مع صديقه ليفي، والكاميرا التي استُبدِلت بها بندقية، والوئام الذي عاش طويلا بينهما، إلى أن بدأت ذاكرة أبيه تتهاوى، وما تبع ذلك من شجارات، كلما تذكّر الماضي. كان يصرخ في وجه ليفي فجأة ودون مقدمات: لقد خدعتني عندما أقنعتني باستبدال بندقية بالكاميرا، كم كنتُ غبيًّا، كان يجب عليّ ألّا أقبل بأقل من دبابة أو طائرة حربية مقابلها.

قبل صدور الكتاب بستة أشهر مات موشيه، وهو يتشاجر مع ليفي الذي أصبح يعاني من أعراض مرض صديقه، صرخ موشيه في وجهه: مقابل الكاميرا، لن أقبل بأقل من حاملة طائرات،

هذا آخر كلام عندي، فهمت؟

أجاب ليفي: لا لم أفهم، ولن أمنحك شيئا مقابلها.

فوقف موشيه وهاجم ليفي: أيها اللص! ولكنه سقط ميتًا قبل أن يصل إليه.

وعن أمّه وأبيه وأسرته كتب هِلْمان: إنهم مرضى يعانون من مرضٍ اسمه هُوَ! أي قاتلهم، إنهم يحرصون، كأمثالهم، على أن يثبتوا أنهم أقوى (الآن) من ذلك القاتل، وإن لم يكن اليوم فغدا. إنهم يحاربون الحاضر وكأنه قاتلهم، ويُلصقون صورة (هوَ) على وجه كل شخص يريدون قتْله أو تعذيبه أو تشريده، وما داموا يفعلون ذلك فلن يستطيعوا النجاة، لا هم ولا الدولة التي أنجبوها، فكل ما تفعله هذه الدولة، أنها تشنّ الحروب على الماضي، دون أن تستوعب أن الماضي لا يمكن قتْله، إلا إذا استطعت أن تعيش حاضرًا نقيضًا له، وهم لا يعيشون هذا الحاضر، ولذا، لن يكون لها مستقبل.

هذه الدولة بلا مستقبل.

بهذه النتيجة أنهى هِلْمان مقدمة كتابه، ومرة ثانية أعادها لتكون الجملة الأخيرة في ذلك الكتاب.

* * *

لم يعرف ناحوم، لماذا فاضت كل تلك الذكريات دفعة واحدة، قبل أن يصل إلى أعلى الطريق المؤدّي إلى بيت لحم.

توقّفت العربات العسكرية فجأة، كانت الهتافات تُنذر بوجود مظاهرة تقطع الطريق، وكانت هناك مظاهرة فعلا، لم تُطلق فيها النيران.

- مستوطنون، يُغلقون الطريق، يريدون مهاجمة بيت ساحور، سمِعَ عبر اللاسلكي جنديًّا يقول ذلك.

نزل الكابتن داود، سار نحو المظاهرة، وصل إلى قائدها، همس عدة كلمات، ابتعد المستوطنون عن الشارع. طلب من سائقه أن يتركه، لأنه سيصعد في العربة الأخيرة التي فيها

جورج.

العربة التي فيها إسكندر، كانت من بين العربات التي تستعدّ لمواصلة طريقها.

إلى العربة الأخيرة ذهب، طلب من سائقها والجنود الذين فيها أن يترجّلوا، ويستقلوا عربات أخرى.

انطلقت العربات.

لم يبق سوى الكابتن داود في المكان، عاد الهدوء من جديد، وبدأ المستوطنون بالاقتراب من العربة الأخيرة، بترقّب.

أحاطوا بها، اتسعت أعينهم محاوِلَةً استكشاف مَن في عتمة قفص صندوقها.

رأوه..

تبادلوا النظرات، كانوا فرحين بذلك الصيد السّهل الذي قُدِّم لهم على طبق من ذهب.

رقصوا..

ناول الكابتن داود مفتاح القفص لرئيسهم.

أشرع الباب.

طلب الكابتن داود من جورج أن ينزل، اعتقد جورج، الذي كانت معرفته بالمستوطنين محدودة، أن الكابتن داود سيطلِق سراحه ليُقتل برصاص الجنود.

نزل جورج خائفًا، مضى الكابتن داود إلى مقدمة العربة، صعد، وانطلق.

وحيدًا وجد جورج نفسه بين حلقة المستوطنين، نظر إلى عيونهم، اخترقه خوف لم يعرفه من قبل، ولكنه أحسّ فجأة بأنه لا يخاف على جورج القديم، بل على جورج الذي لم يعُد ضحيةَ الحبّ من طرف واحد، أحسّ بأنه عاشق أخيرًا، أنها أحبته؛ ولكن الخوف عاد من جديد وهزّه وقد بدأت تنهال عليه الضربات، خاف أن لا يستطيع أن يقول لها: إنه لم يعُد لبيت ساحور بحثًا عن عروس، بل للبحث عنها! وإن أكثر ما كان يخشاه أن يجدها قد تزوّجت، خاف أن لا يستطيع القول

لها إنه جاء إلى بيت ساحور قبل عشر سنوات، وأحبّ تلك الطفلة الصغيرة التي كانت ترسم فوق أيّ حائط تُصادفه، وأنه حدّثها، خاف أن لا يستطيع البوح لها: لقد سألتكِ يومها، لماذا تفعلين ذلك؟ لماذا ترسمين على كل حائط يصادفكِ؟ خاف أن لا يستطيع تذكيرها بإجابتها البسيطة الصافية كوجهها: لا لشيء، فقط لأنني أحبّ الرّسم؛ خاف أن لا يستطيع قول ذلك كلّه، قبل أن يربطوا كل واحدة من قدميه بحبل، قبل أن ينقسموا إلى مجموعتين، قبل أن يكتشف أنه أصبح نصفين، وأن كلّ نصف فيه يجري في اتجاه، قبل أن يصل إلى قرار خلفَ أيّ النّصفين عليه أن يركض ليعيده إلى نصفه الآخر.

كان جورج هناك في المنتصف، وهم يضحكون، وكانت فاتن تجلس إلى جانبه في ساحة البلدية.

.. وانطفأ العالم كله.. اختفت فاتن.. واختفى.

* * *

بعد دقائق كان الكابتن داود يفكر: كان عليّ أن أوصي أحدهم بتصوير ذلك الفيلم الذي تتصاعد أحداثه المثيرة ورائي.

مهمات ليليّة

رفض الناس استعادة هوياتهم، رغم كل التهديدات التي أطلقها الكابتن داود. فشلت الصفقة المعقودة بين الجيش والبلدية، البلدية التي التزمت بأنها ستتولى إعادة تسليمها لهم.

عدد من موظفي البلدية حملوا الهويات في ذلك الليل، وراحوا يطرقون الأبواب، بعد أن وافق الكابتن داود على رفع حظر التجوال، مساهمة منه في تسهيل عملهم.

في مدينة صغيرة كان الجميع يعرفون الجميع، لكن تلك الحقيقة انمحت في العتمة!

* * *

طرَق أحد موظفي البلدية باب الخوري سابا. خرج لهم:

- ماذا تريد؟

- أريد أن تستعيد هويتك؟

- هويتي؟! أيّ هوية؟!

- الهوية التي سلّمتها هذا المساء.

- أنا لم أُسلِّم أيّ هوية لي؟

- يا أبونا، ها هي صورتك وها هو اسمك.

- دعني أراها.

- لا، هذه هوية الإدارة المدنية الإسرائيلية، قلتُ لك ليست هويتي، لكنني أعدك حين تأتي إليَّ حاملا هويتي الفلسطينية لن أتركك تغادر قبل أن تتناول طعام العشاء في بيتي. تصبح على خير، وأغلق الباب.

وقف موظف البلدية حائرًا، ينظر إلى الصورة غير مصدِّق ما يدور.

* * *

طرَق موظف آخر باب بيت سلامة.

وطرق الباب ثانية بقوة أكبر. فُتح الباب، خرجت كاترين.

- ظننت أنكَ الجيش؛ خير إن شا الله.

- نريدك أن تستعيدي هويتك وهوية زوجك.

- هويتي؟!

- أجل.

- أنا لا أمتلك هوية.

- لا تتعبيني يا كاترين، ها هو اسمك، وأنا أعرفكِ مثلما أعرف نفسي.

- هذا صحيح.

- صحيح أنها هويتك، أليس كذلك؟

- بل صحيح أنك تعرفني كما أعرف نفسي.

- على الأقل استلمي هوية سلامة.

- سلامة ليس موجودًا، يمكن أن تذهب وتسلّمه إياها، إن أردت، هناك في المقبرة!

قرّب موظف البلدية الهوية منها، وأعاد:

- يا كاترين، أرجوكِ لا تتعبيني، فأنت تعرفين أنني موظف وأؤدي واجبي؟

- واجبك؟ يا ريتني لم أسمع هذه الكلمة منك، ولكن، لأنني أعرف أنك إنسان محترم، سأنسى ما قلت.

وتراجعت خطوتين وأغلقت الباب.

* * *

والد رولا فتح الباب بسرعة، ما إن سمع الطَّرقات، كي لا يستيقظ أطفاله النائمون. كان قد وصله خبر قيام موظفي البلدية بجولات لإعادة الهويات.

- لن أستعيدها، قال، قبل أن يفتح الموظف فمه.

- لماذا لن تستعيدها، هل تريد أن تكون ضدَّ اتفاق عقدته بلدية مدينتك مع الجيش؟

- أي اتفاق؟! أنا لست ممن عقدوه.

- أنت تُصعِّب الأمور على نفسك. غدا، إذا طرَق جندي باب منزلك، وخرجتَ، وسألك عن هويتك، وقلت له إنني لا أملك هوية ستُسجن ستة أشهر.

- صحيح؟

- صحيح، وها هي البلدية تتحمّل الآن مسؤولية حمايتك.

سمع والد رولا صوت أقدام صغيرة خلفه، التفتَ، كانت رولا الصغيرة.

- ما الذي يحدثُ في هذا الليل البهيم؟! سألت.

- أخونا، من موظفي البلدية، جاء ليعيد هويتكِ إليكِ.

- أولا، أحبّ أن أوضحَ لكَ أنها ليست هويتي، ولكنني صمتُّ وقبِلتُ بها هناك أمام البلدية، فقط لأُلقيها. ثم إنني لم أُسلّمها في وضح النهار حتى أستعيدها خلسةً في ظلمة الليل، قالت بصوت حاسم، أربك موظف البلدية مرتين، لأنها قالت ما قالته بالعربية الفصحى، ولأن جملتها أعجبته كثيرًا.

- أسمعتَ بنفسك ما قالته الصغيرة، إذا استطعتَ أن تُقنعها بأن تستعيد هويتها، فأعِدك أنني سأستعيد هويتي.

ارتبك الموظف، ألقى نظرة على رولا، وهزّ رأسه، وكم أسعده أن العتمة كانت كثيفة، لأنها لو كانت غير ذلك لظهرت طبقة كثيفة من الخجل قابضة على ملامحه.

بصمت استدار موظف البلدية وابتعد.

ظلّ والد رولا وابنته يراقبانه، حتى اتّحد صوت أقدامه بالعتمة، فلم يعد يُسمع، كما لم يعد جسده يُرى.

- هل تعتقدين أننا قسونا عليه.

- هذا أكيد، ولكن، ما حلُّ معضلةٍ كهذه؟ كيف يمكنُ أن أسترجعَ هويةً رميتها؟!

- ولماذا لا تقولين هويتي التي رميتها؟

- لأنني أعرف أنها ليست هوية حقيقية.

- ولماذا طلبتِ إذًا أن نُحضرها لكِ ما دمتِ تعرفين أنها ليست هوية حقيقية؟!

- لأنني كنت أريد أن أُلقى هوية، كما يفعل الآخرون، ولم أكن أملكها لأرميها، ورمْيها أمرٌ ضروري. إنها مزيّفة، قبل هذا وبعده، حتى لو كانت صحيحة، والمسألة برُمّتها كما يقال: رمزية!

* * *

موظف البلدية الذي رفض والد رولا استلام هويته منه، وجد نفسه أمام البلدية. في مغلف بلاستيكي شفّاف يحمله كانت كلّ الهويات. لم يقبل أحد أن يستعيد هويته.

دار حول نفسه وكأنه يريد إلقاء نظرة شاملة على المدينة، صعد درجات البلدية، توقّف، امتدّت يده إلى جيبه، أخرج هوية، تأمّل صورته فيها، دسّها عميقا في المغلف البلاستيكي بين الهويات الأخرى، دخلَ،

سلَّم كلَّ ما في حوزته.

أفراح مخيفة!

عاد إسكندر من الاعتقال، كما عاد ذات يوم ابنه بشارة، كما عاد حفيده زيدان، عاد كأنه جورج الذي لم يعُد، لا يستطيع أحد أن يؤكد أنه حيّ، لا يستطيع أحد أن يؤكّد أنه ميت.

جسده الصلب القوي الذي قاوم تسعة عقود، قطعةً من ملابس معلقة على حبْل كان، تهزّها ريح شديدة، تحاول اقتلاعها. لكن كل القوة التي تلاشت من جسده، مخلِّفة نحولا وازرقاقًا قاتلين، كل تلك القوة انتقلت إلى جسد مرتا.

- لن يموت، لن أقبل أن يموت الآن، همست لنفسها.

تصفّحتْ وجوه الناس المتحلّقين حولهما، وأضافت: أريده أن يرى نهاية لكل هذا الموت، لا أن يموت.

وكما سهر ذات يوم حارسًا روحَها، رافضًا أن يمسّها أحد، لأنها مرتا الخاصة به دون كل الناس، قررت أن تفعل الأمر نفسه.

وخرج الناس أخيرًا، جلست معه، تمسح وجهه بمنديل أبيض مبتلّ، طاردةً جمر آب، وهواءه الأشبه برماد مشتعل.

لم تكن تحبُّ استعادة الماضي، طردتْ الذكريات كلّها التي تفتّحت في كل الجهات، حولها. أن تتذكّر، معنى ذلك أنها تودّعه. لم تكن تريد أن يكون اختلاؤها به وداعًا، ولا رثاء لزمن مضى، كانت تريده لقاءً لا ينتهي، انبعاثًا من موت جديد.

كم مرّة لامس إسكندر الموت وعاد إليها، ألم يستعر ذلك القول الذي لم تعد تتذكّر من قاله: لقد ابتعدتُ حتى رأيتُ الموت، ولكنه لم يعجبني، فعدتُ إليكِ.

كلّهم لم يحبوا الموت، لا هو، ولا بشارة، ولا زيدان، ولا هذه المدينة الصغيرة التي شهد فيها الرّعاة علامة مولد المسيح، وشربت مريم العذراء من (بير الماء الحيّ): بئر السِّيده، حين مرت ببيت ساحور مع ابنها والقديس يوسف، البئر الذي حفره الكنعانيون.

كلّهم لم يحبوا الموت الذي طاردهم، ولم تحّبه هي، ولعلّها لم تعد من هناك، من عنده، بعد أن لامسته مثل إسكندر، إلا للسبب نفسه.

عادت مرتا إلى الحياة، بعد أن ظنّ الجميع بأنها ماتت، وها هو إسكندر يعود إليها، إلى الحياة، بعيدًا عن كل ذلك الموت الذي حاول اختطافه.

آثار التعذيب، الجروح الكبيرة التي أغلقها الطبيب، كانت تتفتّح، مثلما تتفتّح العيون، تنظر إلى مرتا، وتقول لها: لن أموت يا مرتا، لن أموت.

لم تر مرتا إنسانًا صلبًا مثله، لكنها لن تنسى أبدًا كم كان ليّنا معها، مع كل شيء طلبته منه، من ذلك البيانو المعجزة، المعجزة التي طلبتْها، إلى كل تلك الأمور الصغيرة التي كانت تحيل، حتى، الرجال الليِّنين إلى صخر.

* * *

تذكّرت كيف وصل البيت، قبل عشرين عاما، فرحًا، مترنّما، مدندنًا موسيقى أغنية لا تعرفها، خافت: كانت على ثقة من أنه وقع في حبّ امرأة أخرى. نشوة كهذه كان الحبّ دائما أباها وأمّها.

- أرى إسكندر جديدًا اليوم! ما السرّ؟

- ستكتشفين غدًا. وواصل دندنته.

حبّها الطاغي له، جعلها تحسّ لأول مرّة في حياتها، بإحساس لم تعرفه: حتى لو وقع في حب امرأة أخرى، فقد جعلني أرى ما الذي يمكن أن يفعله الحبّ في رجل تجاوز السبعين! أحبّته، أحبّت

حبه، بهجته، ومولده أمام عينيها، هي التي قالت له ذات مرة: شيء واحد فاتني في هذه الحياة يا إسكندر، شيء واحد خسرته، أنني لم أكن في استقبالكَ يوم ولدتَ!

تأثر إسكندر كثيرًا بما قالته، اغرورقت عيناه، حتى أن مرتا ندمت على ما قالته، لكنها عادت وأحبّت كل كلمة قالتها، لأنه بدا منذ ذلك اليوم أطيب، وأكثر براءة، وأكثر رعاية لها، كأنها أمّه.

* * *

أشرقت شمس اليوم التالي دون أن يتوقّف إسكندر عن الترنّم بتلك الأغنيات الغامضة، التي كان يمكن أن تعرفها ببساطة، لو أنها سمعتها مرةً، مجرد مرة.

خرج مترنِّما، فأصبحت على يقين من أنه سيعود إليها ممسكًا بيد تلك المرأة التي وقع في حبها!

الغريب، أنها لم تكن غاضبة، بل كانت تنتظر مُعذَّبة باللهفة، لا بالغيرة. سلام عظيم سكنها. أقسمتْ أنها ستحبُّها، ستحبّ تلك المرأة، كما أحبّت البيانو، كما أحبت الموسيقى، كما أحبت فيروز، وليالي الأنس، ليالي الأنس التي فكرتْ فيها كثيرًا ووصلت إلى نتيجة أراحتها: المهم أن الأغنية باتت موجودة، ويسمعها الناس بفرح! كانت الكارثة ستقع لو أن تلك الأغنية غير موجودة، لو واصل الناس حياتهم دون أن يعرفوا أي أغنية عظيمة تلك التي خسروها.

لم يعد إسكندر في ذلك اليوم البعيد، تأخّر، وهذا ما أخافها، لم تخف إلّا من شيء واحد: أن لا يعود؛ لكنه عاد أخيرًا، طرَق الباب كضيف، دخل، لم تكن معه تلك المرأة التي أحبّتها قبل أن تراها. كانت مرتا تغسل الصحون، وتعيد غسلها من جديد دون أن تنتبه، وكان عابسًا.

هل تكون تلك المرأة تركتْه، وأعادته إليها مجروحًا بروح مكسورة؟ ما الذي يعني مرتا أن تفوز به، أن تستردّه، إن عاد مهزومًا؟ هل سيكون إسكندر نفسه الذي أحبّته؟ الذي عرفتْه؟ لو فعلت تلك المرأة ذلك، لو أعادته إليها جثة، ستقتُلها! مرتا لا تريده جثة، تريده حياة، تريده حياة أجمل من تلك التي عرفتْها فيه، وأمس كان كذلك، صباحًا كان كذلك.

لأول مرة أحستْ مرتا أن انتصارنا على من نحبهم هو الهزيمة الكاملة لنا ولهم.

خافت.

لكن ابتسامته عادت من جديد، سألته:

- ما الذي يحدث لك؟

- أفكر في شيء كبير مُفرح، وأخشى أن يُغضب الأمرُ كثيرًا من أهالي البلد، بخاصة أن طعم هزيمة حزيران لم تزل تحت أسناننا؟

- بالنسبة إليّ، لن أغضب، قرّر، وأنا معك؟

- هذا يعني أنني لن أتحمّل المسؤولية وحدي، سنتحمّلها معًا.

- اطمئن، أعدكَ بذلك.

- أريدك أن تذهبي الآن إلى بيوت أفضل صاحباتِكِ، وتَطلبي منهنّ أن يكنَّ معك لمدة أربع ساعات على الأقل، هذا المساء.

خافت مرتا، لكن عودة ابتسامته طمأنتها. واصلتْ غسل الصحون. اقترب منها، أريدك أن تتركي كلّ شيء، أن تدخلي وتلبسي، اتركي هذه الصحون كما هي..

- وهناك الغسيل!

- اتركيه لي.

نفضت يديها فتطايرت فقاعات الصابون وانطفأت في المجلى.

* * *

خرجتْ، كانت جاهزة، وكان يجلي الصّحون مترنّما، كما كان ليلة الأمس.

- والآن، ماذا عليَّ أن أفعل؟

- هل معك ما يكفي من مال؟ سألها.

- يكفي لماذا؟

- يكفي لأن توجّهي دعوةً لخمس أو ست من صديقاتكِ على الأقل.

- لعرس؟!

- تستطيعين القول: لعرس.

خفق قلبها.

- أريني ما معك من مال.

أخرجت ما في حقيبتها، فقال:

- هذه قد تكفي للحفلة، لكنها لن تكفي لشراء الحلويات!

وخفق قلب مرتا أكثر.

تأملت ابتسامته الغامضة الماكرة. عاد لها هدوؤها:

- سأفعل أي شيء لكي أراه مبتسما هكذا، همستْ لنفسها.

نفض الصابون عن يديه، دسّ يده في جيبه، أخرج ما فيه من نقود، أعطاها إياها، اقترب منها، وهمس بضع كلمات.

- هذا هو سرّ فرحتك إذًا؟!

مثل طفل صغير هزّ رأسه مؤكّدًا.

* * *

حين عادت مرتا بعد غروب الشمس، رأت الغسيل على الحبال، ابتسمت، كانت تدندن بطريقة متقنة أفضل منه، وبدت أكثر فرحًا:

- أرجو ألّا أكون خدعتكِ!

- يا ريت تخدعني هيك كل يوم!

* * *

في الثامنة من مساء ذلك اليوم، سمعا طرْقًا على بابهما، سمعاه بصعوبة، فقد انشغلت مرتا من لحظة وصولها بعزف تلك الأغنيات التي ترنّمت بها وترنّم إسكندر قبلها بها.

تتسلقين كل مرتفع

تبحثين في الأعلى وفي الأسفل

تتبعين كل مجهول

في كل مسار تعرفينه

تتسلقين كل مرتفع

تخوضين في كل مجرى

تتبعين كل قوس قزح

حتى تعثري على حلمك

الحب الذي يحتاج كل الحب الذي تقدمينه

طوال أيام حياتك..

* * *

- خير إن شالله يا جيران؟ تفضلوا.

- بصراحة، لولا أننا نحبك لقلنا لكَ إننا لن نتفضّل، قال أحدهم، فدخل ووراءه خمسة رجال، من بينهم أبو خليل، وأنطون، وإدوارد زوج أخته.

كان صوت البيانو يأتي من الطابق العلوي للبيت، الطابق الذي يفتح بابه على الشارع الخلفي المرتفع.

- أراكم غاضبين؟

- بل أكثر من غاضبين؟!

- لماذا؟ سألهم.

- كيف تسمح لمرتا بأن تدعو زوجاتنا للسينما في بيت لحم؟ وفي هذا الوقت الذي لم نزل فيه غارقين في الطين!

- كأنكم غاضبون فعلا؟ أم غرتم لأنكم لم تذهبوا معهنَّ؟

- يا أخي إسكندر، إذا تعوَّدْن على ذلك فلن نستطيع الحديث معهنّ بعد اليوم!

- ولماذا عليكم أن تتحكّموا بهنّ، ألم تلاحظوا أنهنّ عُدن إلى بيوتكم بحال أفضل من حالهنّ قبل ذهابهنّ؟

- صحيح.

- يا حبايبي، أتركوا لهنَّ المجال لكي يتنفَّسن قليلا، ستكونون أسعد.

- ولكنهنّ ذهبن وحدهنّ؟

- وأنا أدعوكم لحفلة مساء الغد لنذهب معًا، ما رأيكم؟

صمتوا.

- سعيد أنكم موافقون، وأحبّ أن أطمئنكم أنكم ستشاهدون أفضل فيلم منذ فيلم (ذهب مع الريح).

- ما اسم الفيلم؟ سأل أبو خليل، أم خليل قالت لي اسمه ولكنني نسيته.

- اسمه (صوت الموسيقى) وأعدك يا أبو خليل، كما أعدكم، حين تشاهدونه غدا لن تنسوا ذلك الاسم طوال حياتكم.

* * *

بعد أربعة أيام من عودته من المعتقل، سمع إسكندر ذلك اللحن القادم من بعيد، من بعيد لا بعيد بعده، فتح عينيه، رأته مرتا، فأغلق الضوء الذي يفيض من ملامحها عينيه.

بيتك بعيد وما بخليك ترجع

أحقّ الناس نحنا فيك

راح فتِّح بوابي

وانده على صحابي

وقلّن قمرنا زار

وتتلج الدنيي اخبار

بس سهار.. بس اسهار

بيت ساحور- فيتنام!

ارتبك شاؤول حين وصله طلب عاجل للقاء الكابتن داود. كانت صحيفة هآرتس نشرت خبرًا مدويًّا عن المجموعة العسكرية التي شكَّلها، وأسماها (منغلة)[22].

- يبدو أن الأمور تفلت من بين أيدينا أكثر فأكثر. السكان يرفضون استعادة هوياتهم، كما يرفضون دفع الضرائب؛ سأترك لك ولمجموعتك الحرية الكاملة للتعامل مع الوضع كما يقتضي الموقف؛ أعني الموقف الذي نحن فيه. أما المستوطنون فلديهم الآن أوامر واضحة: إطلاق النار على أهداف حيّة وليس في الهواء؛ تمّ تعميم هذا عليهم في مجلة (نكوداه) الناطقة بلسان المستوطنات. الجميع لديهم أوامر واضحة، ولكنني أحببت أن تسمع الأوامر مني.

فوجئ شاؤول:

- كنت أعتقد أنني سأسمع كلامًا آخر بعد ما نشرته هآرتس، ولكنني سعيد بأنني سأعود إلى جنودي بأخبار تُبدّد مخاوفهم.

وصمت شاؤول.

- لديك شيء آخر تريد أن تقوله يا شاؤول.

- أجل سيدي، أظن أننا لو مُنِحنا أوامر واضحة كهذه في فيتنام لما هُزمنا؛ كانت المشكلة هناك أن على كل جندي أن يتصرف كما يريد، كما يقتضي الموقف، أيّ حسب ما يمليه عليه حسّه بالخطر، وهكذا تركوا للجنديّ ضميره ليستخدمه! أتعرف يا سيدي، الأمر الذي يحيّرني أكثر من أي

شيء آخر هو، كيف يرسلون الجنود إلى الحرب ويسمحون لهم باصطحاب ضمائرهم معهم؟ قال ذلك مجاملا الكابتن داود، وهو يعرف أن كل أنواع الأسلحة كان مُتاحًا للاستخدام في فيتنام.

- تستطيع أن تترك ضميرك هنا في مكتبي، إن أردتَ، مع أنني أشكّ أنك اصطحبته معك إلى هنا أصلا. ابتسم شاؤول برضا. ضرب الكابتن داود الطاولة ضربة خفيفة كإشارة وداع، وعندما رفع يده قرأ شاؤول ذلك العنوان الواضح في صحيفة على الطاولة: (الملثمون يسيطرون على قرى كاملة في أنحاء الضفة الغربية).

- هناك شيء أخير، إذا سمحت لي، قال شاؤول.

- تفضل.

- أعرف طيارًا خدم معنا في فيتنام، اسمه بيكر، يسكن الآن في مستعمرة (معاليه عاموس)، ويخدم في منطقة الشمال، يمكن أن يكون وجوده مفيدًا لنا.[23]

- المشكلة أنه بات شهيرًا، فقد كُتب عنه كثيرًا في الصحف، ولا أريد أن نكون في دائرة الضوء أكثر مما نحن الآن، لا بدّ أنك قرأت ما كتبته ديرشبيغل.

- فهمت، فهمت بالتأكيد.

- ثم ما كتبته هآرتس اللعينة الآن، كأنها واحدة من صُحف عرفات.

* * *

في الخامسة من مساء ذلك اليوم، اندفعت ستّ عربات عسكرية في شوارع بيت ساحور، قادمة من عدة جهات، كانت تسحق في طريقها كل ما يعترضها. التقت أمام تلك البناية ذات الطوابق الأربعة في شارع النصر، اجتاحت البناية كما لو أنها تنفذ عملية عسكرية حاسمة، طردت كل من فيها، وسط إطلاق كثيف للنيران، واحتلت السطح.

عندما وصل الجنود إلى الطابق الثالث، كانت إحدى العائلات لم تزل هناك لا تعرف كيف تتصرّف، كسر الجنود الباب، وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع من في الشقة، كان بينهم شاب في العشرين من عمره، التفت الجنود خلفهم، ينتظرون أوامر شاؤول، شاؤول الذي أشار لهم نحو

الشاب ثم نحو النافذة. التقطت الأمُّ النظرة القاتلة، بسرعة ألقتْ بنفسها بين ابنها وبين الجنود. ضربة واحدة بفوهة بندقية تركتْها على الأرض غير قادرة على التقاط أنفاسها. وقبل أن ترفع رأسها لتعرف ما يدور تلقّى الشاب ضربتين في صدره في اللحظة ذاتها، انثنى. كانت تلك هي اللحظة المناسبة للجنديين، أمسكا به، وبسرعة قطعا الخطوات القليلة نحو النافذة، أشرعها جندي ثالث، وألقيا الشاب عبرها إلى الطريق.

حلّق جسده في الهواء، اصطدم بالأرض مُطلِقًا صوت تهشّم مخيف، سمعه شاؤول بوضوح.

لم تكن العائلة بحاجة إلى من يُلقي بها خارج الشقة، انطلق شقيقا الشاب وشقيقته يركضون نحو الشارع، والأب يحاول مساعدة امرأته على النهوض.

* * *

كان الموقع العالي يتيح للمجموعة أن تقتل عن بعد من تشاء، وبراحة تامة.

في السادسة مساء، كانت المنطقة المحيطة بالبناية هادئة. تقدّم شابان من بعيد نحو البناية، لم يعرفا ما يدور، تعالت من بعيد صرخات تحذِّرهما، لم يسمعاها. كان شاؤول يراقبهما مُنقِّلا منظار بندقيته بين رأسيهما، غير قادر على أن يحسم من سيختار. فاجأه حينما راحا يتّجهان نحوه مباشرة، وضع بندقيته جانبًا، بحث حوله عن شيء لا يعرف ما هو، وجده. اقتربت خطوات الشابين أكثر. أمسك شاؤول بطوبة كانت على السطح، رفعها، وسار بهدوء إلى أن وصل الحافة، كان على ثقة من أنه سيصيب أحدهما مهما أخطأ. أسقطها. رفع رأسه إلى السماء مغمضًا عينيه، منصتًا بكل ما فيه من حواس لصوت الطوبة وهي تهوي. لحظات، سمع صوت ارتطامها. فتح عينيه، أنزل رأسه، التفت إلى جنوده، كانوا صامتين.

- لا تقولوا لي إنني لم أُصبْه.

- بل قتلته.

التفتَ شاؤول إلى الشارع من فوق حافة السطح، رأى بقعة دم تتّسع وتتّسع، ورأى الشاب الآخر مسمّرًا بجانب الجثة. أيقن شاؤول أن فرصة ذهبية أخرى تتاح له، اندفع باتجاه طوبة أخرى،

رفعها وعاد مسرعًا إلى حافة السطح. كان الشاب الذي شلّته المفاجأة لم يزل واقفًا مكانه. رفع شاؤول الطوبة، صوّب، وفي اللحظة الأخيرة قرّر أن من الأفضل له الاكتفاء بواحد.[24]

قيامة

بينما كانت الكنائس تقرع أجراسها ويتعالي التّكبير من المآذن، لدعوة الناس للاشتراك في جنازة سيمون، مرت طائرة مروحيّة في السماء، حوّمت. تمنّى شاؤول أن يكون الكابتن داود غيّر رأيه وطلب التحاق بيكر بالقوات الموجودة في ضواحي بيت لحم. كان شاؤول على ثقة أن (الجبهة الجنوبية) تحتاج لطيارين مهَرَة، ذوي خبرة، لأن البساتين والكروم الموجودة في بيت لحم، أيضا، تُشكل أفضل مخابئ لرماة الحجارة، كما أن تحوّل شوارع وأزقة بيت ساحور إلى غابة بشرية، مع اندفاع الناس من مدينة بيت لحم والبلدات والقرى المجاورة للمشاركة في الجنازة، جعله يحسّ أن تلك هي أفضل لحظة للتخلّص من الجميع والاستراحة بعد ذلك إلى الأبد.

رفع شاؤول يده، لوَّح للطيار الذي اقترب كثيرًا من سطح البناية، وعاد وارتفع بحركة شبه بهلوانية. ارتفعت الطائرة، قامت بنصف دورة، عادت. أشار شاؤول إلى الجموع المتدفّقة، ثم أشار إلى عنقه ومرَّر راحته المنبسطة عليه كسكين داعيًا الطيّار لقتْلهم.

عادت الطائرة وارتفعت من جديد.

* * *

قتْل سيمون بطوبة، حوّله الجيش إلى حادثة قضاء وقدر، أما إلقاء الشاب الآخر من النافذة فكان التلاعب بها أسهل: حين اقتحم جنودنا البيت اعتقد الشاب أننا قادمون لإلقاء القبض عليه، فقفز من النافذة.

بعد ذلك تصرّف شاؤول بطريقة مغايرة توحي بتأثره الشديد بما حدث؛ أتاح للناس فرصة الوصول إلى جثة سيمون، كما كان فعلَ مع الشاب الآخر الملقى من النافذة، الشاب الذي تبيّن فيما

بعد أنه أصيب بشلل تام.

* * *

راقب شاؤول تدفق الناس من كل مكان. انتابه الخوف حينما ابتلعت أصوات المتظاهرين صوت الطائرة المروحيّة. راقب الطائرة تختفي، أدرك أنه تحوّل ومجموعته إلى فريسة سهلة؛ كل الذخيرة التي بحوزتهم لم تكن كافية لقتل هؤلاء الذين لو قرروا التقدّم نحو البناية التي يتحصّن مع جنوده فيها، لاقتلعوا البناية كلها كطوفان.

لم يحدث ذلك، لم يكن تصعيد المواجهات مع الجنود قد وصل بعد إلى التفكير في قتْلهم. لكن الأخبار التي وصلته كانت تتحدث عن قيام شباب المدينة بإغلاق عدد من شوارعها: (الطريق الغربي باتجاه شارع الخليفات في بيت لحم. الطريق المؤدي إلى وسط البلد بجانب الفرن، حتى منعطف الملوي، في المنطقة المسماة تل الزعتر، وكذلك الطرق الفرعية التي يستخدمها الجيش في مداهمة تجمّعات الشباب).

شاؤول لن ينسى كيف حاصر المتظاهرون جنديا في المدينة قبل أسابيع، واضطرّ إلى تسليم سلاحه، لكن بعض نساء المدينة جئن ورجون الملثمين أن يطلقوا سراحه، وهذا ما حدث. لكن شاؤول لم يكن مطمئنًا في ذلك الضحى، فالأعداد كبيرة ودم القتيل أسفل البناية لم يجفّ، وجثته لم تصل القبر.

اتصل بالقيادة، أخبرها بخطورة الوضع.

تواصل تدفّقُ الناس. تصاعدت الهتافات أكثر، داخل الكنيسة وخارجها، وبدأت عربات الجيش بالظهور من أكثر من جهة.

خرج جثمان سيمون من باب الكنيسة مُلتفًّا بالعلم الفلسطيني، وفي آذان الناس تتردّد جملة الخوري التي اختتم بها صلاته: انتقلتَ إلى ملكوت السماء، حيث لا ألم ولا هموم ولا احتلال.

تصاعدت الهتافات أعلى وأعلى، وهادرة تقدّمت الجنازة نحو المقبرة.

استطاع حنّا، صديق سيمون، الذي استرجع نفسه من الصدمة، أن يغسلها بالغضب، وهو يردّد تلك الشعارات، مرفوعًا على كتفَي أحد الشباب الملثمين، الشعارات التي طالما ردّدها صديقه

سيمون في المظاهرات:

شعبي البطل ما بيلين

لشمير ولرابين

سكِّر شارع واهدم دور

ما راح تهزمْ بيت ساحور

سبِّلْ عينك يا سيمون

شعبك كلهّ بيهتف هون

كان ظهور الجنود كفيلًا بتحويل الجنازة إلى مظاهرة؛ بدأ الناس برجمهم بالحجارة، بكل ما تصل إليه أيديهم. لحظات خاطفة، وتحوّلت المنطقة إلى سحابة هائلة من الغاز المسيل للدّموع وسط إطلاق شديد للنيران.

شاؤول الذي كان يراقب المشهد، أصبح على يقين من أن تلك هي أفضل لحظة له ولجنوده كي يتركوا سطح العمارة وينضمّوا لقوات الجيش التي تعمل في الميدان.

بسرعة هبطوا الأدراج، كان الشارع المجاور للعمارة خاليًا، كأن هناك منْع تجوال خاص صدر بشأنه.

وسط إطلاق النار كان شاؤول يتقدّم، بينما ذاكرته تستعيد مشاهد عاشها في حرب فيتنام.

كان يطلق الرّصاص على كلّ من أمامه، القتلى يتكاثرون حوله، صغارًا وكبارًا، والدّم يتناثر فوق الجدران، وأطلّت فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، ربما، من شباك على يمينه، أطلق عليها النار، وأسقط قنبلة داخل البيت عبر النافذة، سمع الانفجار، ورأى يدًا صغيرة تطير، تمرّ من أمامه وترتطم بنافذة مُغلقة لأحد البيوت على يساره؛ وواصل تقدّمه، إلى أن وجد نفسه بين جنود آخرين يطلقون النار.

التفتَ خلفه، كان كل شيء هادئًا، كاللحظة التي غادر فيها البناية.

عند ذلك بدأ بإطلاق النيران.

لم تكن مسيرة الناس تتبعثر، حتى مع كل تلك القوة المستخدمة لوقف تقدّمهم، فبدأ الجنود بالتراجع، كلّ إلى الجهة التي جاء منها. ومن جديد ظهرت طائرة مروحيّة بلا صوت، كان شاؤول على وشك أن يشير للطيار بأن يبدأ القصف، لكنه شعر بأنه سيتحوّل إلى طرفة، فمن ذلك الطيار الذي يستطيع أن يرى يدًا ملوِّحة له بين تلك الجموع، وسط ذلك الدّخان.

ابتعدت الطائرة من جديد، عادت، لكنها لم تكن تحلّق على ارتفاع منخفض.

* * *

بمجرد أن انتهى دفن سيمون، أصدر الكابتن داود أمرًا بحظر التجوال لمدة يومين.

كسره الناس.

كانوا على استعداد لأن يموتوا.

ولم يكن قادرًا على تفجير الوضع مرّتين، بقتل آخرين، في أقلّ من أربع وعشرين ساعة.

* * *

الصاعقة التي سقطت على رأس الكابتن داود كانت في ظهور العميل نبيل حيًّا! حاملًا العلم الفلسطيني في واحدة من تلك المظاهرات. أخرج صور عمليّة إعدامه، كانت واضحة إلى درجة لا تصدّق.

- كيف بُعث من جديد حاملا العلَم؟!

* * *

كان زيدان، ومن معه يعرفون أن قتل نبيل سيكون سببًا لكثير من المشكلات في المدينة، فمقتله يعني إلحاق العار بعائلته الصغيرة، وأقاربه، ويجعلهم يثورون تلقائيًّا، ضد قيادة الانتفاضة في المدينة، وهذا آخر ما يحتاجونه في ذلك الوقت. وقد تؤدي الشائعات إلى إلصاق التّهمة بواحد أو أكثر من شباب المدينة، ما يؤدي إلى عمليات ثأر. أخبروا نبيل بأنهم سيقتلونه، لأن ذلك أمرٌ لا بدّ

منه لردع العملاء، ارتعب. أخبروه أنهم سيمثّلون عملية القتل، حرصًا منهم على وحدة الناس، ومقابل ذلك عليه أن يتوارى، ولكن، قبل أن يفعل، عليه أن يخبر والده فقط، أنه بخير، لأنهم سيتركون لأسرته حرية اتخاذ القرار الذي يريدون بشأنه.

وافق، كان يعرف أن عليه أن يوافق.

واختفى.

حين أستشهد سيمون، فكروا بالسماح له بالظهور في مسيرة الجنازة، لكنهم تراجعوا عن ذلك، ففي اشتراكه تكريم لا يستحقه:

- سنؤجل ظهوره إلى وقت آخر.

المظاهرات التي تواصلت بعد الجنازة، كانت أفضل مناسبة لعودته إلى الحياة من جديد.

كان نبيل يعرف، أنه بمجرد ظهوره ثانية، سيغدو هدفًا للإدارة العسكرية، والكابتن داود بشكل خاص، إلا أن الناس ستعرف أنه يعتذر على ما فعله، وأنه مُنِح الفرصة، للعودة، بعد إعلانه لتوبته.

بعد المظاهرة، اختفي نبيل من جديد، ولم يره أحد بعد ذلك، لأن السؤال الذي كان يؤرقه: حين يجلس شباب المدينة وفتياتها، كبارها وصغارها، يتحدّثون عن ذكرياتهم أيام الحصار، ما الذي يمكن أن يقوله؟

صورة

كل الناس عادوا بعد الجنازة إلى بيوتهم، لكن فاتن لم تعد، كانت تحسّ أنها مُعلّقة في سماء جافة يابسة، لا تعبرها غيوم، ولم تعرف الهواء من قبل، مُعلّقة في تلك المسافة الفاصلة بين عتبة البيت وعتبة بوابة المقبرة.

لم تفقد الأمل بعودة جورج. في الجنازة كانت تبحث عن وجه واحد بين الوجوه: وجهه.

- إن كان في بيت ساحور فسيأتي، سيأتي لا بدّ حتى لو كان مُطاردًا.

ولم تره، آلاف الوجوه، ولكن الوجه الوحيد الذي تريد أن تراه لم يكن هناك.

لن تنسى تلك اللحظة التي اقتادوه فيها من ساحة البلدية إلى صندوق العربة العسكرية، لن تنسى كيف ارتجف قلبها، ولولا خوفها من أن تفضح سرًّا في داخلها، لم تستطع هي معرفته، حتى تلك اللحظة، لنهضت وركضت خلف العربة وصاحت بهم: إنه خطيبي، زوجي، حبيبي، وتمسَّكتْ به.

انشغلت فاتن لأيام بتلك الكلمة التي كان يمكن أن تناديه بها، لتعرف من هو تمامًا بالنسبة لها، ذلك الشاب الذي أتى من آخر الدنيا ليخطب بنتًا من بنات مدينته، وعندما رآها، ورفضتْه، أوقف بحثه، ونسي بعد ذلك المهمّة التي كان قادمًا من أجلها.

وجودها، بعد الجنازة، في المكان الذي جلست فيه بجانب جورج آخر مرة، في ساحة البلدية، حيّر الكثيرين؛ بعضهم قال إنها تعبت، وتستريح، ولكن ظهورها بدأ يتكرّر في المكان نفسه: لقد

قررت أن تقوم بإضراب، وحدها، لسبب لا يعرفه أحد. إنها تحتجّ، ولا تريد أن تفسر للناس شيئا! ثمّ على أي شيء يمكن أن تحتج غير الاحتلال؟

أخبرتها أمّها بما يفكّر فيه الناس، ولأول أمرة أحست أنها مثل جورج الذي قام بمظاهرة وحده، وسمعت نفسها تكلّمه، لم تكن تتذكر:

- أولا، أحبّ أن أقول لكَ إنهم أخبروني أنكَ هتفت ضد شارون. كان عليك أن تهتف ضد رابين لأنه هو وزير الدفاع، وليس شارون ؟

- أولا أحب أن أقول لك: كلّهم شارون.

* * *

حين قرّرت عمّة جورج أن تذهب إلى مقرّ الحاكم العسكري مستغلة الساعات الثلاث التي رُفِع فيها حظر التجوال في ذلك اليوم، قالت لها فاتن: سأذهب معك.

لم تعترض العمة، فرحت، همست لنفسها:

- لقد قبلتْ أن يخطبها أخيرًا.

- من هي؟ سألتْها فاتن.

واكتشفت العمة أنها كانت تتحدّث بصوت مرتفع، وأن فاتن سمعتْها.

أعادت فاتن سؤالها:

- من هي؟

- أنتِ، أليس كذلك؟

هزّت فاتن رأسها بأسى:

- ولكن ألا تعتقدين أنني تأخرتُ في القبول؟

- لا أنت لم تتأخّري، ستكون هذه أفضل مفاجأة له عند عودته.

* * *

لم تكن هناك سوى الإجابة القديمة التي سمعوها من المحامي الذي كلّفوه بالبحث عن جورج.

- عندما أطلقْنا سراح إسكندر، أطلقنا سراح جورج، بل وسمحنا له بالعودة إلى أمريكا.

لم تعد فاتن والعمة إلى بيت ساحور مباشرة، قررتا أن تحسما الأمر أثناء وجودهما في بيت لحم؛ إذا عادتا، قد لا تجدان فرصة أخرى لزمن طويل، في الوصول إلى هاتف، ما دامت الاتصالات مقطوعة عن بيت ساحور، كجزء من الحصار.

العمّة التي قررت أن تحسم الأمر وتتّصل، أخرجت رقم الهاتف وناولته لابنتها ما أن أصبحتا في بيتها.

خفق قلب فاتن، كانت خائفة أن تصرخ ابنة العمّة، الممسكة بسماعة الهاتف، بفرح: الحمد لله على سلامتك، كيف وصلت إلى هناك؟

واستغربت فاتن لماذا كانت تخشى أن يكون نجا، وعاد إلى أهله!

- ليس لديكم أيّ أخبار عنه؟

- ......

- السفارة الأمريكية هنا وفي عمّان تتابعان أخباره بلا نتيجة؟!

- ......

* * *

عادتا إلى بيت ساحور منهكَتين. توقّعت العمّة أن تعود فاتن إلى بيتها، لكنها دخلت البيت معها.

- أظن أن أهلكِ سيقلقون عليك إن لم تعودي.

- إنهم يعرفون أنني هنا. لا تخافي.

جلستا صامتتين، بينهما وجهٌ واحد يظهر ويختفي.

- هل لديك صورة لجورج؟

- لديّ الصورة التي أرسلها من أمريكا قبل أن يأتي، وأحضرتها معي حين جئنا لخطبتك.

- لكنني لم أرها.

- ماذا؟!

- لم أرها، لم أكن أريد زواجًا من هذا النوع، هل يمكن أن أراها؟

فوجئت فاتن بتلك الابتسامة الأقرب إلى ضحكةٍ من القلب، ابتسامته، وكل تلك الحياة التي تملأ ملامحه.

أطرَقتْ طويلا، مُغلِقة عينيها، رفعتْ رأسها، قالت لعمته:

- أظن أنني لو رأيت الصورة يومها لقبلتُ به، لكنني لم أرها، كيف لم أرها؟! ونظرتْ إلى العمّة، وأضافت: سأذهب إلى بيتنا.

- على راحتك.

- لكنني أريد أن آخذ الصورة معي.

- خذيها.

* * *

ما لم تعرفه فاتن، ذلك الحزن الذي خلّفه استشهاد جورج في زيدان. في كل مرّة قابلته، كان يتيبس للحظات، غير قادر على الحركة. أصبحت تخاف عليه من خطر، ما، لا تراه، وتفتش في داخلها عن ذلك الشيء الذي لا يراه إلّا هو، حين يراها.

أم زيدان، ماري، كان قلقها يتصاعد ويكبر كلّ يوم، أكثر وأكثر، منذ استشهاد ميس. باحت لإسكندر بكل مخاوفها:

- أحيانا أسمع ميس تناديه! أخشى أن يسمعها ويذهب إليها. هل تعتقد أن علينا أن نزوجه، فقد ينساها، ويتخلّى عن الأفكار التي في رأسي، الأفكار التي لا بدّ أنها تدور في رأسه.

- لن تحلّ الأمور هكذا يا ماري، فالإنسان لا يتخلى عن الأفكار التي تربطه بإنسان، لمجرد أن الثاني مات، وإلا لتخلّينا عن كل المبادئ التي زرعها أصحابها فينا لأنهم ماتوا، ولكنّا تخلّينا عن الأديان بعد موت الأنبياء.

- لكنني لا أتحدّث عن الدِّين، ردّت ماري.

- ومن قال إن الحب أقلّ مرتبة من الدِّين، إذا كان هنالك دين يعتقد أنه يصبح أقوى إذا انتصر على الحب، فإنه سيخسر الكثير من جوهره، إن لم يخسر جوهره كلّه.

- وما الذي عليّ أن أفعله؟

- لا شيء يا ماري، دعيه يكمل قصة حبه بالطريقة التي يريدها. كوني إليه أقرب، ولا تقفي في وجه حبّ مجروح، لم تقفي في وجهه حين كان ممتلئًا بالحياة.

كل الأشياء المؤلمة!

تأمّلها شاؤول، تأمّلها كثيرًا، كانت أجمل امرأة يراها في حياته، بندقيته تحوّلت إلى يد ثالثة متهدّلة، لفرط الدهشة؛ لم يدر ما الذي يمكن أن يفعله، بعد أن أعطى الأمر بسحق كميات هائلة من الفواكه والخضروات، أحضرتْها هي، ومن معها، في شاحنة كبيرة.

لم يرها في البداية، رأى حمولة العربة التي جاء بها متطوّعون كمساعدات لبيت ساحور. أمرهم بإنزال كلّ ما في الصندوق. حتى تلك الحبات التي تناثرت من البندورة والخيار والكوسا، أمرهم بأن يلقوا بها أرضًا، موجّهًا سلاحه نحوهم. نفّذوا ما طلبه، أعطى الأمر لسائق الشاحنة بالرجوع إلى الخلف وسحق الحمولة. رفض السائق. وفجأة تقدّمت هي، لم يعرف من أين بزغت، انتابه شعور بأن وجود هذا الجمال في بيت ساحور، حتى وإن دخلها بيدين فارغتين، هو أكبر دعم للمدينة!

أنزل الجنود السائقَ، ضربوه. طلبوا من رجل آخر أن يصعد، ادّعى أنه لا يستطيع قيادة شاحنة كبيرة مثلها. صعد جندي، أرجع الشاحنة إلى الخلف، سحق كومة كبيرة، وعندما أصبحت الحمولة أمامه، تقدّم بالشاحنة، تراجع، استدار، توقّف. انشغل الجنود بسحق الحبّات التي نجت ببساطيرهم، وظلّ شاؤول يحدّق إلى تلك الفتاة الجميلة، ذات الشعر الكستنائي التي يتدلّى فوق صدرها صليب ذهبي متقاطع مع هلال، موحِّدة الدِّينَين بصورة لا يستطيع معها أن يعرف مسيحية هي أم مسلمة.

صرخت في وجه شاؤول. كان ينظر إليها، وكانت تسحقه، كما سحقت الشاحنة حمولتها. لم يكن يسمع صوتها، كان يراها، مُشرعًا فمه، مُحاولًا استرداد سمْعه الذي فقده؛ استعاده، كان صوتها عذبًا، أدهشه أنه انشغل بجمالها غافلا عن صوتها. رفع البندقية، وأطلق كل ما في مخزنها من

رصاص في صدرها، سقطتْ، وسط ذهول الجميع، من معها، وكذلك الجنود، إذ لم تكن تشكلّ أيّ خطر عليه.

ذخّر بندقتيه من جديد، ووجَّهها نحو عدد ممن تقدّموا لإنقاذها. واصلوا تقدّمهم، أطلق رشقة رصاص في الهواء. توقّفوا، عاد لتأمُّلِها من جديد، كانت لم تزل جميلة حتى وهي ميتة.

عمّ الصمت.

كان لا بدّ من أن يحدث شيء، أشار جندي لمن جاؤوا معها أن يحملوها، عندما رأى شاؤول، رئيسه، غائبًا عن كلّ ما يدور.

تقدّموا، وجّه شاؤول بندقيته نحوهم، توقّفوا، حرَّكها كما لو أنه يطلق الرّصاص عليهم، عاد وأنزلها. استدار بوجهه بعيدًا عن جثة الفتاة.

حملوها، وضعوها في صندوق الشاحنة، سمع الشاحنة تبتعد.

* * *

- لماذا قتلتَها؟ لم تكن تشكِّل خطرًا، لا عليك، ولا على أيّ واحد منا.

- كانت جميلة، جميلة أكثر مما يجب.

- تقتلها لأنها جميلة أكثر مما يجب؟!

- بل لأنني في ظلّ هذا المكان، الخراء، ليس هناك مجال لأن أحصل عليها. لو تركتُها، لكنتُ أوصلتُها بنفسي ووضعتُها بين ذراعَي واحد ممن يرجموننا بالحجارة والمولوتوف، ليستمتع بجمالها.

- علينا أن نكتب تقريرًا بما حدث، قال أحد الجنود.

- اطمئنوا، سأكتبه بنفسي.

* * *

في ظهيرة ذلك اليوم، الثلاثاء، وقبل أن يخطّ شاؤول أيّ حرف من ذلك التقرير، تلقّى اتصالا من الكابتن داود:

ـ عرفتُ بما حدث عند الحاجز صباح اليوم، لقد فعلتَ ما يجب عليك أن تفعله، كي لا يفكروا ثانية بتقديم أيّ نوع من المساعدات للمدينة. شيء واحد أريده منك الآن.

ـ أنا وجنودي جاهزون.

ـ أريد أن تقوم بحملة مُصادرة من نوع آخر، يبدو أن مصادَرَة سيارة هنا، أو ثلاجة أو جهاز تلفزيون هناك، ليست من المسائل المؤلمة لهم.

ـ هل ببالك أشياء محدّدة يمكن أن نصادرها، الآن؟

ـ كل ما يؤلمهم، يصيب ذاكرتهم، يسحق قلبهم، فهمتَني؟ كل تلك الأشياء الصغيرة التي تعني لهم الكثير. أريدك أن تكون فنانا في المصادرة، وعندما تنتهي أحضر كلّ ما صادرته إلى مكتبي.

ـ فهمتُ، أكّد شاؤول، وهو يفكر في سلسلة من الأشياء التي عليه مصادرتها.

* * *

اندفعت مجموعة منغلة، معززة بعشرين جنديا إضافيًّا في طرقات المدينة، من معسكرهم في شارع اسطيح صعودًا، وخلفهم تسير عربة مصفحة برشاش ثقيل.

بعد مائتي خطوة وجدوا أنفسهم مع امرأة في الستين من عمرها، لم تكن سوى عمّة جورج، وبرفقتها كانت فاتن، رأى شاؤول ذلك الصليب الذهبي المعلّق في صدْرها قبل أن يراها، تقدّم نحوها.

ـ لماذا تنظرين إلينا عابسة؟

ـ وهل على الناس أن يبتسموا لجيوش الاحتلال؟ ردّت العمّة.

انتزع الصليب من صدرها، صرخت في وجهه، وتقدّمت لتستعيد حِلْيتها، رأى قرطيها اللامعين. هاجمته فاتن، ضربها، سقطتْ أرضًا، رفعت رأسها بصعوبة، رأت الجندي ينقضّ بسرعة

خاطفة على أُذن العمة اليسرى. انتزع القرط الأول، نفر دم على كتفها الأيسر، من حلمة أذُنها، صرخت، وضعت يدها على أذنها محاولة وقف الألم، أحسّتْ بلزوجة الدّم، في تلك اللحظة انتزع جندي القرط الآخر من أذنها الأخرى، وضعت يدها اليمنى على أذنها اليمنى، لم يكن هناك قرط، كان هناك الدم وحده. اندفعت العمّة هائجة نحو شاؤول، ضربها ببسطاره، سقطت بجانب فاتن.

في تلك اللحظة الغامضة، تلوّت فاتن، تكوّرت، وقبل أن ينتبه الجنود، انتزعتْ الخاتم، خاتم جورج وابتلعتْه.

أعطى شاؤول الأمر بمواصلة العمل.

أمسك جنديان بفاتن، رفعاها، تحسسّ أحدهما أذنيها، أزاح القميص عن عنقها، لم ير شيئا. لمعت ساعتها، انتزعها من يدها. دفعها فسقطت مرّة أخرى.

* * *

أمام مستوصف دير اللاتين، رأى الجنود ذلك الرّجل يخرج من بوابة المستوصف، فوجئ بهم، قرّر التراجع، عشر بنادق صُوِّبت إليه. توقّف. بنظرة سريعة استطاع شاؤول أن يحدِّد أهدافه: خاتم زواج، ساعة. أشار إليه أن يناوله إياهما. لم يفهم الرجل. بمخزن الرصاص نقر شاؤول على إصبعه هو، ثم على رسغه. فهِم الرجل ما يريده شاؤول، لكنه لم يستوعب كيف يمكن للجيش أن يُصادر خاتم زواج. بسرعة مرت في رأسه لحظة نقْله الخاتم من خنصر يد خطيبته الأيسر إلى خنصر يدها الأيمن، معلنا للجميع أنها أصبحت زوجته، وسط غناء النساء. سحب يده إلى الخلف وأخفاها وراء ظهره. ارتفعت بندقية شاؤول، فهِم الرجل التهديد، ظهرتْ يده من جديد، خلع الساعة، امتدت يده اليسرى لأحد الجنود بها، ابتسم شاؤول، وأشار بفوهة البندقية إلى خاتم الزواج. أخذ الرجل نفسًا عميقًا، نظر إلى السماء، سمع أصواتا خلفه. كان عدد ممن في المستوصف قد خرجوا يستطلعون الأمر. التقت عينا الرجل صاحب خاتم الزواج بعيني الطبيب، أشار له الطبيب أن يعطيهم ما يطلبونه.

حتى تلك اللحظة، كان كل من أصبحوا خارج المستوصف يظنون أن ذلك الرجل وحده هو المقصود. حاول الرجل أن يخلع خاتمه، لم يستطع، إذ لم يسبق له أن خلعه منذ يوم زواجه. نظر

الرجل إلى شاؤول تلك النظرة التي تقول إنه لا يستطيع، فأشار له شاؤول بفوهة البندقية، قائلا: سأقطعه.

دخل الطبيب، وعاد ممسكًا بقارورة صغيرة، ووسط صمت الجميع، كان يبذل جهدًا غير عادي، كأنه يجري عملية جراحية. انتزع الخاتم، ووضعه وسط الراحة اليمنى لصاحبه. قبض الرجل على الخاتم بقوة. أدرك الطبيب ما يدور، فتح يد الرجل، أمسك بالخاتم، وناوله للجندي المكلّف بجمْع الأشياء المصادرة.

أشار شاؤول للرجل أن يتراجع، فتراجع الجميع معه، عند ذلك أطلق رصاصة في السماء:

- قلتُ هو، لا أنتم.

تجمّدوا في أماكنهم، وبدوا مُربكين كما لو أنهم استيقظوا فجأة في السوق فوجدوا أنفسهم عراة.

دار الجندي عليهم، رجالا ونساء، يجمع كل ما يحملونه من أشياء ثمينة، مجبرًا إياهم على إخراج ما في جيوبهم، وترْك بطانتها في الخارج.

.. وتكرر مشهد خاتم الزواج، الخطبة، ثلاث مرات، وتدخّل الطبيب وساعد أصحابها على انتزاعها، لكن أحد الرجال لم يستطع انتزاع خاتمه حتى بمساعدة الطبيب. تقدم شاؤول نحوه، اخرج خنجره بسرعة، أمسك بيد الرجل، تاركًا بنصر يده اليمنى مشرعًا، وبضربة سريعة أطار إصبعه. طار الخاتم والإصبع في الهواء مُضرّجين بالدم، قبل أن يسقطا على الأرض. امتدّت قدم الجندي المكلف بجمْع الأشياء المصادرة، لا يده، هذه المرّة، فرك ببسطاره الخاتم بالأرض لينظفه من بقايا الدم، رفع رجْلَه، كان الخاتم يلمع، انحنى وتناوله.

كانت أمنيةُ شاؤول الوحيدة في تلك اللحظات، أن يقتلهم جميعًا. كانوا قتلى مثاليين حتى قبل أن يُطلق النار عليهم. سار عدة خطوات نحو الطبيب، هزّهم خوف بأنه سيقتله، امتدّت يد شاؤول اليمنى إلى الطبيب، فتأكدوا أن دمه سيكون الدّرس الذي سيلقنهم إياه ذلك الضابط، لكن شاؤول انتزع السماعة الطبية المتدليّة من رقبة الطبيب، وناولها لجندي خلْفه.

* * *

في أحد البيوت التي دخلها، كانت المرأة تصرخ محتجّة على سرقة مصاغها، قبل أن ينهال عليها آرون الذي أحب عزف مرتا، بعقب بندقيته، وكلما تزايد صراخها تزايد ضرْبه لها. سقطت على الأرض وما زال الصغير يبكي، انحنى آرون نحو الصبي، ابن الثالثة، محاولا تهدئته، لم يهدأ فحمله، مهدهدًا له، ومردّدا: لا تخف، لا تخف.

- ما الذي تفعله؟! أنزِلْه قبل أن أطلق النار عليه وهو بين يديك، صرخ شاؤول.

وفهم آرون غضب قائده؛ أنزل الصبي، لكن يده ظلّت على رأسه تحاول تهدئته!

شاؤول لم يصادر كل تلك الأشياء الثمينة فقط، صادر كل مال وقعت عليه يده، سواء وجده في جيب الشخص الذي يفتّشه، أو في أدراج البيوت؛ لكنه لم يعلن عن ذلك، اعتبر المال مكافأة لجنوده وتشجيعًا لهم.

* * *

لم يكن هنالك أحد أفضل من شاؤول يمكن أن يقوم بمهمة كتلك، هذا ما توصّل إليه الكابتن داود وهو يقوم بفرز الأشياء التي تمت مصادرتها: الأساور، الصّلبان الذهبيّة، الكؤوس النحاسية، تماثيل المسيح ومريم العذراء، المصاحف الفضية والذهبية، القلوب الذهبية، ساعات اليد، ساعات حائط فاخرة، لفظ الجلالة، اللوحات، الفضيات، أسماء العشاق التي حُفرت في الذهب والفضة، الصور العائلية القديمة، الجواهر، سِنَّين ذهبيين، رآهما شاؤول في فم رجل، قال إنه لا يملك أي شيء، فوجّه إليه ضربة بعقب بندقيته جعلت خمسة أسنان من فمه تتطاير، من بينها السنّان اللذان لمعا وهما يطيران في الهواء، قبل أن يسقطا والدم يغطيهما والتراب.

- لقد صادروا كل شيء يا ناحوم، جاء صوت ياكوف، جدّه، شمعداناتنا، صورنا، نجماتنا، القلائد، والأقراط، حتى أسناننا الذهبية صادروها يا ناحوم، هنالك في برلين، هل تتخيل؟

وسمع ناحوم صوته القديم يسأل بحرقة:

- حتى أسناننا الذهبية؟

- حتى أسناننا الذهبية.

- كيف خطرت لك فكرة مصادرة الأسنان الذهبية يا شاؤول؟

- منك سيدي، ألم تقل لي إن عليك مصادرة كل ما يؤلمهم؟ وضحك، لكن ناحوم، الشهير بالكابتن داود، لم يضحك.

- وهل تعتقد أنك آلمتهم جيدًا؟

- آلمتهم إلى ذلك الحدّ الذي سيدفعهم لأن يفكّروا ألف مرة قبل أن يجرؤوا على أن يَغضَبوا، ردَّ شاؤول.

ليلة الحليب!

تزايدت طلعات الطائرات المروحيّة في السماء، ليلا، نهارًا، عادت الأصوات المزعجة التي تطلقها مكبرات الصوت تهدر من جديد، ولكنها كانت قادمة من السماء.

لم يعرف شاؤول إن كان الطيارون يُقلِّدون فيلم (القيامة الآن)، أم يستعيدون خبرات مارسوها في غابات فيتنام قبل أقلّ من عقدين من الزمان؟

التطوّر الوحيد تمثل في غياب أي موسيقى كلاسيكية مثل تلك التي بثتها طائرات الكولونيل بيل كليغور في الفيلم. كانت الموسيقى التي تبثها الطائرات في سماء بيت ساحور، من منتصف الليل حتى الصباح، أشبه ما تكون بقنابل فراغية، تتضاعف قوّتها بامتزاجها مع أصوات حيوانات، وطيور، يستطيع شاؤول القول إنه لم يسمع بعضها من قبل.

ذلك كان مزعجًا للجنود أيضًا. الكابتن داود عرف ذلك. في النقاش الذي دار في الجلسة المخصّصة لإطارة النوم من أعين أهالي المدينة، قيل له: نحن نحرم جنودنا من النوم أيضًا.

بهدوء أجاب: وهذا ما أريده، أريدهم غاضبين أكثر على المدينة التي كانت السبب في إجبارنا على القيام بعمل كهذا. أريدهم حين يذهبون إلى المدينة أن يذهبوا لإسكات تلك الأصوات التي حرمتْهم النومَ، الأصوات التي لم تزل تدوّي في رؤوسهم؛ سيجعلهم هذا يعملون بصورة أفضل.

كل الأوامر التي كانت تصل الكابتن داود، حملت هدفًا واحدًا لا غير: عليك القضاء على مشكلتنا مع بيت ساحور بأسرع وقت ممكن، بأي وسيلة.

* * *

تكاثرت دوريات الجيش حوْل المدينة، زُرعت الجهات بكمائن ثابتة، وأخرى مؤقتة، واجتاح الجنود الشوارع. كل حركة يحسّ بها الجنود كانت سببا لإطلاق عاصفة من الرصاص، وأيّ صوت كذلك.

في اليوم الثاني لمنع التجوال الجديد، قرر الكابتن داود أن ينزل إلى الشوارع بنفسه ليرى بعينيه ما يحدث على الأرض.

في الرابعة فجرًا تحرّكت عربته، تسبقها سيارة مجنزرة، وتتبعها أخرى.

في السماء كانت الطائرات المروحيّة تقصف المدينة بكل أنواع الأصوات المزعجة. للحظة فكّر أن يُصدر أمرًا لها بالتوقف؛ لم يحتمل ذلك الضجيج، كان قرار كهذا سيعطي انطباعًا سيئًا عنه، لجنوده الذين في الميدان.

توقّف موكبه كما كان مقرّرًا أمام مبنى البلدية، فكّر بقصفها، حرقها، لكنه تذكر أنه يحتاجها. حين تتقطّع كل الخيوط، سيكون هناك خيط واحد في يده، يوصله بالبلدية، لأنها الوحيدة التي يمكن أن توصله بالناس، كما حدث مع قضية الهويات، رغم الفشل الذي صاحبها.

الكابتن داود لم يحمّل البلدية مسؤولية الفشل، تصرّف بعقلانية: أطلق الطائرات في الجو، والجنود في الشوارع.

تصفّح الجهات، كانت العتمة ستارًا، لكنه، هو الذي يعرف المدينة أكثر من كل جنوده، قرّر السير، ترك بئر السِّيده خلفه، نحو الشوارع الداخلية للبلدة القديمة. بعد أقلِّ من أربعين خطوة، لاحظ شيئا ما، أبيض، أمام باب أحد البيوت. توقّف، لم تكن العتمة قادرة على إخفاء نصاعة ذلك اللون، لم يكن قد رأى الأبيض بهذه النصاعة من قبل.

خفق قلبه.

تقدّم جنديان بحذر، ببندقيتيهما الجاهزتين لإطلاق النار، وصلا الباب، ركل أحدهما ذلك البياض، انتشر على الأرض مغطيًا مساحةً واسعة من الشارع. صاح جندي:

- لا خطر، حليب!

خفق قلب الكابتن داود أكثر. إنهم يسخرون منّي. همس لنفسه، يسخرون منّي ببقراتهم، بحليبها.

بعد عشرين مترًا كانت هناك عبوة زجاجية أخرى، وما إن بدأ الشارع بالانحدار، ووصل الكابتن داود إلى تقاطع شارعين، حتى تحوّل الأمر إلى جحيم.

كانت العبوات أمام البيوت أشبه ما تكون بالشموع، مضيئة وساطعة.

لم يكن صعبًا عليه أن يصل إلى النتيجة التي اتّضحتْ: إنهم قادرون على إيصال الحليب لمن يحتاجه رغم كلّ الدّوريات التي تجوب الشوارع.

انطلق الجنود يحطّمون العبوات بركْلِها. بعضها كان يطير في الهواء قبل أن يرتطم بحائط أو درَج أو أرضيّة الشارع، قبل أن ينكسر، وفاحت رائحة الحليب، رائحة لا يكره الكابتن داود في الدنيا رائحةً مثلها، منذ أن حاصرته البقرات قبل 41 عامًا، في تلك الحظيرة.

أطلقت طائرة مروحيّة خوارًا جهنميًّا مُسجَّلا، فراح الكابتن داود يتلفّت حوله بسرعة. لم يكن ينقصه في تلك الساعة من آخر الليل، إلا أن تندفع قطعان من الأبقار عبر شوارع المدينة ساحقة كلّ ما في طريقها من جنود، وساحقةً جسده معهم.

* * *

إلى الجهة المطلّة على وادي أبو سعدى، كان خطط أن يصل، أن يسير حتى بيت جمال بنورة، ذلك الكاتب الذي حقّق معه، وأرسله مع كل الكُتب التي في رأسه إلى سجن النقب.

لم يكن هناك سوى عبوات الحليب على جانبيّ الشوارع، بحيث بدت الشوارع في عينيه مضيئة كمدرجات صالحة لهبوط الطائرات.

توقّف.

أعطى أمرًا بالعودة، مع انتهاء الشارع المعبَّد.

إحدى المجنزرات التي كانت تسير خلفهم، استدارت، حطمت سورًا، وسحقت عددًا من الأشجار، قبل أن تعود لمسارها.

بدأت الشمس تشرق.

* * *

سمع الكابتن داود الأصوات الصادرة عن الطائرة المروحيّة التي اقتربت كثيرًا منهم، فكّر في إطلاق النار على المروحيّة بنفسه!

عادت وارتفعت.

- هذه المدينة ستموت جوعًا في النهاية، هذا ما سيحدث.

التقارير التي وصلتْه عن حصار المدينة، كانت تؤكد أن الطعام لا يمكن أن يصلها بسهولة، لكن وجود الحليب، بتلك الكثافة، جعله يشكّ في كل شيء، حتى أنه لم يسمع صوت أي طفل يبكي، في وقت يستيقظ فيه معظم الأطفال جائعين عادة.

- هل تكون البقرات كلّها لم تزل في بيت ساحور؟ فكميات الحليب التي تمّ توزيعها يؤكد ذلك. همس لنفسه. أسوأ ما يمكن أن يحدث أن تكون البقرات كلّها هنا، ولكن أين؟ أين يمكن أن يتمّ إخفاء كل هذا العدد من الأبقار مع عجولها؟!

.. وأشرقت الشمس.

وابتعدت الطائرة.

كان باستطاعة الجنود أن يسمعوا الأصوات الهامسة للناس خلف النوافذ، في الساحات الداخلية لبيوتهم. على وشك مغادرة البلدة القديمة تماما، أصبح الجنود؛ سمعوا تلك الأصوات القادمة من السماء، الأصوات التي تشير إلى أن هناك حجارة تتّجه نحوهم.

قبل أن يتأكّدوا فعلا، تساقطت من السماء غيوم حمراء، ارتطمت بهم، تناثرت على ملابسهم. خافوا من أن تكون قنابل حارقة من نوع جديد تُرمى عليهم، لكن رائحة أخرى، يعرفونها فاحت في الأجواء.

إنها رائحة البندورة.

شحنة البندورة التي تمّ تهريبها للبلدة، قرّر الشباب أن لا تكون للأكل، هذه المرة، بل لإيصال الرسائل إلى الجيش المحاصِر: لدينا طعام يفيض عن حاجتنا!

* * *

ناولت أم رولا حبة بندورة لصغيرتها، كانت حبة شهية، حمراء كتفاحة، سال لعاب رولا، سألتها أمها: تحبين أن تأكليها أم ترميها على رؤوس الجنود؟

أخذت رولا نفسا، ثم ابتسمت.

- أهذا سؤال يوجَّه إلى رولا؟!

بحذر مضت إلى طرف الشرفة، وألقتها عليهم.

ازدادت سرعة الجنود، وهم يتوقّعون أن ما يحدث، ما هو إلا مقدمة تجريبية لما سيُلقى عليهم بعد ذلك. لكن الكابتن داود لم يُسرع.

فهم الرسالة.

تمنّى لو أن الحجارة تساقطت على جنوده، لأن ذلك أرحم.

* * *

في السادسة صباحًا من ذلك اليوم، ملأ الناس الشوارع. كان موعد انتهاء حظر التّجوال الليلي. خرجت كاترين، كانت تحبّ أن تبدأ مبكرة رحلتها اليومية لإنقاذ الشباب من ساحة البلدية، وصلتْها.

كان الجنود هناك، كثير من الجنود، ورأت الكابتن داود بينهم.

أمام باب البلدية، فوجئ الكابتن داود بذلك الملصق الكبير، لوجه، عرفه فورًا، وجه جورج، كانت ضحكته واسعة، حتى أن الفكرة الوحيدة التي خطرت للكابتن داود:

- كأنه لم يزل بعد على قيد الحياة!

أشار إلى الملصق طالبًا من الجنود أن يمزّقوه.

وبسرعة بدأوا يعملون.

راقبهم وهو يرى عينًا تختفي، عنقًا يُقطَع، جزءًا من الرأس يطير، أنفًا يُجدع، خدًا يتمزّق، ابتسامة تُسحق. رأتهم كاترين، فاندفعت صوبهم صارخة: إبني، ابني، محاولة أن تخلّصه من بين أيدي الجنود، دفعها جندي، سقطت أرضًا، وواصلوا تمزيق الصورة.

بجسدها المنهك، زحفت، وكلما وصلت إلى جزء من الصورة، طوتْه ووضعتْه في فتحة فستانها عند الصدر.

ابتعد الجنود هابطين الشارع شرقًا صوب كنيسة الروم الأرثوذكس، بعد عدة خطوات، فوجئ الكابتن داود ثانية بملصق أكبر لوجه جورج المبتسم أمامه.

أشهر مسدسه، أخذ نفسًا عميقًا، وسمع صوت موشيه، والده:

- ليس من الجيد أن يستخدم الإنسان كلام أعدائه، لأن في ذلك مديحا لهم. أتعرف يا ناحوم، إن أفضل كلام سمعته عن الصّور ذلك الذي قالته مصورة، لم تمنحنا السماء فرصَةَ قَتْلها، كان اسمها كريمة عبود[25]*، لن أنسى ما قالته في لقاء صحفي معها، قالت: إن أخطر ظلّ للإنسان هي صورته. ظلّ الإنسانُ يعمل على أن يجعل الظلّ أوضح إلى أن تمكّن من اختراع الكاميرا، ثم واصل طريقه وهو يعمل على تنقية الظلّ إلى أن أصبح أكثر وضوحًا من ملامحه! كان الظلّ أكبر معضلة للخيال الإنساني، إنه طيب، ورفيق، ويدل على وجود الإنسان، لكن ظلال الآخرين كانت غامضة ومخيفة، لذا كان عليه أن يقتل أصحابها ليتخلص من ظلالهم.*

هل فهمت يا ناحوم ما كانت تقصد تلك العربية: الظلّ مخيف، لكن الصورة مخيفة أكثر!

كان ناحوم يطلق النار على صورة جورج، وفي رأسه فكرة واحده: أن يواصل إطلاق الرصاص عليها حتى يعيدها ظلّا قتيلا ممزقًا كصاحبه.

آخر كلام!

كانت المعركة بين بيت ساحور والجيش تبحث عن نهاية لها، تصاعدَ جنون الجيش واتّسع، وتصلّب عناد الناس.

اجتاحت القوات الإسرائيلية المدينة، معززة بقوائم المكلَّفين بدفع الضرائب، وخطا مفتشو الضرائب عشر خطوات إلى الوراء، في انتظار نتيجة لم يستطيعوا، هم، الوصول إليها. القوّة وحدها كانت هناك. أغار الجيش، على البيوت، كما لو أنه ينفّذ سلسلة من العمليات القتالية في اللحظة ذاتها؛ اقتحامات شرسة، واعتقالات عنيفة، وانسحابات سريعة من شوارع المدينة وأزقّتها، تعقبها هجمات أخرى.

في مقرّ الحاكم العسكري، وفي معسكر الجيش أسفل المدينة، تمّ تجميع المئات من أصحاب المحلات التجارية وسواهم.

كان الجواب قاطعًا: رفض الدّفع.

اشتعلت الظهيرة أكثر، وبدأ استدعاء المعتقلين واحدًا واحدًا إلى الغرف الدّاخلية، للمساومة.

كان هناك إسكندر الذي استعاد عافيته بصورة فاجأت الكابتن داود نفسه، الكابتن داود الذي بدأ يشكّ في أن إطلاق النار عليه، ربما لن يكون مجديًا.

تذكّر تلك الجملة التي قالها له المحقق الذي كان مكلّفًا بتعذيب بشارة: لم يبقَ سوى أن نستخدم الطيران ضده.

تحسّس الكابتن داود تلك الرّصاصة في جيبه، وأوشك أن يجزم أن تمائم الحظ في هذه البلاد لا يمكن أن تعمل جيدًا، إلّا في اللحظة التي تُطلق فيها الرصاص مباشرة، ومن مسافة صفر، على من أمامك.

- نعرف أن توقّفَ سير الحياة في المدينة خلال الأشهر الماضية أدى إلى نتائج كثيرة، لم تتوقّعوها، ومع أنكم أنتم السبب في تدهور أحوالكم الاقتصادية وحرمان أنفسكم من أيّ دخل، إلا أننا، وفي بادرة حُسن نيّة، سنوافق على أن تدفعوا نصف ما عليكم من ضرائب. سنُقسط البقية، وعلى مدى أشهر، بل ربما على مدى عام أو أكثر، وأعدكم أنني سأبذل جهدي لتسهيل ذلك.

- أنت تعرف أننا لا نستطيع أن ندفع، ردّ إسكندر.

- لماذا؟

- لأننا ندفع ثمنا باهظا منذ زمن طويل، ولأننا دفعنا أكثر مما يجب، أصبح علينا الآن أن نتوقّف.

- ولكن هناك كثيرين دفعوا، في الغرف المجاورة، وكانوا فرحين بعرْضِنا هذا.

* * *

في الغرفة المجاورة، كان مفتش الضريبة يسأل مُطهِّر الأولاد:

- لا تستطيع القول إننا لم نتساهل، هذا عرض أظنّكَ لم تتخيّل أن تسمعه منّا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد لم أتوقع أن أسمعه، لأنني كنت على يقين من أنكم لن تطرحوه، لأنكم تعرفون أنني لن أدفع.

- سأقدّم لك عرضًا خاصًا، بشرط أن يبقى الأمر بيني وبينك، ستدفع رُبع ما عليك، وأعاملك كأنك سدَّدت التزاماتك كلها، ما رأيك؟

- يبدو أنكم لم تفهمونا بعد، حتى بعد أربعين عامًا من احتلالكم لكل أرضنا. لن أدفع، لا الرُّبع، ولا سواه.

- بل إننا نفهمكم أكثر مما تتخيّلون، ستدفع عشرة شواكل، وسأُغلق ملفك كاملا.

ضحك المُطهِّر.

- لماذا تضحك؟

- أضحك لأن لديكم قرارًا غريبا: لا تريدون أن تفهَمونا.

- حتى هذا العرض لم يعجبك؟

- لا لم يعجبني.

- ادفع شيكلا واحدًا إذن واخرج، وأعدك، سينتهي كل شيء.

- حتى هذا المبلغ كثير عليّ، لا أستطيع دفعه، ثم أدفع ضريبة على ماذا؟ على (حَمَامَات) الصغار الذين أختنهم؟

* * *

- يمكنك أن توقّع فقط أنكَ دفعت الضريبة، وسألغي كل ما عليك. عرضٌ كهذا لا يرفضه سوى شخص مجنون. قال الكابتن داود لإسكندر في الغرفة الأولى.

- هذا صحيح، عرض كهذا لا يرفضه سوى شخص مجنون.

- موافق إذًا؟

- بالطبع لا. هذا عرض لا يرفضه سوى أناس قرروا ألّا يدفعوا ثمن الرصاص الذي يقتلهم. لن أمنحك بنفسي رخصةً لقتلي. يمكن أن تعتبر هذا مسألة شخصية، بعيدًا عما يحدث الآن في الغرف الأخرى، مع أنني على ثقة من أنكم لن تحصلوا على أي شيكل برضانا.

- هكذا إذًا؟

- هكذا إذًا.

- ولكن عليكم أن تتذكروا جيدًا بعد الآن، أننا فعلنا الكثير كي نحلّ هذه المسألة العالقة بهدوء.

- كان يمكن أن تحلوّها بطريقة أسرع وأفضل.

- كيف؟

- بأن ترحلوا من هنا.

- صدقني أن ليس لدي سوى رغبة واحدة الآن، هي إطلاق الرصاص عليك، هنا، لكنني لن أفعلها، لأن هناك ما هو أهم، وعلي أن أفعله، ولا أريدك أن تموت قبل أن تراه، مع السلامة يا إسكندر، مع السلامة.

ظلال البيوت!

عادت الأصوات الصاخبة من جديد، لكنها لم تكن الأصوات المنطلِقة من مكبرات الصّوت، بل أصوات الشاحنات الضخمة، والرّافعات التي تدفّقتْ من أربع جهات.

ساحة معركة أصبحت المدينة، ساحة ليس فيها سوى جيش وحيد.

وقفت شاحنة أمام بيت سمحان التلحمي، هبط منها عدة جنود، اقتحموا البيت. بعد دقائق كان جهاز التلفزيون، الثلاجة، الأسِرَّة، الطاولة، المذياع، الكتب، آلة الطباعة، الكراسي، وموقد الغاز في صندوق السيارة.

راقب أصحاب البيت بيتهم يبتعد، قال سمحان:

- على الأقل، كان يمكن أن يتركوا موقد الغاز حتى نُعدَّ طعامًا لحفيدي الطفل؟

سمعه شاؤول، المكلف بالمصادرة، طلب من جنوده أن يعيدوا موقد الغاز. حملوه وأعادوه، التفتَ شاؤول نحو الناس المتجمهرين، وقال بصوت مرتفع: لقد وافق على أن يدفع جزءًا من الضريبة المستحقّة عليه، فأعدنا له الغاز!

زوجة ابنه، أم حفيده، سمعت شاؤول، ركضت إلى الداخل، حملت موقد الغاز وألقتْه خارجًا، ودفعت أنبوبة الغاز بقدمها، تدحرجت في الشارع، تباعد الناس من حولها، صرخت في وجه شاؤول:

- أنت كاذب، سمحان لم يدفع ضريبة، ولن يدفع، قلْ لجنودك أن يأخذوا ما صادروه، وإذا أردتم شيئا آخر من البيت فادخلوا وخذوه.

* * *

إسكندر سمع صيحات جيرانه واحتجاجاتهم، لم يفكر سوى بشيء واحد هو البيانو، ولكن كيف له أن يخفي بيانو. خرج للشرفة نادى:

- أريد مساعدة.

لم يُعِد النداء ثانية، تدفّق رجال ونساء من جانبي الشارع، صعدوا إلى الطابق العلوي، أشار إلى البيانو.

خفق قلب مرتا حين عرفت أن كلّ ما يهمه من أشياء موجودة في البيت هو البيانو، استعادت انفعالها البعيد، حين جاءها الجواب:

- تريدين بيانو؟ إسكندر موافق.

برفق نزلوا الدرجات، بينما شتائم الجنود تتصاعد، واحتجاجات الناس تغطي على هدير محركات الشاحنات في الخارج، الشاحنات التي كانت تقترب أكثر فأكثر.

أشار إسكندر الذي تقدّم الرجال، حاملي البيانو، إلى زاوية في الحوش، ممتلئة بالحطب، وقطع من أخشاب تالفة، كان أعدّها لعبور برد الشتاء، للتدفئة، مع توقعات الجميع أن الانتفاضة ستطول.

بسرعة بدأ الرجال العمل على إبعاد الأخشاب لإيجاد مساحة كافية تتّسع للبيانو. ألصقوه بالحائط، وبدأوا بإعادة الأخشاب إلى مكانها بحرص، كي لا يُحدثوا أيّ ضرر فيه، وقبل أن يُتمّوا إخفاءه صاحت الصغيرة رولا:

- انتظروا.

كانت تشق طريقها بينهم، صائحة:

- خبئوا لي هذا!

في يدها كان دفتر، يضم قصائدها، كان الأغلى على قلبها.

نظر أحد الرجال إلى إسكندر، فأشار له إسكندر أن يخبئ الدفتر في البيانو بسرعة.

راقبت رولا دفترها يختفي في البيانو. القطع الخشبية تتراكم، الرجال يحاولون الاطمئنان على أنهم أخفوا البيانو جيدًا؛ وقبل أن يخرجوا، كان الجنود قد وصلوا.

بسرعة عبروا الساحة، دون أن ينظروا لما فيها، صعدوا إلى البيت، وبعد قليل ظهر جنديان في الشرفة وهما يلقيان الكراسي، في صندوق الشاحنة التي اصطفّت تحتها، يلقيان أغطية، مخدات، سجاد، ستائر، فرشات، طنجرتين كبيرتين، موقد غاز، خبز، خضار وأطعمة، ورأى إسكندر راديو فيلبس في يد جندي، فصفع جبينه لأنه لم يتذكّر الرّاديو الذي كان يسميه بينه وبين نفسه: راديو ليالي الأنس، وخلف الجندي هبط جندي آخر يحمل جهاز تلفزيون، وبعده أربعة يحملون ثلاجة، ثم تلاحقت مُصادرة أشياء البيت، الغسالة الصغيرة، خزانة الملابس، حذاء رياضي شبه جديد يعود لزيدان.

دخل شاؤول، راقب جنوده يعملون، فصرخ:

- بسرعة، لدينا عمل كثير.

تسارعت خطوات الجنود، استدار شاؤول ليخرج عندما سمع جنديًّا يقول:

- لم يبق شيء في الداخل صالح للمصادرة.

ولكن شاؤول الذي خطا خطوتين إلى الخارج، لم يكن يعجبه ما يراه، لأنه لم يسمع أي كلمة احتجاج، كما سمع في كلّ البيوت التي صادر ممتلكاتها، توقّف، تصفّح وجوه الجميع، قبل أن تستقر عيناه على الزاوية الممتلئة بالأخشاب.

هوى قلب الصغيرة رولا، ورغما عنها، انفلتت دمعة من عينيها، فوجدت نفسها تبكي وتصيح غاضبة. اندفعت نحو شاؤول، فوجئ بهجومها، تراجع، لكنها تمكّنت من أن تضربه بقبضتها فوق خصره الأيسر مرات متلاحقة، قبل أن يدفعها بعيدًا عنه، سقطتْ. اتكأت على يديها المجرَّحتين ونهضت بسرعة. كان شاؤول قد أصبح جاهزًا ليركلها بقوة. اعترض أحد الرجال طريقها، انتزعها من الأرض، واستدار مبتعدًا بها.

أخذ شاؤول نفسًا عميقًا، وخرج، ناسيًا أنه كان ينظر، قبل أن تهاجمه الصغيرة إلى زاوية ممتلئة بالأخشاب.

* * *

بعد أن أفرغوا بيته، وانتزعوا السرير الذي كان ينام عليه موصولا بعبوة الدواء التي تصبّ في شريانه، جلس نصّار على الأرض العارية، ظهره إلى الحائط. امرأته التي لم تكن تريد أن تصرخ لأنها تعرف أن أي انفعال ستكون نتيجته أزمة قلبية ثانية له، صمتت، حريصة على ألا يرى عينيها.

خرج الجنود من البيت، طلب منهم شاؤول أن يأتوا بالمفاتيح وهو يتصفّح القائمة التي يحملها.

- أي مفاتيح؟ سأله الجندي.

- مفاتيح المنجرة التي يملكها.

سمعتهم زوجته، أقفلت الباب خلفها، كي لا يعرف زوجها ما يدور.

- لن أعطيكم المفاتيح؟

- بل ستفعلين، بغير ذلك سنخلع أبواب المنجرة.

فُتح الباب خلفها، نظرت، وجدت زوجها.

- أعطهم المفاتيح، الذي يسرقنا والباب مفتوح في العلَن، سيكسّر أبوابنا ويسرقنا غير خائف من شيء.

امتدّت يد زوجته إلى جيبها، أخرجت المفاتيح، قذفتْها، استقرَّت قرب قدمي شاؤول، شاؤول الذي أوشك أن يأمرها أن تتقدّم وتناوله المفاتيح رغما عنها. في اللحظة الأخيرة، استدار، ففهم أحد الجنود ممن يراقبون المشهد ما عليه القيام به، انحنى، التقط المفاتيح وتبع قائده.

قبل أن يصل شاؤول إلى الباب، تابعه صوت صاحب المنجرة:

- تريدون إجبارنا على التعاون معكم، تريدون أن تحوّلونا إلى لصوص مثلكم، كي نعول أولادنا؟ اللصوصية ستظل مهنتكم، مهنة دولتكم، خذوا ما تريدون، ولكننا لا نريد أن نراكم، لا نريد أن نراكم.

كان يصرخ بكل ما فيه من قوة، اندفعت زوجته نحوه، ترجوه أن لا ينفعل، وهي تضع يدها على فمه.

لصوص، جيش لصوص، حكومة لصوص، دولة لصوص.

صمتَ..

سقط.

التفتَ شاؤول خلفه، لم تكن زوجة نصّار، صاحب المنجرة، قد أدركت أنه مات، خرج شاؤول بسرعة، قبل أن يبدأ نواحها.

* * *

وقف شاؤول أمام باب المنجرة ممسكًا المفاتيح بيده، ألقى نظرة على الأقفال، ألقى بالمفاتيح بعيدًا:

- اخلعوا الأبواب.

أمسك جنديان بكُلّاب الرّافعة، ثبّتوه بحلقة قفل أحد الأبواب، أشاروا للسائق أن يتحرّك، وسط ضجيج المحركات. تمزّقت الأبواب الثلاثة واحدًا بعد الآخر، وفي الداخل، ظهرت ثلاث ماكنات ضخمة صامتة.

ومرّة أخرى بدأ الجنود عملهم، أمرهم شاؤول أن يُسرعوا، هم الذين أول ما خطر لهم أن يفككوا البراغي الكبيرة التي تُثبت الماكنات بقواعدها الأسمنتية. أحاطوها بالحبال المعدنية، وبدأت الرافعة تقتلعها من الأرض، ماكنة بعد أخرى.

كانت تلك آخر العمليات، لكن شاؤول كان يصيح في جنوده: بسرعة أكبر، لم يزل لدينا الكثير الذي يجبّ علينا القيام به.

* * *

تحركت الشاحنات مبتعدة، كأن لنهاية العملية ساعة صفر، كبدايتها، وعمَّ صمت عميق كل شيء، صمت لم تعرفه المدينة حتى في أقسى أيام حظر التجوال.

ليلة أخيرة.. ليلة أولى

بمصادرة الجيش لكل ما يمكن أن يتمّ بيعه، أو يؤذي الناسَ افتقادُه، بدا وكأن المعركة انتهت، لكن أحدًا لم يعرف نتيجتها الفعلية.

كان العثور على تلفزيون لم يُصادر، مهمة مستحيلة، ففي تلك الليلة، الليلة الحزينة الهادئة، الليلة التي بدت فيها المدينة كلّها مُعلَّقة بخيط دقيق، مثل طائرة ورقية متأرجحة في فضاء موحل ثقيل، في تلك الليلة كان الجميع يبحثون عن خبر، يقول لهم ما حدث لهم، مع أنهم عاشوه!

في كثير من البيوت توحّش الجوع، ملتهما الكبار والصغار، أما المرضى والمصابون فلم يكن الدواء متوافرًا لهم جميعًا، بعد مصادرة كل ما في الصيدليات، وترك رفوفها خالية من كل شيء.

كانت أخبار انعقاد جلسة لمجلس الأمن قد انتشرت، وكان الناس يحلمون بقرار ينصفهم، بخاصة إثر محاولة عدد من قناصل الدول الأوروبية زيارة المدينة، وتصريحات القنصل البريطاني التلفزيونية التي ندّد فيها بإجراءات الجيش، بعد منعه ومن معه من الدخول[26]، وتصريحات البابا وردُّ شامير عليها[27]. ولم ينج من انتظار انعقاد مجلس الأمن، حتى أولئك الذين يصفون القرارات التي تتّخذ فيه بأنها لا تستحق ثمن الحبر الذي تكتب به، حين يتعلّق الأمر بفلسطين.

تجمّعت العائلات في كل بيت تبين أنه نجح في إخفاء جهاز تلفزيون، وكثير من الناس يعتذرون لضيوفهم: لا تؤاخذونا، لم يبق لنا سوى الأرض، لنجلس عليها، بعد أن صادروا كلّ شيء.

وما إن بدأت نشرة الأخبار حتى راحت القلوب تخفق بشدّة. كانت مناقشة ما حدث للمدينة على هذا المستوى، اعتراف عالمي بالظلم الذي لحق بسكانها، واعتراف بالمقاومة التي أبدوها.

- (ليس هناك مبرر قانوني للمصادرة التعسفية لممتلكات وأثاث بيوت البلدة، والآلات التي يستعملونها للحصول على قوتِهم اليوميّ، لقد عبرنا عن قلقنا للسلطات الإسرائيلية، ودعوْناها إلى إنهاء حالة الحصار على بيت ساحور)، قال المندوب البريطاني، فأشرقت قلوب الناس بفرح خاطف.

ولم يكن المندوب الصّيني، رئيس الجلسة، أقلَّ وضوحًا عندما قال:

- من يوافق على إعادة الممتلكات إلى أصحابها فليرفع يده.

ارتفعت الأيدي في السماء، فتعالت صرخات الفرح في البيوت، وتدفّق الدّمع في عيون الكثيرين تأثُّرًا..

- ومن يعارض فليرفع يده.

هوت قلوب الناس، ورأوا النتيجة قبل أن تُعلن.

يد واحدة ارتفعت في الهواء، يدُ المندوب الأمريكي، فابتلعت كل الأيدي المؤيِّدة.

ڤيتو،

سقط القرار.

* * *

امتدتْ حالة الحزن حتى الصباح، لم تُغمض عيون كثير من الناس، رغم أنها كانت واحدة من الليالي النادرة في هدوئها، هم من تعلّموا كيف ينامون في أسوأ الليالي ضجيجًا.

* * *

في السادسة صباحًا، فتحتْ مرتا عينيها. كانت الأغاني تملأ الفضاء. مرتا التي كانت مثل كثيرين أدركهم النوم في أواخر الليل، اعتقدت أنها تحلم، لكن الغناء والهتافات لم تتوقّف بعد أن أشرعت عينيها، تاركة الأحلام في ذلك الفضاء البعيد من روحها.

- إسكندر، إسكندر.

- شو في؟

لم تجبه، لم تكن مضطرة لذلك، لأنه اكتشف أنه لا يحلم أيضًا.

بسرعة انتعلت مرتا حذاءها، خرجت إلى الشرفة، لم تصدّق عينيها، هي التي بذلت الكثير من الجهد لتُصدّق أذنيها.

من كل مكان كان الناس يتدفّقون باتجاه الساحة الرئيسية للمدينة، وفي البعيد كان هناك آخرون، على جانبي الطّرق، في أطراف المدينة، يراقبون انسحاب الجيش والجرافات التي كانت تزيل الحواجز التي تُغلق المداخل.

* * *

قبل مرور أقلّ من ساعة من بدء المظاهرات كان الصحفيون يتجوّلون في أحياء المدينة، ويدخلون بيوت الناس، يصوّرون ويجرون اللقاءات.

صوت واحد وأغنية واحدة في كل مكان:

بلادي بلادي بلادي.. لك حبي وفؤادي

يا فلول الظالمين.. اعملي ما تعملين

نحن شعب لن يلين.. في جحيم الاضطهادِ

بلادي بلادي بلادي.. لكِ حبي وفؤادي

ووصل الأساقفة الذين سبق وأن مُنعوا من دخول المدينة، وصل مفتي القدس، ووفود من أنحاء فلسطين، وامتلأت الشوارع بالصغار الذين يوزّعون أغصان الزيتون على القادمين.

* * *

- هل تعتقد أننا انتصرنا؟ سأل الكابتن داود شاؤول.

- بالتأكيد.

- وكيف تفسِّر لي أنهم يرقصون الآن ويغنّون؟!

- تريد أن تقول..

- أريد أن أقول لماذا لا نغني مثلهم؟!

* * *

أحد الصحفيين الذين رافقوا إحدى المسيرات المنطلقة في حيّ تل الزعتر، اقترب من إسكندر الذي يغني بكل ما فيه من قوة: بلادي بلادي بلادي، وسأله:

- كيف تفسر انتصار مدينة صغيرة على جيش بهذه القوة؟

التفت إسكندر إلى جانبيه، فرأى أن الناس الذين سمعوا السؤال، بدأوا يصمتون واحدًا تلو الآخر، دون أن يوقفوا مسيرهم، منتظرين جوابا.

- أنا شخصيًّا، أتعجب من نفسي، أتعجب من ابني، حفيدي، جارتي، جاري، ابن جاري، أقاربي، أتعجب من الذين كانوا يخرجون في مظاهرات من المسجد، ومن الذين كانوا يخرجون في مظاهرات من الكنيسة، ومن لقاء المظاهرتين، وتوحّدهما في مظاهرة واحدة. لو قلت لي قبل الانتفاضة إننا سنفعل كلّ ما فعلناه، لقلت لك إن ذلك مستحيل، ولكنني توصّلت إلى نتيجة هي أن عليك أن تبدأ لكي تعرف أنك تستطيع، أما إذا لم تبدأ فإن أبسط الأمور سيظلّ مستحيلا لأنك لم تحاول.

توقّف الصحفي الذي كان حريصًا على كتابة كل كلمة سمِعها، وواصلت المسيرة انطلاقها، وحين وصلت التجمّع الكبير، ارتفع صوت أحد الشباب عاليًا يُغني، فبدأ الناس كلهم يعيدون خلفه كلّ جملة يغنيها:

- احنا إل رمينا الهوية

- احنا إل رمينا الهوية

- في بيت ساحور الأبية

- في بيت ساحور الأبية

- مسلمين ومسيحية..
- مسلمين ومسيحية..
- كلنا فلسطينية
- كلنا فلسطينية
- كلنا فلسطينية
- كلنا فلسطينية
- احنا إل رمينا الهوية
- احنا إل رمينا الهوية
- شعبية مع فتحاوية
- شعبية مع فتحاوية
- ديموقراطي وحزب شعب
- ديموقراطي وحزب شعب
- كلنا فلسطينية
- كلنا فلسطينية

- احنا إل رمينا الهوية
- احنا إل رمينا الهوية
- ختيار وشبّ وصبية
- ختيار وشبّ وصبية

- راية وحدة وشعب واحد

- راية وحدة وشعب واحد

- وكلنا فلسطينية

وكلنا فلسطينية

وكلنا فلسطينية

هزّت رولا الصغيرة جدّها إدوارد الواقف بجوار إسكندر ومرتا في المظاهرة وسألته:

- هل نجح الإضراب؟

هزّ رأسه مؤكدًا ذلك.

- هل ذلك يعني أننا سنغنّي من جديد؟

- راح ترجعوا اتغنوا.

- كأيام الماضي؟!

- زي ما كنتوا أيام زمان، بس انتِ بالذات بدي إياك تغنّي بصوت أعلى، مفهوم؟

التفتتْ رولا حولها بسرعة، حدّدت أهدافها، مضت نحو الصغار الذي كانوا هناك، واحدًا واحدًا، تطلب منهم التجمّع في المكان الذي أشارت إليه، تجمّعوا. انطلقت مظاهرة الأطفال، تقودها رولا، صاعدة باتجاه بيت لحم، والأطفال يهتفون خلْفها:

- نحنُ ألقينا الهوية!

- نحنُ ألقينا الهوية!

- في مدينتِنا الأبيّة

- في مدينتنا الأبيّة

- يا فلسطين الأبية

- يا فلسطين الأبية

- مسلمٌ قلبي، مسيحي

- مسلمٌ قلبي، مسيحي

- نحن أبناء القضية

- نحن أبناء القضية

- نحن ألقينا الهوية

- نحن ألقينا الهوية

* * *

بعد الغروب بقليل، حبست رولا تنفّسها، للحظة أحست بأنها تحلم، لكن ذلك لم يكن حلما. نهضتْ، اندفعت صوب الباب راكضة، وأمّها تسألها بصوت عال: لماذا تركضين كالمجنونة؟

لم تُجب، اختفت، وبعد أن تلاشت أصوات خطواتها، سمعت أمّها ما سمعته صغيرتها. حبست تنفّسها لتسمع أكثر..

في الشارع كانت رولا تركض، ومن الأزقة والشوارع الفرعية كانت صغيرات وصغار يركضون؛ كل عصافير مرتا، كانت الأزقة تركض والشوارع، وفي داخل حوش بيت إسكندر، كانت مرتا تعزف، وحولها تناثرت كل تلك الأخشاب التي تمّ إخفاء البيانو تحتها.

أُشرع البابُ فجأة، لم تتوقّف مرتا عن العزف. بابتسامة دعتْ عصافيرها للدخول. وفوق البيانو، لمحت رولا الصغيرة دفترها يعبث به هواء خفيف، كطفل يحاول مواءمة إيقاع الكلمات مع المقطوعة الموسيقية التي كانت تُعزَف.

ملاحظات

* الإنتفاضة الفلسطينية الأولى (1987- 1993) ثورة شعبية عارمة عاشتها وتفاعلت معها كل قرية ومخيم ومدينة في فلسطين، وكان لكل منها مساهمتها الخاصة والفريدة في استمرارها.

* بلغ عدد شهداء الانتفاضة الأولى 1300 شهيد، من بينهم 95 على أيدي المستوطنين، وكان من بين الشهداء 299 طفلا، و 94 شهيدًا بالغاز، و130 ألف جريح أو ما يعادل 6% من عدد السكان على أيدي الجيش وفرق الموت، و160 ألف أسير ومعتقل، من بينهم 18 ألفًا دون محاكمات (من ستة أشهر إلى سنة)، قابلة للتجديد.

(د.كمال علاونة، أستاذ العلوم السياسية

(انتفاضة فلسطين الكبرى الأولى)

* استخدمت الولايات المتحدة حق الاعتراض (الڤيتو) 80 مرّة منذ تأسيس الأمم المتحدة عام 1945، ضد مشروعات قرارات قُدّمت لمجلس الأمن، 42 منها كانت ضد إدانة ممارسات (إسرائيل) في المنطقة العربية، من بينها 31 ضد قرارات تخدم القضية الفلسطينية.

(وكالة فلسطين اليومية الإخبارية)

* وفقا للإحصاءات المحلية فإن قيمة الممتلكات المصادرة من أهالي بيت ساحور كانت أكثر من خمسة ملايين دولار، خلافا لما أعلنته المصادر الإسرائيلية التي أعلنت أن قيمة الممتلكات ثلاثة ملايين دولار، فقد أظهرت الإحصاءات أن سلطة الضرائب صادرت ممتلكات منقولة تشتمل على بضائع من الأخشاب والأدوات الكهربائية والمواد التموينية وأصداف ومواد بناء من 37 محلا

تجاريا، كما صادرت آلات 13 منجرة وماكنات للخياطة وحياكة الأصواف من 11 مخيطة ومشغلا للصوف، وماكنات لصناعة التماثيل من خشب الزيتون، وأدوات كهربائية وأثاث و 150 سيارة، واعتقلت 70 فلسطينيا، وقدمت لوائح ضد 35 منهم، ووضعت سلطات الاحتلال يدها على أرصدة 500 مواطن قدِّرت بـ 600 ألف دولار.

جريدة القدس، 8 آذار 1989

* قال مردخاي بيركات المدير العام لقسم الجمارك والضرائب الإضافية الذي شارك موظفوه في حملة الضريبة ضد بيت ساحور: لو طبقتُ هذه الوسائل داخل إسرائيل نفسها لكانوا علّقوني في ساحة تصيون بحيفا وقاموا بشنقي.

(شؤون سياسية 13 نوفمبر 1989)

* استخدم أهل بيت ساحور شعار (لا ضرائب بلا تمثيل) وهو شعار أمريكي كان سائدًا في القرن الثامن عشر خلال الثورة ضد البريطانيين!

* صرح شايكي اريز رئيس الإدارة المدنية في الضفة الغربية للصحفيين: أنهينا حصارنا للمدينة بعد أن عملنا على ما أردنا، بل وأكثر من ذلك، كانت لدينا قائمة بأسماء 350 مواطنًا رفضوا دفع الضرائب، ونحن حصلنا على ضرائب من 400 مواطن.

* ماذا لو عانت مدينة أمريكية مثلما عانت بيت ساحور؟ هل هذا أمر لا يخطر على البال في أمريكا؟ نعم، لكنه يحدث في مكان آخر، والحكومة المسؤولة هي حكومة حليفة لأمريكا.

نيويورك تايمز، ترجَمت المقال جريدة القبس الكويتية، 3 نوفمبر1989

* كانت نهاية البقرات مأساوية! تحوّل المشروع إلى شركة استثمارية لمصنع ألبان، بعد اتفاقيات أوسلو، دخلت فيه قوة رأس المال، بتمويل أوروبي أيضًا، فتمّ استبعاد الناس البسطاء الذين أنشأوه، وأُعيدت لهم أموالهم القليلة التي كانوا دفعوها، إذ لم يكن باستطاعتهم المنافسة مع رفع سعر السَّهم إلى 3000 دينار أردني (4500 دولار!) في حينه، لكن المشروع ما لبث أن دُمّرَ بسبب الفساد، وبذلك انتهت واحدة من أجمل المبادرات الشعبية.

(من شهادة مُسجّلة للأستاذ جلال قمصيّة، مع الكاتب أيلول، 2013)

في الملـهاة وجذورها

لَها بالشيء، لهوا: أولع بـه.

لَهَا، لِـهْيانا عن: إذا سلوتَ عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه.

ولَـهَت المرأةُ إلى حديث المرأة: أنِست به وأعجبها.

قال تعالى (لاهية قلوبهم) أي متشاغلة عما يُدعَونَ إليه. وقال (وأنت عنه تلهّى) أي تتشاغل.

وتلاهوا: أي لها بعضهم ببعض.

ولهوت بـه: أحببته.

والإنسان اللاهي إلى الشيء: الذي لا يفارقه. وقال: لاهى الشيء أي داناه وقاربه. ولاهى الغلامُ الفطامَ إذا دنا منه.

واللُّهوْةُ واللُّهْيةُ: العَطِيَّة. وقيل: أفضل العطايا وأجزلها.

(لسان العرب)

شكر خـاص

إلى كل من شاركوا في ذلك اللقاء الجماعي الرائع من أهالي بيت ساحور عام 1990، في عمّان، وإلى الأستاذة المحامية أسمى خضر التي رتبت اللقاء، وسمعتُ فيه قصة المدينة وحكاية البقرات لأول مرة، ففي ذلك اللقاء تأكّدت فكرة هذه الرواية، وإلى العزيزات والأعزاء، على مشاركتهم لي ذكرياتهم وتجاربهم: د. غسان أندوني، الأستاذ جلال قمصية، د. جاد إسحق، في لقائي معهم، أيلول 2013، وإلى الأب عبد الله جوليو، الكاتبة الأستاذة روز شوملي والأستاذ إلياس نصر الله، وإلى: الروائي سامح خضر، الفنان وليد عبد السلام، الكاتب جمال بنورة، لروحه الرحمة،، الذين أمدّوني بالكتب والوثائق، وسهّلوا لقاء كثير من أهالي المدينة، ومعرفتها عن قرب، خلال زياراتي لها في الفترة من 2009- 2016.

إبراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبويين فلسطينيين أُقتلعا من أرضهما في عام 1948

*** صــدر لـه شعرًا (الطبعات الأولى):**

. الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 82 19. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 8419. أناشيد الصباح، 84 19. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب، 1989. حطب أخضر،1991. فضيحة الثعلب، 9319.
الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994.
شـرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى،1997. بسم الأم والابن، 1999. مـرايا الملائكــة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2009. أحوال الجنرال -مختارات، 2011. عودة الياسمين إلى أهله سالما- مختارات، 2011. على خيط نور.. هنا بين ليلين، 2012.
طيب مثل قلب سحابة- مختارات، 2017. الحبّ شريرٌ، 2017.

*** الروايــات: (الطبعات الأولى):**

. براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَوْ، 1990. حارس المدينة الضائعة، 1998.

الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):

. طيور الحذر، 1996. طفل الممحاة، 2000. زيتون الشوارع. 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004. زمن الخيول البيضاء، 2007- اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009. قناديل ملك الجليل، 2012.
مجرد 2 فقط، 1992. أرواح كليمنجارو، 2015.
ثلاثية الأجراس، 2019:
ظلال المفاتيح، سيرة عين، دبابة تحت شجرة عيد الميلاد.

الشــرفات: (الطبعات الأولى):

. شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010. شرفة الهاوية، 2013. شرفة الفردوس، 2015،
حرب الكلب الثانية، 2016.

*** كــتب أُخرى (الطبعات الأولى):**

. هزائم المنتصرين- السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000.
. ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002.
. السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006.
. صور الوجود ـ السينما تتأمل، 2008.
. كتاب الكتابة: تلك هي الحياة.. ذاك هو اللون، 2018

* تُرجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنمركية، التركية، الإيرانية، ونشرت قصائد له بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، السويدية...
* أقام أربعة معارض فوتوغرافية، وشارك في معرض (كتّاب يرسمون): فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله- عمان، 1993.

*** نال تسع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية، من بينها:**

. الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) 2018،
عن روايته (حرب الكلب الثانية)
. جائزة كتارا للرواية العربية، عن رواية (أرواح كليمنجارو)، 2016
. جائزة القدس للثقافة والإبداع (الدّوْرة الأولى)، 2012، عن مجمل أعماله.
. جائزة سلطان العويس للشـعر العربي، 1998.
. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.
. جائزة عرار للشعر، 1991.

Notes

[1←]

فتحية أحمد مطربة مصرية، ولدت سنة 1898 في حي الخرنفش بالقاهرة وتوفيت في 5 ديسمبر 1975. من أشهر أغانيها: زورونى كل سنه مرة، الحلوه دى قامت تعجن، طلعت يا محلا نورها.

[2←]

فَقَالَ شَاوُلُ: «هكَذَا تَقُولُونَ لِدَاوُدَ: لَيْسَتْ مَسَرَّةُ الْملكِ بِالمَهْرِ، بَلْ بِمِئَةِ غُلْفَةٍ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ لِلانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ»... وَلَمْ تَكْمُلِ الأَيَّامُ حَتَّى قَامَ داود وَذَهَبَ هُوَ وَرِجَالُهُ وَقَتَلَ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ مِئَتَيْ رَجُل، وَأَتَى داود بِغُلَفِهِمْ ... فَأَعْطَاهُ شَاوُلُ مِيكَالَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً. فَرَأَى شَاوُلُ وَعَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ مَعَ داود... (سفر صموئيل الأول)

[3←]

تقع وسط بيت ساحور القديمة، وهي بئر كنعانية لجمع مياه الأمطار، وبنيت بيت ساحور وتوسّعت حول البئر، وقد شربت منها السيدة العذراء وهي في طريقها إلى بيت لحم مع القديس يوسف. أصل (سيده) أرامي، ويعني البئر الحقيقية، أي بئر الماء الحيّة.

[4←]

حرصت الحركة الصهيونية دائما على أن تطلق على الفلسطينيين اسم عرب، لأن إطلاق هذا الاسم عليهم، كان يعني محوًا لاسم فلسطين نفسها، واستبداله باسم (إسرائيل).

[5←]

كان ميناء حيفا هو ثاني أكبر موانئ المتوسط بعد ميناء مرسيليا، ووصل عدد السفن القادمة إليه عام 1942 ثمانية آلاف سفينة.

[6←]

ولد نحماني في روسيا، مدينة ألكسندريا عام 1891 لعائلة تعمل في معصرة للزيت وهي عائلة يهوديَّة متدينة.. في عام 1921 انتقلت العائلة إلى طبريَّة، ومنذ عام 1935 وحتى عام وفاته في 1970 عمل نحماني مع الصندوق القومي اليهودي، الذي أُقيم في طبرية، بصفة مدير مكتب الصندوق في الشمال.

[7←]

لم يُقنع ذلك القول ماكس نوردو، الطبيب والساعد الأيمن لهيرتزل، فأرسل اثنين من كبار الحاخامات إلى فلسطين لمعرفة حقيقة الوضع، فهالهما أن فلسطين محتشدة بأهلها، فكتبا إلى نوردو رسالة من سطر واحد، جاء فيها: العروس جميلة جدًا ومستوفية لجميع الشروط، ولكنها متزوّجة فعلا!

[8←]

كريمة عبود، أول مصورة فلسطينية، عربية، وحكايتها الكاملة، في رواية (سيرة عين).

[9←]

كان هذا التطور في العلاقة بين الصهيونية والنازية، مترافقاً مع تفاقم الحصار الاقتصادي الدولي على ألمانيا بعد وصول هتلر للحكم، مما ولّد فكرة كسر المقاطعة مقابل تفعيل وتنظيم الهجرة إلى فلسطين، هذه الفكرة التي أدت في النهاية إلى ما يعرف باتفاقية الهافارا.

وتقضي الاتفاقية أن تقوم شركة المستوطنات (هانوتا) في فلسطين، بكسر الحصار الاقتصادي على ألمانيا، مقابل تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين، لا إلى أي مكان آخر، بحيث يودع المهاجرون أموالهم في ألمانيا، فتشتري بها هانوتا بضائع ومعدات زراعية، ليس فقط للمستوطنات وإنما لإغراق السوق العربي، وتُعيد للمستوطن، عند وصوله إلى فلسطين، ما أودعَ، مستفيدة هي من الأرباح؛ وكان قد تم التوقيع الرسمي على الاتفاقية يوم 7 آب 1933، في وزارة الاقتصاد الألمانية من قبل ارتور روبين، ممثلاً للمنظمة الصهيونية العالمية من جهة، ومسؤول كبير في الرايخ الثالث من الجهة الأخرى. كما أنشئ الخط البحري المباشر بين هامبورغ وحيفا، واستطاع أن يؤمن من عام 1933 إلى عام 1939 هجرة ستين ألف يهودي، ونقل 140 مليون دولار، وذلك باعتراف الياهو بن اليسار....

[10←]

القرية التي تدور فيها أحداث رواية (ظلال المفاتيح) قبل النكبة، وخلالها، وفيها جانب كبير من حياة ناحوم.

[11←]

أملنا لم يضع بعد/الأمل الأزليّ/أن نعود إلى بلاد آبائنا/إلى المدينة التي عسْكَرَ فيها داود.

[12←]

فيما بعد تمّ إلغاء الفيد نهائيًّا, وإنما يوضع مبلغ غير محدد من المال "رضوة" في منديل "صرَّة عرب" كما يسمونها, تقدّم الى والد العروس خلال زيارة له لطلب الإذن منه بإقامة العرس، و الذي يعيدها بدوره بعد ذلك إلى العريس.

[13←]

شاؤول واحد من بين مائة جندي تقريبًا، خدموا في فيتنام، وكتب عنهم الكاتب الإسرائيلي الأمريكي أريك لي كتابًا. أربعة منهم كانوا يعيشون، أيامها، في مستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة، بعضهم انتقل إلى (إسرائيل) لأسباب دينية، وبعضهم نقمة على التعامل السيئ للحكومة الأمريكية معهم، في 8 أيار، مايو، 1994 نشرت وكالة أنباء رويترز تقريرا عنهم.

[14←]

القرية التي شهدت جانبا مهما من قصة ناحوم، وتدور فيها أحداث رواية (ظلال المفاتيح).

[15←]

(منذ انطلاق الانتفاضة في مطلع كانون الأول، ديسمبر 1987، شهدت بيت ساحور حركة مكثفة تمخّض عنها تشكيل عشرات اللجان الشعبية داخل المدينة، في المجالات الصحية، الزراعية، التعليمية، الحراسة، الأشغال العامة، التجارية.. وضاعفت قوة هذه اللجان وحدتها بعيدا عن أي فئوية حزبية أو اجتماعية أو دينية. وتمّ تقسيم المدينة إلى 22 منطقة، في كل منها من 30 إلى 70 أسرة، وتمّ اختيار ممثلين لتنسيق العمل.)

[16←]
رواية (ظلال المفاتيح).

[17←]
عملية قام بها ما عُرف باسم التنظيم الإرهابي الصهيوني السري، ضد رؤساء البلديات الفلسطينيين المنتخبين، وتبع ذلك انتفاضة استمرت أربعة أشهر.

[18←]
تم اعتقال آلاف الفلسطينيين ممن تتراوح أعمارهم من 15- 65 عاما في معسكرات اعتقال، واستطاع الباحثان: مصطفى كبها ووديع عواودة جمع أسماء أكثر من خمسة آلاف معتقل، في كتابهما (أسرى بلا حراب، المعتقلون الفلسطينيون والمعتقلات الإسرائيلية الأولى 1948- 1949) وتمّ استغلالهم كقوى عاملة لخدمة المجهود المناط ببناء الدولة الجديدة (إسرائيل).

[19←]
الحكاية الكاملة لهذه المرأة مع ناحوم، في رواية (ظلال المفاتيح).

[20←]
وجدناها.

[21←]
صرّح إسحق رابين: (سنلقن بيت ساحور درسًا حتى لو استغرق الأمر منا شهرًا أو أكثر، سنحطّمهم. يريدون أن تتحوّل بيت ساحور إلى مثَل وقدوة ليتبعهم الآخرون في عدم دفع الضرائب!)

[22←]
نشرت جريدة هآرتس تحقيقا عنها. يقول أحد جنود المجموعة الإسرائيلية: ألقينا قنابل الغاز داخل الصفوف المدرسية والبيوت والمراكز الصحية، ولأننا المجموعة الأشرس أطلق الجنود الآخرون علينا أيضًا اسم (مجموعة أوشفيتس).

[23←]
بيكر قائد طائرة مروحيّة، كانت مهمته رش المواد الكيماوية على الغابات الفيتنامية. استخدم الأسلوب نفسه لرش كروم الزيتون والبساتين التي يلتجئ إليها شباب وأطفال الانتفاضة الفلسطينية في شمال الضفة الغربية أثناء رميهم للحجارة أو اختبائهم. ظهرت صورته في كثير من الصحف وهو يطلّ من طائرته بخوذته التي كتب عليها (قاتل بالسليقة)، وكان يتفاخر في لقاءاته أنه قتل 600 فيتنامي بنفسه (رويترز).

[24←]
كان سيمون جلال عيسى غانم في السابعة عشرة من عمره، ترك المدرسة ليعمل خياطًا، معيلا لأسرته بسبب مرض والده، قال صديقه حنا الذي كان يرافقه في ذلك المساء: سمعت صوتا وشاهدت رأس سيمون وهو ينفجر، فوقفت جامدًا غير قادر على الكلام، وسمعتُ صوتا ينادي: إسعاف.. إسعاف..

[25←]
رواية (سيرة عين)

[26←]
(أردنا الذهاب إلى بيت ساحور بأنفسنا لمعرفة حقيقة ما يدور، ويبدو أن لسلطات الإحتلال الإسرائيلية رأيا آخر، لا أعرف لماذا يمنعون قناصل الدول الأوروبية من دخول المدينة.)

[27←]
(أتمنى أن أرى الشعب الفلسطيني يحقق مطلبه الشرعي بالعيش بسلام في بلده الخاص به)، وردّ عليه إسحاق شامير: (لقد أظهر البابا تعاطفًا واضحًا مع الفلسطينيين، بينما يعمل بلا مبالاة تجاه اليهود.)